ستيفن كينج

STEPHEN KING

رواية

أرض سَالِم

'SALEM'S LOT

(مدينة مسكونة بشرٍّ لا يوصف)

"من بين كل ما كتبتُ، ستظل أرض سالم قصّتي المفضلة"
ستيفن كينج.

ترجمة: شيرين هنائي

عصيرُ الكُتبُ

أرض سَالِم
'SALEM'S LOT

عصير الكتب

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان الأصلي: Salem's Lot
العنوان العربي: أرض سَالِم
طُبِع بواسطة: Anchor books- Random House, Inc
طُبِع بواسطة: أنكور بوكس- راندوم هاوس
حُقوق النشر: 1975 و2003 ستيڤن كِينج
Copyrights © Stephen King 1975 and 2003
حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

المترجم: شيرين هنائي
تدقيق لغوي: نهال جمال
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
الطبعة الأولى: فبراير 2022م
رقم الإيداع: 2021/23804م
الترقيم الدولي: 978-977-6902-69-5

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

ستيفن كينج

STEPHEN KING

رواية

أرض سَالِم

'SALEM'S LOT

(مدينة مسكونة بشرٍّ لا يوصف)

"من بين كل ما كتبتُ، ستظل أرض سالم قصّتي المفضلة"

ستيفن كينج.

ترجمة: شيرين هنائي

عصير الكتب

«المكتبة الرقمية العربية»

https://linktr.ee/books4ar

مقدمة

عمَّ تبحث يا صديقنا؟
بعد كل تلك الغيبة تعود...
بصورٍ صغتها تحت السماوات القصيَّة،
بعيدًا عن أرضك.

جورج سيفيريس[1]

شاعر يوناني اسمه الحقيقي جيورجُس سيفيريادِس، حائز جائزة نوبل في الآداب 1963.

تمهيد

أغلب من رأوهما ظنوا أنهما والد وابنه.

قطعا البلدة بسيارة «سِتروين» تتبع طريقًا غير واضح من طرق جنوب غرب الولاية. التزما بالشوارع غير الرئيسية، يقطعان المسافات بشكل مُتقطِّع، فقد توقفا ثلاث مرات قبل أن يصلا إلى وجهتيهما. المرة الأولى كانت في «رود آيلاند»، حيث عمل الرجل الطويل أسود الشعر في مصنع نسيج. المرة الثانية في «يَنجزتاون» بولاية «أوهايو» وعمل في خط تجميع جرارات. المرة الأخيرة في مدينة صغيرة في «كاليفورنيا» بالقرب من الحدود المكسيكية، وعمل في محطة تمويل وقود يُصلِح السيارات الصغيرة، ففاجأ نفسه بنجاح وبراعة لم يتوقعهما، وكان ممتنًّا لهذا.

أينما توقفا، كان يشتري صحيفة «بورتلاند بريس »، ويتابع فيها أي خبرٍ يُنشَر عن بلدة صغيرة في جنوب ولاية «مَين»؛ بلدة «سالم»، وما حولها. ثمة أخبار كهذه من وقت لآخر.

كَتَبَ مُسوَّدة رواية في حجرته بالنُّزُل قبل أن يصلا إلى «سنترال فولز» في «رود آيلاند»، وأرسلها إلى وكيل أعماله. كان كاتبًا ناجحًا إلى حد ما منذ ما بدا له كملايين السنين، منذ كان الظلام بعيدًا، لم يجثم على حياته بعد.

أخذ وكيل أعماله المسوَّدة إلى آخر ناشرٍ عمِل معه، فأبدى الأخير اهتمامًا مُهذبًا بلا نية لدفع مُقدم.

قال الرجل الطويل للصبي وهو يمزق خطاب وكيل أعماله:

- رجاءً، لا داعي للحديث. شكرًا.

قالها دون مرارة زائدة، ثم جلس يكمل كتابة روايته.

لم يكن الصبي يتحدث كثيرًا، يحتفظ وجهه بسمتٍ قَلِقٍ دائم. عيناه حالكتان كأنما يحدق إلى أفاقٍ داخلية كئيبة.

في المطعم ومحطة تمويل الوقود، حيث توقفا في رحلتهما، كان مهذبًا لا أكثر ولا أقل. لم يبدُ راغبًا في أن يفارق الرجل الطويل مجال إبصاره، وكان يتوتر حتى إنْ فارقه الرجل ليستخدم دورة المياه. رفض أن يتحدث عن بلدة «سالم» على الرغم من محاولات الرجل الطويل فتح الموضوع من وقتٍ لآخر. لم يكن حتى يلقي نظرة إلى صُحُف «بورتلاند» التي كان يتركها الرجل عمدًا حوله.

عندما كُتبت الرواية، كانا يعيشان في منزل على الطراز الساحلي بعيدًا عن الطريق السريع، يسبحان في المحيط الهادئ كثيرًا، فصار الصبي أكثر اسمرارًا. كان ماء المحيط الهادئ أكثر دفئًا وحميمية من المحيط الأطلسي. الأهم، أنه لم يكن له أي ذكريات معهما.

على الرغم من أن حالتهما المادية تسمح بثلاث وجبات مُشبِعات في اليوم، وبسقفٍ فوق رأسيهما، لكن الرجل كان يشعر بقلق ويأس حيال حياتيهما. كان الصبي متألمًا. لم يبدُ أنه يفقد شيئًا من تعليمه (كان الصبي حَذِقًا مُحبًّا للكتب، كما كان الرجل الطويل نفسه)، لكنه لا يظن أنه قد نجح في اقتلاع بلدة «سالم» من عقل الصبي؛ أحيانًا ما كان يصرخ في أثناء نومه ويركل الأغطية.

وصل خطابٌ من «نيويورك»، يقول فيه وكيل الأعمال للرجل الطويل إن دار نشر «راندَم هاوس» تعرض عليه مقدم تعاقد اثني عشر ألف دولار، مع تأكيد تعاقدٍ مُخفض لنوادي الكتب. اتفاق معقول؟

كان كذلك.
ترك الرجل عمله بمحطة تمويل الوقود، وعبر هو والصبي الحدود.

***

قرية «لوس ثاباتوس»، تعني «قرية الأحذية» (وقد أسعد هذا الرجل سعادة بلا حدود). هي قرية صغيرة قرب المحيط، بلا سائحين ولا طرُق ولا إطلالة على الساحل، ولا معالم سياحية تثير الاهتمام. بالإضافة لهذا فالمتجر المحلي يعج بالصراصير، والغانية الوحيدة المتاحة في القرية جَدَّة تجاوز عمرها الخمسين (عليك الابتعاد عنها خمسة أميال غربًا لتجد كل هذا).

مع تركهما الولايات المتحدة خلف ظهريهما، هبط على حياتيهما هدوء عجيب؛ لمسافة تتجاوز المائة ميل لا توجد طائرات تُحوِّم في السماء فوقهما، ولا توجد طرق سريعة، لا يملك أحد حولهما جزازات عشب (ولم يهتم أحدهم بامتلاك واحدة). كان لديهما مذياع، لكن حتى هذا ظل بالنسبة إليهما مجرد باعث لضوضاءٍ بلا معنى؛ الأخبار بالإسبانية التي أصبح الصبي قادرًا على فهمها نوعًا ما، لكن ما لم يفهمه الرجل ظل وسيظل مجرد تمتمات.

تتألف الموسيقى المُذاعة من مقطوعات أوبِرا، لكن في الليل يلتقط المذياع بثًّا من محطة موسيقى شعبية في «مونتري»، ينطلق منها صوت «وُلفمان جاك»[2] المحموم ذو اللهجة المميزة، لكن الإشارة الإذاعية كانت تضعُف من وقت لآخر.

صوت المحرك الوحيد في مجال سمعهما كان لمعزقة زراعية عتيقة لدى مزارع محلي. حين تكون الريح مواتية، يصلهما صوتها كتجشوءٍ غير منتظم، كصوت شبح مضطرب.

وكانا يجلبان ماءهما يدويًّا من بئرٍ.

مرة أو مرتان في الشهر (معًا أو متفرقَين) يحضران القداس في كنيسة صغيرة بالبلدة. لا يفهم أيٌّ منهما ما يُقال في أثناء الطقوس، لكنهما دومًا يواظبان على الحضور. يجد الرجل نفسه أحيانًا يَغُط في النوم في القَيظ تحت تأثير الإيقاع المألوف الهادئ والكلمات المُميزة للقداس.

في يوم أحدٍ، دلف الصبي إلى الشرفة الخلفية المتهالكة، حيث جلس الرجل يكتب رواية جديدة، وأخبره مُترددًا بأنه قد تحدث إلى القس بشأن انضمامه إلى الكنيسة. أومأ الرجل وسأله إن كانت لغته الإسبانية تسمح له بالتعلُّم وتلقي التعليمات. أجاب الصبي بأنه لا يعتقد أن هناك عائقًا.

ظل الرجل يقطع مسافة أربعين ميلًا أسبوعيًّا كي يبتاع صحيفة «بورتلاند»، والتي دائمًا ما تحمل تاريخ الأسبوع السابق، وقد تبقعت صفحاتها ببول الكلاب.

بعد أسبوعين من معرفته بنيَّة الصبي، وجد مقالًا مصورًا عن بلدة «سالم» ومدينة «مومسُن» في «فيرمونت»، وقد ذُكر اسم الرجل الطويل في مَتنِ المقال.

ترك الجريدة جواره بلا أمل حقيقي في أن يطالعها الصبي. أقلقه المكتوب في الجريدة لعدة أسباب؛ ما يزال ما يحدث في بلدة «سالم» مستمرًّا على ما يبدو.

جاءه الصبي في اليوم التالي ممسكًا الصحيفة في يده، ثم فتحها كاشفًا عن عنوان المقال: «مدينة الأشباح في ولاية «مَين»!».

قال الصبي:

- أنا مرتعب.

قال الرجل الطويل:

- وأنا كذلك.

***

مدينة الأشباح في ولاية «مَين»!

كتب: جون لِويس

محرر الأخبار بجريدة «بورتلاند بريس»

بلدة «أورسالم».

بلدة «أورسالم» هي بلدة صغيرة شرق «كَمبرلاند». تبعد عن شمال «بورتلاند» عشرين ميلًا. لم تكن المدينة الأولى التي تجف وتذروها الريح في تاريخ «أمريكا»، ولن تكون الأخيرة، لكنها من ضمن المدن الأكثر غرابة.

تشيع مدن الأشباح في جنوب الغرب الأمريكي، حيث تنمو المجتمعات بين عشيَّةٍ وضُحاها حول مناجم الذهب والفضة، ثم تختفي بنفس السرعة التي نشأت بها حين تنفد مواردها، تاركةً خلفها المتاجر الخاوية، والفنادق ومحال الحلاقة تتعفن خالية وسط صمت الصحراء.

في «نيو إنجلند» تقع القرية الوحيدة الشبيهة لبلدة «أورسالم» المهجورة -أو بلدة «سالم» كما يُطلِق عليها المحليون- وهي قرية صغيرة في «فيرمونت» تُسمى «مومسُن». خلال صيف 1923، بدا أن «مومسُن» قد جفَّت وذوَت، واختفى سكانها الثلاثمائة واثنا عشر. ما زالت المنازل وبعض المتاجر الصغيرة موجودة، لكنها لم تعد مأهولة منذ خمسة وعشرين عامًا، تحديدًا منذ ذلك الصيف المشؤوم.

في بعض الحالات، نُقل الأثاث من البيوت، لكن في الأغلب ظلت الأغراض في مكانها كأنما ريحٌ عظيمة عصفت بالناس.

في بيت من البيوت تجد مائدة أُعدَّت للعشاء، تتوسطها مزهرية مليئة بالورود الطويلة. في بيت آخر طُويت الأغطية كأنما تهيئ الفُرُش للنوم. في المتجر المحلي، وُجدت لفافة من قماش قطني عند منضدة الدفع، وقد كُتب سعرها على ماكينة التحصيل؛ 1.22 دولارًا. وجد المحققون خمسين دولارًا في دُرج منضدة الدفع، لم تُمَس.

يحب سكان المنطقة تسلية السائحين بتلك القصص، مُلمِّحين إلى أن المدينة مسكونة ولهذا -كما يقولون- ظلت خاوية كل تلك الفترة.

السبب الأكثر منطقية هو أن «مومسُن» تقع في ركنٍ منسي من الولاية، بعيدةً عن أي طريق رئيسي، ولا شيء يميزها عن مئات البلدات الأخرى، فيما عدا أسطورة الهجر المفاجئ مثلما حدث مع سفينة «ماري سيليست».[3]

نفس الأمر ينطبق على بلدة «أورسالم».

بلغ تعداد بلدة «سالم» عام 1970 ألفًا وثلاثمائة وتسع عشرة نسمة، وقد ازدادت وقتها ستًّا وسبعين نسمة خلال عشرة أعوام منذ آخر تعداد.

بلدة مترامية الأطراف، مُريحة، سماها سكانها السابقون باسم «البلدة»، ولم يُذكَر عنها أي أمر غريب إلا ما يتحدث عنه العجائز في أثناء تجمعاتهم في الحديقة العامة وحول النيران في متجر «كروسِن» الزراعي؛ حريق عام 1951، حين تسبب عود ثقابٍ مُشتعل أُلقي بإهمال في أكبر حريق غابات في تاريخ الولاية.

بلدة «سالم» هي الخيار الأمثل لكل من أراد قضاء فترة ما بعد إحالته إلى المعاش في مكان يُعنى فيه كل شخص بشأن نفسه، وأكبر حدث فيه هو مسابقة نادي السيدات للخَبز.

من الناحية الديموجرافية، تعداد عام 1970 هو نموذج معروف لدى علماء الاجتماع وساكني أي بلدة صغيرة في ولاية «مَين»: الكثير من العجائز، وبعض الفقراء، وعدد كبير من الشباب يتركون البلدة حاملين شهاداتهم معهم، ولا يعودون مرة أخرى.

لكن منذ ما يقرب من عام، بدأت أحداث غير اعتيادية في بلدة «أورسالم»؛ أصبحَ الناسُ يختفون، لكن أغلبهم لم يختفوا بالمعنى الحرفي للكلمة، فشرطي البلدة السابق «باركِنز جيلسبي» يقيم حاليًّا مع أخته في «كيتري». «تشارلز جيمس»، مالك محطة تمويل الوقود أمام متجر الأدوية، يدير الآن مركز تصليح في «كَمبرلاند» القريبة. «بولين ديكِنز» انتقلت إلى «لوس أنجيليس». «رودا كُرليس» تعمل مع إرسالية القديس «ماثيو» في «بورتلاند».

وتمتد قائمة (اللامُختفين) طويلًا.

الغامض في أولئك الناس هو إجماعهم على العزوف -أو عدم القدرة- عن الحديث عن بلدة «أورسالم»، وما يكون قد حدث هناك.

«باركِنز جيلبسي» نظر إلى الصحفي، وأشعل سيجارة، ثم قال:

- فقط قررت أن أرحل.

وزعم «تشارلز جيمس» أنه أُرغِم على الرحيل بسبب ركود عمله في البلدة. «بولين ديكِنز»، التي كانت تعمل كنادلة في مقهى «إكسلنت» لأعوام، لم تُجب عن سؤال الصحفي، بينما رفضت السيدة «كُرليس» الحديث عن بلدة «سالم» مُطلقًا.

أمكن التوصل إلى بعض المفقودين عن طريق التخمين وبعد التحريات. «لورانس كروكيت» -وكيل عقاري محلي- اختفى وزوجته وابنته، تاركًا خلفه عددًا من المشاريع التجارية والاتفاقات، منها مضاربة على قطعة أرض في «بورتلاند»، يُنشأ عليها الآن المركز التجاري. عائلة «رويس ماكدوجال» من ضمن المفقودين، قد فقدوا وليدهم في بداية العام ولم يعد هناك ما يربطهم بالبلدة، وقد يكونون في أي مكان.

آخرون يطابقون نفس التصنيف، فبحسب رئيس شرطة الولاية «بيتر ماكفي»: لقد تقفينا أثر الكثير ممن هجروا بلدة «أورسالم»، لكنها ليست البلدة الوحيدة في «مَين» التي اختفى أهلها. «رويس ماكدوجال» على سبيل المثال غادر البلدة مديونًا لمصرفٍ وشركتي تمويل. في رأيي إنه مجرد هارب من مديونياته. في يوم من أيام هذا العام أو الذي يليه سيضطر إلى استخدام واحدة من بطاقاته الائتمانية وسيجد الشرطة فوق رأسه. المفقودون في «أمريكا» شيء معتاد مثلهم مثل فطيرة الكرز. نحن نعيش في مجتمع معتمد على وسائل المواصلات؛ الناس تقضي مصالحها في مكان ما ثم تنتقل منه كل عامين أو ثلاثة. أحيانًا ما ينسون الإبلاغ عن عناوينهم الجديدة، وبخاصة الهاربون من ديونهم.

على الرغم من صلابة رأس النقيب «ماكفي» والطابع العملي لكلماته، فإن ثمة أسئلة عن بلدة «أورسالم» ظلت عالقة تبحث عن إجابة. اختفى «هنري بِتري» وزوجته وابنه، ومن الصعب أن نقول إن «بِتري» -المدير التنفيذي لشركة تأمين- من الهاربين من مديونياتهم.

متعهد دفن الموتى المحلي، أمينة المكتبة المحلية، خبيرة التجميل المحلية في ملف المفقودين، وهو ملف طويل يثير القلق.

في البلدات المحيطة، بدأت الهمسات تتحول إلى ما يمكن عده بداية لأسطورة. أُشيع أن بلدة «سالم» مسكونة، بعض المحليين قد أبلغوا عن أضواء ملونة تحوِّم فوق خطوط كهرباء «مَين» التي تخترق البلدة، وإن افترضتَ أن كائنات فضائية اختطفت أهالي «سالم»، لن يسخر منك أحد.

ثمة شائعات عن (طائفة سحر أسود) مؤلَّفة من بعض الشباب الذين كانوا يمارسون طقوس القداس الأسود في البلدة، وربما قد جلبوا غضب الرب على رأس البلدة المباركة في أكثر الأراضي بركة!

آخرون، لا يميلون إلى الجانب الماورائي كثيرًا، يتذكرون الشاب الذي اختفى في منطقة داخل حدود «هيوستن» بولاية «تكساس»، منذ ثلاثة أعوام، ووجدوه في مقابر جماعية مريعة.

زيارة فعلية لبلدة «سالم» ستجعل كل تلك الأقاويل أقل غرابة. لا يوجد أي عمل قائم، وكان آخرها متجر «سبنسر» للأدوية والبضائع المتنوعة، وقد أغلق أبوابه في يناير الماضي.

متجر «كروسِن» الزراعي، ومتجر «بارلو» و«ستاركر» للأثاث، ومقهى «إكسلنت»، وحتى مبنى البلدية قد هُجِروا تمامًا. المدرسة الابتدائية الجديدة خاوية، وكذا المدرسة الثانوية الخاصة بالبلدات الثلاث القريبة، والتي بُنيت عام 1967. نُقِل أثاث المدرسة وكتبها بشكل عشوائي إلى مبانٍ في «كمبرلاند» بناءً على نتيجة استفتاء أهالي البلدات المحيطة، لكن لا يبدو أن طلبة بلدة «سالم» سيلتزمون بالدراسة في المدرسة الجديدة؛ لا يوجد طلبة، فقط متاجر ومحال مهجورة، منازل وطرق وشوارع خلفية موحشة، مداخل يتزايد فيها نمو الأعشاب البرية.

من ضمن الأشخاص الذين تفضِّل شرطة الولاية البحث عن أماكنهم أو على الأقل التواصل معهم: «جون جروجنز»، قس الكنيسة المنهجية في بلدة «أورسالم»، والأب «دونالد كالاهان» كاهن إبرشية القديس «آندرو»، و«مَيبل وُرتس» الأرملة الشهيرة في أوساط الكنيسة والأعمال الاجتماعية، و«ليستر» و«هاريِّت دُرهام»، زوجان محليان كانا يعملان في مصنع «يتس» للغزل، و«إيفا ميلَّر» صاحبة بيت ضيافة في البلدة...

***

بعد شهرين من إصدار المقال في الجريدة، التحق الصبي بالكنيسة، وقام بطقس الاعتراف الكنسي... وقد اعترف بكل شيء.

***

قس القرية شيخ ذو شعرٍ أبيض، ووجه كأنه شبكة تجاعيد، تطل عيناه من وسط وجه لفحته الشمس بنظرة حيوية تثير الدهشة. عيناه زرقاوان صافيتان، تشيان بأصلٍ آيرلندي.

حين وصل الرجل الطويل إلى منزله، وجد القس يجلس في الشرفة الأمامية يحتسي الشاي، ورجل في بذلة مدنية يقف إلى جواره، شعره مفروق من المنتصف، مدهون بالشحم، مما ذكَّر الرجل الطويل بصور القرن الماضي.

قال الرجل بطريقة متصلبة:

- أنا «هيسوس دي لا رَي مونيوز»، طلب مني الأب «جراكون» أن أترجم له، فهو لا يتحدث الإنجليزية. أسدى الأب لعائلتي صنيعًا عظيمًا، لن أذكره. لن يخرج الموضوع الذي يريد النقاش معك بشأنه خارج ثلاثتنا، هل تقبل؟

- أجل.

صافح الرجل الطويل «مونيوز» ثم «جراكون». قال الأخير شيئًا بالإسبانية وابتسم. ليس لديه سوى خمس أسنان متبقية في فكيه، لكن ابتسامته مشرقة مُريحة.

قال «مونيوز» مترجمًا:

- يسألك إن كنت تريد قدحًا من الشاي؟ شاي أخضر، مرطب للغاية.

- سيكون هذا رائعًا.

دارت بينهم أقداح الشاي، ثم قال القس:

- الولد ليس ابنك.

- هذا صحيح.

- قد اعترف اعترافًا غريبًا. في الواقع، أنا لم أسمع طيلة حياتي الكنسيَّة أغرب منه.

- لم يفاجئني هذا.

قال «جراكون» وهو يرشف شايه:

- لقد بكى... بكى بكاءً رهيبًا عميقًا منبعثًا من داخل سجن روحه. هل لي أن أسأل السؤال الذي أثاره هذا الاعتراف في قلبي؟

أجاب الرجل الطويل:

- كلا. لا تسأل. هو يقول الحقيقة.

راح «جراكون» يومئ حتى قبل أن يترجم له «مونيوز»، وبدا على وجهه سيماء القلق. مال أمامًا ضامًّا كفيه أمام رُكبتيه وتحدث طويلًا. أصغى «مونيوز» بوجه لا يحمل أي تعبير. حين انتهى القس، قال «مونيوز»:

- يقول إن هناك أمورًا غريبة في العالم. منذ أربعين عامًا، جاءه فلاح من «الجرانيونيس» حاملًا سحلية تصرخ كأنها امرأة. رأى كذلك رجلًا بعلامات صلب، علامات آلام المسيح، وكان هذا الرجل ينزف من جروح كفيه وقدميه في الجمعة العظيمة. يقول إن ما أخبره به الولد أمر مريع، مشؤوم... خطر عليكما، وبالتحديد خطر على الصبي. ما حكاه يأكل روحه، فقد قال...

استطرد «جراكون» مُختصِرًا، فترجم «مونيوز»:

- يسألك إن كنت تفهم ما فعلته في «أورسالم» الجديدة هذه؟

أجاب الرجل الطويل:

- بلدة «أورسالم». أجل، أفهم.

تكلم «جراكون» مرةً أخرى.

- يسألك عمَّ تنتوي فعله بهذا الشأن.

هز الرجل الطويل رأسه ببطءٍ شديد وهو يقول:

- لا أعرف.

تحدث «جراكون» مُجددًا عبر مُترجمه:

- يقول إنه سيصلي من أجلك.

***

بعد أسبوعٍ، استيقظ من كابوسٍ، غارقًا في العرق، يصرخ هاتفًا باسم الصبي. قال:

- سأعود...

بدا الشحوب على وجه الصبي من تحت بشرته المسمرة. سأله الرجل:

- هل يمكنك الذهاب معي؟

- هل تحبني؟

- أجل. رباه! بالطبع!

بدأ الصبي في الانتحاب، فضمه الرجل الطويل إليه.

***

ما زال النوم يجافيه. الوجوه تترصد به وسط الظلال، تدور حوله في دوامة، مطموسة كأنها تتبدى من خلف ساتر ثلجي. حين حرَّكت الرياح غصنًا متدليًا من جذع شجرة فاحتك بالسقف، قفز فزعًا.

بلدة «أورسالم».

أغلق عينيه وعقد ذراعيه فوقهما، فعادت كل الذكريات. يكاد يرى مِثقلة الورق الزجاجية، تلك التي تحوي فتاتًا أبيض يُشكِّل ما يشبه العاصفة الثلجية إن هززتها.

بلدة «سالم»...

وولفمان جاك، هو مقدم برامج موسيقية ذو صوت رخيم مميز، اسمه الحقيقي روبرت ويستون سميث.
في الرابع من ديسمبر عام 1872، وُجِدت السفينة ماري سيليست تبحر بسلام دون أي شخص على متنها.

الجزء الأول

منزل «مارستِن»

لا يمكن لأي كائن حي أن يظل عاقلًا لفترة طويلة في ظل واقعٍ مُطلق، حتى ليفترض البعض أن القراد والجنادب لا بد لها من أنْ تحلم.

وعلى الرغم من كونه غير عاقل، فمنزل التل «هيل هاوس» يشمُخ وحيدًا في مواجهة تِلاله، يحوي الظلام بين جنباته.

صمد منزل التل في مكانه لثمانين عامًا، وربما يظل كذلك لثمانين عامًا أخرى.

في باطنه، استمرت جدرانه منتصبة، أحجاره مُتراصة، أرضياته راسخة، أبوابه موصدة. يغفو الصمت هانئًا في كنف أخشاب وأحجار هيل هاوس، وأيًّا ما كان يجول في جنباته، يجول وحيدًا.

شيرلي جاكسِن[4]

أشباح هيل هاوس

روائية أمريكية من أهم رواياتها أشباح هيل هاوس ولطالما عشنا في حصن.

الفصل الأول

بِن

بمجرد أن تجاوز مدينة بورتلاند متجهًا إلى الشمال عبر الطريق الرئيسي، شعر «بِن ميرز» بوخزة إثارة مقيتة في معدته.

كان اليوم هو الخامسُ من سبتمبر عام 1975، والصيف يستمتع بآخر نزواته مع الطبيعة، فالأشجار تتفجر بالأخضر، والسماء شاهقة، ذات لون أزرق فاتح. عند مروره بحدود بلدة «فيلموث»، رأى ولدين يسيران بمحاذاة الطريق السريع، يحملان صنارتي صيد على كتفيهما كالبنادق.

انتقل بسيارته إلى حارة الطريق الأخرى، حيث يستطيع الإبطاء من سرعته إلى الحد الأدنى المسموح، وراح يبحث عن أي شيء قد يُنعش ذاكرته. في البداية لم يجد ضالته، فبدأ يحتاط من خيبة أمل شبه مؤكدة.

لقد كنتَ في السابعة حين غادرتَ المدينة، لا بد وأن الزمن قد غيَّر الكثير خلال خمسة وعشرين عامًا، فالأماكن كالأشخاص؛ تتغير.

في تلك الأيام الخوالي، لم يكن الطريق رقم 295 بحاراته الأربع موجودًا من الأساس. إن أردت الذهاب من بلدة «سالم» إلى «بورتلاند»، عليك الخروج من الطريق رقم 12 المؤدي إلى «فيلموث»، ثم الاتجاه إلى الطريق رقم 1.

لقد مر زمن طويل.

كفاك سخفًا!

التوقف عن السخف صعب. كان صعبًا حين...

هدرت فجأة دراجة بخارية ضخمة ذات مقود عالٍ من نوعية BSA

مارةً بجواره في ذات الحارة، يقودها فتى يرتدي قميصًا قصير الكُمين، وخلفه تجلس فتاة مُرتدية سُترة قماشية حمراء ونظَّارة شمسية ضخمة ذات عدساتٍ عاكسة.

قطعت الدراجة طريقه سريعًا، فبالغ «بِن» في ردة فعله ساحقًا المكابح، ضاغطًا على النفير بكلتا كفيه.

تسارعت الدراجة البخارية متجشئة الدخان الأزرق من ماسورة العادم، ولوَّحت الفتاة له بحركة بذيئة بيدها في وجهه.

ارتعدت كفاه وهو يستعيد سرعته مُتمنيًا لو أن يحظى بسيجارة، وقد اختفت الدراجة البخارية عن الأنظار تقريبًا الآن، محتفظة بنفس السرعة.

الفتية... الفتية الملاعين.

تكالبت الذكريات عليه وتزاحمت؛ ذكريات ماضٍ قريب، فأبعدها. لم يركب دراجة بخارية منذ عامين، وانتوى ألا يركبها مُجددًا.

لفت نظره ومضة من لونٍ أحمر على يساره، فنظر نحوها شاعرًا بدفقة بهجة إذ عرفَ سرها. كانت حظيرة كبيرة عند قمة تل، تُشرف من بعيد على حقل هندباء مختلط بحشائش بِذرية.

على الرغم من المسافة، استطاع أن يلمح أشعة الشمس تنعكس عن دوَّارة الرياح فوق قُبة الحظيرة المطلية بالأبيض.

ذات الحظيرة كانت هناك في الماضي، وما زالت حتى الآن لم تتغير. يبدو أن الأمور ستكون على ما يرام على الرغم من كل شيء.

ثم حجبتها الأشجار عنه.

حين شق الطريق «كَمبرلاند»، بدأت المألوفات تزيد. مر بنهر «رويال» حيث كان ورفاقه الصبية يصطادون أسماك الـ «ستيليز» والـ «بيكريل» في الماضي. راحت لمحات من القرية تومض من بين الأشجار، ولاح خزان مياه «كَمبرلاند» بلافتته المُميزة المطبوعة على جانبه بشعار (نحافظ على «مَين» خضراء). كان للخالة «سيندي» رأي آخر بخصوص اللافتة، فكانت ترى أن على أحدهم زيادة عبارة: (اجلبوا الأموال) تحت الشعار السابق.

تزايد في نفسه إحساس الحماس القديم، وزاد من سرعته باحثًا عن اللافتة التي بادرته بالظهور بعد خمسة أميال، استطاع أن يرى عليها بحروف عاكسة خضراء:

الطريق 12 المؤدي إلى بلدة «أورسالم».

«كَمبرلاند»- طريق «كَمبرلاند» المركزي.

باغتت العتمة روحه، وأطفأت جذوة حماسه كما تطفئ الرمال النار. كان يألف هذا الشعور منذ... (حاول عقله أن ينطق اسم «ميراندا»، لكنه لم يسمح له بذلك). منذ ذلك الوقت البغيض، وقد اعتاد صده، لكن هذه المرة اجتاحه الظلام بقوة غاشمة أفزعته.

ما هذا الذي يفعل؟ يعود إلى المدينة التي عاش فيها أربعة أعوام من طفولته محاولًا استعادة ما ضاع بلا رجعة؟ أي سحر يتوقع استرجاعه بالتجوال في الطرقات التي اعتادها صبيًّا، وقد تغيرت معالمها على الأرجح ورُصِفت واستقامت، وبعثر السياح في جنباتها عُلب البيرة الفارغة؟

لقد زال السحر، خيره وشره. ابتلعته مزالق الماضي ليلة خرجت الدراجة البخارية عن سيطرته، وظهرت الشاحنة الصفراء وراحت تقترب وتقترب. زوجته «ميراندا» تصرخ، تُقاطَع صرخاتها بالنهاية المباغتة حين...

ظهر مَخرج الطريق عن يمينه، وللحظة فكر في تجاوزه مستكملًا الطريق إلى مدينة «شامبرلين» أو «لويستون»، حيث يتوقف لتناول الغداء ثم يعود مرة أخرى. لكن، إلى أين يعود؟ إلى دياره؟

هذه أضحوكة؛ فلو أن له ديارًا لكانت هنا، حتى لو كان كل ما عاشه فيها أربعة أعوام. ها هنا دياره.

أضاء مصباح الإشارة الخلفي، وأبطأ سيارته الـ «سِتروين» منعطفًا نحو الطريق رقم 12 الصاعد (الذي يصير اسمه شارع «جوينتر» عند الناحية القريبة من البلدة). رفع عينيه نحو الأفق، وما رآه هناك دفعه لضغط المكابح بكلتا قدميه، فاهتزت السيارة ثم توقفت.

تتزاحم أشجار الصنوبر والتنوب عند الأفق وتحجب سماء المغرب على امتداد البصر. لم يكن ثمة شيء بادٍ من البلدة، فقط الأشجار، ومن بينها يشمخ السقف الجمالوني لمنزل «مارستِن».
حدَّق إليه مأخوذًا، تتصارع المشاعر على قسمات وجهه، وتتحول كما تتحول الألوان والصور عبر أنبوب المِشكال (كلايدوسكوب).
غمغم بصوت عال:
- ما يزال هنا! إلهي!
أخفضَ عينيه إلى ذراعيه، فرأى الشعيرات عليهما منتصبةً هلعًا.

***

طاف بالبلدة مُتأنيًا، مُخترقًا «كَمبرلاند»، ثم عاد إلى بلدة «سالم» من ناحية الغرب، مُتخذًا طريق «برنز». كان متعجبًا من القدر اليسير الذي تغير به المكان؛ عدد المنازل الجديدة التي لا يذكرها كان قليلًا، وثمة حانة جديدة اسمها حانة «ديل» عند حدود البلدة، ومحَجران للحصى، والكثير من الأشجار قد استخرج لُبها وفُرِم لصناعة الورق.
لكن اللافتة الصفيحية القديمة، المُشيرة نحو الطريق إلى مستودع نفايات البلدة ما زالت في مكانها، والطريق نفسه ما يزال غير مُمهد تتناثر على امتداده الوهدات وألواح الغسيل. استطاع أن يرى فناء مدرسة «هيل يارد» يلوح من خلف فرجات بين الأشجار، حيث تتراص أبراج شركة كهرباء «مَين» المركزية في صفٍ بدءًا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.
مزرعة آل «جريفِن» ظلت موجودة كذلك، لكن حظيرتها صارت أكبر. تساءل إن كانوا ما يزالون يعبئون حليبهم في زجاجات ويبيعونه كما كانوا في الماضي. كانت علامتهم التجارية الشهيرة عبارة عن رسم لبقرة باسمة تحت عبارة: (حليب «صنشاين»، من مزارع «جريفِن»!)
ابتسم. لطالما صبَّ الكثير من هذا الحليب على إفطاره مع رقائق الذرة حين كان يسكن منزل الخالة «سيندي».
انعطف يسارًا نحو طريق «بروك»، مرَّ بالبوابة الحديدية والسور الحجري القصير المحيط بمقابر «هارموني هيل». هبط المُنحدر، ثم صعد تجاه الناحية القصيَّة، الناحية المعروفة بتل «مارستِن».
عند القمة، تتناقص أعداد الأشجار تدريجيًّا على جانبي الطريق. يمينًا، يمكنك أن ترى معالم البلدة... أما يسارًا، فيقبع منزل «مارستِن».
أوقف «بِن» سيارته ثم ترجَّل.
كل شيء كما كان، لم يتغير، وكأنما رآه آخر مرة بالأمس فقط.
ينمو العشب الشيطاني عاليًا في الحديقة الأمامية، مُغطيًا البلاطات الحجرية المُتخلخلة المؤدية إلى الشرفة الأرضية، تغني وسطه صراصير الليل، وتتقافز خلاله الجنادب بشكلٍ عشوائي.
المنزل نفسه يواجه البلدة، ضخمًا، مُشتتًا، مترهلًا. نوافذه موصدة بألواح الخشب كيفما اتفق، مما أعطاه المنظر المُميز لكل المنازل المهجورة منذ زمن. تقشَّر الطلاء الخارجي فصار البيت رماديًّا، وأتت العواصف الثلجية القوية على الركن الغربي من السطح، فأبعَجته وأحنَته. ثمة لافتة لإبعاد المتطفلين مثبتة عند عامود الدَّرج.

شعر برغبة مُلحة في قطع الطريق المعشوشِب -عابرًا بصراصير الليل والجنادب التي تتقافز حول حذائيه- فيصعد الدرج ويلقي نظرة خلال الألواح العشوائية المثبَّتة على نوافذ الصالة والحجرة الأمامية. ربما يجرب ويرى إن كان الباب الأمامي مفتوحًا، فيدخل.

ابتلع ريقه وحدق إلى المنزل، كأنما هو مُنومٌ. حدق المنزل إليه غبيًّا لا مباليًا.

أنت عبرت الردهة، تشم رائحة الجص المبتل وورق الحائط المتعفن، وتسمع صرير الفئران داخل الحوائط. ما زالت النفايات تتراكم حول المكان، ربما تنتقي منها شيئًا، مِثقلة ورق مثًلا، وتدسها في جيبك.

عند نهاية الردهة، بدلًا من أن تكمل طريقك إلى المطبخ، تنحرف يسارًا وتصعد الدرج. تغوص قدماك في غبار الجَص المتساقط من السقف عبر السنوات.

كانوا أربع عشرة درجة، بالضبط أربع عشرة، إلا أن الأخيرة أصغر حجمًا، لا تتناسب مع الباقين، وكأنما وضعوها فقط كي يتفادوا الرقم الخبيث؛ ثلاث عشرة.

عند قمة الدَّرج تقف، تنظر إلى الردهة أمامك تجاه بابٍ مُغلق. لو سرت نحوه ستشعر أنك تراقب نفسك من الخارج بينما الباب يقترب ويكبُر. يمكنك أن تمد يدك إلى المقبض الفضي المُلطَّخ...

ابتعد «بِن» سريعًا عن المنزل، بينما تنطلق صفارة جافة من رئتيه عبر فمه. ليس الآن. يكفي مؤقتًا أنه قد عرف أن كل شيء ما يزال موجودًا، ينتظره.

وضع كفيه على سقف السيارة ونظر إلى البلدة أمامه. يمكنه أن يعرف هناك من يُدير شؤون منزل «مارستِن»، وربما يستأجره منه.

يمكن أن يجعل من المطبخ مكانًا ملائمًا للكتابة، ومن البهو الأمامي حجرة مبيت، لكنه لن يسمح لنفسه بالصعود إلى الطابق العلوي.

إلا في حالة الضرورة القصوى.

ركب سيارته وأدار محركها، ثم قادها هابطًا التل نحو بلدة «أورسالم».

الفصل الثاني

سوزان

كان يجلس على مقعدٍ في المتنزه، حين لمح شابة تراقبه. كانت جميلة للغاية، شعرها الأشقر الفاتح يغطيه وشاح حريري.

كانت تقرأ كتابًا، وبجوارها دفتر رسم وما بدا له كقلم فحم. كان اليوم هو الثلاثاء، السادس عشر من سبتمبر، أول أيام الدراسة، وقد خلا المتنزه من مصادر الإزعاج. ما تبقى كان عددًا من الأمهات المتفرقات مع أطفالهن، وبعض العجائز يجلسون جوار النصب التذكاري للحرب، وهذه الفتاة التي تجلس تحت الظل المُرقَّط لشجرة دردار ملتوية الجذع.

رفعت عينيها ورأته، فغزا وجهها الفزع. أخفضت نظرها إلى كتابها، ثم نظرت إليه مُجددًا واستعدت للنهوض، قامت، ثم جلست مرة أخرى!

قام هو وسار نحوها حاملًا رواية عن الغرب الأمريكي.

قال مُحييًا:

- مرحبًا. هل نعرف بعضنا البعض؟

أجابت:

- كلا... الأمر هو... أنت «بِنچامَن ميرز»، أليس كذلك؟

قال رافعًا حاجبيه:

- هذا صحيح.

ضحكت في عصبية، دون أن تتقابل أعينهما إلا للحظة خاطفة في محاولة منها لقراءة نياته. بدت أنها فتاة غير معتادة الحديث مع الرجال الغرباء في المتنزه.

أراحت الكتاب على فخذيها وقالت:

- ظننتُ أنني رأيت شبحًا.

رأى بشكلٍ عابر ختم مكتبة «أورسالم» العامة على سُمك الصفحات بين دفتي الغلاف. كان الكتاب هو (رقصة الريح)، روايته الثانية. أرته صورته على الغلاف الخلفي للرواية، صورة عمرها أربعة أعوام. كانت ملامحه صبيانية وتعبيره جادًّا إلى حد مُرعب... عيناه كماستين سوداوين.

قال:

- بصُدفٍ غير منطقية كهذه تبدأ العلاقات.

على الرغم من تفاهة تعليقه، فإنه ظل معلقًا في الهواء بينهما، كنبوءة قيلت على سبيل الدعابة.

خلفهما، مجموعة من الأطفال يحبُون لاعبين في حوض سباحة صغير، وأم تصرخ في «رودي» ألا يدفع أخته على الأرجوحة بهذا الشكل. لكن الفتاة طارت بأرجوحتها عاليًا، يتطاير فستانها، تكاد تعانق السماء. كانت لحظة تذكَّرها لأعوام تَلَت، كأنها شريحة مخصوصة اقتُطعت من كعكة الزمن.

ابتسمت الفتاة وناولته الكتاب وهي تقول:
- هلا وقَّعته لي؟
- أوقِّع لك على كتاب مُستعار من المكتبة العامة؟
- سأشتريه منهم وسيستبدلونه.
وجد قلمًا في جيب سُترته، ففتح الكتاب على الصفحة الأولى وسألها:
- ما اسمك؟
- «سوزان نورتون».
كتب سريعًا دون تفكير: إلى «سوزان نورتون»، أجمل فتاة في المتنزه. تحياتي «بِن ميرز».
ثم أضاف تاريخ اليوم أسفل توقيعه. قال وهو يعطيها الكتاب:
- الآن عليكِ أن تسرقيه. لم تعد رواية (رقصة الريح) تُطبَع للأسف.
- سوف أحصل على نسخة مُستعملة من أولئك التجار في «نيويورك».
ترددت، وطالت نظرتها إلى عينيه أكثر، ثم أضافت:
- هذا كتاب رائع بشكل فظيع!
- أشكرك. عندما أعيدُ قراءته، أتعجب كيف نُشر.
- هل تعيد قراءته كثيرًا؟
- أجل، لكنني أحاول الإقلاع عن هذه العادة.

ابتسمت له، فضحك الاثنان مما جعل الأمور تصبح أكثر طبيعية. لاحقًا سيكون لديه وقت ليفكر كيف حدث الأمر بهذه الانسيابية والبساطة. هذا الخاطر لم يكن مريحًا قَط، فقد استحضر صورة القَدَر الذي لم يكن أعمى على الإطلاق، بل مُجهزًا برؤية فائقة الحساسية، عازمًا على سحق الفانين التعساء بين حجري الرحى الكوني ليصنع منهم خبزه الغامض.

- قرأت رواية (ابنة كونواي) كذلك، وأحببتها. أعتقد أنك تسمع مثل هذا الرأي كثيرًا؟
قال بصدق:
- بل قليلًا ما أسمعه، بشكل ملحوظ.

«ميراندا» أحبت أيضًا (ابنة كونواي)، لكن أغلب رفاق المقهى لم يُعلِّقوا عليها، وأغلب النقاد هاجموها؛ قالوا إن الحبكة غير واضحة.

- أنا أحببتها.
- هل قرأتِ الرواية الجديدة؟
- رواية (بيلي قال: استمر)؟ ليس بعد. السيدة «كوجَن» صاحبة متجر الأدوية تقول إنها رواية مفعمة بالحيوية.
- حقًا؟ أراها مُتزَمِّتة. اللغة خشنة، لكن عندما يكتب المرء عن صبية الأرياف غير المتعلمين، فلا يمكنه أن... اسمعي، هل يمكن أن أبتاع لك مثلجات بالصودا أو شيئًا من هذا القبيل؟ أشتاق إليها.
تحقَّقت من عينيه للمرة الثالثة، ثم ابتسمت في دفء وقالت:
- بالتأكيد، سأودُّ ذلك. متجر «سبنسر» يبيع مثلجات رائعة.

وكانت هذه هي البداية.

***

سأل «بِن» بصوت خفيض:

- هل هذه هي السيدة «كوجَن»؟

كان ينظر نحو سيدة طويلة نحيفة ترتدي معطفًا طويلًا أحمر اللون فوق زيِّها الموحد الأبيض. شعرها الأشيب مصبوغ بالأزرق المخفف كعادة العجائز لتقليل مظهر الشيب، ومصفف بعناية على هيئة تجعيدات متراصة كالدَّرج.

- أجل، هي. لديها عربة صغيرة تأخذها إلى المكتبة في كل ثلاثاء. تملأ بطاقات حجزٍ بكميات هائلة، وتقود أفعالها السيدة «ستارتشر» إلى الجنون.

كانا جالسَين على مقعدين مرتفعين من الجلد الأحمر أمام نافورة الصودا. يشرب صودا الشوكولاتة، وهي تشرب صودا الفراولة.

يُعَد متجر «سبنسر» كمحطة انتظار الحافلات في البلدة، ومن حيث جلسا، يستطيعان رؤية حجرة الانتظار عبر قوسٍ من المعدن والأزهار عتيق الطراز. في الحجرة يجلس شاب من قوات الطيران في ردائه الأزرق، واجمًا، وساقاه تحيطان بحقيبته.

قالت الفتاة وهي تتبع نظر «بِن»:

- لا يبدو سعيدًا بذهابه إلى حيث هو ذاهب، أليس كذلك؟

- انتهت إجازته كما أتصور.

قالها «بِن» وهو يفكر في أنها لا بد ستسأله إن كان قد خَدَم في الجيش من قبل، لكن بدلًا عن ذلك قالت:

- في يوم ما سأستقل حافلة العاشرة والنصف تلك، ثم وداعًا «سالم». ربما سأبدو واجمة مثل هذا الشاب.

- إلى أين ستذهبين؟

- «نيويورك» على ما أعتقد، لأرى إن كنت سأقدر على الاستقلال أخيرًا وإعالة نفسي.

- وما المُشكلة هنا؟

- في البلدة؟ أحبها، لكن أهلي... أنت تعرف هذه الأمور. نوعًا ما يقلقون عليَّ أكثر من اللازم. هذا مُزعج. بالإضافة إلى أن البلدة لا تملك ما تمنحه لمستقبل الفتيات المهني.

هزَّت كتفيها، ثم أمالت رأسها لتشرب من الماصَّة. رقبتها مُسمرَّة، عضلية، جميلة.

وكانت ترتدي فستانًا قصيرًا يشي بقوام فاتن.

- عن أي نوعٍ من الوظائف تبحثين؟

هزت كتفيها مُجيبة:

- أحمل شهادة البكالريوس من جامعة «بوسطُن». قيمتها أقل من قيمة الورقة التي طُبعت عليها حقًّا. درست الآداب والفنون وتخصصت في اللغة الإنجليزية. ثنائي الغباء الأصلي! يؤهلني بكفاءة

للانضمام إلى تصنيف المتعلمين البُله. أنا حتى لم أتعلم كيفية تزيين مكتب. ثمة فتيات بمؤهل متوسط يعملن في السكرتارية الآن. لن أعبر مرحلة الكتابة الآلية حتى.

- وماذا يترك لك هذا من خيارات؟

قالت شاردة:

- أوه... ربما العمل في دار نشر، أو مجلة، أكتب الإعلانات مثلًا. أماكن كتلك ربما تطلب من يرسم بالقطعة. أستطيع الرسم ولدي خبرات.

- هل وجدتِ فرصًا للعمل؟

- كلا... كلا، لكن...

- لا يمكن أن تذهبي إلى «نيويورك» دون فرصة عمل مضمونة. صدقيني، ستُبلين نعليكِ.

ابتسمت في اضطراب وقالت:

- أنت تعرف هذه الأمور.

- هل سبق لكِ أن بعتِ شيئًا من رسمك هنا؟

ضحكت على نحوٍ مفاجئ وهي تهتف:

- أوه، أجل. أكبر مبيعاتي كانت لصالح شركة «سينكس». كانوا قد افتتحوا دار سينما ثلاثيًّا في «بورتلاند» واشتروا مني اثنتي عشرة لوحة كي يعلقوها في المدخل. دفعوا لي سبعمائة دولار دفعت منها مقدم سيارتي الصغيرة.

- عليكِ أن تستأجري غرفة في نُزُل في «نيويورك» لأسبوعٍ مثلًا، وتطرقي باب كل مجلة ودار نشر وتعرضي عليهم سابقة أعمالك. احجزي مواعيدك بعد ستة أشهر حتى يجد لك المحررون والمسؤولون مكانًا في جداولهم. لكن بالله لا تضعي كل شيء في سلة المدينة الكبيرة بلا تخطيط.

تركت سوزان الماصَّة، وأمسكت الملعقة تقطع بها المثلجات وهي تسأل:

- ماذا عنك؟ ماذا تفعل وسط مجتمع بلدة «أورسالم» العامر بولاية «مَين»، والذي بلغ تعداده ألفًا وثلاثمائة نسمة؟

ضحك وقال:

- أحاول كتابة رواية.

أنار وجهها فورًا بالحماس وهتفت:

- في البلدة؟ عمَّ تدور أحداثها؟ ولماذا هنا بالتحديد؟ هل...

نظر إليها بقلق وقال:

- الكوب يقطر على ملابسك.

- حقًّا؟ أوه... معذرة!

مسحت قاعدة كوبها بمنديل مُضيفة:

- أقول... لا أقصد التطفل، أنا بالفعل لست عاطفية أو مندفعة.

- لا حاجة إلى الاعتذار. كل الكُتاب يحبون الحديث عن كتبهم. أحيانًا وأنا راقد على فراشي ليلًا أختلق حوارًا في مجلة «بلاي بوي» معي. خسارة، فهم لا يختارون إلا الكُتَّاب الأشهر.

قام الشاب ذو ملابس القوات الجوية، فقد كانت حافلة شركة «جراي هاوند» تدخل المحطة، ويصدر عنها صوت مكابح الهواء.

- لقد عشت في بلدة «سالم» أربعة أعوام في طفولتي، هناك عند طريق «بيرنز».

- طريق «بيرنز»؟ لا يوجد هناك شيء سوى المستنقعات ومقابر صغيرة، مقابر «هارموني هيل» كما يسمونها.

- عشت مع الخالة «سيندي»؛ «سينثيا». توفي والدي، ومرت والدتي بـ... بما يشبه الانهيار العصبي، لذا فقد أرسلتني إلى الخالة «سيندي» حتى تتماسك مرة أخرى. أعادتني الخالة «سيندي» إلى والدتي في «لونج آيلاند» بعد شهرٍ من الحريق الكبير.

نظر إلى وجهه في المرآة خلف نافورة الصودا وأردف:

- بكيت في الحافلة وأنا أترك أمي، وبكيت في الحافلة وأنا أترك الخالة «سيندي» وبلدة «أورسالم».

قالت «سوزان»:

- أنا وُلدت في عام الحريق. أكبر حدث في تاريخ هذه البلدة اللعينة فاتني وأنا نائمة.

ضحك «بِن» وقال:

- هذا يجعلك أكبر بسبعة أعوامٍ عما حسبته عندما رأيتك في المتنزه.

بدا عليها السرور وهي تقول:

- حقًّا؟ أشكرك. أعتقد أن بيت خالتك قد احترق.

- أجل. هذه الليلة من أكثر ذكرياتي وضوحًا. جاء رجال يحملون مضخات الماء على ظهورهم وطلبوا منا الإجلاء. كان الأمر مثيرًا للغاية. راحت خالتي «سيندي» تجري هنا وهناك؛ تجمع حاجياتنا وتضعها في سيارتها. يا إلهي، يا لها من ليلة!

- هل كان لديها تأمين؟

- كلا، لكن المنزل كان مُستأجَرًا، وقد نقلنا كل شيء ثمين إلى السيارة، فيما عدا التلفاز. حاولنا حمله، لكننا ما استطعنا زحزحته عن الأرض. كان من طراز «فيديو كينج» بشاشة بمقاس سبع بوصات وعدسة مُكبرة فوق أنبوب الصورة. لم يكن يلتقط سوى قناة واحدة على كل حال. الكثير من موسيقى الـ «كَنتري»، ونشرات الأخبار الزراعية وحلقات «كيتي» المهرج.

قالت مُتعجِّبةً:

- وعدتَ إلى هنا كي تكتب رواية!

لم يُجب «بِن» فورًا. كانت السيدة «كوجَن» تفتح صناديق السجائر وتملأ منها رف العرض جوار ماكينة التحصيل. الصيدلاني، السيد «لابري»، يُحوِّم خلف منصة البيع العالية كشبحٍ ثلجي. رجل القوات الجوية يقف جوار باب الحافلة، ينتظر عودة السائق من دورة المياه.

أجاب «بِن» أخيرًا:

- أجل.

التفت لها ونظر إليها جيدًا للمرة الأولى. وجهها جميلٌ للغاية، عيناها زرقاوان، جبينها عريض مُسمَر. سألها:

- هل نشأتِ في هذه البلدة؟
- أجل.
أومأ وهو يقول:
- تعرفين... نشأت في بلدة «سالم»، وتعلقت بالمكان. حين عُدتُ مُؤخرًا كدتُ أستدير بالسيارة وأرجِع من حيث أتيت خوفًا من أن تكون البلدة قد تغيرت.
قالت:
- لا يتغير شيء هنا. ليس كثيرًا.
- اعتدت في الماضي أن ألعب لعبة الحرب مع أطفال آل «جاردِنر»، هناك قرب المستنقعات. كنا نلعب أيضًا لعبة القراصنة عند جدول «رويال»، ولعبة الغُميضة وجلب الأعلام في الحديقة. تنزَّهنا أنا وأمي في عدد من الأماكن الجميلة في الفترة التي تلت عودتي من عند الخالة «سيندي». انتحرت هي حين كنت في الرابعة عشرة، لكن أغلب شعوري الجيد تجاه الحياة قد زال قبل موتها بفترة طويلة، وما تبقى منه كان هنا في هذه البلدة، وما يزال. لم يتغير المكان كثيرًا؛ النظر عبر شارع «جوينتر» كأنك تنظرين عبر حاجز جليدي رقيق ترين خلفه طفولتك. هذا الحاجز يشبه طبقة الجليد الرقيقة المتكونة فوق الصهاريج في نوفمبر؛ النظر عبره مُشوَّش مموج، كثافته المُتباينة تحجب عنك الرؤية في غير موضعٍ، لكن أغلب الصورة ما زالت واضحة موجودة.
صَمَت «بِن» مبهورًا من نفسه، فقد ألقى خُطبة ممتازة.
قالت مُتعجبة:
- أنت تتحدث مثلما تكتب في رواياتك.
ضحك هاتفًا:
- لم أتحدث بهذا الشكل من قبل، على الأقل ليس مع شخصٍ آخر.
- وماذا فعلت بعد أن... بعد أن توفيت والدتك؟
قال باختصار:
- ذهبت هنا وهناك... كُلي مُثلجاتك.
فأكلت. قالت بعد هُنيهة:
- ثمة أشياء قد تغيرت. السيد «سبنسر» توفي. هل تذكُره؟
- بالتأكيد. الخالة «سيندي» اعتادت أن تتبضَّع من متجر «كروسِن»، وكانت ترسلني أحيانًا لأبتاع لها منه بيرة الجذور، أيام كانت بيرة «روتشستر» هي الخيار الأمثل. أذكرها تُعطيني نِكلة ملفوفة في منديل قماشي.
- كان سعرها سنتًا وقتما وُلِدت. هل تذكُر ما اعتاد أن يقوله؟
قوَّسَ «بِن» ظهره، وقلَّص كفَّه كأنها مُصابة بالتهاب المفاصل، ثم لوى شفته إلى أسفل، متشبهًا بمرضى الشلل النصفي وهمس:
- ارحم مثانتك... تلك البيرة اللعينة ستدمر مثانتك يا فتى!
جلجلت ضحكته وارتفعت عاليًا نحو مروحة السقف التي تدور ببطء فوق رأسيهما. رفعت السيدة «كوجَنِ» عينيها في شك نحوهما، بينما قالت الشابة:

- لقد قلّدته بدقة! إلا أنه كان يناديني بالحبيبة الصغيرة.
نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، مسرورًا.
سألها:
- ما رأيكِ لو نذهب إلى السينما الليلة؟
- سأحب ذلك.
- أين أقرب سينما؟
ضحكت وهي تقول:
- سينما «سينكس» في «بورتلاند»، تلك التي تزين مدخلها لوحات «سوزان نورتون» الرهيبة.
- توقعت هذا. أي نوع من الأفلام تُفضلين؟
- أي فيلم مشوق فيه مطاردات بالسيارات.
- حسنًا. هل تذكرين دار سينما «نورديكا»؟ كانت هنا في البلدة.
- بالتأكيد. لقد أغلِقت عام 1968. كنت أذهب أنا وصديقتي مع شابين حين كنت في المرحلة الثانوية، وكنا نقذف الشاشة بالفيشار عندما لا يعجبنا الفيلم.
ثم ضحكت مُضيفة:
- وأغلب الأفلام كانت سيئة حقًّا.
- كانت تعرض كذلك سلسلة أفلام من إنتاج شركة «ريبابليك». (رجل الصاروخ)، (عودة رجل الصاروخ)، (كراش كالاهان وإله موت الفودو).
- لم أعاصر سلسلة الأفلام هذه.
- ماذا حدث لصالة العرض؟
- لقد صارت مكتب عقارات «لاري كروكيت» الآن. لقد قتلتها صالة عرض السيارات في «كمبرلاند»... هي والتلفاز.
صمتا للحظات، تجول أفكارهما في عقليهما. أشارت ساعة حافلة «جراي هاوند» إلى الحادية عشرة إلا الربع صباحًا. قالا في نفس الوقت:
- هل تذكُر...
نظرا إلى بعضهما، وهذه المرة حدقت إليهما السيدة «كوجَن» طويلًا حين انفجرا في الضحك، حتى إن السيد «لابري» التفت نحوهما.
تحدثا خمس عشرة دقيقة أخرى، قبل أن تخبره «سوزان» بأن لديها أمورًا عليها أن تُنجزها، لكنها ستكون مستعدة للذهاب معه إلى السينما في السابعة والنصف.
حين سلك كلٌّ منهما طريقه المختلف، ظلا يتعجَّبان من سهولة وتلقائية حديثهما، ومن مصادفة تشابه حياتيهما.
ظل «بِن» يجول في شارع «جوينتر»، ويتوقف من وقت لآخر عند شارع «بروك» وينظر عاليًا نحو منزل «مارستِن». تذكَّر كيف كاد يأتي حريق عام 1951 على حديقته بالكامل لولا تغيُّر اتجاه الريح.

فكَّر: كان من المفترض أن يحترق، سيكون هذا هو الوضع الأمثل.

***

خرج «نولي جاردنَر» من مبنى البلديَّة، ثم جلس على الدرجات جوار «باركِنز جيلسبي»، ليصادفا «بِن» و«سوزان» يسيران معًا ويدخلان إلى متجر «سبنسر». كان «باركِنز» يدخِّن سيجارة من نوع «بول مول»، وينظف أظفاره المُصفرَّة بحافة نصل مطواة.

سأله «نولي»:

- هذا هو الأخ الكاتب، أليس كذلك؟

- بلى.

- أهذه «سوزي نورتون» معه؟

- أجل.

- هذا مثير.

ربط «نولي» حزام الحماية، تتألق نجمة النائب على صدره وتضفي على الرجل الأهمية. لم تكن البلدة تمنح شارات لأفراد شرطتهم، فحصل على النجمة من خلال المشاركة في دوريات الشرطة المطبوعة. لدى «باركِنز» شارة لكنه يحتفظ بها في محفظته، وهو تصرُّف لم يستطِع «نولي» فهمه. بالطبع يعرف كل سكان البلدة أنه شرطي، لكن هناك تقاليد يتبعونها، ومسؤوليات عليهما أن يفكرا فيها كمُمَثلَين للقانون. «نولي» يفكر فيها عادة على الرغم من أنه لا يعمل بدوامٍ كامل في الشرطة.

أفلتت مطواة «باركِنز» وجرحت الجلد حول الظفر، فهتف:

- اللعنة...

- هل تظنه كاتبًا حقيقيًّا يا «بارك»؟

- بالتأكيد. له ثلاث روايات في المكتبة.

- عن قصصٍ حقيقية أم خيالية؟

- خيالية.

أبعد «باركِنز» مطواته مُتنهدًا. قال «نولي»:

- لن يحب «فلويد تِبتس» فكرة أن يقضي أحدهم وقتًا مع فتاته.

غمغم «باركِنز»:

- ليسا زوجين، وقد جاوزت هي سن الثامنة عشرة.

- لن يعجب «فلويد» هذا الحال.

- وما لي بما يعجبه أو ما لا يعجبه؟ يمكن لـ «فلويد» أن يتغوط في قبعته ويرتديها بالمقلوب إن أراد هذا، ولن أهتم لما يفعل.

سحق «باركِنز» سيجارته على الدرج، ثم أخرج علبة أقراص التهاب الحلق «سوكريتس» من جيبه ووضع فيها عُقب السيجارة ثم أعادها إلى جيب بنطاله.

- أين يسكن هذا الأخ الكاتب؟

أجاب «باركِنز» وهو ينظر إلى إصبعه المجروحة:

- عند «إيفا». رأيته يحوم حول منزل «مارستِن» أمس ويعلو وجهه تعبير عجيب.

- عجيب؟ ماذا تعني؟

- فقط عجيب!

أخرج «باركِنز» علبة سجائره والشمس تُدفئ وجهه وهو يردف:

- ثم نزل ليقابل «لاري كروكيت»، سائلًا عن إمكانية تأجير المنزل.

- منزل «مارستِن»؟!

- أجل.

- أهو مجنون؟!

- ربما.

أبعد «باركِنز» ذبابة عن ركبته، وراح يشاهدها تطن وهي تطير مُبتعدة تحت شمس الصباح، ثم أضاف:

- «لاري كروكيت» مشغول مؤخرًا. سمعت أنه تهوَّر وباع مِغسلة البلدة العمومية. لقد باعها منذ فترة في الواقع.

- ماذا؟ تلك المِغسلة العتيقة؟

- أجل.

- وبماذا قد ينتفع مُشتريها منها؟

- لا فكرة لدي.

تحقَّق «نولي» من غلق حزامه، وقال وهو ينهض:

- حسنًا. أظنني سآخذ جولة في البلدة.

أشعل «باركِنز» سيجارة وقال:

- افعل ما تشاء.

- هل تريد مرافقتي؟

- كلا. أعتقد أنني سأجلس هنا قليلًا.

- حسنًا. أراك لاحقًا.

نزل «نولي» الدرجات متسائلًا (ولم تكن هذه أول مرة) متى سيقرر «باركِنز» التقاعد حتى يتسنى له -«نولي»- أن يتولى مهامه كاملةً. بحق الله كيف يتخلَّى عن تحري الجرائم وجمع المعلومات لأجل الجلوس على درجات سُلم مبنى البلدية؟

راقبه «باركِنز» يبتعد وقد شعر بارتياح. «نولي» شاب ممتاز، لكنه متحمس أكثر من اللازم. أخرج مطواته من جيبه، فتحها، ثم بدأ ينظف أظفاره بها مرةً أخرى.

***

أُنشِئت بلدة «سالم» عام 1765، قبل خمسين عامًا من عدِّ «مَين» ولاية منفصلة بموجب اتفاقية «ميزوري» (بعد مائتي عام من إنشائها، احتفلت البلدة بالذكرى المئوية الثانية بإطلاق الألعاب النارية في موكب فخم بالمتنزه. أمسكت شظية مشتعلة في فستان «ديبي فورستر» التنكري على هيئة أميرة من الهنود الحُمر، واضطر «باركِنز جيلسبي» إلى إلقاء القبض على ستة رجال من المتسببين في الحريق بتهمة السُّكر في مكانٍ عام).

اسم البلدة الفريد جاء بسبب حادثٍ مبتذل؛ واحد من أقدم سكان المنطقة كان فلاحًا عنيدًا مثيرًا للمشكلات اسمه «تشارلز بيلناب تانَّر». كان يُربي الخنازير، وواحدة منها كان اسمها «أورسالم». هربت «أورسالم» من حظيرتها في يومٍ وقت الإطعام، وهُرِعَت إلى الغابة القريبة، فانطلقت جامحة متوحشة. حذر «تانَّر» الأطفال الصغار من الاقتراب من أملاكه عن طريق الانحناء من فوق بوابته، والصراخ فيهم بصوت مشؤوم كنعيق الغراب:

- ابتعدوا عن غابة «أورسالم» وأرضها إن كنتم تريدون الحفاظ على أمعائكم داخل بطونكم.

أثَّر التحذير في الناس، وكذا اسم الخنزيرة. هذا يثبت إلى حدٍّ ما نظرية أن من حق أي شيء في «أمريكا» التطلُّع إلى الخلود، حتى وإن كان خنزيرًا.

الطريق الرئيسي والمعروف قديمًا باسم طريق بريد «بورتلاند»، سُمي عام 1896 باسم شارع «جوينتر»، نسبةً إلى «إلياس جوينتر» عضو مجلس النواب لست سنوات (حتى وفاته بمرض الزهري عن عمر الثامنة والخمسين). كان أكثر شخص تتفاخر به البلدة -بعد الخنزيرة «أورسالم»، و«بيرل آن بَت» التي هربت إلى «نيويورك» عام 1907 وانضمت إلى راقصات مسرح «زيجفيلد» في «برودواي»-.

يقطع شارع «بروك» شارع «جوينتر» في منتصفه بالضبط، متعامدًا عليه بدقة. المدينة نفسها دائرية الشكل إلى حدٍّ كبير (باستثناء الطرف الشرقي حيث الحدود تتعرَّج بسريان نهر «رويال»). يتصالب الطريقان الرئيسيان، فتبدو البلدة على الخارطة كصورة عبر منظار التصويب.

الرُّبع الشمالي الغربي يُعد شمال «أورسالم»، وفيه أكثر غاباتها. هو مكان مرتفع، لكنه لن يبدو كذلك إلا بالنسبة إلى سكان أواسط غرب «أمريكا» على الأرجح.

التِّلال العتيقة المُتعَبة، المكسوَّة بطرق قديمة مُعبَّدة بالحطب، تنحدر بخفة نحو البلدة ذاتها، بينما ينتصب منزل «مارستِن» عند نهاية طريق منهم.

أغلب الربع الشمالي الشرقي عبارة عن أرضٍ برية مُنبسطة مغطاة بالتِّمس والقش والبرسيم، يجري خلالها نهر «رويال» الذي بُليت ضفافه حتى كادت تتساوى بمستوى قاعه. يجري النهر من تحت جسر شارع «بروك» الخشبي الصغير، ويجول شمالًا في منحنيات مُتلألئة حتى يخترق الحدود الشمالية للبلدة، حيث ينحدر من ارتفاع خمسين قدمًا عابرًا حافة جرانيتية كما اعتاد منذ أكثر من مليون عام. يطلق الأطفال على الحافة اسم (قفزة الثَّمِل)، مُستلهمين حادث قفز «تومي رَثبون»، شقيق «فيرج رَثبون» الغبي، حين سقط من أعلى وهو يبحث عن مكان يبُول فيه.

يمُد نهر «رويال» مصنع ورق مدينة «أندروسكوجين» الملوَّثة، لكن النهر نفسه لم يتلوث قط؛ الصناعة الوحيدة التي كانت تتبناها البلدة هي مناشر الخشب، وهي صناعة قد زالت منذ زمن.

في شهور الصيف، يُؤْلَف مشهد الصيادين المتراصين على جسر شارع «بروك»، فاليوم الذي لا تكتفي فيه من خيرات نهر «رويال» هو يوم نادر الحدوث.

الرُّبع الجنوبي الشرقي هو الأجمل؛ يرتفع مستوى الأرض مرة أخرى، لكن بلا أثر لنكبة الحريق، ولا للتربة الفاسدة المحترقة. الأراضي على جانبي طريق «جريفِن» كانت مملوكة لـ «تشارلز جريفِن»، أكبر تاجر ألبان في جنوب «ميكانيك فولز».

من عند ساحة مدرسة «هيلز يارد»، يمكنك أن ترى حظيرة «جريفِن» الضخمة بسقفها المصنوع من الألومنيوم يلمع تحت أشعة الشمس كمرآة عاكسة عملاقة. ثمة مزارع أخرى في المنطقة، ومنازل جيدة كثيرة اشتراها ذوو الياقات البيضاء[5] ممن انتقلوا إلى «بورتلاند» أو «لويستون».

في الخريف، يمكنك إن اعتليت سقف المدرسة أن تشُم رائحة حريق مخلفات الزراعة، وترى عربة إطفاء البلدة الشبيهة بألعاب الأطفال تستعد للتدخل إن خرجتْ الحرائق عن السيطرة. الدرس الذي تعلموه من حريق 1951 ما زال أمام أعينهم.

أما المنطقة الواقعة في الجنوب الغربي، فهي المنطقة التي بدأت هجرة العربات المقطورة إليها، وتبعها كل ما يشبهها -كحزام كويكبات- خارج الضاحية. تجد هناك صفوفًا من العربات المقطورة المتهالكة، والأرجوحات المصنوعة من إطارات السيارات معلَّقة من حبال مهترئة، وعلب البيرة الفارغة تلمع عند المُنعطفات، والثياب المغسولة البالية مُتدلية من حبال مشدودة بين قائمَين. المنازل في المنطقة بينها وبين الأكواخ الخشبية صلة قرابة، إلا أن فوق كل منها هوائيّ استقبال معدنيًّا، وفي أغلب المنازل أجهزة تلفاز ملونة اشتراها الناس بالدَّين من متجر «جرانت» أو متجر «سيرز».

الساحات بين العربات المقطورة والأكواخ تعج عادة بالأطفال، واللُّعَب، والدراجات النارية، والشاحنات الصغيرة، وزلاجات الجليد.

بعض العربات المقطورة مُعتنى بها، لكن أغلبها كان في حالة يُرثى لها؛ تنمو حولها الهندباء والأعشاب البرية.

خارج حدود البلدة، حيث يتحول شارع «بروك» إلى طريق «بروك»، تقع حانة «ديل» التي يعزف فيها فريق موسيقى «روك آند رول» في كل جُمعة، وفريق موسيقى مُنوعة في أيام السبت. احترقت الحانة في عام 1971، ثم أُعيد بناؤها. بالنسبة إلى الشباب المحليين من طراز رُعاة الأبقار، هي مكان مناسب لاصطحاب الفتيات وشُرب البيرة والشجار.

أغلب خطوط الهاتف كانت تتيح الاتصال بين طرفين أو أربعة أو ستة، ليتمكن الناس من البقاء على اتصال بعضهم ببعض. في البلدات الصغيرة، تُطبَخ الفضائح على نار هادئة مثلما كانت تطهو الخالة «سيندي» الفول. تنبع أغلب الفضائح من منطقة الـ (مُنحنى) حيث العربات المقطورة وساكنوها، لكن من حين لآخر تظهر فضيحة لشخص مرموق وتُضاف إلى وعاء الفضائح العمومي.

حكومة البلدة تتمثل في اجتماع أهالي البلدة لا أكثر، وعلى الرغم من أن هناك مُقترحات منذ عام 1965 عن ضرورة تغيير الحُكم إلى مجلس بلدية مع إقامة جلسة استماع علنية نصف سنوية لمناقشة الميزانية، هذا الاقتراح لم يلق استحسان أحد. المدينة لا تتوسع أو يزيد سكانها إلى الحد الذي يجعل الحُكم المحلي غير كافٍ، ومع هذه الديموقراطية المفقودة، لا يسع الوافدين الجُدد فعلُ شيء إلا السخط.

هناك ثلاثة رجال مُنتخَبون في المجلس؛ شرطي المدينة كممثل عن الفقراء، وكاتب المدينة، ووكيل المدرسة. لإدارة المطافئ التطوعية ميزانية سنوية قدرها ثلاثمائة دولار، يخصَّص أغلبها للنوادي

الاجتماعية ومعاشات العاملين القدامى. كانوا قد شهدوا إثارة كافية خلال مواسم حرق الحشائش، وأمضوا باقي العام في الجلوس معًا وتبادل الحكايات.

لم يكن في البلدة إدارة للعاملين بالقطاع العام، لأنه لم يكن ثمة خطوط مياه حكومية، ولا أنابيب غاز، ولا صرف، ولا شبكة إنارة. أبراج الكهرباء المملوكة لشركة «مَين» المركزية للطاقة تقطع البلدة طوليًّا من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وتشق الغابة بعرض مائة وخمسين قدمًا. واحد من هذه الأبراج ينتصب قريبًا من منزل «مارستِن»، كحارس من عالمٍ آخر.

ما تعرفه بلدة «سالم» عن الحروب والحرائق والأزمات الحكومية مصدره الرئيسي المذيع الإخباري «والتر كرونكيت»[(6)].

أوه، لقد قُتل ابن «بوتَر» في حرب «فايتنام»، وعاد ابن «كلود بوِّي» بقدم صناعية تعويضية -فقد خطا فوق لغمٍ أرضي- لكنه حصل على عملٍ لدى مكتب البريد ويساعد «كينـي دانليز». إذًا كل شيء على ما يُرام.

الفِتيان يطيلون شعورهم، ولم يعودوا يصففونه بعناية كما كان يفعل آباؤهم، لكن لم يعد أحد يهتم. عندما ألغوا الزي الموحد في المدرسة الثانوية المُشتركة، كتب «آجِّي كوليس» خطابًا إلى جريدة «كمبرلاند ليدجر»، إلا أن «آجِّي» قد اعتاد مراسلة الجريدة منذ أعوام، وأغلب مراسلاته شكوى من شرور الخمر ومُعجزات قبول يسوع المسيح في قلبك وعدُّه مُخلِّصك.

بعض الأولاد يتعاطون المخدرات... «فرانك» -ابن «هوراس كيبلي»- مَثُلَ أمام القاضي «هوكر» في أغسطس، وحُكِم عليه بغرامة قدرها خمسون دولارًا (قَبِل القاضي باقتطاع الغرامة من مكسبه من توزيع الصحف على المنازل)، لكن مشكلة الكحول كانت أكبر. أولاد كثيرون يتسكعون في حانة «ديل» منذ انخفض عمر السماح بالشُّرب إلى الثامنة عشرة. يعودون إلى بيوتهم بسرعة البرق كأنما يطفون فوق الطرقات على أربع عجلات. من وقت لآخر تقتل الحوادث واحدًا منهم، مثلما حدث مع «بيلي سميث» حين ارتطم بشجرة على طريق «ديب كات» في عمر التاسعة عشرة، فمات هو وصديقته «لافيرن دوب».

فيما عدا هذه الأمور، معرفة البلدة بأخبار البلاد معرفة نظرية، فالوقت يمر بطريقة مختلفة هناك، ولن يحدث شيء غريب في بلدة لطيفة صغيرة كهذه.

***

كانت «آن نورتون» تكوي الملابس حين اقتحمت ابنتها الغرفة حاملةً أكياس البقالة. ألقت في وجهها بكتاب على غلافه الخلفي صورة شاب نحيل، وبدأت تُثرثر.

قالت «آن»:

- اهدئي! اخفضي صوت التلفاز وأخبريني.

أخرست «سوزان» صوت مقدم البرامج «بيتر مارشال»، وأخبرت أمها عن مقابلتها لـ «بِن ميرز». أجبرت السيدة «نورتون» نفسها على الإيماء بهدوء وتعاطف وتفهُّم وهي تسمع الحكاية على الرغم من أضواء التحذير الصفراء التي تضوي أمامهما كلما تحدثت «سوزان» عن (ولدٍ)

جديد... (رجل) جديد الآن، مع أنها لم تقتنع بعد أن «سوزان» قد كبرت كفاية كي تتعرف إلى رجال. أضواء التحذير كانت أكثر سطوعًا اليوم.

قالت وهي تضع قميصًا آخر لزوجها على طاولة الكي:

- يبدو الأمر مثيرًا.

قالت «سوزان»:

- كان رقيقًا حقًّا، وشديد التلقائية.

- آهٍ يا قدمي...

قالتها السيدة «نورتون» وهي تضع المكواة على حاملها، فأصدرت الأخيرة هسيسًا خافتًا، ثم جلست على كرسي هزاز بالقرب من النافذة الكبيرة. أمسكت علبة سجائر من نوع «بارلِمنت» كانت على منضدة القهوة وأشعلت منها واحدة.

- هل أنت واثقة أنه رجل محترم يا «سوزي»؟

ابتسمت «سوزان» مُدافعةً وهي تجيب:

- بالتأكيد، أنا واثقة. يبدو كـ... أوه، لا أعرف... كمدرس في الجامعة أو شيء من هذا القبيل.

قالت السيدة «نورتون» مُتأملة:

- قيل إن «بومبر»[7] المجنون كان يبدو كبُستاني.

- هراء! خراء ظبيان لا أكثر.

قالتها «سوزان» في مرح، فتعبيرها الوقح هذا ينجح دومًا في إزعاج أمها. مدت الأخيرة يدها وهي تقول:

- دعيني أرى الكتاب.

ناولتها «سوزان» إياه، وقد تذكرت فجأة مشهد الاغتصاب المِثلي في الفصل الذي يدور في السجن.

- رقصة الريح.

بدأت تُقلب الصفحات بشكل عشوائي. انتظرت «سوزان» مُتحفِّزةً، فأمها تنجح دومًا في تقَصِّي تلك المشاهد.

كانت النوافذ مفتوحة، وبدأت نسمة هواء كسولة في التسلل، فتحركت الستائر الصفراء في المطبخ والذي تصر أمها على تسميته (غرفة المؤن). كان منزلهم جميلًا، مبنيًّا من الطوب العاري مما جعل تدفئته صعبة في الشتاء، لكنه بارد ككهفٍ في الصيف. المنزل فوق مُرتفع عند نهاية شارع «بروك»، ومن خلف النافذة التي تجلس أمامها السيدة «نورتون» يمكنك أن ترى عمق المدينة بأكملها. المنظر جميل، وفي الشتاء يصير مذهلًا مع مشهد الأفق المتلألئ بالثلج، والمنازل البعيدة المنخفضة التي تعكس مستطيلات صفراء من الضوء على حقول الجليد.

- أعتقد أنني قرأت مُراجعة لهذه الرواية في جريدة «بورتلاند»، ولم يُذكَر عنها خير.

قالت «سوزان» في ثبات:

- تُعجبني. وهو أيضًا يعجبني.

قالت السيدة «نورتون» دون أن تُحرك ساكنًا:

- ربما يُعجب «فلويد» كذلك. عليك أن تعرّفيه عليه.

شعرت «سوزان» بطعنة غضب حقيقي أثارت جزعها. كانت تظن أنها وأمها قد اجتازتا آخر عواصف المراهقة وتبعاتها، لكن ها هي تبدأ كل شيء مرة أخرى. كانتا قد تجادلتا كثيرًا عن هويتها في مقابل خبرات أمها ومُعتقداتها، ولا داعي لحل هذا النسيج القديم مرةً أخرى.

- لقد تحدثنا بشأن «فلويد» يا أمي، وتعرفين أنه لا يوجد شيء جاد بيننا.

- تقول مراجعة الجريدة إن الرواية تحوي مشاهد بشعة أيضًا؛ رجال يضاجعون رجالًا في السجن.

- أماه! لأجل يسوع كفى!

أخذت «سوزان» واحدة من سجائر أمها التي قالت في ضيق:

- لا داعي لأن تُقسمي.

أعادت الكتاب إلى ابنتها، ثم هزت سيجارتها في مطفأة خزفية على شكل سمكة، وهي هدية من سيدة من سيدات النادي النسوي. كانت «سوزان» تكره تلك المِطفأة؛ ثمة شيء وقح في أن تطفئ سيجارتك في فم سمكة. قامت «سوزان» وهي تقول:

- سوف أضع البقالة في أماكنها.

قالت السيدة «نورتون» بهدوء:

- كنت فقط أقول إن كنتِ و«فلويد تِبتس» ستتزوجان فـ...

راح الضيق يغلي في نفس «سوزان» متحولًا إلى غضب، فهتفت مُقاطعةً:

- ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك بحق الله؟! هل أخبرتك بذلك في أي مرة؟

- أنا افترضت...

- افتراضك خاطئ.

خرجت الكلمات حارة من فمها، وإن لم تكن صادقةً بالكُلية. كانت مشاعرها تخفُت تجاه «فلويد» تدريجيًّا خلال الأسابيع الماضية.

قالت أمها في عناد:

- كنت أفترضُ أنك إن واعدتِ شابًّا لمدة عام ونصف، فالأمور بينكما قد خرجت عن السيطرة.

- أنا و«فلويد» أكثر من صديقين.

وافقتها «سوزان»، فتركت لها عمدًا مساحة للظن. وتعلَّق نقاش غير منطوق بينهما.

هل كنت تنامين مع «فلويد»؟

ليس من شأنك.

ماذا يعني لك هذا الرجل، «بِن ميرز»؟

ليس من شأنك.

هل ستقعين في حبه وتقترفين أفعالًا حمقاء؟

ليس من شأنك.

أحبك يا «سوزي»، أنا وأبوك نحبك.

لم يكن لديها ما ترد به على العبارة الأخيرة. لا توجد إجابة... لا توجد إجابة، لذا الرحيل إلى «نيويورك» أو أي مكانٍ آخر ضرورة حتمية.

في النهاية تتهشمين أمام حصن حبهما، كحوائط زنزانة مُبطنة. حقيقة حبهما جعلت أي نقاشات مُجدية مُستحيلة، وصار كل ما قيل من قبل غير ذي قيمة.

قالت السيدة «نورتون» برقة وهي تُطفئ سيجارتها في فم السمكة ثم تدفنها في بطنها:

- حسنًا...

- سأصعد إلى حجرتي.

- كما تشائين. هل يمكن أن أقرأ الرواية بعد انتهائك منها؟

- إن كنتِ تريدين ذلك.

- أودُّ أن أقابله.

فردت «سوزان» كفيها وتجاهلتها مُستهجنةً، فسألتها أمها:

- هل ستتأخرين الليلة؟

- لا أعرف.

- ماذا أقول لـ «فلويد تِبتس» إن اتصل؟

ظهر الغضب أمام عينيها مرة أخرى، فأجابت:

- أخبريه بما تريدين. هذا ما تفعلينه دومًا.

- «سوزان»!

صعدت «سوزان» إلى حجرتها دون أن تنظر خلفها.

ظلت السيدة «نورتون» في مكانها، تحدق إلى خارج النافذة، إلى البلدة، ولا تراها. تسمع من فوقها خطوات «سوزان»، وصوت الباب يُغلق.

نهضت واستكملت كي الملابس. حين ظنت أن «سوزان» قد انهمكت في عملها (على الرغم من أنها لم تسمح لتلك الفكرة إلا بإطلالة سريعة عند ركن وعيها) ذهبت إلى المطبخ واتصلت «بمَيبل وُرتس». وسط المكالمة ذكرت أن «سوزي» قد أخبرتها بوجود كاتبٍ شهير في البلدة، قالت «مَيبل»:

- إنها لا بد تقصد الرجل الذي كتب رواية (ابنة كونواي).

فقالت السيدة «نورتون»:

- أجل.

فردَّت «مَيبل»:

- إنه لا يكتب سوى القصص الإباحية المباشرة.

سألتها السيدة «نورتون» إن كان يقيم في نُزُل أم...

- الحقيقة إنه يسكن في بيت ضيافة «إيفا»، بيت الضيافة الوحيد في البلدة.

شعرت السيدة «نورتون» بالراحة. «إيفا ميلَّر» أرملة محترمة لن ترضى بأي انحلال لديها، وقوانينها الصارمة تقضي بعدم السماح بوجود نساء في حجرات الرجال. إن كانت أمك أو أختك فلا

بأس، أما إن كانت غير ذلك فيمكنك مقابلتها في المطبخ. لا جدال في القوانين.

أغلقت السيدة «نورتون» الخط بعد خمس عشرة دقيقة، بعد أن غطت تساؤلها الأصلي بمزيد من الثرثرة.

فكَّرت وهي تعود إلى طاولة الكي: «سوزان»، أنا فقط أريد الأفضل لك. ألا ترين هذا؟

***

كانا في طريقهما للعودة من «بورتلاند» على طريق 295، ولم يكن الوقت متأخرًا، فقط تجاوزت الساعة الحادية عشرة بقليل. السرعة المُقررة على الطريق السريع بعد الخروج من «بورتلاند» هي خمسة وخمسون ميلًا في الساعة، قيادته بارعة، وقد استمرت أضواء السيارة الـ «ستروين» في شق ظُلمة الطريق بنعومة.

استمتع كلاهما بالفيلم، لكنهما كانا حذرين كما يحذر أي شخصين ما زالا يتحسسان حدود بعضيهما. ثم خطر ببالها سؤال أمها، فسألته:

- أين تُقيم؟ هل تؤجِّر مكانًا؟

- أقيمُ في صندوق في الطابق الثالث من بيت ضيافة «إيفا»، في شارع «ريلرود».

- لكنه مكان بشع. لا بد أن درجة حرارة الغرفة تتعدى المائة.

- أحب هذا الحر، وأعمل جيدًا فيه. أخلع النصف الأعلى من ملابسي، وأرفع صوت المذياع، وأشرب جالونًا من البيرة. أكتب عشر صفحات يوميًّا من رواية جديدة. أشعر بمعنوياتي المرتفعة القديمة تعود إليَّ، وحين أخرج في النهاية إلى الشرفة وآخذ نَفَسي... يا له من نعيم!

قالت في شك:

- ما زال المكان...

قال بتلقائية:

- أفكر في استئجار منزل «مارستِن»، حتى إنني قد سألت عنه، فوجدته قد بيع.

ابتسمت متسائلة:

- منزل «مارستِن»؟ ربما سألت عن مكان آخر بالخطأ.

- كلا. سألت عن المنزل فوق التل عند الشمال الغربي من البلدة. طريق «بروك».

- ووجدتَه مُباعًا؟ مَن بحق السماء...؟

- أنا أيضًا تعجبت. الجميع يتهمني من وقت لآخر بأن صامولة ما في عقلي مفكوكة، لكنني فكرت فقط في استئجاره لا شرائه. لم يخبرني رجل العقارات باسم المُشتري. يبدو أنه سر خطير.

- ربما أراد شخص من خارج الولاية تحويله إلى منزل صيفي. أيًّا كان، فهو مجنون. تجديد منزل أمر رائع وأود لو أجربه، لكن المكان أكبر من قدرة أي شخص على تجديده. المنزل حطام منذ وعيت على الدنيا. «بِن»، لماذا تريد الإقامة فيه؟

- هل دخلتِهِ من قبل؟

- كلا، لكنني نظرت خلال نافذته متحديةً خوفي. هل دخلته أنت؟

- أجل. مرة واحدة.

- مكان مُرعب، أليس كذلك؟

خيم الصمت وكلاهما يُفكر في منزل «مارستِن». ذكريات هذا المكان بالنسبة إليهما لا تحمل صِبغة الحنين إلى الماضي مثل باقي الأماكن. من قبل ولادتيهما، والفضائح والعنف متصلان بهذا المنزل، والبلدات الصغيرة ذاكرتها قوية وتنقل مخاوفها بإصرار من جيلٍ إلى جيل.

قصة «هَبِرت مارستِن» وزوجته «بيردي» تُعَدُّ هيكلًا عظميًّا مرعبًا في خزانة البلدة. «هَبي» كان مدير شركة شاحنات كبيرة في «نيو إنجلند» عام 1920، وهي شركة أُشيع أن أغلب أرباحها تأتي من أنشطة ليلية؛ تهريب الويسكي الكندي إلى «مَساتسوشيتس» الأمريكية.

في النهاية، جمع «هَبرت» وزوجته ثروة هائلة وسكنا في بلدة «سالم» عام 1925، لكنهما خسرا جزءًا كبيرًا من ثروتهما في أثناء انهيار سوق الأوراق المالية عام 1929 (لا أحد يعرف تحديدًا قدر ما خسراه، ولا حتى «مَيبل وُرتس»).

خلال العشرة أعوام الفاصلة بين انهيار البورصة وصعود نجم «هِتلر»، عاش «مارستِن» وزوجته في منزلهما كالنُسَّاك. المرات الوحيدة التي يراهما فيها أحد هي أيام الأربعاء حين ينزلان إلى السوق للتبضُّع.

يقول «لاري مَكلويد»، موزع البريد أيامها، إن آل «مارستِن» يبتاعون أربع صُحُف يومية بالإضافة إلى جريدة مساء السبت، وجريدة نيويورك، ومجلة شعبية اسمها (قصص مذهلة). كذلك كانت شركة الشاحنات -في «فول ريفير»، بولاية «مَساتشوستس»- ترسل لـ «مارستِن» حسابه شهريًّا. يقول «لاري» إنه عرف أن خطاب الشركة يحوي شيكًا مصرفيًّا عن طريق طي المظروف والنظر عبر المستطيل الشفاف الذي يُبين العنوان.

«لاري» كذلك هو من وجدهما في صيف 1939. تجمعت صُحف ومجلات خمسة أيامٍ داخل صندوق بريدهما حتى صار من المستحيل دَس صحيفة أخرى وسطها. أخرجها «لاري» كلها وحملها إلى المنزل مُنتويًا وضعها بين الباب السلكي والباب الخشبي.

كان الوقت صيفًا، في بداية (أيام الكلب)[8]، وكانت الحشائش في الساحة الأمامية تصل إلى منتصف الساق، وعشبة زهرة العسل تنمو متوحشة لتغطي التعريشة عند الجانب الغربي من المنزل، تحوِّم حول بتلاتها نحلات سمينات.

في تلك الأيام كان مظهر المنزل جيدًا على الرغم من الحشائش العالية، وقد اتفق الأغلبية على أن «مارستِن» قد بنى أجمل منزل في بلدة «سالم»، هذا قبل أن يتعفن بالطبع.

حسب القصة التي ترويها النساء مبهورات الأنفاس في النادي النسوي، حين وصل «لاري» إلى منتصف المسافة إلى الباب، شمَّ رائحة كريهة أقرب للحم فاسد. قرع الباب الأمامي ولم يُجبه أحد. حاول النظر عبر نافذة الباب لكنه لم يرَ شيئًا في الظلام الدامس. وبدلًا من أن يرحل، دار حول المنزل، وقد كان محظوظًا باتخاذه هذه القرار. جرب «لاري» الباب الخلفي فوجده غير موصَد، فدخل إلى المطبخ ووجد «بيردي مارستِن» ممدَّة في الركن، مُنفرجة الساقين، حافية، نصف رأسها قد زال تمامًا من أثر طلقة من بندقية 30-06 من مسافة قريبة.

(ذباب)! هذا ما تقوله «أودري هيرسي» عند هذه النقطة من الحكاية وهي تتحدث بصوت متسلط واثق. (قال «لاري» إن المطبخ كان مليئًا بالذباب، يئز حولها، ويحُط فوقها... أنت تعرف، ثم يطير مرة أخرى. ذباب).

استدار «لاري مَكلويد» مُنصرفًا، وعاد فورًا إلى البلدة، فأحضر «نوريس فارني» الذي كان مسؤول الشرطة وقتها، مع ثلاثة أو أربعة أشخاص كانوا يجلسون في متجر «كروسِن». والد «ميلت» كان يدير المكان وقتها، وكان «جاكسون» شقيق «أودري» من ضمن الرجال. ذهبوا جميعًا إلى المنزل في سيارة «نوريس» الـ «شيفروليه»، وشاحنة بريد «لاري».

لم يدخل أحد من أهالي البلدة إلى المنزل من قبل، وقد كان أعجوبة وقتها تناقلتها الألسن ثم خَفَت كل شيء. بعد أن اختفى الحماس، نشرت جريدة «بورتلاند تليجرام» مقالًا مصوَّرًا عن القصة. منزل «مارستِن» كان مُكدَّسًا بكل أنواع النفايات كأنه جُحر فأر. الأغراض في كل مكان، وفي الممرات الضيقة اصطفَّت الجرائد القديمة المُصفرَّة على الجانبين، مع أكوام من الكتب النفيسة المتعفنة؛ المجموعات الكاملة لـ «ديكنز»، و«سكوت»، و«ماريِّت»، وقد أُرسِلت كلها إلى «لوريتا ستارشر» في مكتبة «أورسالم» العامة، وما زالت مكوَّمةً هناك.

التقط «جاكسون هيرسي» جريدة مساء السبت، وقلَّب صفحاتها، فلاحظ دولارًا مُثبَّتًا إلى كل صفحة فيها.

اكتشف «نوريس فارني» كم كان «لاري» محظوظًا حين قرر الدخول من الباب الخلفي، فقد كان سلاح الجريمة مثبَّتًا على كُرسي، مصوَّبًا نحو الباب الأمامي في ارتفاع صدر الإنسان. السلاح مُعبأ، وقد رُبط خيط إلى الزناد بينما طرفه الآخر مربوط إلى مقبض الباب الأمامي.

(تقول «أودري» عند هذه التفصيلة: كان السلاح معبأً كذلك. لمسة واحدة للمقبض، وكان «لاري مَكلويد» سيجد نفسه عند بوابات السماء).

كانت هناك أفخاخ أخرى أقل خطورة؛ مجموعة من الكتب تزن أربعين رطلًا موضوعة فوق باب حجرة الطعام، واحدة من ألواح الدَّرج الذي يقود إلى الطابق الثاني مُخلخلة، وقد تتسبب في كسر كاحل من يطؤها.

تدريجيًّا صار من الواضح أن «هَبي مارستِن» كان أكثر من مجرد رجل غير اجتماعي؛ الرجل كان مُختلًّا بكل معاني الكلمة.

وجدوه في حجرة النوم عند نهاية رواق الطابق العلوي، يتدلى من السقف.

(«سوزان» وصديقاتها قد عذَّبن أنفسهن مُستلذات بالحكايات التي توارثنها عن الكبار. «آمي روكليف» لديها حجرة خشبية في باحة منزلها الخلفية، تغلقن على أنفسهن بابها وتجلسن في الظلام، تُفزِع إحداهن الأخرى بحكايات عن منزل «مارستِن»، الذي ذاع صيته من قبل أن يغزو «هِتلر» بولندا، وكُن ترددن القصص القديمة وتُزيِّنَّها بتفاصيل رهيبة بقدر ما تستطيع عقولهن التخيل).

حتى الآن، وبعد ثمانية عشر عامًا، تجد أن مجرد التفكير في منزل «مارستِن» يؤثر فيها كتعويذة ساحر، فتستعيد الصور الواضحة المؤلمة للفتيات متكدسات داخل حجرة «آمي» الخشبية، كل واحدة تُمسك كفي رفيقتيها، بينما «آمي» تحكي بصوت غريب:

(وجهه كان متورِّمًا، ولسانه مُسوَد متدلٍّ خارج فمه، بينما الذباب يتجمع فوقه. هكذا قالت أمي للسيدة «ريتس»).

- ... مرعب.
أفاقت «سوزان» من ذكرياتها وعادت إلى الواقع. كان «بِن» ينعطف عند مدخل بلدة «سالم».
- كنت أقول... إنه مكان قديم مرعب.
- احكِ لي عما رأيت حين دخلته.
ضحك في مرارة، وأضاء كشافات السيارة العالية. الطريق الأسفلتي الموحش مزدوج الاتجاهات يمتد مستقيمًا بين أشجار الصنوبر والتنوب.
- بدأ الأمر بلعبة أطفال، ربما كان حقًّا مجرد لعب أطفال. تذكرين، كان هذا في عام 1951، وعلى الصغار أن يجدوا شيئًا أفضل يفعلونه عِوضًا عن شم رائحة الغراء المُستخدَم في لصق الحقائب الورقية كبديلٍ عن المخدرات، لكن هذا الغراء لم يكن قد اختُرِع وقتها حتى! اعتدتُ اللعب كثيرًا مع أطفال منطقة المُنحنى، وأغلبهم قد غادروها الآن. أما يزالون يطلقون على جنوب بلدة سالم «المُنحنى»؟
- أجل.
- كنت ألعب مع «ديفي باركلي»، و«تشارلز جيمس» -الأطفال كانوا يُطلقون عليه اسم «سوني»-، و«هارلود رَوبيرسون»، و«فلويد تِبتس»...
سألته منزعجة:
- «فلويد»؟
- أجل. هل تعرفينه؟
قالت بسرعة وقد خَشيَت أن يبدو صوتها غريبًا:
- واعدته لفترة. «سوني جيمس» ما يزال موجودًا كذلك، يُدير محطة تزويد الوقود في شارع «جوينتر». أما «هارلود» فقد توفي بسرطان الدم.
- كانوا كلهم أكبر سنًّا مني بعامٍ أو اثنين. كان لديهم ناديهم الحَصري، تعرفين هذه الأمور. لا ينضم إليه إلا القراصنة اللُّعناء ذوو الخبرة.
حاول أن يحكي ببساطة ومرح، لكن المرارة القديمة ما زالت مدفونة تحت كلماته. استطرد:
- لكنني كنت مُثابرًا. الشيء الوحيد الذي أردته وقتها هو أن أكون قرصانًا لعينًا... على الأقل هذا ما أردته في هذا الصيف تحديدًا. في النهاية لانوا وسمحوا لي بالانضمام إليهم إن اجتزت الاختبار، والذي فكَّر فيه «ديفي» على الفور. سنذهب جميعًا إلى منزل «مارستِن»، وعليَّ أن أدخل وأجلب شيئًا؛ غنيمة.
- وماذا حدث؟
- تسللت عبر النافذة. كان المنزل لا يزال متخمًا بالنفايات حتى بعد مرور اثني عشر عامًا. لا بد وأنهم كانوا قد أخذوا الصُّحُف خلال الحرب، لكنهم تركوا كل شيءٍ آخر. كانت هناك طاولة في الردهة الأمامية، عليها واحدة من تلك الكرات الزجاجية التي تحوي فتاتًا كالثلج بداخلها. أتعرفين ما أعني؟ داخل الكُرة بيت صغير، وعندما تهزينها يتساقط الفتات المعلَّق في سائل كأنه ثلج. وضعتها في جيبي، لكنني لم أغادر فورًا. كنت أريد أن أثبت جدارتي. صعدت الدَّرج إلى حيث شنق الرجل نفسه.

- يا إلهي!

- افتحي صندوق القفازات واجلبي لي سيجارة، لو سمحتِ. أحاول أن أقلِع عن التدخين، لكنني أحتاج إلى واحدة لتساعدني على الحكي.

أخرج بِن سيجارة من العُلبة، وضغط القدَّاحة المُثبتة في لوحة القيادة، ثم قال:

- للبيت رائحة... لن تصدقي كيف كانت. فطريات، وعفن المفروشات، ورائحة زَنِخة كأنها زبد فاسد. وكذلك رائحة كائنات حية؛ فئران أو قنادس أو أيًّا ما كان يعشش داخل الجدران، أو في حالة سُبات شتوي في القبو. رائحة صفراء مُبتلة.

زحفتُ صاعدًا الدَّرجات، طفل صغير في التاسعة، خائفٌ مُرتعب. كان البيت يئن ويتحرك من حولي، ويمكنني سماع صوت أشياء تهرول بعيدًا عني على الجهة الأخرى من الحوائط الجبسية. ظللت موقنًا أنني أسمع صوت خطوات خلفي، وخُفت أن ألتفت فربما أرى «هَبي مارستِن» يترنَّح خلفي وحبل الأنشوطة في يده، ووجهه مُسوَدٌّ.

كان «بِن» يقبض على عجلة القيادة بقوة، وقد زالت الخِفة عن صوته. أخافتها الحدة والدقة التي يتذكر بها الأحداث. على ضوء لوحة العدادات، لاح على وجهه تعبير رجل يجول في بلدة يكرهها، ولا يستطيع مغادرتها. أردف:

- استجمعت شجاعتي عند نهاية السُّلم، وعدوت عابرًا الردهة إلى حجرة النوم. كانت خطتي هي الجري، وخطف أي شيء من هناك، ثم الخروج من هذا المكان اللعين. كان الباب في نهاية الردهة مُغلَقًا، وكنت أراه يقترب ويقترب. المفصَّلات ثابتة، وأسفله يستند إلى دعامة الباب. المقبض فضي، ملطَّخ قليلًا عند مكان احتكاك الأكُف به. عندما جذبته، أصدر أسفل الباب صرخة احتكاك بالخشب كأنما امرأة تتألم. لو كنت في كامل عقلي لاستدرت وخرجت فورًا من هذا المكان، لكن الـ «أدرينالين» كان يتدفق في جسدي، فأمسكت المقبض بكلتا يديَّ وجذبت بكل قوتي. انفتح في النهاية، ومن خلفه رأيت «هَبي» مُعلَّقًا من السقف، جسده يبدو كـ «سيلويت» مُظلل والضوء يسطع من النافذة خلفه.

قالت في عصبية:

- أوه، «بِن»... لا...

أصرَّ مُردفًا:

- كلا. أنا أخبرك الحقيقة. الحقيقة التي رآها طفل في التاسعة، والحقيقة التي يتذكرها رجل بعد مُضي أربعة وعشرين عامًا. «هَبي» كان مُعلَّقًا هناك، ولم يكن وجهه مُسودًّا على الإطلاق. كان مُخضرًّا، وعيناه منتفختين مغلقتين، ويداه متخشبتين شنيعتين. ثم فتح عينيه...

سَحب «بِن» الدخان من سيجارته بقوة، ثم قذفها إلى الظلام خارج النافذة:

- أطلقتُ صرخة ربما سُمعت من مسافة ميلين، ثم أطلقتُ ساقيَّ للريح. تعثرتُ عند منتصف السُّلَّم، وقمت، ثم جريت خارجًا من الباب الأمامي ومنه إلى الطريق. كان الأولاد ينتظرونني على بُعد نصف ميل بالأسفل. هنا لاحظت أن الكرة الزجاجية لا زالت معي، في يدي.

- أنت لا تظن أنك رأيت «هَبرت مارستِن»، أليس كذلك يا «بِن»؟

على بُعد، رأت الأضواء الصفراء الوامضة، التي تُميز منتصف البلدة، وكانت سعيدة لمرآها.

بعد صمت طويل، أردف:

- لا أعرف...

قالها بصعوبة وتردُّد، كأنما يُفضِّل أن يقول «لا» ويغلق هذا الموضوع. أضاف:

- ربما كنت مُتحمسًا لدرجة جعلتني أهلوس بكل هذا. على جانب آخر، ربما هناك بعض الحقيقة خلف المُعتقَد الشائع بأن المنازل تمتص المشاعر التي عاشها سُكانها فيها، وتحمل نوعًا من... الشُّحنات. ربما تحبس جزءًا من شخصية من عاش فيها، فيستطيع طفل خيالي أن يلتقط هذه الشحنات، كعاملٍ مُحفز يُطلِق تجليات لـ... لشيء ما. أنا لا أتحدث عن الأشباح خاصة، أنا أعني نوعًا من التلفاز الرُّوحاني ثلاثي الأبعاد. أو شيء حي... وحش إن أردتِ الدقة.

أخذَت واحدة من سجائره وأشعلتها. أكمل:

- المُهم، فقد نِمت ونور حجرتي مُضاء لأسابيع بعدها، وحلمت بهذا الباب وما خلفه طيلة حياتي. وقتما أكون تحت ضغطٍ نفسي، يأتي الحُلم.

- هذا مُريع.

- كلا، ليس مُريعًا.

أشار بإصبعه نحو المنازل الصامتة الغافية على جانبي شارع «جوينتر» وأردف:

- أحيانًا أتعجب، كيف لا تصرخ أخشاب هذه المنازل مما يدور في أحلام ساكنيها. تعالي إلى بيت ضيافة «إيفا» واجلسي في الشرفة لبعض الوقت إن أردتِ. لا أستطيع دعوتك في حجرتي، فهذه هي قوانين المكان، لكن لدي علبتَي كولا في صندوق حفظ المثلجات، وبعض خمر الـ «باكاردي» في حجرتي إن كنتِ تُفضلين الكحوليات.

- سأود كأسًا منه بالطبع.

انعطف إلى شارع «ريلرود»، وأطفأ الكشافات، ثم دخل ساحة انتظار السيارات الصغيرة المُخصصة لبيت الضيافة. الشرفة الخلفية مطلية بالأبيض المُخطط بالأحمر، أما المقاعد الثلاثة المصنوعة من الخيزران فمصفوفة في مواجهة نهر «رويال». بدا النهر نفسه كحلم ساحر، وقمر الصيف مُعلَّقًا على أغصان أشجار الضفة الأخرى، يرسم طريقًا فضيًّا على صفحة المياه.

مع صمت المدينة، استطاعت أن تسمع صوت خرير المياه الخافت إذ يسيل عبر فتحات السَّد.

- اجلسي. سأعود.

دخل مُغلِقًا الباب السلكي خلفه، وجلست هي على كرسي هزاز. كان يروق لها على الرغم من غرابته. هي لا تؤمن بالحب من أولِ نظرة، إلا أنها تؤمن بالميل اللحظي (اختارت الاسم الأكثر براءة للافتتان) الذي يحدث كثيرًا. لكنه ليس بعد الرجل الذي يُشجِّع على الكتابة عنه في مذكرات سرية؛ هو شديد النحول بالنسبة إلى طوله، شاحب، وجهه عميق مُثقف، نادرًا ما تكشف عيناه عما يفكر فيه، وكل هذا مُتوَّجٌ بشعر أسود ثقيل يبدو مُمشَّطًا بالأصابع لا مُصفَّفًا بفرشاة.

ثم هذه القصة...

لم تُلمِّح رواية (ابنه كونواي) أو (رقصة الريح) عن هذا العقل المهووس المريض. الرواية الأولى تدور حول ابنة قس تهرب وتنتمي لثقافة مُضادة، وتتخذ طريقًا طويلًا صعبًا عبر البلاد عن طريق الركوب مع الغرباء من مكان إلى آخر. الرواية الأخرى عن «فرانك بازي»، الهارب من الأحكام،

والذي بدأ حياة جديدة كفني سيارات في ولاية أخرى، ومطاردة شرطة تنفيذ الأحكام له. الروايتان كلتاهما مُشرقتان حيويَّتان، وظل «هَبي مارستِن» المُتدلي في عيني طفل في التاسعة لا يمتد إلى صفحات الروايتين.

وكأن بمجرد تفكيرها في «مارستِن»، أدركت أن عينيها تنسحبان من فوق صفحة المياه وتتحركان إلى أعلى يسار الشرفة، حيث تظهر آخر تلال البلدة تمحو النجوم عن السماء.

قال:

- هاكِ. أتمنى أن تعجبك.

- انظر إلى منزل «مارستِن».

فنظر، ورأى ضوءًا أعلاه.

***

نفدت المشروبات وتجاوز الليل منتصفه؛ كاد القمر أن يختفي عن النظر. اندمجا في نقاش خفيف، ثم قالت مُحوِّلة مسار الحديث:

- أنت تروق لي يا «بِن». كثيرًا.

- وأنتِ أيضًا تروقين لي، وأنا متفاجئ... كلَّا، لا أعني هذا بالضبط. هل تذكرين كيف اخترقتُ بسخافتي جلستك في المتنزه؟ يبدو كل شيء فُجائيًّا بلا أي نية أو إعداد.

- أريد أن أراكَ مُجددًا إن كنت تريد رؤيتي.

- أريد رؤيتكِ.

- لكن تمهَّل. تذكَّر، أنا مجرد فتاة من بلدة صغيرة.

ابتسم وهو يقول:

- يبدو كلامك هوليوديًّا، لكنني أحب أفلام هوليود. أليس من المفترض أن أُقبِّلكِ الآن؟

أجابت بجدية:

- بلى، أعتقد أن هذه هي الخطوة التالية.

كان جالسًا على كرسي هزاز بجوارها، ودون أن يوقف أرجحته أمامًا وخلفًا، مال نحوها وضغط بشفتيه على شفتيها دون محاولة لسحب لسانها أو لمسها. كانت شفتاه جامدتين إثر ضغط أسنانه المُربعة من خلفهما، تستشعر هي منهما رائحة وطعم خمر الـ «رَّم» والتبغ الخفيفتين.

بدأت تتأرجح هي الأخرى، وحوَّلت الحركة قبلتهما إلى شيءٍ جديد؛ تظهر وتتلاشى، تقوى وتضعف. فكَّرت: هو يتذوقني. أيقظت هذه الفكرة إثارة سرية نقية بداخلها، فأنهت القبلة قبل أن تأخذها في مسارات أبعد.

قال:

- يا إلهي!

سألته:

- هل تحب أن تأتي للعشاء في منزلي غدًا؟ أراهن أن أهلي سيودون التعرف إليك.

في حبورٍ وهدوءِ اللحظة، ظنَّـت أنها تستطيع إلقاء هذا الاقتراح على أمها.
- طبخ منزلي؟
- أفضل طبخ.
- سأحب ذلك. أنا أعيش على الوجبات المُجمدة منذ انتقلت إلى هنا.
- سأنتظرك في السادسة. نتناول العشاء مُبكرًا.
- بالتأكيد. اتفقنا. بالحديث عن المنزل، سأوصلك إلى بيتك.

لم يتحدثا طيلة طريق العودة حتى رأت الضوء يلتمع أعلى التل، الضوء الذي تنيره أمها وتتركه ما دامت «سوزان» بالخارج. سألته وهي تنظر نحو منزل «مارستِن»:
- تُرى مَن هناك الليلة؟

غمغم مُجيبًا:
- المالك الجديد غالبًا.
- لا يبدو مصدر الضوء كهربيًّا... أصفر أكثر من اللازم، وباهت. مصباح كيروسين رُبما.
- على الأرجح لم تُتَح لهم الفرصة لإعادة التيار الكهربي من الشركة بعد.
- ربما. لكن أي شخص ذي حكمة كان سيتصل بشركة الكهرباء قبل أن ينتقل إلى المنزل.

لم يرُد، فقد كانا قد وصلا إلى موقف السيارات أمام منزلها. قالت فجأة:
- «بِن»، هل تدور روايتك الجديدة عن منزل «مارستِن»؟

ضحك وقبَّل طَرف أنفها وقال:
- الوقت تأخَّر.

ابتسمت له وهمست:
- لم أقصد التطفُّل عليك.
- لا عليكِ. ربما نتحدث عن هذا في وقت آخر... في ضوء النهار.
- اتفقنا.
- الأفضل أن تدخلي بيتك يا فتاتي. الساعة السادسة غدًا؟

نظرت إلى ساعة يدها وقالت:
- السادسة اليوم.
- السادسة ليلًا يا «سوزان».
- ليلًا.

نزلت من السيارة وهرولت بخفة نحو الباب الجانبي، ثم التفتت إليه ولوَّحت له وهو يبتعد. قبل أن تدخل، أضافت القشدة الحامضية إلى قائمة المشتريات من بائع الحليب الجوال المُعلقة خارج المنزل. ستضيف بعضها إلى البطاطس فتعطي رونقًا للعشاء.

توقفت دقيقة أخيرة قبل أن تدخل، تنظر إلى منزل «مارستِن».

***

خلع ملابسه داخل الحجرة الصغيرة الشبيهة بالصندوق، ولم يُضئ المصباح، ثم زحف عاريًا إلى الفراش. هي فتاة لطيفة. الفتاة اللطيفة الوحيدة التي قابلها منذ وفاة «ميراندا». أمِل في أنه لن يحاول تحويلها إلى «ميراندا» جديدة، فيسكون هذا مؤلمًا له، وظلمًا شنيعًا لها.

تمدد وترك نفسه ينزلق إلى النوم، الذي استولى عليه بعد دقائق. انتبهَ واستندَ إلى كوعه ناظرًا إلى ظل آلة الكتابة المُربع ثم إلى حزمة الأوراق الرفيعة جوارها، ثم نظر عبر النافذة. كان قد طلب هذه الحجرة تحديدًا من «إيفا ميلَّر»، بعد أن تفحَّص الحجرات الأخرى، لأنها ببساطة تُطل على منزل «مارستِن» مباشرةً.

الأضواء في الأعلى ما زالت واضحة.

في هذه الليلة زاره الحُلم القديم للمرة الأولى منذ جاء إلى بلدة «أورسالم»، ولم يأتِ بهذا الوضوح منذ الأيام السوداء التالية لوفاة «ميراندا» في حادث الدراجة البخارية.

الجري في الرواق... صرخة الباب إذ يدفعه... الشخص المُتدلي من السقف يفتح عينيه المنتفختين فجأة... هو يلتفت إلى الباب ويعدو ببطءٍ وفزعٍ ولزوجةِ حركة الكوابيس.

ليجده موصدًا.

الموظفون الإداريون.
مذيعًا إخباريًا شهيرا لدي شبكة سي بي إس، لمدة تسعة عشر عامًا.
إيف ترودو، سفاح كندي.
أيام الكلب، هي أوائل أيام الصيف الحارة عند الأمريكيين.

الفصل الثالث

البلدة

لم تكن البلدة تتأخر في الاستيقاظ، فالمهام والأعمال لن تنتظر. لا تكاد تظهر حافة شمس الصباح من الأفق أو تُبدد ظلام الليل، إلا ويبدأ النشاط.

***

الرابعة صباحًا.

أبناء «جريفِن»؛ «هال» في الثامنة عشرة، «جاك» في الرابعة عشرة، وعاملَين بالأجرة شرعوا جميعًا في حلب الأبقار. كانت الحظيرة آية في النظافة، تلمع وتبرق أرضياتها وحوائطها. في المنتصف ممرات ناصعة البياض على جانبيها الإسطبلات وأحواض الشرب الأسمنتية. فتح «هال» المياه بضغطة زر عند آخر الحظيرة، فانفتح الصمام، وراحت المضخة الكهربية تسحب المياه من إحدى البئرين الإرتوازيتين اللتين تخدمان المكان، وصدح صوت همهمة المحرك الناعمة. «هال» شاب متجهم غبي في العموم، لكنه كان متضايقًا اليوم بشكلٍ خاص. أراد «هال» ترك المدرسة، فهو يكرهها ويكره مللها وإصرارها على أن يجلس المرء خمسين دقيقة متواصلة لكل حصة دراسية. يكره كل المواد باستثناء النجارة والفنون التصويرية.

حصص اللغة الإنجليزية تُثير جنونه، التاريخ غبي، حسابات الأعمال غير مفهومة. لا شيء من كل هذا يهُم، وهذه هي الكارثة. لا تهتم الأبقار إن كنت تخطئ في النحو، أو إن كنت تجهل من هو القائد الأعلى للجيش اللعين لـ «بوتوماك» خلال حرب «فيتنام» اللعينة، وكذا الحساب، فوالده لم يكن أكثر براعة منه بأي حال، لذا كان يوظِّف محاسبًا. ثم انظر إلى حال هذا المحاسب شخصيًّا، خريج جامعي ومع ذلك يعمل لدى غبي مثل والده. قال له الأخير مرة إن الكُتب لا علاقة لها بإدارة عملٍ ناجح (ومزرعة الألبان عمل مثل باقي الأعمال). العلاقات هي سر النجاح. ترَكَ والده الدراسة في المرحلة السادسة من التعليم الأساسي، ومع ذلك هو أكثر من يتحدث عن معجزات التعليم. لم يقرأ في حياته مجلة ثقافية، ومع ذلك تُدِرُّ عليه المزرعة دخلًا سنويًّا يزيد على الستة عشر ألف دولار.

أما العلاقات التي يتحدث عنها أبوه، فتتلخص في مصافحة الناس والسؤال عن زوجاتهم بالاسم. حسنًا، «هال» يعرف الناس، وبالنسبة إليه هُم صِنفان، الأول يسهل تجاهله، والثاني لا. والنوع الأخير يفوق الأول عددًا بنسبة عشرة إلى واحدٍ.

وللأسف والده واحد ممن لا يمكن تجاهلهم.

نظر من فوق كتفه إلى «جاك»، الذي كان يُقلِّب القش بالشوكة وينقله في حزَمٍ غير مترابطة بهدوء إلى أول أربعة إسطبلات. ها هو دودة الكُتُب، حبيب أبيه.

قطعة الخراء الصغيرة البائسة.

صاح فيه:

- هيا، انقل هذا القش!

فتح أبواب الخزانة وأخرج أول ماكينة حلبٍ من الماكينات الأربع، ثم جرَّها عبر الممر، يُطل وجهه العابس من فوق غطائها العلوي المعدني.

المدراس... المدراس -بحق المسيح- اللعينة!

أمامه امتدت التسعة أشهر القادمة كقبرٍ بلا قرار.

***

الرابعة والنصف صباحًا.

ثمار حَلب الأمس المُتأخر قد جُهِّزت وفي طريقها إلى البلدة، مُعبأة هذه المرة في علبٍ ورقية بدلًا من الأوعية المعدنية المُجلفنة. تعلو العبوات الشعار الملون الذي يحمل عبارة (سليتفوت هيل للألبان). والد «تشارلز جريفِن» قد سوَّق لمنتجاته بنفسه، لكن هذا لم يعد مُجديًا الآن؛ الشركات قد أكلت آخر التجار المُستقلين.

كان موزع شركة «سليتفوت هيل» للألبان في غرب بلدة «سالم» هو «إروِن بورينتون»، وقد بدأ الرجل عمله من شارع «بروك» (والذي يُعرَف في البلدة باسم طريق «بروك» أو شارع مغسلة «كرايستلِس»)، ثم غطَّت أعماله وسط البلدة، وامتدت إلى خارجها من خلال طريق «بروك».

صار عُمر «إروِن» في أغسطس واحدًا وستين عامًا، وبدا التقاعد ممكنًا بالنسبة إليه. زوجته العاهرة البغيضة كان اسمها «إلزي»، توفيت في خريف عام 1973 (وفاتها المبكرة كانت أفضل شيء فعلته له طيلة سبعة وعشرين عامًا من الزواج)، وحين يحل موعد التقاعد، سيأخذ كلبه «دوك» (هجين من الـ «كوكَر» ونوعٍ آخر) وينتقل إلى «بيماكويد بوينت». خطَّط للنوم حتى التاسعة صباحًا من كل يوم، وعاهد نفسه ألا يشهد أي شروق مرةً أخرى.

توقَّف «إروِن» أمام منزل آل «نورتون»، وبدأ في تعبئة سلَّته بطلباتهم؛ عصير برتقال، حليب، دُرزينة من البيض. وخزته رُكبته وهو يخرج من السيارة وخزة بسيطة، لكنها أظهرت نيات اليوم من أوله.

ثمة زيادة في طلبات السيدة «نورتون»، قرأها مكتوبةً بخط سوزان مُستدير الزوايا (فضلًا يا «وِن»، اترك عبوة صغيرة من القشدة الحامضية، شكرًا).

عاد «بورينتون» إلى العربة كي يُحضرها وهو يفكر في أن اليوم من نوعية الأيام التي يريد فيها الجميع طلبات غير اعتيادية؛ قشدة حامضية! لقد تذوقها مرة وأصابته بالغثيان.

بدأ الشروق يُضيء لون سماء الشرق، وفي الحقول بين الأفق والبلدة تلألأ الندى الكثيف كالألماس.

***

الخامسة والربع صباحًا.

استيقظت «إيفا ميلّر» منذ عشرين دقيقة، وارتدت فستانًا منزليًّا مهترئًا، وانتعلت خفين ورديين. شرعت تطهو إفطارها؛ أربع بيضات، وثماني شرائح من اللحم المُقدد، ومقلاة من البطاطس المقلية، وانتوت أن تُكمل هذا الإفطار البسيط بقطعتي توست ومربى، وكأس من عصير البرتقال سعة عشرة أونصات، وتتبعه بكوبي قهوة بالقشدة. كانت امرأة ضخمة، لكنها ليست سمينة، فقد كانت تكدح كي تُبقي على عملها قائمًا، فلم تكن تكسب الوزن بسهولة، أما منحنيات جسدها فكانت توحي ببطلة رياضة عنيفة. مشاهدتها وهي تتحرك بين شعلات موقدها الثمان تُشبه مشاهدة حركة مدٍّ بحري لا تتوقف، أو هجرة كثبانٍ رملية.

كانت تحب تناول وجبتها الصباحية وحيدة، وهي تفكر في خطة عمل يومها. ثمة الكثير اليوم؛ الأربعاء هو يوم تغيير المفروشات. لديها تسعة نزلاء حاليًّا بما فيهم المُستجَد السيد «ميرز». المنزل مكون من ثلاثة طوابق وسبع عشرة حجرة. الأرضيات كذلك تحتاج إلى تنظيف، وعليها أن تفرك الدَّرج وتُلمِّع الدرابزين، وتقلب الأبسطة في الصالة. ستطلب من «ويزل كريج» أن يساعدها في بعض هذه المهام، إلا إن كان نائمًا ثملًا.

فُتح الباب الخلفي وهي تشرع في الجلوس إلى الطاولة. هتفت:

- مرحبًا يا «إيرون»، كيف حالك؟

- مقبول. ركبتي ليست على ما يُرام نوعًا.

- آسفة لذلك. هلا تركت ربع جالون من الحليب وجالونًا من عصير الليمون؟

- بالتأكيد.

ثم استطرد مُغمغمًا:

- كنتُ أعرف أنه سيكون يومًا من تلك الأيام البغيضة.

غرست شوكتها في البيض، مُتجاهلة تعليقه.

دائمًا ما يجد «إروِن بورينتون» ما يشكوه، مع أن عليه أن يشكر الله على خلاصِه من المرأة المُشاكسة التي أوقعه حظه فيها بسقوطها من فوق الدَّرج وكسر رقبتها.

في السادسة إلا رُبع، بعد أن أنهت ثاني كوب قهوة مع سيجارة من نوع «تشسترفيلد»، سمعت صوت الجريدة إذ تُلقى فترتطم بالباب من الخارج وتسقط في حوض الأزهار. للمرة الثالثة هذا الأسبوع، يُحكَم على ابن «كيلبي» بغرامة مالية، وغالبًا ما يوزع الجرائد مغصوبًا كي يدفعها. لترقد الجريدة مكانها حينًا.

يتسلل أول ضوء الشمس المبكر الذهبي من النافذة الشرقية. هذا هو أفضل أوقات اليوم، ولن تقطع استمتاعها بهذا السلام لأي سبب.

لنزلائها الحق في استخدام الموقد والبرَّاد -استعمالهما مدفوع ضمن الإيجار مثل خدمة تغيير المفروشات الأسبوعية- وسرعان ما سيقطع لحظات السلام دخول «جروفر فيريل» و«ميكي سِلفستر» لتناول حبوب الإفطار في المطبخ قبل خروجهما إلى العمل في مصنع نسيج «جيتس فول».

وكأن أفكارها استدعتهما، سمعت صوت خزان مرحاض الطابق الثاني يُفرَغ، وصوت حذائي عمل «سيلفستر» الثقيلين يقرعان الدَّرجات.

رفعت نفسها بصعوبة من على المقعد، وخرجت لتُنقذ الجريدة.

***

السادسة وخمس دقائق صباحًا.

اخترق نحيب الطفل الحاد أذني «ساندي مَكدوجال» فأقلق نومها الصباحي الخفيف، فقامت تطمئن عليه وعيناها بعد مُغلقتان. ارتطمت قصبة ساقها في الكومود فصرخت. سمعها الطفل، فعلا صوته أكثر. صاحت:

- اخرس! أنا آتية!

سارت عبر طُرقة العربة المقطورة الضيقة إلى المطبخ. كانت فتاة نحيفة تفقد بالتدريج أي جمال طفيف كان لديها من قبل. أخرجت زجاجة رضاعة ابنها «راندي» من البرَّاد، فكَّرت في تدفئتها، لكنها تراجعت عن الفكرة. ليذهب والزجاجة إلى الجحيم. إن كنتَ تريدها إلى هذا الحد أيها الوغد فلتشربها باردة.

دخلت حجرته ونظرت إليه ببرود. عمره عشرة أشهر، لكنه كان ضعيفًا سقيمًا بالنسبة إلى سِنِّه، وقد بدأ يزحف الشهر الماضي فقط. ربما هو مصاب بشلل الأطفال أو شيء من هذا القبيل.

ثمة شيء بين كفيه، وعلى الحوائط. اقتربت أكثر مُتسائلة ماذا لعله يكون بحق العذراء.

هي في السابعة عشرة، وقد احتفلت وزوجها بذكرى زواجهما الأول في يوليو الماضي. تزوجت «رويس مَكدوجال» وهي حُبلى في شهرها السادس، مُكوَّرة كمنطاد. بدا لها الزواج وقتها زواجًا مباركًا كما قال الأب «كالاهان»... مهربًا مُباركًا، والآن يبدو كـ... ككومة خراء.

هذا بالضبط ما رأته -في هلع- يلوث يدي «راندي» وشعره والحائط!

ظلت تحدق إليه بفتور، حاملةً الزجاجة الباردة في يدها.

هذا ما تركت لأجله مدرستها الثانوية وأصدقاءها وأملها في أن تصبح عارضة أزياء. لأجل السكن في قاطرة مُكدَّسة في منطقة المُنحنى. لأجل طبقة الفورمَيكا المُقشرة فوق المناضد. لأجل زوج يعمل طيلة النهار في مصنع النسيج، ويشرب أو يلعب البوكر طيلة الليل مع أصدقاء السوء في محطة تزويد الوقود. لأجل طفل مُلطخ بالخراء يشبه أباه الدميم.

ويصرخ بأعلى ما يمكنه.

صرخت به فجأة:

- اخرس!

ورمت نحوه بالزجاجة البلاستيكية، فارتطمت بجبينه، فسقط خلفًا في مهده يعوي ويطوِّح ذراعيه. ظهرت دائرة مُحمرة تحت خط شعره، فشعرت برضا مُريع، وشفقة، وكراهية تقف في حلقها. انتشلته من المهد كخرقة وصاحت:

- اخرس، اخرس، اخرس!

لكمته مرتين قبل أن تستطيع السيطرة على نفسها بسبب صرخات ألم «راندي» الخارجة عن حدود التحمُّل. رقد في المهد يشهق بوجهٍ بنفسجي.

غمغمت:

- أنا آسفة... أيا يسوع، ومريم، ويوسُف... أنا آسفة. هل أنت بخير يا «راندي»؟ دقيقة وستنظفك ماما.

عند عودتها حاملة خرقة مُبللة، وجدت عيني «راندي» متورمتين مغلقتين، لكنه أخذ الزجاجة وبدأ يرضع. بدأت تمسح وجهه بالخرقة فابتسم لها بفمٍ خالٍ من الأسنان.

قالت لنفسها: سأخبر روي أنه سقط عن طاولة تغيير الحفاضات، وسيصدق هذا. إلهي، اجعله يصدق.

***

الساعة السابعة إلا ربع صباحًا.

أغلب عُمَّال ومزارعي بلدة «سالم» في طريقهم إلى أشغالهم. «مايك ريرسون» واحد من القلائل الذين يعملون في المدينة. رسميًّا كان بُستانيًّا، لكنه في الواقع كان مسؤولًا عن مدافن المدينة الثلاثة. يحتل هذا العمل يومه بالكامل في الصيف، لكن حتى في الشتاء لا يتغير الوضع، على الرغم من أن البعض -مثل المُتشدد «جورج ميدلَر» الذي يعمل في متجر المُعِدَّات- يظنون أنه يعمل بدوامٍ جزئي لدى «كارل فورمان»، حانوتي البلدة، ويبدو أن الكثير من القبور القديمة تحتاج إلى تنظيف في الشتاء.

هو الآن مُتجه إلى طريق «بيرنز» راكبًا شاحنته المُحمَّلة بالمقصات ومُشذبات الأشجار الكهربائية، وصندوق من حوامل الأعلام، وعتلة يرفع بها شواهد القبور المُنهارة، وعلبة صفيحية سعة عشرة جالونات من الوقود، وجزازتي عُشب.

سيجز عشب مقابر «هارموني هيل» هذا الصباح، ثم يبدأ في صيانة الشواهد والحائط الحجري إن استدعى الأمر. ثم بعد الظهيرة سيذهب إلى مقابر «سكوليارد هيل»، حيث يقوم بعض المُدرسين برحلات تثقيفية عن مُستعمرة «شيكر»[9] المُنقرضة أهلها مدفونون هناك. ليست هذه المقابر في قِدَم «هارموني هيل»، لكنها كانت مُبهجة ظليلة. تمنى لو يُدفن هنا... بعد مائة عام مثلًا.

هو في السابعة والعشرين، وقد اجتاز ثلاثة أعوامٍ من الدراسة الجامعية وسط تقلبات عمله هذا. تمنى لو يستطيع العودة للدراسة. كان وسيمًا مُريحًا، ولم تكن لديه أي مشكلة في التواصل مع الآنسات غير المُرتبطات. يذهب إلى حانة «ديل» في أيام السبت، أو إلى «بورتلاند». بعض الفتيات كن يبتعدن عنه بسبب عمله، ووجد «مايك» أن صراحته غير مقبولة. كان عمله مُريحًا بلا رئيسٍ يراقبه دومًا، بالإضافة إلى أنه عمل في الهواء الطلق تحت سماء الرب. لذا ما المشكلة إن حفر بضعة قبور، أو ساعد «كارل فورمان» من وقت لآخر في إعداد الجنازات؟ على أحدهم أن يتحمل عبء هذه الأعمال. بالنسبة إلى طريقة تفكيره، فلا شيء أكثر اعتيادًا بالنسبة إليه من الموت إلا الجنس.

انعطف إلى طريق «برنز» وهو يُدندن، ثم راح يصعد التل والتراب الجاف يتناثر من خلفه. على الرغم من الكثافة الخانقة للنباتات على جانبي الطريق، إلا أنه يستطيع أن يرى الجذوع الجافة الخالية من الأوراق في الخلف، من بقايا حريق 1951، وكأنها هياكل عظمية متعفنة.

يعرف أن الأوراق الميتة تحتها تغطي الوِهاد، فتتسبب في كسر ساق أي شخص غير حذر يمر من هناك. حتى بعد مرور خمسة وعشرين عامًا، فندوب الحريق العظيم ما زالت موجودة.

في وسط الحياة، تجد الموت.

تقع المقابر عند قمة التل. ولج «مايك» من المدخل واستعد للنزول لفتح البوابة ومن ثَمَّ إيقاف الشاحنة. لكنه رأى جثة كلب مقلوبة مُعلَّقة على قضيب معدني من قضبان البوابة، والأرض من تحته مبللة بالدماء المخلوطة بالطين.

نزل «مايك» من الشاحنة وهرع نحوه، أخرج قفازي العمل من جيبه الخلفي، ورفع رأس الكلب بيد واحدة، فانخلع بسهولة مرعبة، ووجد نفسه يحدق إلى العينين الخاويتين المحملقتين إلى كلب «وِن بورينتون» الهجين. كان الكلب مُعلَّقًا على قضيب البوابة كقطعة لحم على سيخ شَيٍّ. الذباب اللزج من برودة الصباح الباكر يتجمع حول الجثة.

عانى «مايك» كثيرًا حتى استطاع إنزال الكلب، وقد انقلبت معدته إثر صوت تقطُّع أحشاء الحيوان التي صاحبت هذه العملية البغيضة. الأعمال التخريبية في المقابر ليست جديدة عليه، وبخاصة في موسم الهالوين (عيد جميع القديسين)، لكن موعد الأخير لن يحل قبل شهر ونصف، وهو لم يرَ شيئًا بهذه البشاعة من قبل. المُعتاد هو تسلية البعض بكسر بعض شواهد القبور، أو كتابة بعض الكلمات الإباحية على الأسوار، أو تعليق هياكل عظمية ورقية عليها. لكن إن كانت هذه المذبحة من عمل أطفال، فهم إذًا أبناء حرام بحق. سيحطم هذا قلب «إروِن».

فكر في نقل الجثة إلى البلدة كي يراها «باركِنز جيلسبي»، لكنه قرر أن هذا لن ينفع في شيء. يمكنه أن يُعيد «دوك» المسكين معه حين يرجع لتناول غدائه، على الرغم من أنه يشُك في أنه سيرغب في أكل أي شيء اليوم.

فتح البوابة ونظر إلى قفازيه اللذين كانا ملطخَين بالدماء. عليه أن يغسل قضبان البوابة، وبهذا لن يجد وقتًا للذهاب إلى مقابر «سكوليارد هيل» بعد الظهيرة. قاد سيارته إلى حيث سيوقفها، وقد كفَّ عن الدندنة، وزال الحماس عن يومه.

***

الثامنة صباحًا.

حافلات المدارس الصفراء المتثاقلة تقوم بدوراتها الصباحية المُعتادة؛ تأخذ الأطفال من حيث يقفون جوار صناديق بريد منازلهم، يحملون عُلب الغداء، يمضون وقت انتظارهم في المزاح والعبث.

«تشارلز رودز» يقود إحدى هذه الحافلات، ويغطي المنطقة من طريق «تاجارت ستريم» في غرب البلدة، وصولًا إلى النصف العلوي من شارع «جوينتر».

الأطفال الذين يركبون حافلة «تشارلز» هم أكثر أطفال البلدة أدبًا، بل في المنطقة التي تخدمها المدرسة كلها، ولهذا لم يكن ثمة مشاغبات أو إزعاج أو جذب لعقصات شعر الفتيات في الحافلة رقم 6. هم فقط يجلسون في أماكنهم بأدب وإلا لن يكون بوسعهم إلا الذهاب إلى المدرسة سيرًا لمسافة ميلين وتفسير عدم ركوبهم الحافلة للمدير.

كان يعرف أنهم يفكرون فيه، ولديه فكرة عما يطلقونه عليه من ألقاب من خلف ظهره، لكن لا بأس. لن يسمح بالحماقات والهراء في حافلته. ليمارسوا كل هذا أمام مُدرسيهم عديمي الشخصية.

مدير مدرسة شارع «ستانلي» الابتدائية واتته الشجاعة مرة فسأله إن كان قد تصرف (بتهور) حين ترك الفتى «دُرهام» ثلاثة أيام يذهب إلى المدرسة سيرًا لأنه تحدث بصوتٍ عالٍ قليلًا. حملق «تشارلي» إلى وجهه، فأدار المدير الشاب حديث التخرج وجهه إلى الجهة الأخرى.

الرجل المسؤول عن صيانة المحركات، «ديف فيلسين»، صديق قديم له، وقد ذهبا إلى كوريا معًا في أثناء الحرب الأهلية الكورية. يفهمان بعضهما جيدًا، ويفهمان ما يحدث في البلاد، ويفهمان أن طفلًا (تحدث بصوتٍ عالٍ قليلًا) في حافلة المدرسة عام 1958، سيكون هو الفتى الذي يبول على العلم عام 1968.

نظر إلى المرآة العريضة أمامه، ورأى «ماري كيت جريجسون» تنظر إلى صديقها الحميم «برينت تيني». أجل، صديقها الحميم، فالأطفال يتصادقون هذه الأيام منذ الصف السادس الابتدائي.

توقف على جانب الطريق، وأنار كشافات الانتظار، فحملقت «ماري كيت» و«برينت» إليه فزعَين. نظر إلى المرآة هاتفًا:

- لديكما الكثير لتتحدثا فيه؟ ممتاز. هيا تفضلا.

فتح باب الحافلة وانتظر أن ينزلا منها.

***

التاسعة صباحًا.

تدحرج «ويزل كريج» عن فراشه... حرفيًّا. يدخل ضوء الشمس من نافذة حجرته بالطابق الثاني فيُعميه. تعلو حجرته حجرة الأخ الكاتب وقد بدأ في الإزعاج كعادته. إلهي! الرجل لا يكف عن إصدار أصوات (تاب..تاب.. تاب..) كأنه سنجاب. الرجل يكتب على آلة الكتابة طيلة الوقت.

قام بملابسه الداخلية ليتحقق من تاريخ اليوم ويرى إن كان اليوم إجازة، لكنه اكتشف أنه الأربعاء. أثر الثمالة لم يكن عنيفًا مثلما كان في أوقات أخرى. ظل في حانة «ديل» حتى موعد الإغلاق في الواحدة بعد منتصف الليل، لكنه لم يكن يملك سوى دولارين، فلم يستطع شراء المزيد من البيرة بعد نفادهما.

حك وجهه بيده مرارًا ليتأكد أنه استعاد وعيه بالكامل.

خلع ملابسه الداخلية طويلة الكُمين ذات البنطال، وكان يرتديها تحت ملابسه صيفًا وشتاءً، ثم ارتدى بنطال العمل الأخضر. فتح خزانته وأخرج منها إفطاره المكوَّن من علبة بيرة دافئة، وعلبة شوفان من ضمن السلع الغذائية التي تتبرع بها الحكومة. يكره الشوفان، لكنه وعد الأرملة بمساعدتها في تنظيف البُسُط، وربما سيكون لديها المزيد من الأعمال المنزلية الأخرى.

لم يكن يمانع في هذا إلى حدٍّ ما، فهو يَعُد مساعدته نوعًا من الجَميل منذ تلك الأيام التي كان يُشارك فيها «إيفا ميلَّر» فراشها. توفي زوجها في حادث مصنع أخشاب عام 1959، وكان لهذا الحادث سمت غريب إن كان في وسعنا عَدُّ حادثٍ بشع كهذا شيئًا غريبًا. كان يعمل في مصنع الأخشاب هذه الأيام ستون أو سبعون موظفًا، وكان «رالف ميلَّر» في منصبٍ رئاسي في المصنع، وما حدث له

غريب لأنه لم يكن يَمَس أي آلة منذ 1952، أي قبل سبع سنواتٍ من الحادث، منذ ترقَّى من منصب رئيس العمَّال. كانت ترقية مُستحَقَّة كما يرى «ويزل».

حين أزال الحريق منطقة المُستنقع، وامتد إلى شارع «جوينتر» بسبب رياح بلغت سرعتها خمسة وعشرين ميلًا في الساعة، تأكد للجميع أن مصنع الخشب ستطوله النيران. تدخلت مطافئ ست بلدات مُجاورة بكل طاقتها للسيطرة على حريق بلدة «أورسالم» والحد من وصول النيران لمصنع الخشب. جهَّز «رالف ميلَّر» الوردية الثانية بأكملها لمكافحة الحريق، وتحت قيادته بللوا سقف المصنع وقاموا بكل ما يمكن للمطافئ أن تقوم به. نجح «رالف ميلَّر» في صنع حائط صد للحريق، وأداره إلى الجنوب قبل أن يُحتوَى تمامًا. بعد سبع سنوات، سقط «ميلَّر» في ماكينة فرم الأخشاب في أثناء حديثه مع كبار مسؤولي شركة «مَساتشوسيتس» في أثناء زيارتهم للمصنع. كان يصحبهم في جولة محاولًا إقناعهم بشراء المكان، وانزلقت قدمه في بقعة ماء، وسقط في ماكينة الفرم أمام أعينهم. لا حاجة إلى التأكيد إذًا أن أي محاولة للاتفاق على صفقة مع «ميلَّر» ابتلعتها المجارير كما ابتلعت ما تبقى منه. والمصنع الذي أنقذه عام 1951، أُغلِق للأبد عام 1960.

نظر «ويزل» إلى مرآته المُبقعة بقطرات الماء، ومشَّط شعره الأبيض الجميل الفاتن حتى في سن السابعة والستين. كان هذا هو الجزء الوحيد في جسده الذي يزدهر مع الكحول. ارتدى قميص العمل خاكي اللون، وأخذ علبة الشوفان مُتجهًا إلى الأسفل.

ها هو بعد ستة عشر عامًا مما حدث، يعمل كمدبر منزل لعين لدى امرأة ضاجعها من قبل... امرأة لا يزال يراها فاتنة للغاية.

حطَّت عليه الأرملة كالنسر بمجرد دخوله المطبخ المُشمس.

- أقول لك... هل تود أن تُلمِّع لي الدرابزين الأمامي بعد أن تتناول إفطارك يا «ويزل»؟ ألديك وقت؟

كلاهما يحترم كونه يساعدها كمعروفٍ منه، لا مقابل إيجار حجرته بالأعلى.

- بالطبع يا «إيفا».

- وبساط الصالة الأمامية...

- ... يجب أن يُنظَّف. أجل، أتذكر هذا.

- كيف حال رأسك هذا الصباح؟

سألته بطريقة عملية، مانعة أي شفقة من الظهور على صوتها، لكنه شعر بوجود شفقةٍ ما تحت السطح. قال بتأثر وهو يضع الماء على الموقد لتحضير الشوفان:

- رأسي بخير.

- لقد تأخرتَ في الاستيقاظ، لذا كنت أسأل.

رفع حاجبه مازحًا وهو يهتف:

- لا زلتِ تهتمين لشأني، أليس كذلك؟

أسعده أن رأى وجهها يحمر خجلًا كفتاة مُراهقة، على الرغم من أنهما قد ودَّعا أي علاقة ممتعة بينهما منذ تسع سنوات.

- والآن، «إد»...

كانت هي الوحيدة التي ما زالت تدعوه «إد»، فبالنسبة إلى كل شخص في المدينة هو «ويزل»[(10)]. ليطلقوا عليه ما يشاؤون من ألقاب، لم يعد شيءٌ يهُم.

قاطعها بصوتٍ خشن:

- لا عليكِ. لقد قُمت من الفراش من الناحية الأخرى فارتطم رأسي بـ...

قالت بشكلٍ أسرع مما انتوت:

- لقد سقطتَ عن الفراش، سمعت الصوت.

نَخَر «ويزل»، وطبخ الشوفان الكريه وشرع يأكله، ثم أخذ علبة مُلمع الأثاث والخِرق دون أن ينظر خلفه.

في الأعلى استمر صوت (تاب، تاب، تاب) الصادر من حجرة الكاتب.

في الغرفة أمامه يسكن «فيني أبشو» الذي يقول إن الشاب يبدأ الكتابة في التاسعة صباحًا حتى الظهر، ثم يبدأ مرة أخرى في الثالثة حتى السادسة، ثم مجددًا من التاسعة حتى منتصف الليل. لم يتخيل «ويزل» قط أن يملك المرء كل هذه الكلمات في عقله ليكتبها.

مع ذلك، يبدو الكاتب شخصًا لطيفًا يصلح لشرب البيرة معه في حانة «ديل» في ليلة ما. هو قد سمع أن أغلب الكتَّاب يشربون كسمكة.

بدأ في تلميع الدرابزين بشكلٍ آلي، ووقع في التفكير في الأرملة مرةً أخرى. حوَّلت الأخيرة المكان إلى منزل ضيافة بأموال تأمين زوجها، وقد أدارته بشكل جيد، ولمَ لا؟ فهي تعمل كحصان جَرٍّ. لا بد أن زوجها كان ينام معها يوميًّا، وحين زال عنها الحزن بعد الوفاة، ظلَّت هذه الرغبة مُشتعلة.

في تلك الأيام بين عامي 1961 و1962 الناس كانوا ينادونه: «إد» بدلًا من «ويزل»، وكان لا يزال يمسك بالزجاجة بدلًا من أن تمسك هي به، وكان لديه عمل ثابت. في ليلة من ليالي 1962 بدأ كل شيء.

توقف عن التلميع ونظر مُفكرًا عبر النافذة الصغيرة عند مُنعطف السلم، كانت تشع بآخر أشعة شمس الصيف الذهبية، ضوء يسخر من برد الخريف المزعج ومن الشتاء الأكثر برودة الذي سيتبعه.

ما حدث ليلتها جزء منه برغبتها، وجزء برغبته. بعد انتهائهما واستلقائهما في ظلام حجرة نومها، بدأت تنتحب وتخبره بأن ما فعلاه خطأ عظيم. قال إنه غير متأكدٍ إن كانا قد فعلا الشيء الصحيح الذي كان عليهما فعله، ولم يعبأ للتأكد. تضاجعا مرة أخرى، وكانت غرفتها دافئة آمنة، وأخيرًا ناما متجاورَين كملعقتين في درج الفضيات.

يا إلهي ويا يسوع المسيح... الوقت كالنهر، وتساءل إن كان الأخ الكاتب يعرف هذا.

ثم بدأ يُلمع الدرابزين مرة أخرى بمسحات طويلة بطيئة.

***

العاشرة صباحًا.

حلّت فترة الاستراحة في مدرسة شارع «ستانلي» الابتدائية، وهي أجدد وأفخر بنايات البلدة. مكونة من أربعة طوابق ذات نوافذ زجاجية مُؤطرة بالألومنيوم حديثة الطابع، لا زال قطاع التعليم يدفع تكاليفها، بينما مدرسة شارع «بروك» قديمة مُظلمة.

«ريتشي بودِن»، متنمر المدرسة الفخور، خرج إلى ساحة المدرسة متبخترًا، تبحث عيناه عن الولد الجديد المُتذاكي الذي يعرف كل الإجابات في فصل الرياضيات. لم يأتِ مُستجد ويستقر في مدرسته حتى يعرف مَن الكبير هنا، وبخاصة المُخنثون منهم ذوو النظارات، فتيان المُدرسين المُدللين مثل هذا المُتذاكي.

«ريتشي» يبلغ من العمر عشر سنوات، ووزنه مائة وأربعون رطلًا، طيلة حياته كانت أمه تنادي الناس كي يروا ضخامة ابنها التي تتفاخر بها، لذا فقد رسخ في ذهنه كبر حجمه، وأحيانًا ما كان يتخيل الأرض ترتج من تحت قدميه إذ يسير، وحين يكبُر سيدخن سجائر من نوع «كامِل» كأبيه.

طلبة الصفين الرابع والخامس يخشونه، أما الأصغر فيعدُّونه طَوطَم ساحة المدرسة. عندما ينتقل إلى الصف السابع في مدرسة شارع «بروك»، ستخلو المدرسة من شروره، وقد أسعده تأثيره هذا بشكلٍ هائل.

ثم أن هناك الفتى «بتري»، المُتوقَّع انضمامه إلى فريق كرة القدم. صاح «ريتشي»:

- أنتَ...

التفت الجميع إليه عدا «بِتري». تغطي الأعين لمعة زجاجية، ثم يظهر عليها الارتياح حين يدرك أصحابها أن نظر «ريتشي» قد استقر بعيدًا عنهم.

- أنتَ... يا ذا الأعين الأربع!

التفت «مارك بِتري» ناظرًا إلى «ريتشي»، تنعكس أشعة الشمس على إطار نظارته المعدني. كان في نفس طول «ريتشي»، وهذا يعني أنه أطول من أغلب أقرانه، لكنه كان نحيلًا تظهر عليه أمارات انعدام الحيلة.

- هل تتحدث إليَّ؟

قلَّده «ريتشي» ساخرًا بصوتٍ حادٍّ عالٍ:

- هل تتحدث إليَّ؟ صوتك كأصوات المُخنثين يا ذا الأربع أعين، هل تعرف هذا؟

قال «مارك بِتري»:

- كلا، لا أعرف هذا.

تقدَّم «ريتشي» خطوة نحوه وقال:

- أنت مقرف، هل تعرف هذا يا ذا الأربع أعين؟

- حقًّا؟

نبرة صوته المهذبة تثير الغيظ. هتف «ريتشي»:

- أجل أيها المُنحرف، سمعتك تمارس انحرافك هذا، ليس فقط في أيام الخميس، بل كل يوم. لا تستطيع الصبر.

بدأ الصبية يتحلَّقون ليشاهدوا «ريتشي» يسحق الفتى الجديد. الآنسة «هولكومب»، المسؤولة عن الفناء هذا الأسبوع في مقدمة الساحة ترافق الأطفال الأصغر وهم يلعبون بالأرجوحات.

سأله «مارك بِتري»:

- لمَ كل هذه الجَلَبة؟

كان ينظر إلى «ريتشي» كأنما اكتشف لتوه خنفسة جديدة مثيرة.

قلَّده «ريتشي» مرة أخرى هاتفًا:

- لمَ كل هذه الجَلَبة؟ أنا فقط سمعت أنك مخنث كبير، هذا كل شيء.

سأل «مارك» في أدب:

- وهل هذا صحيح؟ أنا أيضًا سمعت أنك مجرد خراء غبي أخرق. هذا ما سمعت.

ساد الصمت، وفتح الأطفال الآخرون أفواههم عجبًا، فلم يشهد منهم شخصًا يوقِّع بنفسه على حُكم إعدامه. شلَّت المفاجأة «ريتشي»، وفغر فمه مثل الآخرين.

خلع «مارك» نظارته وناولها للولد المجاور له وهو يقول:

- امسك هذه لو سمحت.

أخذها الولد وهو يحدق إلى «مارك» في صمت. استعد «ريتشي»، وشحن قوته ببطء وتثاقل بلا أي لمحة رشاقة أو ليونة. ارتجَّت الأرض تحت قدميه وهو يندفع، مُمتلئًا بالثقة والرغبة في السحق والكسر. طوَّح قبضته في الهواء، منتويًا تحطيم فم ذي الأربع أعين البائس وخلع أسنانه لتطير في الهواء كأصابع البيانو.

- استعد لزيارة طبيب الأسنان أيها المُخنث ذو الأربع أعين! ها قد أتيت لك!

انحنى «مارك بِتري» وتراجع خطوة في نفس الوقت، فعبرت قبضة «ريتشي» من فوق رأسه، ولفَّ جسده السمين بفعل قوة اندفاع ضربته. كل ما كان على «مارك» فعله هو مد قدمه أمامه، فيتعثر «ريتشي» ويسقط أرضًا. نَخَر، فصاح جمع الأطفال «آه!»

كان «مارك» يعرف جيدًا أن العملاق الأخرق المُمدد على الأرض لو استعاد توازنه، فسيتلقى ضربًا لم يرَ مثله في حياته. «مارك» رشيق مرن، لكن المرونة لن تصمد كثيرًا أمام شجار أفنية المدارس.

لو كان ما يحدث في الشارع، فوقت الجري قد حان، فهذه هي الطريقة الأنسب للإفلات من الخصم البطيء والابتعاد عنه بفارق يسمح له بالاستدارة ولكم الأنف إن تَبِعه. لكن هذا ليس شارعًا أو مدينة، وهو متأكد إن لم يهزِم هذا المسخ الضخم الآن، فلن يفلت من التحرش والمضايقات أبدًا.

دارت هذه الأفكار في ذهنه خلال خُمس ثانية، ثم وثب على ظهر «ريتشي بودين». شهق الأخير، وصاح الجمع «آه!» مرة أخرى. جذب «مارك» ذراع «ريتشي»، حريصًا على إمساكه من فوق معصم قميصه، كي لا تفلت ذراعه بسبب العرق، ثم لواها خلف ظهر «ريتشي» الذي صرخ في ألم.

قال «مارك»:

- نادِني «عمي».

رد «ريتشي» كان ليُسعد رجل بَحَرية في الخامسة والعشرين. رفع «مارك» ذراع «ريتشي» نحو لوح كتفه، فصرخ مرة أخرى، صرخة مليئة بالذل والخوف والحيرة. هذا لم يحدث له من قبل، ولا

يمكن أن يحدث الآن. راح يُنكر حقيقة أن صبيًّا مُخنثًا ذا أربع أعين يجثم على ظهره، ويلوي ذراعه، ويجبره على الصراخ أمام رعاياه.

كرر «مارك»:

- نادني «عمي».

حاول «ريتشي» أن ينتصب على ركبتيه، فضغط «مارك» ركبتيه هو نفسه على جانبي خصمه، كرجل يمتطي حصانًا بلا سرج، إلا أن «ريتشي» كان صعب الامتطاء. وجهه مُحمر مجهد، عيناه جاحظتان، وثمة خدش على خده.

حاول إنزال «مارك» من فوق كتفيه، لكن الأخير جذب ذراعه مرة أخرى، فلم يصرخ «ريتشي» هذه المرة، بل وَلوَل.

- نادني «عمي»، أو أقسم بالله سأكسر ذراعك.

كان قميص «ريتشي» قد انتُزِع من داخل بنطاله، وقد سخنت بطنه وتغطت بالخدوش. بدأ ينتحب وهو يحرك كتفيه من جهة إلى الأخرى، لكن ذا الأربع أعين الكريه لا زال مُتشبثًا.

- إليكَ عني يا بن الغانية! أنت لا تصارع بشرف!

ألم متفجر حارق...

- نادني «عمي».

- كلا!

اختل توازنه، خارت رُكبتاه من تحته فسقط على وجهه في التراب. شلَّه ألم كتفه، وكان يسُف التراب حرفيًّا. ظل يركل بلا حيلة وقد نسي أنه ضخم ونسي كيف كانت ترتج الأرض من تحته حين يمشي. نسي أنه عندما يكبُر سيُدخن سجائر «كامِل» كأبيه.

صرخ «ريتشي»:

- عمي! عمي! عمي!

شعر وكأنه سيظل يصرخ «عمي» لساعات، لأيام، لو أن هذا سيعيد إليه ذراعه.

- قُل: أنا قطعة خراء قبيحة دميمة.

- أنا قطعة خراء قبيحة دميمة!

- يكفي هذا.

قام «مارك بِتري» عنه، وتراجع خلفًا محاذرًا أن يقع تحت طائلته. فخذاه تؤلمانه من أثر اعتصار جسد «ريتشي» بهما. أمِل في أن يكون هذا العراك قد أفرغ «ريتشي» تمامًا وإلا فالويل له.

نهض «ريتشي» ناظرًا حوله، لم ينظر أحد إلى عينيه، فقد تولَّى كل طالب إلى ما كان يفعله من قبل. هذا الصبي العَفِن «جليك» لا زال يقف جوار المُخنث وينظر إليه كأنه إله.

وقف «ريتشي» وحده، بالكاد يصدق كيف حلَّت نهايته بهذه السرعة. وجهه معفر بالتراب إلا الخطوط التي نظفتها دموع الألم والعار. فكَّر في الاندفاع نحو «مارك بيري»، لكن عاره وخوفه الجديدَين اللامعَين الضخمَين منعاه.

ليس بعد...

ذراعه تؤلمه كضرس مُسوَّس. يا لك من مقاتل قذر ابن عاهرة. لو طالتك يدي فسوف...

لكن ليس اليوم. استدار مغادرًا الفناء ولم يتردد لحظة. ظل يحدق إلى الأرض كي لا تقع عيناه على وجه شخصٍ آخر.

صدحت ضحكة من ناحية تجمعٍ للفتيات، ضحكة ساخرة قاسية حملتها نسائم الصباح، لكنه لم يرفع عينيه ليتبين من التي تضحك عليه.

***

الحادية عشرة والربع صباحًا.

مستودع نفايات بلدة «أورسالم» كان مجرد حفرة مبطنة بالحصى والحجارة، حتى بيع عام 1945. كان يقع عند المنعطف الذي يؤدي إلى طريق «بيرنز»، خلفه على بُعد ميلين مقابر «هارموني هيل».

«دَد روجرز» سمع صوت جزازة العشب الخاصة بـ «مايك ريرسون» عند نهاية الطريق، وعرف أنه سرعان ما سيتبع انتهاء هذا الصوت حسيس النار.

«دَد» هو حارس المستودع منذ عام 1956، وإعادة تعيينه في كل عام هو قرار اجتماع البلدة بالإجماع. يسكن في المستودع في كُوخ يحمل لافتة (حارس المستودع) على بابه، وقد سرق مدفأة سيارة من أعضاء المجلس البخلاء ووضعها فيه، وهجر شقته في المدينة للأبد.

الرجل أحدب الظهر، رقبته مثنية فضولية، كأن الرب صفعه فلواها قبل أن يسمح له بالنزول إلى الأرض. ذراعاه مُتدليتان إلى جانبيه، تصلان إلى ركبتيه كذراعي قرد، لكنهما كانتا قويتين إلى حدٍّ مذهل.

في مرة، احتاجت مهمة نقل محتويات متجر المُعدات إلى أربعة رجال، لإتمام إفراغ الشاحنة من محتوياتها في المستودع حتى تنتهي عملية تجديد المتجر، حتى إن عجلات الشاحنة التي حملتها قد انضغطت بشكلٍ ملحوظ من ثقل حمولتها، وانغرست في التراب، لكن «دَد روجرز» قد جرَّها بنفسه وقد انتصبت أربطة عنقه، وانتفخت الأوردة في منتصف جبهته وذراعيه وعضديه كأسلاكٍ سميكة زرقاء.

أحبَّ «دَد» المُستودع، وأحب مطارداته للأطفال الذين يتسللون لكسر الزجاجات، وأحب إرشاد السيارات إلى حيث مكان الإفراغ المناسب. أحب جمع النفائس من النفايات وهي مزية حصرية له كحارس للمستودع. كان يسير وسط جبال النفايات مرتديًا عازلًا جلديًّا فوق بنطاله، وقفازين، معلِّقًا سلاحه في جرابه، حاملًا جوالًا على كتفه ومطواة في يده.

يعرف أنهم يسخرون منه، فتركهم يسخرون.

أحيانًا ما يجد سلكًا نحاسيًّا، أو محركات كاملة ذات ملفات نحاسية. للنحاس سعر جيد في «بورتلاند». هناك أيضًا بعض المكاتب والأرائك والمقاعد المستهلَكة، والتي يمكن إصلاحها وبيعها لتجار التحف. يغش «دَد» التجار الذين يغشون بدورهم المصطافين. هذه هي سُنة الحياة.

منذ عامين وجد سريرًا خشبيًّا مُشقق الجوانب، وقد باعه لمغفل من «ويلز» مقابل مائتي دولار. غاب المُغفل في نشوة أصالة فُرُش «نيو إنجلند»، ولم ينتبه إلى أن «دَد» قد أزال عبارة (صُنع في جراند رابيدز) المحفورة على ظهر الفراش.

السيارات القديمة مكانها نهاية المستودع. سيارات «بويك» و«فورد» و«شيفروليه» وأي طرازٍ تتخيله. وكم من قطع ثمينة يتركها الناس في السيارات عندما يتخلصون منها. المِشعاع هو أفضلها، لكن الأفضل منه هو المُكربن، فسعره يصل إلى سبعة دولارات بعد نقعه في الجازولين لفترة. لا داعي لذكر سيور المروحة، والمصابيح الخلفية، والزجاج الأمامي، والمقود، والمفروشات، وموزعات الكهرباء.

أجل... مستودع النفايات مكان رائع، مستودع النفايات بالنسبة إليه كـ «ديزني لاند» وأرض العجائب «شانجري لا» مدموجتين في مكانٍ واحد.

المال المُخبأ في صندوقٍ أسود والمدفون في التراب تحت كرسيه لم يكن أفضل ما هنالك، بل النار... والفئران.

يشعل «دَد» النار في أجزاء من النفايات في صباح يومي الأحد والأربعاء، ومسائي الاثنين والجمعة، إلا أن نيران المساء هي الأفضل. يحب الوهج الداكن الوردي المُنبعث من أكياس القمامة البلاستيكية الخضراء، ومن الصُحُف والصناديق، لكن نيران الصباح أفضل بالنسبة إلى الفئران.

يجلس الآن على كرسيه يرمُق اندلاع النيران وانبعاث الدخان الدُهني الأسود منها ليلوّن الهواء، ويُبعد الطيور إلى الأعلى. يمسك «دَد» بندقيته من عيار 0.22 بيده المُرتخية، وينتظر خروج الفئران.

عندما يخرجون، فهم يخرجون أفواجًا. فئرانًا كبيرة ذات لونٍ رمادي مُترَّب، وأعين حمراء، تتطاير الحشرات والبراغيث حول رؤوسهم، ويجرُرن ذيولهن خلفهن كأسلاكٍ سميكة وردية.

يحب «دَد» إطلاق النار على الفئران.

سوف يقول له «جورج ميدلر» الذي يعمل في متجر المُعدات وهو يدفع صناديق سجائر «ريمنجتون» أمامه:

- أنت تبتاع أعيرة نارية مخصصة للحيوانات الكبيرة يا «دَد». هل يدفع مجلس المدينة ثمنها؟

كانت هذه مُزحة قديمة بين الرجلين، فمنذ أعوامٍ، طلب «دَد» شُحنة من ألفي طلقة ذات رأس أجوف عيار 0.22، وقد أرسلها له «بيل نورتون» دون جدال.

سيقول «دَد»:

- والآن أنت تعرف أن ما أفعله هنا خدمة عامة يا «جورج».

هذا الرجل السمين الأعرج هناك هو «جورج ميدلر»، وهو يلوك شيئًا يبدو كقطعة من كبد الدجاج. قال «دَد»:

- والآن انظر يا «جورج»...

ثم ضغط الزناد فانطلق صوت الرصاصة مُسطحًا، لكن الفأر ترنَّح وانقلب مرتين، ثم رقد يتلوى. يا للطلقات الجوفاء التافهة. يومًا ما سيحصل على بندقية صيد، أو بندقية «ماجنوم» وسيرى ما ستفعله بهذه المخلوقات المزعجة.

ليست الفئران فقط هي ما يهمه، هناك أيضًا «رَثي كروكيت»، السافلة التي لا ترتدي حمالات صدر في المدرسة، ودائمًا ما تنكز رفيقاتها وتضحك عندما يعبر «دَد» الطريق. (طاخ) ووداعًا يا «رَثي»!

هرعت الفئران تحتمي في الجانب القصي من المستودع، وقبل أن يهربوا، نال «دَد» من ستةٍ منها... عدد جيد هذا الصباح. لو أنه قام واقترب منهم سيرى البراغيث تهجر الأجساد التي تفقد حرارتها مثل... مثل... مثل فئرانٍ تهجر سفينة تغرق!

أعجبته مُزحته للغاية، فثنى رقبته الملوية إلى أعلى وراح يؤرجح كرسيه ويضحك في هبَّاتٍ طويلة، بينما النار تمتد إلى باقي النفايات كأصابع برتقالية.

الحياة بالفعل مهيبة.

***

الثانية عشرة ظهرًا.

دقَّت ساعة المدينة مُعلِنة موعد الغداء في المدارس الثلاث في البلدة، ومُرحِّبة بوقت ما بعد الظهيرة.

«لورانس كروكيت» (العضو المنتخب الثاني في مجلس البلدة ومالك شركة «كروكيت» للتأمينات العقارية في جنوب «مَين») وضع كتابه الذي كان يقرؤه (العبيد الجنسيون للشيطان) وأعاد ضبط ساعته على توقيت ساعة المدينة الأدق، ثم قام إلى الباب وعلَّق لافتة (سنعود الساعة الواحدة) على الستار.

لـ «لورانس كروكيت» عادات لا يقطعها، فهو سيذهب إلى مقهى «إكسلنت» ويطلب شطيرتي برجر بالجبن بمرفقاتهم من أطباقٍ جانبية، مع كوب قهوة، بينما يشاهد سيقان «بولين» وهو يدخن سيجارته من نوع «ويليام بِن».

هز مقبض باب الشركة مرتين كي يتأكد من أنه قد أوصِد، ثم تحرك نحو شارع «جوينتر». توقف عند المنعطف وألقى نظرة نحو منزل «مارستِن». ثمة سيارة عند مدخله، يتبينها بالكاد تبرق وتلمع. أشعره المنظر بضيقٍ في صدره مجهول السبب. كان قد باع منزل «مارستِن» ومغسلة البلدة معًا منذ عام، وكانت هذه أغرب صفقة في حياته... على الرغم من أنه عقد صفقات غريبة على مدار سنين عمله.

مالك السيارة بالأعلى هو رجل يُدعى «ستراكر»، «ر. ث. ستراكر»، وقد تلقَّى هذا الصباح بالبريد شيئًا منه.

جاء المذكور أول مرة إلى مكتب «كروكيت» في ظهيرة يوم من شهر يوليو منذ عام. نزل من سيارة ووقف على الرصيف لحظات قبل أن يدخل إليه. رجل طويل هو، يرتدي بذلة مكوَّنة من ثلاث قطع على الرغم من حرارة الجو. حاجباه خطان داكنان مستقيمان، مِحجرا عينيه تحتهما بمسافة، وتبدوان كفجوتين محفورتين بمِثقاب في وجهه الحاد. كان يحمل حقيبة رفيعة في يده.

كان «لاري» وحيدًا في مكتبه حين دخل إليه «ستراكر»؛ سكرتيرته التي تعمل بدوام جزئي فتاة من «فالموث» ذات نهدين جميلين، كانت تعمل لدى محامٍ في «جيتس فولز» في فترة ما بعد الظهيرة.

جلس الرجل الأصلع على مقعد العملاء، ووضع حقيبته على فخذيه، وحدق إلى «لاري كروكيت». من المستحيل قراءة تعبيرات عينيه، وقد ضايق «لاري» هذا. يُفضل أن يتمكن من

قراءة رغبات زبائنه في أعينهم قبل أن يفتحوا أفواههم.

لم يتوقف هذا الرجل ليلقي نظرة على صور المباني المتاحة للبيع على لوحة العرض، ولم يصافحه ويُعرِّف نفسه، ولم يلقِ تحيةً حتى.

سأله «لاري»:

- كيف أساعدك؟

أجاب الرجل الأصلع:

- أُرسِلتُ لأشتري منزلًا ومؤسسة عملٍ في بلدتكم الجميلة.

تحدث بصوتٍ خالٍ من أي تعبير، ذكَّر هذا «لاري» بالتسجيلات الصوتية التي تسمعها حين تُهاتِف خدمات الأرصاد. قال «لاري»:

- حسنًا، هذا رائع، فلدينا عدد من المباني الممتازة التي قد...

رفع الرجل الأصلع يده ليُخرِس «لاري» وقال:

- لا داعي.

لاحظ «لاري» في تعجبٍ أن أصابع الرجل طويلة للغاية، إصبعه الوسطى تقارب الأربع أو الخمس بوصات. أردف الرجل:

- مؤسسة العمل التي أريدها خلف مبنى البلدية، وأمام المتنزه.

- أتفق معك. كان هذا مبنى المغسلة وقد أفلس العام الماضي. هذا موقع ممتاز لو أردت...

قاطعه الرجل الأصلع:

- أما المنزل، فهو المُسمى في البلدة باسم منزل «مارستِن».

كان «لاري» يعمل في مجال العقارات منذ وقتٍ طويل بحيث يستطيع إخفاء رد فعله عند سماعه الاسم. قال:

- هكذا إذًا؟

- أجل. اسمي «ستراكر»... «ريتشارد ثروكيت ستراكر». ستكون كل الأوراق باسمي.

- ممتاز.

الرجل يريد الدخول في تفاصيل الاتفاق مباشرة، هذا واضح.

- سعر منزل «مارستِن» أربعة عشر ألف دولار، يمكنني التفاوض في هذا المبلغ، بالنسبة إلى المغسلة القديمة...

- لم نتفق على هذا. فلستُ مخوَّلًا إلا بدفع دولار واحد.

- دولار؟!

أمال «لاري» رأسه وانحنى أمامًا مثل أي شخص يشُك في دقة ما سمعه.

- أجل، وانتبه من فضلك.

فتحت أصابع «ستراكر» الطويلة قفل الحقيبة، ثم أخرجت مجموعة أوراق في ملف أزرق شفاف.

نظر إليه «لاري كروكيت» عاقدًا حاجبيه.

- اقرأ هذا لنوفر الوقت.

فتح «لاري» غلاف الملف البلاستيكي، ونظر إلى الصفحة الأولى كأنما يجاري أحمق. تحركت عيناه من اليسار إلى اليمين عشوائيًّا لوهلة، ثم توقفتا عند شيء.

ابتسم «ستراكر» ابتسامة باهتة، ومد يده داخل سترته فأخرج علبة سجائر ذهبية رفيعة، أخرج منها لفافة طرقها على ظهر يده ثم أشعلها بعود ثقاب خشبي. رائحة التبغ التركي الحادة غشت المكتب، ودارت فيه بفعل حركة المروحة.

ساد الصمت المكتب لمدة عشر دقائق، لم يقطعه سوى صوت دوران المروحة وأصوات السيارات بالخارج. دخَّن «ستراكر» سيجارته حتى نهايتها، ثم سحق الرماد المتوهج بين أصابعه، وأشعل واحدة أخرى.

نظر «لاري» إليه بوجه شاحب مضطرب وسأل:

- هذه مُزحة. من أرسلك؟ «جون كيلي»؟

- لا أعرف شخصًا بهذا الاسم، ولستُ أمزح.

- هذه الأوراق... أوراق نقل ملكية... عقد امتلاك أراضي، إلهي! ألم تكن تعرف أن هذه الأرض تساوي مليونًا ونصفًا من الدولارات؟

قال «ستراكر» في برود:

- أنت مخطئ. هي تساوي أربعة ملايين، وقريبًا سيرتفع سعرها بعد بناء السوق التجاري المركزي.

سأل «لاري» بصوتٍ خشن:

- ماذا تريد؟

- لقد سبق وقلتُ لك. أنا وشريكي نخطط لإقامة عملٍ هنا، وننتوي السكن في منزل «مارستِن».

- أي نوعٍ من العمل؟ اتحاد قَتَلة؟

ابتسم «ستراكر» في برود وقال:

- عمل عادي في تجارة الأثاث، مع خط لبيع التحف والعاديات لمحبي جمع هذه الأشياء. شريكي خبير في هذا المجال.

قال «لاري» بفجاجة:

- اللعنة. يمكنك الحصول على منزل «مارستِن» بثمانية آلاف وخمسمائة، والمغسلة بستة عشر. على شريكك أن يعرف هذا، بل عليكما أن تعرفا أن هذه البلدة لن تدعم متجرًا لبيع الأثاث الفاخر والتحف. ستخسران.

- شريكي يعرف بشكل كامل كل شيء عن أي شيء يهتم به. يعرف أن بلدتكم تقع على الطريق السريع الذي يخدم السائحين والمصطافين. هؤلاء هم الزبائن المستهدَفون. عمومًا، هذا ليس من شأنك. هل وجدت الأوراق سليمة؟

قرع «لاري» مكتبه بالملف الأزرق مُغمغمًا:

- تبدو كذلك. لكنني لن أبيع على طريقة تبادل الخيول هذه مهما تقول عما تريد.

قال «ستراكر» باستخفاف خفي:

- بالطبع لا. لديك محامٍ في «بوسطن» كما أعتقد. «فرانسيز والش».

هتف «لاري»:
- كيف تعرف هذا؟
- لا يهم. أرسل له الأوراق، وسيؤكد لك صحتها. الأرض التي سيُبنى عليها المركز التجاري ستكون لك، بشروطٍ ثلاثة.
قال «لاري» وقد بدت عليه الراحة:
- آه. شروط.
مال خلفًا وأخرج سيجارة «ويليام بِن» من علبة سجائر خزفية على مكتبه، أشعلها بعود ثقاب ثم قال وهو ينفث الدخان:
- الآن نتحدث في المهم. قل ما عندك.
- أولًا: ستبيع لي منزل «مارستِن» والمغسلة مقابل دولارٍ واحد. المنزل مملوك لشركة إسكان في «بانجور»، والمغسلة ملك مصرِفٍ في «بورتلاند». أعتقد أن الطرفين سيوافقان على المبلغ الذي ستصل إليه معهما وتستطيع دفعه، بالإضافة إلى خصم عمولتك طبعًا.
- من أين لك بالمعلومات؟
- لا شأن لك بهذا الآن يا سيد «كروكيت». الشرط الثاني: لن تنطق بحرف عن اتفاقنا اليوم. لو طُرح تساؤل، فكل ما تعرفه هو ما قلتُ لك. شريكان اشتريا المكانين ويهدفان لإقامة متجر أثاث للسياح والمصطافين. هذا مهم جدًّا.
- لن أتحدث.
- أريد أن أؤكد عليك أهمية هذا الشرط. ربما يأتي الوقت يا سيد «كروكيت» وتود لو تخبر أي شخصٍ بالصفقة التي أبرمتها اليوم. لو تحدثت فسأعرف، وسأدمرك. أتفهم؟
- تبدو كجاسوس في فيلم من أفلام الجاسوسية الرخيصة.
قالها «لاري» بثقة، إلا أن تحتها كان إحساس مُزلزِل بالخوف. كلمة (سأدمرك) خرجت منه بشكل اعتيادي كأنه يسأل (كيف حالك اليوم؟) مما أعطاها انطباعًا غير مُريح بالمصداقية. كيف يعرف هذا الظريف بشأن «فرانك والش» بحق الجحيم؟ حتى زوجته لا تعرف «فرانك والش».
- هل تفهمني يا سيد «كروكيت»؟
- أجل. دائمًا ما أحفظ عهودي.
لاحت ابتسامة «ستراكر» الباهتة مرة أخرى وهو يقول:
- أعرف، ولهذا اخترت العمل معك.
- والشرط الثالث؟
قال «ستراكر» بطريقة جافة:
- ليس هناك إلا طريقة واحدة لقول ما أريد. شريكي سيقوم بمهمة بنفسه، وستكون وكيله. من وقت لآخر سأطلب منك مهامًا، من وقت لآخر سأطلب خدمات ممن يعملون معك، مثل أن يحضروا لي أغراضًا معينة ويوصلوها إلى المنزل أو المتجر. لن تذكر شيئًا عن هذه الخدمات. أتفهم؟
- أجل، أفهم. أنت غريب عن هذه الأنحاء، أليس كذلك؟
رفع «ستراكر» حاجبيه مُتسائلًا:

- وهل سيُشكل هذا فارقًا؟

- بالتأكيد. لسنا في «بوسطن» أو «نيويورك». الأمر أكبر من أن أكتم سرك، فالناس هنا سيتحدثون. هناك امرأة عجوز في شارع «ريلرود» تُدعى «مَيبل وُرتس»، تقضي وقتها تحدق خلال منظار مُقرِّب...

- لا يهمني المحليون. شريكي لا يهمه المحليون. المحليون يثرثرون دومًا، ولا يختلفون كثيرًا عن طيور العقعق فوق أسلاك الهاتف. سرعان ما سيتقبلوننا.

- هذا حفلُكَ كما يقولون. افعل ما تشاء.

قال «ستراكر» موافقًا:

- كما تقول. ستدفع مقابل كل الخدمات وستحتفظ بالفواتير والإيصالات، وسندفع لك. موافق؟

«لاري» -كما أخبر «ستراكر»- يحفظ عهوده، وله سمعة طيبة كأفضل لاعب قمار في مقاطعة «كمبرلاند». وعلى الرغم من أنه احتفظ ببروده الظاهري طيلة المحادثة، فإنه كان يشتعل من الداخل. العرض الذي يقدمه له هذا المجنون لا يأتي إلا مرة واحدة في العُمر، هذا إن أتى. ربما أن مدير هذا الرجل واحد من البليونيرات الانطوائيين الذين...

- سيد «كروكيت»؟ أنا في انتظار ردك.

قال «لاري»:

- لدي شرطان.

بدا «ستراكر» غير مُهتم لكنه حافَظَ على تأدبه.

- آه؟

قلَّب «لاري» في الملف الأزرق وهو يقول:

- أولًا، يجب أن أتحقق من هذه الأوراق.

- بالطبع.

- ثانيًا، لو أنكم تقومون بأي شيء غير قانوني هناك، فأنا لا أريد أن أعرف شيئًا عنه. وبهذا أعني...

قاطعته ضحكة «ستراكر» الباردة الخالية من الإحساس. سأله «لاري» بلا أثر للابتسام:

- هل قلتُ شيئًا مُضحكًا؟

- أوه... آه... بالطبع لا يا سيد «كروكيت». اعذر اندفاعي. تعليقك أضحكني لسبب خاص. ماذا كنت تريد أن تقول؟

- لن أحضر لك أي شيء يجعل مؤخرتي في مهب الريح. لو أنك تخطط لتهريب الكحول أو المخدرات أو المتفجرات لبعض المتمردين الثوريين، فلن أغطِّيك.

اختفت الابتسامة من على وجه «ستراكر» وهو يقول:

- موافق. اتفقنا؟

بإحساس نفورٍ غريب، قال «لاري»:

- إن كانت هذه الأوراق صحيحة، فنحن متفقان، على الرغم من أنك قمتَ بكل تفاصيل الاتفاق، وتحملتُ أنا كل المدفوعات.

قال «ستراكر»:

- اليوم هو الاثنين. هل أمُرُّ عليكَ يوم الخميس؟

- الجمعة أفضل.

- جميل. أتمنى لك يومًا طيبًا يا سيد «كروكيت».

قالها وقام.

تحقق «لاري» من الأوراق، وأخبره المحامي من «بوسطن» أن الأرض التي سُيبنى عليها المركز التجاري اشترتها شركة اسمها «كونتيننتال» للأراضي والعقارات، وهي شركة وهمية مقرها في مبنى مصرف بنكٍ في «نيويورك» ولا شيء فيها إلا خزانات خاوية والكثير من الغبار.

عاد «ستراكر» يوم الجمعة، ووقَّع «كروكيت» الأوراق اللازمة ولم يفارقه إحساس مقيت بالشك، فقد خالف قوله المأثور لأول مرة: لا تتغوط حيث تأكل. وعلى الرغم من أن الإغراء كبير، فإنه لاحظ أن «ستراكر» وضعه هو نفسه مع عقدي المنزل والمغسلة في حقيبته، وصار تحت أمره وأمر شريكه الغائب؛ السيد «بارلو».

انقضى شهر أغسطس، وتحول الصيف إلى خريف، ثم شتاء، وبدأ يحس بشعور من الراحة لا يمكنه الإمساك به. بحلول هذا الربيع، كاد ينجح في نسيان أمر الاتفاق، والأوراق التي تقبع في خزانته في «بورتلاند».

ثم بدأت الأمور تتغير.

الكاتب، السيد «ميرز»، جاءه منذ أسبوع ونصف، يسأله إن كان منزل «مارستِن» متاحًا للإيجار، ثم نظر إليه مُتشككًا بعدما أخبره أنه قد بيع.

أمس، وجد أسطوانة طويلة في صندوق بريده، مرفق بها رسالة، أقرب إلى ملحوظة مختصرة. (علِّق من فضلك المُلصق المُرفق على نافذة عرض المتجر. «ر. ث. ستراكر»).

الملصق نفسه كان معتادًا، بل وضعيفًا كتصميم. مكتوب عليه (الافتتاح بعد أسبوع. متجر «بارلو» و«ستراكر» للأثاث الراقي والتحف المُنتقاة. نرحب بالزوار).

والآن، هناك سيارة تقف عند مدخل المنزل، وكان ينظر إليها حين هتف أحدهم:

- هل نمتَ واقفًا يا «لاري»؟

انتفض، ونظر خلفه إلى «باركِنز جيلسبي»، الذي كان يقف في الركن خلفه، يُشعل سيجارة «بول مول».

ضحك «لاري» في عصبية وقال:

- كلا... فقط أفكر.

نظر «باركِنز» إلى منزل «مارستِن»، حيث تنعكس أشعة الشمس على معدن السيارة عند المدخل، ثم إلى المغسلة واللافتة الجديدة المُعلَّقة عليها.

- لستَ وحدك من يُفكر على ما أعتقد. من الجميل أن يكون هناك سكان جدد في البلدة. أنت قابلتهما، أليس كذلك؟

- قابلتُ واحدًا منهما العام الماضي.

- السيد «بارلو» أم السيد «ستراكر»؟

- «ستراكر».
- يبدو رجلًا لطيفًا، أليس كذلك؟
شَعَرَ «لاري» بجفاف حلقه وبرغبة عارمة في لعق شفتيه، لكنه لم يفعل. فقط أجاب:
- من الصعب تحديد ذلك؛ لقد تحدثنا في الأعمال فقط. بدا لي لا بأس به.
- جيد. هذا جيد. تعالَ، سأسير معك حتى المقهى.
عبرا الشارع، وظل «لاري كروكيت» يفكر في صفقات الشيطان.

***

الواحدة ظهرًا.
دلفت «سوزان نورتون» إلى متجر مستحضرات التجميل. ابتسمت لـ «بابس جريفِن» (أخت هال وجاك الكبرى) وقالت:
- شكرًا لقبولك موعدي وسط زحام العمل.
قالت «بابس» وهي تُشغِّل المِروحة:
- لا مشكلة، فنحن في منتصف الأسبوع. إلهي! يبدو أن هناك عاصفة رعدية قريبة.
بعد أن نظرت «سوزان» إلى السماء التي كانت صافية تمامًا سألت:
- أتعتقدين هذا؟
- أجل. كيف تريدين تصفيف شعرك؟
أجابت «سوزان» وهي تُفكر في «بِن ميرز»:
- طبيعي... كأنني لم آتِ إلى مصفف شعر قط.
اقتربت منها «بَبس» وهي تتنهد وتقول:
- عزيزتي، كلهن يطلبن ذات الطلب.
حملت تنهيدتها رائحة علكة الفواكه. سألت «بَبس» «سوزان» إن كانت عرفت أن هناك سكانًا جددًا في البلدة يعتزمون افتتاح متجر أثاث مكان المغسلة القديمة. سيبيعون أغراضًا ثمينة كما يبدو من منظر متجرهم. لكن، ألن يكون لطيفًا أن تجد لديهم مصباح زيت يماثل الذي في شقتها. ثرثرت كذلك عن قرارها بترك منزل أهلها والاستقلال في شقة منفصلة، وكيف أنه كان أفضل قرار اتخذته في حياتها، وعن الصيف وجماله وضيقها من قرب انتهائه.

***

الثالثة عصرًا.
ترقد «بوني سوير» على فراشها المزدوج الضخم في بيتها على طريق «ديب كَات». منزل عادي هو، وليس قاطرة صفيحية، له أساس قوي ومخزن. زوجها «ريج» يكسب أموالًا جيدة من عمله في إصلاح السيارات لدى ورشة «جيم سميث» في «بوكستون».

كانت عارية إلا من سروال داخلي أزرق خفيف. نظرت في نفاد صبرٍ إلى الساعة على الكومود... الثالثة ودقيقتان... أين هو؟!

وكأن تساؤلها استحضره، انفتح باب حجرة النوم قليلًا وأطل منه «كوري برايَنت». همس:

- المكان آمِن؟

«كوري» في الثانية والعشرين من عمره، يعمل لدى شركة الهاتف منذ عامين، وعلاقته بامرأة متزوجة -جذابة للغاية مثل «بوني سوير»- تجعله ضعيفًا، متوترًا، مُستثارًا.

ابتسمت «بوني» كاشفة عن أسنانها النضيدة:

- لو كان زوجي هناك لرأيت فتحة عملاقة في جسدك تصلح لمشاهدة التلفاز من خلالها.

تقدم منها على أطراف أصابعه، يصلصل حزامه حول خصره بأدوات تصليح أسلاك الهاتف المُعلَّقة به. قهقهت «بوني» وفتحت ذراعيها وهي تقول:

- تروق لي يا «كوري»، أنت ظريف.

تعلقت عينا «كوري» بالظل البادي من أسفل السروال التحتي الأزرق، وبدأ يُستثار أكثر، ويقل توتره. نسي كل شيء عن تسلله، والتحم بها، بينما صرصور حقلٍ يئز في مكان ما من الغابة.

***

الرابعة عصرًا.

ابتعد «بِن ميرز» عن مكتبه بعد أن انتهى من كتابته لفترة ما بعد الظهيرة. قرر التخلي عن جولته في المتنزه اليوم ليستطيع الذهاب إلى عشاء آل «نورتون» الليلة بتركيزٍ كامل، وكان قد عكف على كتابته أغلب اليوم بلا توقُّفٍ.

وقف وتمطَّى، سمع أصوات فقرات ظهره تُطقطِق. جذعه مبتل بالعرق. اتجه إلى الخزانة عند رأس الفراش وأخرج مِنشفة نظيفة، ونزل إلى الحمام في الطابق السُّفلي قبل أن يعود الجميع من العمل ويسُدُّوا المكان.

علَّق المِنشفة على كتفه، وقبل أن يتجه إلى باب حجرته، لفت نظره شيء متبدٍّ من النافذة. لم يكن هناك جديد بالبلدة، فلا زالت خاملة تحت سماء العصر الزرقاء الصافية؛ نعمة «نيو إنجلند» الصيفية.

يستطيع أن يرى المباني المكوَّنة من طابقين في شارع «جوينتر»، بأسقفها المُسطحة المطلية بالأسفلت، ويستطيع أن يرى الأطفال الخارجين من المدارس، راجلين أو راكبين دراجاتهم. عند المنطقة الواقعة في شمال غرب البلدة حيث يختفي شارع «بروك» خلف بداية التل المكسو بالأشجار، انزلق ناظراه إلى تقاطع طريق «بيرنز» وطريق «بروك»، ومنه إلى منزل «مارستِن» المُشرف على البلدة من أعلى.

من حيث يقف «بِن»، يظهر المنزل كمُصغرٍ ممتاز في حجم بيت من لُعب الأطفال، وقد أحبه بهذا الشكل. من حيث يقف، يبدو منزل «مارستِن» قابلًا للاحتواء داخل قبضة يد، قابلًا للسحق.

وكانت هناك سيارة تقف عند المدخل.

وقف هناك والمِنشفة على كتفه، ينظر إليه متجمدًا في مكانه، تعتصر أحشاءه قبضةُ رعب لم يحاول فهم سببه. الساكن الجديد قد استبدل نافذتين مكسورتين، أضفيا على المنزل مظهر العمى الذي لم يكن موجودًا من قبل.

تحرَّكت شفتاه مُشكِّلتان كلمات لم يستطع أحد فهمها حتى هو نفسه.

***

الخامسة عصرًا.

«ماثيو بُرك» غادر المدرسة الثانوية حاملًا حقيبته في يُسراه، ثم عبر ساحة الانتظار الخاوية حيث تقف سيارته الـ «شيفروليه» القديمة على العجلات المُخصصة للسير فوق الجليد، والتي لم يُبدلها منذ الشتاء الماضي.

كان في الثالثة والستين، يفصله عن سن التقاعد عامان، لكنه لا زال يحمل الكثير في صدره من حصص اللغة الإنجليزية والأنشطة الخارجة عن المنهج. نشاط هذا الخريف مسرحية مدرسية، وقد أتمَّ تحضير مسرحية من ثلاثة فصول بعنوان (مُعضلة تشارلي). لديه وفرة في المتطوعين للتمثيل، يمكنه اختيار دستة منهم يستطيعون حفظ الأدوار (وتقديمها بصوت مرتجف أحادي). وثلاثة أطفال آخرون يُظهرون موهبة ما. سيبدأ تسكين الأدوار يوم الجمعة، وسيتدربون على المسرحية حتى الثلاثين من أكتوبر؛ يوم العرض.

فكرة «ماثيو» عن العرض المسرحي تتلخص في أن تكون مثل صحن من حساء مكرونة الحروف الأبجدية: بلا طعم وتثير الحنق. سيأتي أقارب الطلبة وستعجبهم، وسيدخل نقاد جريدة «كمبرلاند» في نشوة لغوية فنية، وسيُدفَع له كي يعيد صياغة أي مسرحية محلية.

الممثلة الرئيسية («رَثي كروكيت» هذا العام على الأرجح) ستقع في حب عضو آخر في فريق المسرح، وستفقد عذريتها بعد العرض غالبًا.

ثم سيجمع خيوط مناقشة لنادي المُناظرة لاحقًا.

في عمر الثالثة والستين، لا زال «ماثيو بُرك» يستمتع بالتدريس. لم يكن منضبطًا، لذا فقدَ كل فرصةٍ في أن يترقى لمنصب المدير (كذلك فهو حالمٌ أكثر من اللازم فلن يستطيع أن يتولى منصب نائب المدير حتى)، لكن قلة انضباطه لم تُعطِّله قط.

كان يقرأ مقاطع من شعر «شكسبير» وسط الفصول التي تعُج بالضوضاء والطائرات الورقية وكرات الورق المتطايرة التي تَحُط حول قدميه، فيركلها شاردًا وهو يطلب من تلامذته أن يقلبوا الصفحة. كان يفتح أدراجه ليُخرج أوراق الاختبار ليجد فوقها صراصير أو ضفادع، حتى إنه في مرة وجد ثعبانًا أسود طوله سبعة أقدام.

كان يجوب طول وعرض اللغة الإنجليزية كبحَّار وحيد راضٍ عن ذاته؛ «شتاينبِك»[11] في الحصة الأولى، «تشاوسر»[12] في الحصة الثانية، الجُملة الموضوعية في الحصة الثالثة، الفعلُ في المصدر قبل راحة الغداء. أصابعه مُصفرَّة دومًا بأثر مسحوق الطبشور لا أثر النيكوتين، لكنها ظلت مُصفرَّة بأثر مادة تسبب الإدمان على أي حال.

لم يكن الطلبة يوَقِّرونه أو يحبونه، فهو ليس من طراز مُدرِّسِي الأفلام الذين يكافحون للحصول على محبة الطلبة ورضائهم، إلا أن عددًا لا بأس به من طلابه يقدرونه، وبعضهم قد تعلموا منه أن التفاني -سواء صادر عن تواضع أو غرابة- يمكن أن يكون أمرًا جديرًا بالملاحظة.

الآن يدلُف إلى سيارته، ويضغط على دواسة البنزين بقوة وينتظر، ثم يُشغِّل المحرك مرة أخرى. يضبط المذياع على محطة «بورتلاند» لموسيقى «الروك آند رول»، ويرفع الصوت حتى أقصاه. يؤمن أن «الروك آند رول» موسيقى جيدة.

خرج بالسيارة من مكانها، فتوقفت. أعاد تشغيل المحرك مرة أخرى.

لديه منزل صغير عند طريق «تاجرت ستريم»، وعدد زوار لا يكاد يُذكر. لم يتزوج قط، وليس له عائلة سوى أخٍ في «تكساس» يعمل لدى شركة زيوت ولا يراسله أبدًا.

هو رجل اعتاد الوحدة ولا يفتقد الآخرين، لكن الوحدة قد أضرته بالتأكيد.

توقَّف عند إشارة تقاطع شارعي «جوينتر» و«بروك»، ثم اتجه إلى بيته. الظلال طويلة الآن، وضوء النهار قد صار أدفأ وأجمل، متوهجًا بلونٍ ذهبي كأنه جزء من لوحة تأثيرية فرنسية. نظر إلى يساره، ورأى منزل «مارستِن». هتف بصوت أعلى من صوت المذياع:

- مصاريع النوافذ! لقد عادت المصاريع مرة أخرى!

نظر إلى المرآة الأمامية فرأى كذلك السيارة الواقفة عند المدخل. كان يُدرِّس في بلدة «سالم» منذ عام 1952، ولم يرَ قط سيارة تقف هناك.

سأل نفسه وهو يُكمل طريقه: تُرى هل يعيش أحد هناك؟

***

السادسة مساءً.

والد «سوزان» - «بيل نورتون»- العضو المُنتخب الأول في مجلس البلدة، قد تفاجأ بأن «بِن ميرز» قد راق له... بل أعجبه للغاية.

«بيل» رجلٌ ضخم، ذو شعرٍ أسود، وعلى الرغم من ضخامته لم يكن سمينًا حتى بعد تجاوزه سن الخمسين. كان قد ترك الدراسة الثانوية بإذن والده ليلتحق بالبحرية، وقد شق طريقه بعدها ليحصل على شهادة الدبلوم المعادِلة للثانوية في سن الثانية والعشرين. لم يكن أعمى، شرسًا، كارهًا للمتعلمين مثلما يفكر بعض أصحاب الأعمال حين يقللون من شأن أي مستوى تعليم كان في إمكانهم تحصيله، سواء كان السبب قراراتهم أو القدر. لكن «بيل» لا يطيق مُدَّعي الثقافة «ذوي الفساء الفكري» كما يحب أن يدعوهم، أولئك الشباب ذوي الأعين الحالمة والشعر الطويل الذين تجلبهم «سوزان» إلى البيت من المدرسة. لا يهمه ملبسهم أو تصفيفة شعرهم، لكن ما يضايقه أن أحدًا منهم لم يبدُ جادًّا. لم يكن يشارك زوجته إعجابها بـ «فلويد تِبتس»، ذلك الفتى الذي كانت تواعده «سوزان» منذ أنهت دراستها، لكنه كذلك لم يكن يكرهه. لدى «فلويد» وظيفة ممتازة عند «فليموث جرانت»، ويعده «بيل نورتون» شابًّا جادًّا إلى حدٍّ بعيد، كما أنه شاب من البلدة، وكذا «بِن ميرز» إن كنا سنقارنهما.

قالت «سوزان» وهي تنهض عند سماعها جرس الباب:

- والآن، لا تذكر أمامه أي شيء عن الفِساء الفكري.

كانت ترتدي فستانًا صيفيًّا أخضر، تصفيفتها الجديدة تجمع شعرها للخلف، وتربطه بشريطٍ مفكوك باللون الأخضر.

ضحك «بيل» وقال:

- سوف أحدِّثه عما يليق به حين أراه. «سوزي» يا حبيبتي، لن أحرجك... أبدًا. هل سبق وتسببتُ لك في حرج؟

ابتسمت ابتسامة شاردة قلقة، وذهبت لتفتح الباب.

الرجل الذي عاد معها كان نحيفًا خفيف الحركة، ذا ملامح مرسومة بعناية، وشعر دهني نظيف حالك. كان أنيقًا بسيطًا لدرجة أبهرت «بيل»، يرتدي بنطالًا من الجينز الأزرق، وقميصًا جديدًا أبيض اللون مطوي الكُمين حتى الكوعين.

- «بِن»، هذان أبي وأمي... «بيل» و«آن نورتون». أمي، أبي، هذا «بِن ميرز».

- مرحبًا بك. سعيدٌ للقائك.

ابتسم للسيدة «نورتون» ابتسامة عصبية، فقالت:

- مرحبًا سيد «ميرز». هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها كاتبًا روائيًّا في الحقيقة. «سوزان» كانت متحمسة إلى حدٍّ مُريع.

- لا تقلقي؛ لا أُقحِم اقتباسات من كتاباتي وسط الحديث.

ابتسم مُجددًا، بينما هتف «بيل»:

- مرحى.

وقام من مقعده متثاقلًا. كان «بيل» قد وصل بكدِّه إلى عضوية اتحاد العمال في ميناء «بورتلاند»، فكانت قبضته صلبةً قوية، لكن كف «بِن» لم تنبعج في قبضته كقنديل البحر كعادة أكف مُدعي الثقافة، وسَعِد «بيل» بهذا. لقد اجتاز الشاب الاختبار الثاني بامتياز.

أشار «بيل» برأسه تجاه الشرفة الخلفية التي بناها بنفسه وهو يقول:

- أتحب البيرة؟ لدي بعضها مُثلج هناك في الخلف.

أغلب ذوي الفساء الفكري يرفضون البيرة. أغلبهم مدمنون على الحشيش ولا يُضيعون أدمغتهم القيِّمة في شرب البيرة.

اتسعت ابتسامة «بِن» وهو يقول:

- بالطبع، ومَن يرفض البيرة؟! علبتان أو ثلاث حتى!

انطلقت ضحكة «بيل» صائحًا:

- أنتَ رجُلي! تعال!

سرت نظرة غريبة بين المرأتين على إثر ضحكته، وقد تضاد تعبيرا وجهيهما؛ انعقد حاجبا «آن نورتون» بينما انفرجت أسارير «سوزان»... انتقل القلق الثقيل عبر الغرفة بين الابنة والأم.

تبع «بِن» الأب إلى الشرفة. ثمة صندوق حفظ مملوء بالثلج موضوع على معقد في الزاوية، وبداخله علبٌ من بيرة «بابِست». أخرج بيل عُلبة وطوَّحها نحو «بِن»، فالتقطها الأخير بخفة وبيدٍ واحدة كي لا تفور.

قال «بِن» وهو ينظر نحو المِشواة في الحديقة:

- مِشواة ممتازة.

كانت مبنية بالطوب، مُثبت فوقها شبكة للشيِّ، ويتصاعد منها تموُّجات الهواء الساخن. قال «بيل»:

- بنيتها بنفسي. لا بُد أن تكون ممتازة.

شرب «بِن» من علبته، ثم تجشَّأ، وهي علامة في صالحه. قال «نورتون»:

- «سوزان» مُعجبة بك.

- هي فتاة لطيفة.

أضاف «نورتون» وهو يرُد التجشؤ بالمثل:

- فتاة ظريفة عملية. تقول إنك كتبت ثلاث روايات ونشرتها كذلك.

- أجل، هذا صحيح.

- وكيف أحوال سوقهم؟

- باعت الأولى بشكلٍ جيد.

ولم يقُل أكثر. أومأ «بيل نورتون» موافقةً على رد فعل «بِن» المُتعقِّل الذي فضَّل أن يحتفظ بخصوصياته لنفسه.

- هل تود أن تساعدني في شيِّ بعض البرجر والـ «هوت دوج»؟

- بالتأكيد.

- يجب أن تقطع أصابع الـ «هوت دوج» حتى تخرج العُصارة منها. هل كنت تعرف هذه المعلومة؟

- أجل.

وراح «بِن» يُقطِّع مُبتسمًا فتحات مائلة في الهواء باستخدام إصبعه. كان يعرف أن هذه الفتحات تحافظ على الـ «هوت دوج» من التمزُّق إثر الضغط.

سأل «بيل نورتون»:

- أنت من تلك المنطقة عند الغابات، أعلم ذلك. انقل هذا الفحم إلى هناك وسأُحضِر اللحم. لا تنسَ بيرتك.

- لن تستطيع أن تبعدني عنها!

تردد «بيل» قبل عودته إلى داخل المنزل، ورفع حاجبًا نحو «بِن ميرز» وقال:

- هل أنت جاد أيها الشاب؟

ابتسم «بِن» في تجهم خفي وقال:

- أجل.

أومأ «بيل» وقال وهو يدخل إلى البيت:

- ممتاز.

نبوءة «بابس جريفِن» بالمطر كانت خاطئة مائة بالمائة، والعشاء في الحديقة الخلفية سار على أتم وجه. سرَت نسمة خفيفة واختلطت برائحة الشواء فأبعدت حشرات الصيف المقيتة.

رَفعت المرأة الأطباق الورقية وأدوات المائدة، ثم عادت لتشرب البيرة معهم وتضحك، إذ استطاع «بيل» -العجوز الذي يلعب وسط تقلبات الهواء- أن يهزم «بِن» في لعبة تنس الريشة. ألغى الأخير اللعب لجولة أخرى وهو يشير إلى ساعته ويقول:

- لدي رواية أنهيها. يجب أن أكتب ست صفحاتٍ أخرى. لو ثملتُ لن أكون قادرًا حتى على قراءة ما كتبت في الصباح.

تابعت «سوزان» «بِن» وهو يخرج من البوابة. أومأ «بيل» وأخمد نار الشواء. لقد قال الشاب إنه جاد، و«بيل» مستعدٌّ لتصديقه، فهو لم يحاول إبهار أحد، لكن أي شخص قادر على العمل بعد تناول الغداء جدير بأن يحفر اسمه فوق أي اسمٍ آخر.

لكن «آن نورتون» على أي حال لم يذُب جليدها تجاه «بِن».

***

السابعة مساءً.

أوقف «فلويد تبتس» سيارته في ساحة انتظار حانة «ديل»، بعد عشر دقائق من إنارة «ديلبيرت ماركي» -صاحب الحانة والساقي- اللافتة الوردية الجديدة المعلَّقة فوق المكان. مكتوب على اللافتة (حانة ديل) بحروف ارتفاعها ثلاثة أقدام، وبدلًا من إحدى النِّقاط في العبارة رسم لكأس خمر.

في الخارج، امتصت سحب الشفق نور النهار من السماء، وسرعان ما سيتكوَّن الضباب المنخفض، أما ضباب المساء المعتاد، فما زال أمامه نحو ساعة.

قال «ديل» وهو يُخرِج علبة بيرة من المُبرِّد:

- أهلًا «فلويد». أكان يومك جيدًا؟

- معقولًا. هذه البيرة تبدو جيدة.

«فلويد» رجل طويل، ذو لحية منمقة شقراء، يرتدي بنطالًا ذا خيوط غزلٍ من لونين مختلفين، وسُترة رياضية، وهما الزي الموحد لدى «جرانت» حيث يعمل كنائب المسؤول عن الرهونات، وكان غير شغوفٍ بعمله، علاقته به من النوع الذي قد يتغير من الرضا إلى الملل بين ليلة وضحاها. كان يشعر أنه ينجرف، لكن الشعور ذاته لم يكن بهذا السوء. ثم أن هناك «سوزي»، فتاة لطيفة. كان سيطلب منها الزواج منذ فترة طويلة، لكنه افترض أن عليه أن يكوِّن مستقبلًا أولًا.

وضع دولارًا على المشرب، وصب البيرة في كأسه، ثم جرعها ليروي عطشه. الشخص الوحيد سواه في الحانة كان شابًّا صغيرًا يرتدي زي شركة الهاتف، الفتى «برااينت» كما ظن «فلويد». كان يشرب بيرة وهو جالس إلى طاولة يستمع إلى أغنية عاطفية صادرة من صندوق الموسيقى.

سأل «فلويد» الساقي عالمًا بالإجابة مُسبقًا:

- ما الجديد في البلدة؟

لا شيء. الأخبار ذاتها تتكرر؛ طالب ثمل في المدرسة الثانوية، و... ولم يستطع التفكير في أي شيء آخر.

أجاب «ديل»:

- حسنًا، أحدهم قتل كلب عمِّك. هذه هي آخر الأخبار.
توقفت يد «فلويد» حاملةً الكأس في منتصف المسافة إلى شفتيه، وتساءل:
- ماذا؟ «دوك»، كلب عمي «وِن»؟
- هذا صحيح.
- صدمه بسيارته؟
- كلا. «مايك ريرسون» وجده حين كان يجز العشب في مقابر «هارموني هيل». كان «دوك» مُعلَّقًا على أحد أسياخ سور المقابر، وقد شُجَّت بطنه.
صاح «فلويد» ذاهلًا:
- ابن العاهرة!
أومأ «ديل» في حزن، سعيدٌ بالتأثير الذي تسببت فيه قصته. كان يعرف خبرًا ساخنًا آخر عن البلدة وسكانها، شوهدت فتاة «فلويد» مع الكاتب المُقيم لدى «إيفا». لكنه لن يخبره، سيدعه يكتشف هذا الأمر بنفسه.
أردف «ديل»:
- أعاد «ريرسون» الجثة إلى «باركِنز جيلسبي»، والذي يظن أن الكلب قد مات من تلقاء نفسه، ثم علَّقه بعض الأولاد كنوع من المزاح السمج.
قال «فلويد»:
- لكن «جيلسبي» لا يعرف فتحة مؤخرته من أي حفرة أخرى.
مال «ديل» أمامًا مُرتكنًا على ذراعيه السمينتين وقال:
- وربما لا. سأقول لك ما أظن. أعتقد أن الأمر من فعل أطفال، لكن قد تكون أكثر من مجرد مزحة. انظر...
ومدَّ يده أسفل المشرب، وناوله جريدة مفتوحة على صفحة داخلية. أخذها «فلويد»، وقرأ العنوان الرئيسي: عبدة الشيطان يُدنسون كنيسة في «فلوريدا». مرر عينيه على الخبر، واستنتج أن بعض الأولاد قد اقتحموا كنيسة كاثوليكية في «كلويستون» «بفلوريدا» في وقت ما بعد انتصاف الليل، وأقاموا بعض الطقوس الآثمة هناك. دُنِّس المذبح، وكُتبت كلماتٌ فاضحة على المقاعد وحجرات الاعتراف، كما وُجدت قطرات دماء على الدرجات المؤدية إلى الصحن. أكدت تحاليل المعمل أن بعض الدماء دماء حيوانية (دماء ماعز على الأرجح)، لكن أغلبها دماء بشرية. رئيس شرطة «كلويستون» صرَّح بعدم وجود أدلة كافية على الفاعل.
وضع «فلويد» الجريدة جانبًا، وهمس:
- عبدة شيطان في البلدة؟ بربك يا «ديل»، أنت تعرف البلدة جيدًا.
قال «ديل» في عِند:
- الشباب يُجَنُّون، سترى إن كنت مُخطئًا أم على حق. ما سيحدث تاليًا أنهم سيقدمون أضحيات بشرية. هل تريد ملء كأسك؟
قال «فلويد» وهو ينزل عن كرسيه العالي:
- كلا، شكرًا. أعتقد أنني سأذهب لأطمئن على عمي «وِن». كان يحب هذا الكلب.

قال «ديل» وهو يدُس جريدته في مكان أمين حتى يتفرغ لها في نهاية الليل:

- أبلغه سلامي. أنا فعلًا حزين لما حدث.

توقف «فلويد» في منتصف المسافة إلى الباب، وتحدث على ما يبدو إلى الهواء:

- يقولون إنهم علَّقوه فوق أحد أسياخ السور؟ يا إلهي! لكم أود أن تقع يدي على من فعلها.

قال «ديل»:

- عبدة الشيطان. هذا لم يفاجئني للحظة. لا أعرف ماذا دهى الناس هذه الأيام.

غادر «فلويد». وَضَعَ الفتى «برانيت» عملة معدنية أخرى في صندوق الموسيقى، فبدأ «دِك كُرليس»[13] يغني «ادفن معي الخمر».

***

السابعة والنصف مساءً.

- لا تتأخر.

قالتها «مارجوري جليك» لابنها «داني»، ثم أضافت:

- المدرسة غدًا، أريد أخاك الصغير في فراشه في التاسعة إلا ربع.

نقل «داني» قدميه مُتململًا وهو يقول:

- لا أعرف لماذا يجب أن آخذه معي من الأساس.

قالت «مارجوري» في تلذذ:

- يمكن ألا تأخذه معك، إن بقيت في المنزل.

التفتت إلى الطاولة حيث كانت تُنظف السمك، وأخرج «رالفي» لسانه. كوَّر «داني» قبضته ولوَّح بها في غضبٍ صامت، لكن أخاه المُدلل ابتسم في سماجة.

غمغم «داني»:

- سنعود...

قالها ثم استدار مُغادرًا المطبخ، تبعه «رالفي» وهو يقول:

- ... بحلول التاسعة.

- حسنًا، حسنًا.

في حجرة المعيشة، جلس «توني جليك» أمام التلفاز رافعًا قدميه، يشاهد مباراة كرة القاعدة بين فريقي الـ «ريد سوكس» و«اليانكيز». سأل ابنيه:

- أين تذهبان يا فتية؟

أجاب «داني»:

- سنذهب لزيارة الولد المُستجد؛ «مارك بِتري».

أضاف «رالفي»:

- سنرى كذلك قطاره الكهربي.

نظر «داني» إلى أخيه نظرة تعِسَة من فوق كتفه، لكن أباهما لم يلاحظ أيًّا مما يفعلان، فقد كان اللاعب «دوج جرفين» يسدد رمية ممتازة. صاح في شرود:

- لا تتأخرا.

في الخارج، ما زالت بقايا الضوء في السماء على الرغم من تجاوُز الغروب. قال «داني» وهما يعبران الحديقة الخلفية:

- سوف أضربك حتى أُفرِغك من أحشائك أيها الحُثالة.

قال «رالفي» في سماجة:

- سأخبر الجميع... سأخبرهم بالسبب الحقيقي الذي تود الذهاب من أجله.

هتف «داني» في يأس:

- أيها النَّتِن.

عند نهاية الحديقة الخلفية المُشذبة، طريق مُعبَّد يؤدي إلى الغابة. منزل آل «جليك» يقع في شارع «بروك»، بينما يقع منزل «مارك بِتري» في جنوب شارع «جوينتر». الطريق المُعبَّد الذي سلكاه هو طريق مُختصر، وسيوفِّر وقتًا معقولًا إن كنتما طفلين في الثانية عشرة والتاسعة قادرَين على قطع المسافة قفزًا فوق أحجار الجدول في الغابة.

تهشمت أغصان الصنوبر الجافة تحت قدميهما، وغنَّت الببَّغاوات فوق رؤوسهما، وتقافزت الجنادب حولهما.

كان «داني» مُخطئًا حين أخبر أخاه الصغير بأن «مارك بِتري» لديه المجموعة الكاملة لوحوش «أورورا»؛ المذؤوب، المومياء، دراكيولا، فرانكشتاين، الطبيب المجنون، حتى غرفة الرعب. أمهما تعد كل هذه الأشياء مَفسَدة للعقل. فجأة تحول أخو «داني» إلى مُبتَزٍّ. نَتِن بالفعل.

قال «داني»:

- أنت نَتِن، هل تعرف ذلك؟

أجاب «رالفي» بفَخر:

- أعرف. ما هو النَّتِن؟

- أن تنمو عليك الأعفان الخضراء، وتصير رخوًا كالمخاط.

صاح «رالفي»:

- انْحَنِ.

كانا يسيران بمحاذاة جدول «كروكيت»، الذي يسري في مجراه متلألئًا. شرقه بمسافة ميلين، يندمج مع تيَّار جدول «تاجَرت»، الذي يندمج بدوره مع نهر «رويال».

قفز «داني» فوق الأحجار، عاقدًا حاجبيه كي يرى موطئ قدميه وسط الماء وانعكاس الضوء عليها. راح «رالفي» يصرخ في سعادة:

- سأدفعك! انظر يا «داني»، سأدفعك!

- ادفعني وسأدفعك إلى الرمال المُتحركة، أيها اللحم المُتعفِّن.

وصلا الضفَّة الأخرى، فقال «رالفي» وهو يقفز ليقترب أكثر من أخيه:

- لا توجد رمال متحركة هنا.

قال «داني» في غموض:
- حقًّا؟ لقد مات طفل غارقًا في الرمال المُتحركة منذ بضعة أعوام. سمعت الكِبار الذين يجلسون في المتجر يتحدثون عن هذا.
اتسعت عينا «رالفي» وتساءل:
- حقًّا؟
- أجل. غاص في الرمال وهو ينادي، وفمه يمتلئ بالرمال، ويصرخ هكذا: (راااااااششش).
قال «رالفي» في قلق وقد كاد الظلام يُخيم، والغابة مليئة بالظلال المُتحركة:
- مهلًا... لنخرج من هنا.
اخترقا الضفة الأخرى، يتعثران قليلًا في أغصان الصنوبر. الولد الذي سمع «داني» عن حكايته في المتجر، هو طفل في العاشرة يُدعى «جيري كينجفيلد». ربما غاص في الرمال وهو ينادي ويصرخ، لكن إن كان كذلك، فلم يسمعه أحد. هو فقط اختفى بينما يصطاد في المستنقعات منذ ستة أعوام. البعض يقولون إنها الرمال المُتحركة، والبعض يقولون إن منحرفًا جنسيًّا قتله، فالمنحرفون في كل مكان.
قال «داني» واجمًا:
- يقولون إن شبحه ما زال يجوب هذه الغابة.
قالها وتناسى أن يخبر أخاه بأن المستنقعات تبعد عن مكانهما ثلاثة أميال. هتف «رالفي» في قلق:
- كفى يا «داني». لا تتحدث عن هذه الأمور في الظلام.
ظلت الغابة تئن وتُطقطق من حولهما، وقد توقفت الببَّغاوات عن الغناء، وانكسر غُصن في مكان ما خلفهما بلا سبب، وزال ضوء النهار تمامًا عن السماء.
أردف «داني» بصوت غريب:
- من وقتٍ لآخر، عندما يخرج طفل نَتِن في الليل، يظهر الشبح ويُرفرف بين الأشجار، بوجهه المُتعفن المُغطى بالرمال المُتحركة...
- «داني»، كفى!
ظهر الرجاء الصادق في صوت أخيه الصغير. كاد «داني» أن يفزع نفسه. الأشجار صارت كيانات حالكة بارزة تحيط بهما، وتتحرك وسط نسائم الليل، تحتك بعضها ببعض، تُطقطِق مفاصلها.
غصن آخر تهشم تحت قدميهما. همس «رالفي»:
- «داني»، أنا خائف.
- لا تكن سخيفًا. هيا.
جدًّا السير مرة أخرى. قال «داني» لنفسه إنه لم يسمع أي أغصان تتكسر خلفهما، لم يسمع شيئًا سوى صوتهما وصوت خطواتهما. يداه باردتان. أمر نفسه أن يصُب تركيزه في عَدِّ الخطوات، فهما يبعدان عن شارع «جوينتر» مائتي خطوة. قال لنفسه إنهما سيعودان من الطريق العادي حتى لا يخاف -اللحم المُتعفن- أخوه. خلال دقائق سنرى أضواء الشارع وسنشعر بالسخف، لكنه سيكون شعورًا جيدًا، لذا عُدَّ الخطوات.. واحد... اثنان... ثلاثة.
صرخ «رالفي»:

- أنا أراه! أنا أراه! **أنا أراه!**

وخز الرعب صدر «داني» كالحديد المُلتهب، وسرت كهرباء في ساقيه. انتوى أن يجري، لكن «رالفي» كان مُتشبثًا به. همس «داني» وقد نسي أن الشبح من ابتكاره:

- أين؟ أين؟

ظل يحدق إلى الغابة من حوله، خائفًا مما قد يراه، لكنه لم يرَ سوى الظلام.

غمغم «رالفي» مُرتعدًا:

- لقد اختفى الآن... لكنني رأيته... رأيت عينَيه. أوه، «دانييي».

- لا توجد أشباح أيها الأحمق. تعال.

أمسك «داني» بكف أخيه، ومشيا. شعر أن ساقيه مصنوعتان من المطاط. ركبتاه ترتجفان. «رالفي» يلتصق به ويكاد يدفعه بعيدًا عن طريقه. همس:

- هو يراقبنا.

- اسمع، أنا سوف...

- كلا يا «داني». صدقًا... ألا تشعر به؟

توقَّف «داني»، وكعادة الأطفال، بدأ يشعر بأن هناك شيئًا مُرعبًا، كأنهما لم يعودا بمفردهما. خيَّم صمت رهيب على الغابة، لكنه صمتٌ شرير. الرياح تؤرجح الظلال حولهما ولا شيء آخر.

ثم شمَّ «داني» رائحة كريهة، لكنه لم يشُمها بأنفه.

لم تكن هناك أشباح، بل منحرفون جنسيون. أولئك الذين يقفون بسياراتهم السوداء، ويعرضون على الأطفال حلوى، أو توصيلة... أو يتبعون الصغار في الغابات...

ثم...

أوه، ثم بعد ذلك...

صاح « داني»:

- اجرِ!

لكن «رالفي» تجمد من الخوف، وقبض على كف «داني» كقيد، عيناه تحدقان إلى الغابة... ثم بدأتا في الاتساع.

- «داني»؟

تهشم فرع.

التفت «داني» ونظر إلى حيث ينظر أخوه.

ثم احتواهما الظلام.

***

التاسعة مساءً.

«مَيبل وُرتس» سيدة بدينة للغاية، وقد بلغت الرابعة والسبعين في آخر عيد ميلاد لها، وصارت ساقاها أوهَن.

«مَيبل» سجل تاريخ البلدة، ومُستودع شائعاتها، تمتد ذاكرتها لتُغطي خمسين عامًا مضت من الوفيات، وحوادث الزنا، والسرقة، والجنون.

كانت تحب الثرثرة والشائعات، لكن ليست القاسية منها (لكن أولئك الذين سرت عنهم الشائعات من خلف ظهورهم لهم رأي آخر). «مَيبل» تعيش في البلدة ولأجلها فقط. بشكلٍ ما كانت هي البلدة. عجوز سمينة، قليلًا ما تخرج، تقضي جلَّ وقتها جوار النافذة، ترتدي قميصًا واسعًا كالخيمة، وترفع شعرها الأبيض العاجي في جديلة طويلة ملفوفة حول نفسها، تُمسك الهاتف في يُمناها، والمنظار المُقرِّب في يسراها. الأداتان، بالإضافة إلى الوقت الذي تستغله في استخدامهما، جعلوها كعنكبوت صيَّاد يجلس وسط شبكة اتصالات تمتد من شرق «سالم» إلى غربها.

كانت تراقب منزل «مارستِن» حتى تجد شيئًا أفضل تراقبه، حين انفتح مصراع النافذة على يسار الشرفة الأمامية، مُنبعث منه ضوء ذهبي لا يمكن أن يكون ضوءًا كهربيًّا ثابتًا. رأت لمحة مما قد يكون رأس رجل وكتفيه، تبدوان كظل في مواجهة الضوء. أشعرها هذا المنظر بقشعريرة في ظهرها.

لم يتحرك شيء آخر في المنزل.

فكَّرت: الآن، ما نوع السكان الذين لا يظهرون إلا كلمحاتٍ لا يمكن لأحدٍ التحقق منها؟

أنزلت المنظار، ورفعت سماعة الهاتف بحذر، سمعت صوتين استطاعت تبين صاحبتيهما؛ «هارييت دُرهام» و«جلينس مايبيري». كانتا تتحدثان عن الفتى «ريرسون» الذي وجد كلب «إروِن بورينتون».

جلست ساكنة تمامًا، تتنفس من فمها، كي لا تكشف وجودها على الخط معهما.

***

الثانية عشرة مساءً إلا دقيقة.

يقف اليوم عند حافة نهايته. المنازل غافية في الظلام. في وسط البلدة، أضواء ممتدة على الأرصفة، صادرة من متجر المُعدات، ودار جنازات «فورمان»، ومقهى «إكسلنت». بعضهم ظل ساهرًا؛ «جورج بوير»، الذي عاد لتوه من وردية عمل من الثالثة حتى الحادية عشرة مساءً في مصنع «جيتس». كذلك «وِن بورينتون»، الذي كان يلعب ببطاقات الكوتشينة وحيدًا، غير قادر على النوم أو التوقف عن التفكير في كلبه «دوك»، والذي أثَّر فيه رحيله أكثر مما أثَّر رحيل زوجته. لكن أغلب سكان المدينة قد ناموا من التَّعب والكَد.

في مقابر «هارموني هيل»، كيان مُظلمٌ وقف متأملًا خلف البوابة، ينتظر اللحظة القادمة. عندما تحدث، جاء صوته هادئًا وكلماته رصينة.

- أبتاه، أنعِم عليَّ الآن. أيا سيد الذباب، أنعِم عليَّ الآن. ها أنا أجلُبُ إليك اللحم المتعفن والأجساد المُنتنة. من أجلك قمت بالتضحية، وبيُسراي أقدمها لك. أظهِر لي إشارة على هذه الأرض المُكرسة إلى اسمك. أنتظر إشارة لأبدأ عملك.

حملت الريح آخر الكلمات بعيدًا، وأتت بتنهيدات وهمسات الأغصان الوارفة والحشائش، ورائحة جيفة من ناحية القمامة عند أول الشارع.

لم يكن ثمة صوت إلا ذلك الذي أتت به الرياح. ظل الكيان واقفًا، صامتًا، مُفكرًا لبرهة. انحنى ثم استقام حاملًا جسد طفل بين ذراعيه وقال:

- جئتُك بهذا.

وهي كلمات شنيعة.

مهاجرون قدامى من إنجلترا.

ويزل تعني: حيوان ابن عرس.

جون إيرنست شتاينبك كاتب أمريكي حائز جائزة نوبل عام 1962.

جُفري تشاوسر شاعر وكاتب إنجليزي عاش في العصور الوسطى.

ريتشارد ويليام كُرليس، مغني أمريكي من ولاية «مَين» توفي عام 1995.

الفصل الرابع

«داني جليك»، وآخرون.

ذهب «داني» و«رالفي جليك» ليزورا «مارك بِتري»، على أن يعودا إلى منزلهما قبل التاسعة، وحين لم يعودا حتى التاسعة والربع اتصلت «مارجوري جليك» بمنزل آل «بِتري»، فأخبرتها السيدة «بِتري» بأن الولدين لم يأتيا، وطلبت منها أن يحدِّث زوجها السيد «هنري». ناولت السيدة «جليك» الهاتف لزوجها شاعرة بالرعب يتجمَّع في أحشائها.

تحادث الرجلان. أجل، سلك الولدان طريق الغابة. كلا، الجدول ضحل للغاية في هذا الوقت من العام، ولا يمكن أن يكونا قد غرقا فيه وهو لا يتجاوز العَقِبَين. اقترح «هنري» أن يسير على خُطاهما من ناحيته، وأن يأخذ معه كشافًا قويًّا، وسيسير السيد «جليك» من ناحيته ويتقابلان في الطريق. ربما وجد الولدان جُحر قندسٍ، أو جلسا يدخنان سرًّا، أو شيء من هذا القبيل.

اتفق «توني» مع الفكرة، وشكر السيد «بِتري» لتعبه، فأخبره الأخير بأن لا شُكر على واجب. أغلق «توني» الهاتف وراح يُطمئن زوجته المرتعبة، ثم قرر في نَفسه أنه سيجعل الولدين غير قادرين على الجلوس لأسبوع حين يجدهما.

لكن، قبل أن يغادر الحديقة الخلفية حتى، ظهر «داني» من بين الأشجار، وانهار جوار المِشواة. كان مذهولًا، يتحدث ببطء، يجيب عن الأسئلة بتثاقل وتشتُّت. كُما قميصه محشوان بالحشائش، وعلى شعره أوراق الأشجار الخريفية الجافة.

أخبر أباه بأنه و«رالفي» كانا يسيران في الطريق الذي يخترق الغابة، وعبرا جدول «كروكيت» قفزًا على الأحجار، ووصلا إلى الضفة الأخرى دون مشكلات. ثم بدأ «رالفي» يتحدث عن شبح في الغابة (تحاشى «داني» ذِكر أنه من وضع تلك الفكرة في عقل أخيه). «رالفي» قال إنه يرى وجهًا، فذُعِر «داني». هو لا يؤمن بوجود الأشباح أو أي من تلك الشخصيات المخيفة، لكنه ظن كذلك أنه قد سمع صوتًا في الظلام.

ماذا فعلا بعدها؟

يعتقد «داني» أنهما قد بدآ السير مُجددًا، يدًا في يد. لكنه لم يكن مُتأكدًا. ظل «رالفي» يَهْرف بكلامٍ عن شبح، فطلب منه «داني» ألا يبكي لأنهما سرعان ما سيصلان إلى شارع «جوينتر». كان يفصلهما عنه مائتا خُطوة، ربما أقل.

ثم حدث شيء رهيب.

ماذا؟ ماذا كان الحدث الرهيب؟

لا يعرف «داني» ماذا كان...

تحدثا معه، تحمَّسا، تناقشا، لكن «داني» لم يفعل سوى هز رأسه ببطء وعدم فهم. أجل، هو يعرف أن عليه التذكُّر، لكنه لا يستطيع. بصدقٍ، هو عاجز. لا يتذكر أنهما سقطا من فوق شيء، أو في

داخل شيء. فقط أحاط بهما الظلام الدامس. أول شيء يتذكره بعدها أنه كان مُمدَّدًا على الطريق وحده، وقد اختفى «رالفي».

قال «باركِنز جيلسبي» إنه لا فائدة من إرسال الرجال إلى الغابة الليلة. هناك مصائد كثيرة، وربما حادَ الولد عن الطريق.

خرج «باركِنز» و«نولي جاردنر» و«توني جليك» و«هنري بِتري» يجوبون طريق الغابة، وما يتفرَّع منه حول شارع «جوينتر» وشارع «بروك»، ينادون خلال أبواق كهربيَّة.

في الصباح الباكر، بدأت كلٌّ من شرطة «كَمبرلاند» وشرطة الولاية في تنظيم بحثٍ في غابة البلدة. حين لم يجدوا شيئًا، وسَّعوا نطاق بحثهم. ظلوا يبحثون في كل صوبٍ لأربعة أيام، بينما ظل السيد والسيدة «جليك» يجوبان الغابات والحقول، ينقِّبان في المصائد المُهمَلة جوار بقايا النيران، يناديان اسم ابنهم بأمل لا ينضب.

لم يحصل أحد على نتيجة حتى بعد تمشيط جدول «تاجرت» ونهر «رويال».

لا شيء...

في صباح اليوم الخامس، أيقظت «مارجوري جليك» زوجها في الرابعة فجرًا، مذعورة بشكل هستيري، فقد تهاوى «داني» في الطُّرقة بالأعلى، غالبًا كان في طريقه إلى الحمام. نقلته سيارة إسعاف إلى مستشفى «مَين» المركزي، وكان التشخيص المبدئي صدمة عصبية شديدة.

قاد الطبيب المسؤول -رجل يُدعى «جوربي»- السيد «جليك» جانبًا وقال:

- هل تعرَّض ابنك من قبل لأزمة رَبْويَّة؟

رمش السيد «جليك» مرارًا، وهزَّ رأسه نافيًا. لقد زاد عمره عشرة أعوامٍ في أسبوع.

- هل هناك تاريخ مرضي بالحمى الروماتيزمية؟

- «داني»؟ كلا...

- هل خضع ابنك لاختبار السُّل؟

- سُل؟ ابني يعاني السُّل؟!

- سيد «جليك»، نحن فقط نحاول معرفة...

- «مارج»! «مارجي»، تعالي إلى هنا لحظة!

قامت «مارجوري جليك» وسارت ببطء عبر الممر. وجهها شاحب، شعرها مصفف بإهمال، كانت تبدو كامرأة تعتصرها قبضة صداعٍ نصفي حاد.

- هل خضع «داني» لاختبار السُّل في المدرسة هذا العام؟

أجابت في بلادة:

- أجل، في بداية العام الدراسي. كانت النتيجة سلبية.

سأل «جوربي»:

- هل يسعل ليلًا؟

- كلا.

- هل يشكو من ألم في الصدر أو المفاصل؟

- كلا.
- ألم في أثناء التبوُّل؟
- لا.
- أي نزفٍ غير طبيعي؟ رُعاف الأنف أو براز مُدمم، أو حتى كدمات أو خدوش غير مُفسَّرة؟
- لا.
ابتسم «جوربي» وأومأ وهو يقول:
- أود أن يظل هنا لإجراء المزيد من الفحوصات، لو سمحتما.
قال «توني»:
- بالتأكيد... بالتأكيد. لدي تأمينٌ صحي.
- ردود أفعاله بطيئة للغاية، سنجري له أشعة سينيَّة، وتحليل عينة نخاع، وعَدِّ خلايا...
راحت عينا «مارجوري» تتسعان، وهمست:
- هل داني مصاب بسرطان الدم؟
- سيدة «جليك»، نحن بالكاد...
لكنها فقدت الوعي.

***

«بِن ميرز» كان من المتطوعين للبحث عن «رالفي جليك»، ولم يثمر بحثه عن شيء إلا امتلاء ثنيتي بنطاله بنبات الشُّبيط المزعج، وإصابته بحساسية حبوب لقاحٍ شديدة تسببت فيها أزهار عصا الذهب الصيفية المُتأخرة.

في ثالث أيام البحث، عاد إلى مطبخ «إيفا» ليأكل عُلبة «رافيولي»[14] ثم ينام قليلًا قبل الكتابة. وجد «سوزان نورتون» تجول في المطبخ حول الموقد، وتحضر له نوعًا من أطباق البرجر.
كان الرجال قد عادوا للتو من أعمالهم، وتحلَّقوا حول المنضدة، يتظاهرون بتبادل الحديث، ويرمقونها. كانت ترتدي قميصًا بنقشة المربعات وتربط طرفيه حول خصرها، ومن تحته بنطال قصير ضيق من القطن.
وكانت «إيفا ميلَّر» تكوي في ركن في المطبخ.
سأل «بِن» «سوزان»:
- مرحبًا. ماذا تفعلين هنا؟
- أطبخ لك شيئًا معقولًا قبل أن تغيبَ في الظلال وتنام.
قالتها، فأطلقت «إيفا» ضحكة مصحوبة بصوتٍ أنفي عفوي، ومن خلف زاوية الحائط الذي يفصلهما شعر «بِن» بأذنيه تلتهبان حرجًا. قال «ويزل»:
- هي تطبخ ببراعة. أستطيع أن أجزم بهذا، فقد كنت أشاهدها.
قال «جروفر فيريل» وهو يضحك:
- لو عكفتَ على مشاهدتها أكثر من ذلك، ستسقط عيناك من محجريهما.

غطّت «سوزان» الإناء، ثم نقلته إلى الفُرن. خرجا إلى الشرفة الخلفية في انتظار نضج الطعام. كانت الشمس تغرب حمراء مُلتهبة.

- هل وافاك الحظ؟

- كلا، لا شيء.

أخرج علبة سجائر مُنبعجة من جيب قميصه، وأشعل منها واحدة.

قالت:

- رائحتك كأنما اغتسلت بـ «أولد وودزمان»[(15)].

- وقد نفعني هذا كثيرًا.

مد ذراعه نحوها ليُريها لدغات الحشرات المُتورمة، والخدوش. أردف:

- البعوض القذر، والأشواك اللعينة.

- ماذا تظن قد حدث له يا «بِن»؟

- ربما تسلل أحدهم من وراء الأخ الأكبر وضربه بجوربٍ مليء بالرمال مثلًا، ثم اختطف الطفل.

- هل تظنه قد مات؟

حدق «بِن» إليها وهو يتبيَّن إن كانت تريد إجابةً صادقة، أم مجرد أمل. شبك أصابعه بأصابعها وقال باختصار:

- أجل. أعتقد أن الولد قد مات. لا توجد أدلَّة قاطعة حتى الآن، لكنني أظن ذلك.

هزت رأسها ببطء وقالت:

- أتمنى أن تكون مُخطئًا. أمي ونسوة أخريات كُن في زيارة للسيدة «جليك». تكاد تُجن، وكذا زوجها، والولد الآخر يدور في المكان كشبح.

- أ...

شرد «بِن» وهو ينظر نحو منزل «مارستِن»، غير مُنصتٍ تمامًا لما تقول. كانت المصاريع مغلقة، وسوف تُفتَح لاحقًا... بعد حلول الظلام. تُفتح المصاريع دومًا بعد حلول الظلام. شعر برعدة قوية لمجرد التفكير في هذا، وفي طابعه السحري المشؤوم.

- ... غدٍ؟

التفت إليها مُتسائلًا:

- هه؟ معذرة.

- أقول، أبي يدعوك للقدوم مساء غدٍ. هل تستطيع؟

- هل ستكونين هناك؟

قالت وهي تنظر إليه:

- أجل، بالتأكيد.

- حسنًا. ممتاز.

كان يريد أن ينظر إليها، فقد كانت فاتنة في ضوء الغروب، لكن عيناه ظلتا مُعلَّقتين بمنزل «مارستِن»، كأنه يجذبهما بمِغناطيس.

قالت «سوزان»:
- يجذبك، أليس كذلك؟
كانت قراءتها لأفكاره وتشبيهاتها دقيقة ومُدهشة.
- بلى، يجذبني.
- «بِن»، عمَّ تدور روايتك الجديدة؟
- ليس بعد. امنحيني وقتًا، وسأخبرك بأسرع ما يمكنني. يجب... يجب أن تنضج بنفسها.
أرادت أن تصيح (أحبك) في هذه اللحظة بالذات. أن تقولها ببساطة ولا وعي بالضبط كما طَفَت الفكرة على سطح أفكارها ببساطة ولا وعي، لكنها حبست الكلمة خلف شفتيها. لم تكن تريد التصريح بها وهو... وهو ينظر إلى هناك.
نهضت وهي تقول:
- سأذهب لأرى الطعام.
وحين تركته، كان يُدخِّن وينظر إلى منزل «مارستِن».

***

كان «لورانس كروكيت» يجلس في مكتبه صباحًا، يتظاهر بقراءة مراسلات يوم الاثنين، بينما يُثبِّت عينيه على صدر سكرتيرته. عندما دق جرس الهاتف، كان يُفكِّر في مستقبل عمله في البلدة، وفي السيارة الصغيرة المُتلألئة أمام منزل «مارستِن»، وفي صفقات الشيطان.
حتى قبل إتمامه لصفقة «ستراكر» (هي مجرد كلمة أعطاها للرجل، هكذا فكَّر، ثم تحركت عيناه إلى فتحة قميص السكرتيرة) كان «لورانس كروكيت»، بلا شك، أغنى رجل في بلدة «سالم»، وواحدًا من أثرياء مقاطعة «كمبرلاند»، لكن لا يوجد ما يشير إلى هذا الثراء في مظهره أو مكتبه.
المكان كان قديمًا، مُتربًا، مُضاء بمصباحين أصفرين مُغطيَين بروث الحشرات. أما مكتبه فعتيق، من الطراز الذي يُغلَق بغطاء مُتحرك يُلَف حول نفسه كأسطوانة، ومُغطى بالأوراق والأقلام والمراسلات. عند ناحية من المكتب يضع علبة غراء، وعند الناحية الأخرى ثقَّالة أوراق مُكعبة على أوجهها صور عائلية. فوق كومة من السِّجلات، يضع حوض أسماك زينة زجاجيًّا مُفعمًا بأعواد الثقاب لمَن يحتاج إلى واحدٍ. هناك كذلك عدد من خِزانات الملفات المعدنية غير القابلة للاحتراق، ومكتب السكرتيرة. فيما عدا المذكور، فالمكتب كان عاريًا تمامًا.
مع ذلك، فثمة صور.
الصور الفوتوغرافية كانت في كل مكان... مُكوَّمة، أو مُثبَّتة بدبابيس، أو مُلصقة على أي سطح مُتاح. بعضها مُصوَّر بكاميرا فورية، وبعضها صور كوداك ملونة عمرها بضعة أعوام. عدد من تلك الصور بالأبيض والأسود، مُصفرة، ملوية الأطراف، يعود تاريخ تصويرها إلى خمسة عشر عامًا. تحت كلٍّ منها عبارات مثل: (حياة الريف الرائعة!)، (موقع مميز فوق التل!)، (طريق «تارجارت»، 32,000... رخيص، أم ملائم للسكن الفخم؟!)، (مزارع على الطريق).

كان منظرها كئيبًا كأنه كان يريد الحصول على أي أموال بغض النظر عن مظهر الخدمة التي يقدمها أو جودتها. كان كذلك بالفعل حتى عام 1957، حين قرر أن العربات المقطورة هي مستقبل الإسكان. في تلك الأيام القاتمة، أغلب الناس كانوا يرون العربات المقطورة كشيء فضي لطيف لامع، توصله بسيارتك فتجُره إلى حيث تريد. إلى محمية «يلوستون» الوطنية مثلًا حيث تستطيع أخذ بضع لقطات مع زوجتك وأولادك وأنتم تقفون أمام ينبوع «أولد فيثْفُل». في تلك الأيام القاتمة، لم يرَ أي شخص -حتى صُناع العربات المقطورة أنفسهم- أنه قد تُستبدل بها عربات التخييم، التي توصَل بالسيارات أو تُصنَّع مُستقلة الحركة، بمحرك منفرد.

ومع ذلك، لم يكن «لاري» بحاجة إلى معرفة كل هذا، كرجل مُتوسط البصيرة، فقد ذهب ببساطة إلى مكتبه في البلدة (في هذه الأيام لم يكن عضوًا مُنتخبًا في مجلس المدينة، ولم يكُن ليُنتَخب أصلًا لمنصب راعي كلاب) وبحث عن قوانين تقسيم بلدة «سالم»، وأصابه الرضا التام؛ من بين السطور رأى آلاف الدولارات. يقول القانون إنك لا تستطيع حيازة مستودع نفايات، أو الاحتفاظ بأكثر من ثلاث سيارات خردة في ساحة منزلك إلا إذا كان لديك تصريح بإقامة ساحة خُردة، أو لديك مبنى خارجي لهذا الغرض وحاصل على موافقة من مكتب صحة المدينة.

وكان هذا هو ما يبحث عنه.

رهن «لاري» بعض العقارات واقترض المزيد من المال، واشترى ثلاث قاطرات أبعد ما تكون عن صورة العربة المقطورة اللطيفة الفضية اللامعة. كانت عبارة عن وحوش طويلة مميزة، مُبطنة بالبلاستيك ذي المظهر الخشبي، وحمامات من الفورمايكا، ثم اشترى لكل واحدة فدانًا في منطقة المُنحنى -حيث الأراضي منخفضة السعر- ووضع لها تأسيسات ومرافق رخيصة، ثم بدأ بيعها. خلال ثلاثة أشهر كان قد باعها على الرغم من مقاومة الناس لفكرة العيش في منزل يشبه حافلات الـ «بولمان». كان مكسبه فيها قريبًا من العشرة آلاف دولار. ها قد وصلت رياح المستقبل لبلدة «سالم»، وعرف الجميع أن «لاري كروكيت» كان على صواب.

في اليوم الذي أتاه فيه «ر. ث. ستراكر» في مكتبه، كانت ثروة كروكيت تقارب مليوني دولار، كسبها عن طريق مضاربات أراضي في البلدات المجاورة (لكن ليس في بلدة «سالم» تحديدًا، فشعار «لاري كروكيت»: لا تتغوط حيث تأكل). وهذه المُضاربات كانت مُرتكِزة على قناعته أن مستقبل المنازل المُتنقلة سينمو سريعًا كأولاد الحرام، وقد كان، وجَرَت الأموال بين يديه.

في عام 1965، صار «لاري كروكيت» شريكًا سريًّا لمقاول اسمه «روميو بولين»، والذي كان يبني متجرًا كبيرًا في «أوبورن». «بولين» كان بارعًا في إيجاد أسهل الطرق للوصول إلى أهدافه، وبالإضافة إلى معرفته بخبايا عمل المقاولات، وبراعة «لاري» في الكَسب، جمع كلٌّ منهما سبعمائة وخمسين ألف دولار، ولم يُبلِغا الضرائب إلا بثُلث هذا المبلغ. أرضاهما هذا كثيرًا، ولم يعد يهم «بولين» إن رشَح سقف المتجر بالماء، فهذه هي الحياة.

ما بين عامي 1966 و1968 اشترى «لاري» حِصَّة حاكمة في ثلاث شركات لبيع المنازل المتحركة، ثم راح يُبدِّل ملكيات الشركات وحصصها كي يتهرب من الضرائب. يُشبِّه «روميو بولين» هذه العملية بالدخول في أحد أنفاق الحب[16] مع فتاة (أ)، ثم تطارح الفتاة (ب) الغرام في السيارة خلفك، ثم تخرج ممسكًا بيد الفتاة (أ) من الجهة الأخرى من النفق. انتهى به الأمر بشراء المنازل المتحركة من نفسه، وهذه النشاطات العجيبة كانت كلها مُجدية إلى درجة مرعبة.

صفقات الشيطان... لا بأس. هكذا فكر «لاري» وهو يُقلِّب في أوراقه. عندما يحين موعد السداد للشيطان، فلا تأمن غضبه.

الذين اشتروا العربات المقطورة من الشريحة المتوسطة في الطبقة الدُّنيا من العُمَّال والمُوظفين ممن لا يستطيعون دفع مقدم لإسكان أفخر، أو من كبار السن الذين يسعون لزيادة مزايا تأمينهم الاجتماعي. فكرة المنزل الكبير ذي الست غُرَف بعيدة عن هؤلاء الناس، أما بالنسبة إلى العجائز، فثمة مزية أخرى في العربات المقطورة، لم يستوعبها مُبكرًا سوى «لاري»؛ العربات المقطورة من طابق واحد بلا درجات يُرهَقون في صعودها.

أما طرق الدفع لامتلاك هذه العربات المقطورة فكانت يسيرة؛ مُقدم خمسمائة دولار كافٍ للاتفاق، ولا يرى أحد الهاوية التي ينزلق إليها عند دفع باقي التسعة آلاف وخمسمائة دولار بفوائد أربعة وعشرون بالمائة.

إلهي! ولَكَم أمطرت السماء نقودًا على رأسه!

«كروكيت» نفسه لم يتغير كثيرًا، حتى بعد أن لَعِب الصفقة مع السيد «ستراكر» المُريب. لم يجلُب مصمم ديكور شاذًّا لتجديد مكتبه، وظل مُكتفيًا بالمِروحة الكهربية الرخيصة ولم يبتَع مكيف هواء، ولم يكف عن ارتداء ذات البذلات اللامعة الرخيصة بالتبادل مع السترات الرياضية الزاهية. ما زال يُدخِّن نفس السجائر الرديئة، ويثمل في حانة «ديل» في ليالي السبت، ويلعب البليياردو مع الرفاق.

بالطبع ظلت يده في أعمال العقارات في البلدة، مما أثمر عن ثمرتين، الأولى؛ أنه قد انتُخِب عضوًا في مجلس المدينة، والثانية؛ أنه قد تهرَّب تمامًا من ضرائبه.

إلى جانب منزل «مارستِن»، فهو كان وما زال وكيل البيع لعدد كبير من المنازل في المنطقة. كانت هناك صفقات جيدة بالطبع، لكنه لم يكن يستعجلها، فالأموال تتدفق إلى جيبه على أي حال.

ربما كان المال أكثر من اللازم. فكَّر «لاري»: ربما كان من المستحيل حقًّا أن يتفوق المرء على نفسه، ربما كان من الممكن أن يدخل نفق الحب مع الفتاة (أ)، ويطارح الفتاة (ب) الغرام، ويخرج من الجهة الأخرى ممسكًا بيد الفتاة (أ)، لتتفق عليه الفتاتان وتُهلِكانه ضربًا.

قال «ستراكر» إنه سيكون على اتصالٍ به، وكان هذا منذ أربعة عشر شهرًا. الآن، ماذا لو...

وهنا دق جرس الهاتف.

***

- السيد «كروكيت»؟

سمع الصوت الخالي من أي لكنة، فأجاب:

- «ستراكر»، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- كنت أفكِّر فيك حالًا، ربما لدي مواهب رُوحانية.

- هذا لطيف للغاية يا سيد «كروكيت». أريد خدمة لو سمحت.

- أكيد.

- سوف تأتي لي بشاحنة، لو سمحت. شاحنة كبيرة... مُستأجَرة. أرسِلها لي عند ميناء «بورتلاند» الليلة في تمام السابعة. عاملان للشحن والتفريغ سيكونان كافيَين على ما أعتقد.

- حسنًا.

قرَّب «لاري» دفترًا صغيرًا وبدأ يكتب فيه: («هـ. بيترز» و«ر. سنو»، وشاحنة «هنري»، الساعة السادسة على الأكثر). لم يتوقف لحظة ليُفكر في غرابة اتباعه لتعليمات «ستراكر» حرفيًّا.

- هناك اثنا عشر صندوقًا، كلها ستُنقَل إلى المتجر إلا واحدًا يحوي خزانة ثمينة من طراز «هِبرلوايت». سيعرفها عُمالك من حجمها، وعليهم أن يوصلوها إلى المنزل. هل تفهم؟

- أجل.

- أخبرهم بأن يضعوها في القبو. يمكنهم أن يدخلوا من المدخل الأرضي تحت نافذة المطبخ. هل تفهم؟

- أجل. هذه الخزانة...

- خدمة أخرى لو سمحت. سوف تشتري خمسة أقفال قوية من العلامة التجارية «يِل». هل تعرف هذا النوع؟ «يِل»؟

- الجميع يعرفه. ماذا...

- رجالك سيغلقون باب المتجر الخلفي بالقفل بعد رحيلهم، وفي المنزل، سوف يتركون مفاتيح الأقفال الخمسة على المنضدة في القبو، وحين يغادرون، سيغلقون باب القبو بالقفل، كذا الباب الأمامي والخلفي، وباب المرأب. هل تفهم؟

- أجل.

- شكرًا لك يا سيد «كروكيت». اتبع كل التعليمات بدقة. إلى اللقاء.

- انتظر لحظة...

وانغلق الخط.

***

في الساعة السابعة مساءً إلا دقيقتين، وصلت شاحنة برتقالية وبيضاء مطبوع عليها عبارة («هنري» للشحن)، توقفت أمام الكوخ المعدني الكبير في المكان المُحدد في ميناء «بورتلاند». كانت الأمواج عالية، والنوارس قلقة فوقها، تدور وتصرخ على خلفية من سماء المغرب القرمزية.

قال «رويال سنو» وهو يجرع آخر قطرات البيبسي ويطوِّح العلبة الفارغة بعيدًا:

- يا يسوع! لا يوجد أي شخصٍ هنا. سوف يقبضون علينا بتهمة السرقة.

هتف «هانك بيترز»:

- ثمة شخص... شرطي.

لم يكن شرطيًّا بالضبط، بل حارسًا ليليًّا. أضاء كشَّافه في وجوههم وهو يصيح:

- هل منكم يا شباب من يُدعى «لورنس كريكيت[17]»؟

أجاب «رويال»:

- اسمه «كروكيت»... هو مَن أرسلنا لنُحضر بعض الصناديق.

قال الحارس الليلي:

- حسنًا. تعالَ إلى المكتب، لدي إيصال استلام يجب أن توقِّعوا عليه.

ثم أومأ تِجاه «بيترز» الذي كان خلف المِقوَد وهتف:

- قف هنا، عند البوابة المُضاءة، أتراها؟

- أجل.

وتراجع «بيترز» بالسيارة إلى حيث أشار الحارس، بينما تبع «رويال سنو» الرجل إلى المكتب، حيث تعالى صوت فقاقيع غليان القهوة داخل الماكينة. تشير الساعة فوق التقويم إلى السابعة وأربع دقائق. قلَّب الحارس في بعض الأوراق على المكتب، ثم أخرج لوح كتابة وأشار إلى الورقة المُثبتة عليه قائلًا:

- وقِّع هنا.

كتب «رويال» اسمه.

- عليك أن تلزم الحذر حين تدخل إلى المخازن، أَضِئ الأنوار فثمة فئران.

طوَّح «رويال» قدمه في حذائيه الثقيلين وقال:

- لم أرَ فأرًا لا يهرب عند مرأى هذين.

خرج «رويال» وسار نحو المخزن. وقف الحارس عند باب الكوخ يراقبهما.

قال «رويال» لـ «بيترز»:

- خذ حذرك؛ الرجل يقول إن هناك فئرانًا.

ضحك «بيترز» هاتفًا:

- حسنًا. هذا ما أرسلنا إليه العجوز «لاري كروكات[18]».

وجد «رويال» مفتاح الإنارة بالداخل جوار الباب، فضغط عليه. ثمة شيء بخصوص الشعور العام بالمكان؛ الهواء المُثقل برائحة المِلح وعفن الخشب والبلل، الجو الخانق، بالإضافة إلى الفئران بالطبع.

كانت الصناديق مُكوَّمة في منتصف المخزن الواسع. المكان خالٍ، فبدت الحمولة صغيرة وسطه. كانت الخزانة في المنتصف، في صندوقٍ أطول، وهي الوحيدة المختومة بختم: («بارلو وستراكر»، 27 شارع «جوينتر»، بلدة «أورسالم»، ولاية مَين»).

قال «رويال» وهو ينظر إلى نسخته عن إيصال الاستلام:

- لا يبدو هذا سيئًا للدرجة. أجل، كل شيء موجود.

قال «هانك»:

- هناك فئران، أتسمعهم؟

- أجل. كائنات بائسة. أكرهها.

صمت الرجلان للحظات، ينصتان إلى صوت الفئران القادم من وراء الظلال. أخيرًا قال «رويال»:

- لتُنهِ هذا الأمر. سنضع الحبيب الكبير في السيارة أولًا، فلا يكون في طريقنا حين نُنزِل باقي الصناديق في المتجر.

- حسنًا.

سارا نحو الصناديق. أخرج «رويال» مطواته، وقطع بها سريعًا الفاتورة البُنية المُلصقة على الجانب. قال «هانك»:

- مهلًا. أتعتقد أنه ممسوح لنا...

- علينا التأكد أننا حصلنا على المطلوب، أليس كذلك؟ لو فشلنا، فسيُعلِّق «لاري» مؤخرتينا بمسمارٍ على لوحة إعلاناته.

جذب الفاتورة ونظر إليها. سأله «هانك»:

- ما المكتوب فيها؟

قال «رويال» في تأنٍّ:

- هيروين... مائتا رطل منه. كذلك ألفا مجلة إباحية من السويد، وثلاثمائة واقٍ ذكري فرنسي ذو نتوءات...

خطف منه «هانك» الورقة وهو يقول:

- هاتها. خزانة. بالضبط كما قال لنا «لاري». خزانة من لندن، إنجلترا إلى «بورتلاند»، «مَين». واقيات ذكرية ذات نتوءات، هه؟ أعد الفاتورة إلى مكانها.

قال «رويال»:

- ثمة شيء غريب.

- أجل... أنتَ.

- كلا، كفى هراءً. لا توجد أي أختام على هذه الفاتورة اللعينة، ولا على الصندوق، ولا على أي شيء.

- ربما يختمون هذه الأشياء بالحبر الذي لا يظهر إلا تحت الضوء الأسود الكاشِف؟

- لم يحدث هذا قط حين كنت أعمل في الميناء. إلهي، كانت الشُّحنة تُختَم بتسعين ختمًا مختلفًا. لا يمكنك أن تحمل صندوقًا دون أن تتسخ يداك بالحبر الأزرق وصولًا لكوعيك.

- هذا من حظي. زوجتي تنام مُبكرًا، وكنت آمل أن أحظى بها الليلة، ولن أجد وقتًا للاغتسال قبلها.

- ربما لو ألقينا نظرة بالداخل...

- مستحيل. هيا، دعنا نحملها.

هزَّ «رويال» كتفيه. أمالا الصندوق، فشعرا بشيء ينزلق بداخله. كان الصندوق صعب الحمل. يبدو أن بداخله واحدة من تلك الخزانات الفاخرة، فقد كان ثقيلًا للغاية.

ترنحا نحو الشاحنة وهما يلهثان، ثم وضعا الصندوق على آلة الرفع الهايدروليكية وأطلقا تنهيدة راحة في نفس الوقت. تراجع «رويال» قليلًا بينما «هانك» يُشغل الرافعة. عندما وصل الصندوق إلى مستوى جسم الشاحنة، صعدا إليها كي يُدخِلا الخزانة.

ثمة شيء بشأن هذا الصندوق يثير قلقه. الأمر أكبر من عدم وجود أختام. شيء لا يمكن الإمساك به. ظل «رويال» يحدق إليه بينما يهتف «هانك»:

- هيا، لنُحضر الباقي.

كانت على باقي الصناديق الأختام المُعتادة، فيما عدا ثلاثة شُحنوا من داخل الولايات المُتحدة. كلما نقلا صندوقًا إلى الشاحنة، راجع «رويال» الفاتورة المُثبتة إليه. كوَّما كل بضائع المتجر قريبًا من باب الشاحنة الخلفي، بعيدًا عن الخزانة.

تساءل «رويال» بعد أن انتهيا:

- بحق الله، من سيشتري كل هذا؟ مقعد هزاز بولندي، ساعة ألمانية، عجلة دوَّارة من آيرلندا؟! أيا يسوع المسيح! لا بُد أن تكلفة شحن كل هذا باهظة.

قال «هانك» في حكمة:

- السائحون. السائحون يشترون أي شيء قديم. بعضهم من «بوسطن» وبعضهم من «نيويورك»... سوف يشترون كيسًا من روث الأبقار لو أن الكيس قديم.

- لا يروق لي هذا الصندوق الكبير؛ لا يوجد عليه أي أختام. يا له من أمرٍ غريب!

- دعنا نوصله إلى حيث يريدون.

عادا إلى بلدة «سالم» دون أن يتحدثا. قدم «هانك» تضغط بدَّال الوقود بقوة، فقد كان يريد أن ينتهي من هذه المهمة بأسرع ما يمكن، فهو لم يكن مرتاحًا كذلك، وكما قال «رويال»؛ الأمر غريب للغاية.

قاد الشاحنة حتى الباب الخلفي للمتجر، وقد كان غيرَ موصدٍ كما قال «لاري». جرَّب «رويال» مفتاح الإضاءة داخله بلا جدوى. غمغم:

- هذا رائع. سنُفرغ هذه الشحنة اللعينة في الظلام. كنت أقول... ألا تبدو الرائحة هنا غريبة أيضًا؟

تشمم «هانك» الهواء، وكانت هناك رائحة سيئة، لكنه لم يستطع الجزم بماهيتها، أو بما تُذكِّره. رائحة حادة لاذعة كنفحة من شيء فاسد.

قال وهو يضيء كشافه ويُحركه في أرجاء الغرفة الخالية:

- الأمر أن المكان كان مغلقًا لفترة طويلة. فقط يحتاج إلى تهوية...

- أو يحتاج إلى حرق.

قالها «رويال» وهو يشعر بكراهية تجاه المكان. شيء فيه يضايقه. أردف:

- هيا. لنحاول ألا نكسر أرجلنا.

أفرغا الحمولة بأسرع ما أمكنهما، ووضعا كل صندوق في مكانه برويَّة. بعد نصف ساعة، أغلق «رويال» الباب الخلفي مُطلقًا تنهيدة راحة، ثم أوصده بقفل من الأقفال الجديدة.

- لقد أنهينا نصف المَهمَّة.

قال «هانك»:

- النصف الأسهل.

نظر نحو منزل «مارستِن» المُظلم الموصد. أضاف «هانك»:

- لا أحب الصعود إلى هناك، ولا أخشى أن أقولها علانيةً. لو أن هناك منزلًا مسكونًا، فهذا هو. لا بد أن هذين الرجلين قد فقدا عقليهما كي يعيشا فيه. ربما كانا شاذَّين جنسيًّا كذلك.

وافقه «رويال» مُضيفًا:

- مثل مصممي الديكورات الشواذ. ربما يُفكران في تحويله إلى ملهى. سيكسبون كثيرًا.
- إن كنا سنصعد، فلننهِ الأمر.
ألقيا نظرة أخيرة نحو الخزانة القابعة في ركن صندوق الشاحنة، قبل أن يُغلق «هانك» بابها بقوة. ركب خلف المقود واتجه نحو شارع «جوينتر»، ومنه إلى طريق «بروك». بعد دقيقة لاح منزل «مارستِن» فوقهما، مُظلمًا مرعبًا، وشعر «رويال» بأول خيوط الرعب الحقيقي تنعقدُ في معدته.
غمغم «هانك»:
- يا إلهي. يا له من مكانٍ مفزع! من قد يريد العيش هنا؟
- لا أعرف. هل ترى أي ضوءٍ خلف المصاريع؟
- كلا.
بدا المنزل كأنما يميل نحوهما، وكأنه ينتظر وصولهما. قاد «هانك» الشاحنة إلى ما خلف المنزل، ولم يدقق أحدهما فيما تكشفه كشافات الشاحنة الأمامية المتراقصة وسط حشائش الباحة الخلفية. شعر «هانك» بفزعٍ يتسلل إلى قلبه، لم يشعر به حتى وهو في حرب «فايتنام»، على الرغم من أنه كان خائفًا أغلب وقته هناك، فإنه كان خوفًا مُبررًا؛ خوفًا من أن يطأ عُشبة سامة فتتحول قدمه إلى بَالُون أخضر متورم، خوفًا من أن يفجر رأسَه طفلٌ يرتدي منامة سوداء ويحمل بندقية روسية، خوفًا من أن يتلقى أوامر مجنونة بمحو قرية كاملة مر عليها جيش تحرير فايتنام منذ أسبوع. الخوف الذي يشعر به الآن خوف طفولي بلا سبب. المنزل لم يكن سوى منزل... ألواح ومسامير ومفصَّلات وعتبات. لم يكن هناك سبب حقًّا كي يشعر أن كل شقٍّ فيه يزفُر رائحة الشر. هذا تفكير سخيف سطحي. أشباح؟ هو لا يؤمن بالأشباح، ليس بعد «فايتنام».
بحث مرَّتين عن عصا السرعة كي يرجع إلى الخلف، ثم قاد السيارة بالعكس نحو مدخل القبو الأرضي. الأبواب الصدئة كانت مفتوحة، وفي ضوء الشاحنة الأحمر، رأى الدرجات الحجرية الهابطة إلى الجحيم.
قال «هانك» وهو يحاول أن يبتسم، فتحولت ابتسامته إلى تكشيرة:
- أنا لا أفهم يا رجل.
- ولا أنا.
نظرا إلى بعضهما على ضوء لوحة العدادات الشاحب، والخوف يجثم عليهما. لكنهما قد غادرا عالم الطفولة منذ زمن، ولا يمكن أن يعودا دون أن يُنجزا عملهما بسبب خوف غير مُبَرَّر... كيف سيبرران إخفاقهما في ضوء النهار؟ عليهما أن يُنهيا ما جاءا لأجله.
أوقف «هانك» المُحرك، وترجلا من الشاحنة، ثم دارا نحو بابها الخلفي. فتحه «هانك» على مصراعيه. الصندوق في مكانه، جاثمًا، صامتًا.
اختنق صوت «هانك» وتحول إلى ما يشبه البكاء وهو يقول:
- إلهي، لا أريد أن أنزله.
- هيا. لنتخلص منه.
جرَّا الصندوق حتى الرافعة التي أنزلته مُطلقة صوت هسيس. عندما صار عند ارتفاع خصريهما، حملاه. نَخَر «هانك» وهو يتراجع خلفًا نحو الدرجات:

- على رسلك. على رسلك.

على ضوء الكاشفات الأحمر، كان وجهه مُمتقعًا مُحتقنًا كرجلٍ يعاني أزمة قلبية. نزل الدرجات درجةً درجة، شعر بثقل الصندوق الهائل يجثم على صدره. كان ثقيلًا من قبل، لكن ليس بهذا الوزن. «هانك» و«رويال» كانا قد أفرغا حمولاتٍ أثقل لـ «لاري كروكيت»، صعودًا أو هبوطًا، لكن هناك شيئًا في جو هذا المكان يسحب طاقة قلبيهما ويتركهما بلا نفع.

الدرجات ضيقة زلقة، كادت تُزَل قدمه عنها مرتين، فكان يصرخ:

- بحق المسيح! حاذِر.

أخيرًا وصلا إلى القاع، وكان السقف منخفضًا فوقهما، فحملا الصندوق كالعجائز. شهق «هانك» وهو يقول:

- ضعه هنا؛ لا أستطيع حمله لأبعد من هذا.

وضعاه أرضًا وتراجعا بعيدًا عنه. نظر كلٌّ منهما إلى عيني صاحبه، ولمحا الخوف فيهما وقد تحول إلى ذعر لسبب مجهول. بدا القبو كأنما يعج بأصوات حفيف. فئران ربما، أو شيء لا يسعهما التفكير فيه.

انطلقا، «هانك» أولًا ثم «رويال سنو» خلفه. صعدا درجات القبو عدوًا، ثم أغلق «هانك» بابه سريعًا.

ركبا الشاحنة وأدار «هانك» المحرك، لكن «رويال» أمسك بذراعه، وفي الظلام بدت ملامحه مذعورة، تحتل عيناه المتسعتان وجهَه بالكامل.

- «هانك»، نحن لم نغلق الباب بالقفل.

حدق الاثنان إلى كومة الأقفال فوق لوحة عدادات الشاحنة، والمربوطة إلى بعضها بسلك. أخرج «هانك» من جيب سترته ميدالية مُعلقٌ فيها خمسة مفاتيح لأقفال «يِل»؛ واحد لقفل الباب الخلفي للمتجر، وواحد لكل قفل في المنزل.

صاح:

- يا يسوع! لو أننا عُدنا غدًا باكرًا لأمكننا...

أخرج «رويال» الكشاف من تحت لوحة العدادات وهو يقول:

- لا يمكن. أنت تعرف هذا.

ترجَّلا من الشاحنة شاعرَين بنسمة هواء الليل الباردة تضرب العرق على جبهتيهما. أردف «رويال»:

- اذهب وضع القفل على الباب الخلفي، وسأتولى أنا الأمامي والمرأب.

تفرَّقا. ذهب «هانك» إلى الباب الخلفي وقلبه يدُق بعنف في صدره. تخبَّط مرتين وهو يحاول فتح القفل. عندما وصل قرب المنزل، كانت رائحة القِدَم وعفن الأخشاب لا تُطاق. كل تلك الحكايات التي سخر منها قديمًا عن منزل «مارستِن» تعود إلى ذهنه، والأغنية التي كانوا يطاردون بها الفتيات ويُخِفنَهُن بها:

سيُمسك بكِ «هَبي»... إن لم... تحذري!

- «هانك»؟

شهق بجِدَّة، وسقط من يده القفل الآخر. التقطه هاتفًا:
- عليك أن تُفكِّر مرتين قبل أن تُفزع الآخرين. هل...؟
- «هانك»، من سينزل إلى القبو مرة أخرى ليضع المفاتيح على الطاولة هناك؟
أجاب «هانك بيترز»:
- لا أعرف... لا أعرف...
- وَجَب علينا الاقتراع إذًا.
- أعتقد أن هذا هو الحل.
أخرج «رويال» رُبع دولار وطوَّحه في الهواء برفق، فراح يدور حول محوره.
- أختار الرَّسم.
التقط «رويال» العملة، ثم قلبها على ذراعه وكشفها. رسم النسر يبرُق في الظلام.
هتف «هانك» في تعاسة:
- إلهي!

لكنه أخذ سلسلة المفاتيح والكشاف، وفتح باب القبو مرة أخرى. أجبر ساقيه على حمله إلى الأسفل. حين اعتلاه سقفه الخفيض، أضاء كشَّافه وحرَّك ضوءه في أرجاء المكان، فانكسر الضوء عند مُنعطف قائم الزاوية على بعد ثلاثين قدمًا، والله يعلم إلى أين يُفضي. أخيرًا وجد شعاع الضوء المنضدة التي يغطيها مفرش بنقشة مربعات، فوقها جثم فأر ضخم. لم يتحرك حين وقع الضوء عليه، فقط جلس على رُدفيه مقوَّس الظهر وبدا كأنما يبتسم ابتسامة شريرة. مرَّ «هانك» جوار الصندوق، نحو المنضدة وهو يهمس:
- هسسست... أيها الفأر!

قفز الفأر وهرب نحو المخرج في نهاية القبو. يدا «هانك» ترتعشان الآن، وراح الكشَّاف ينزلق ويتحرك ضوؤه في جميع الاتجاهات، من هنا لهناك، وصولًا إلى برميلٍ مُغبَّرٍ، ثم مكتبٍ عتيق مُخزَّنٍ، وكومة من الصُّحُف، والآن...

أعاد تصويبَ ضوء الكشاف نحو الصُّحُف، وشهق حين أضاء الكشاف شيئًا إلى يسارها...

قميص... أهذا قميص؟ مكوَّمٌ كخرقةٍ قديمة، وشيء تحته يبدو كبنطال من الجينز، ثم شيء مثل...

سمع صوت كَسرٍ خلفه.

ذُعِر، رمى المفاتيح بعنف على الطاولة، والتفت ليهرب. حين عبر جوار الصندوق، رأى ما أحدث الصوت؛ واحد من الحبال المعدنية التي تربطه قد انفلت، وطرفه الخشن الآن يشير نحو السقف كإصبع.

ترنح صاعدًا الدرجات، ثم خرج وأغلق الباب خلفه. بشرته كلها استحالت إلى ما يشبه جلد الأوزة، ولم يعِ ذلك إلا لاحقًا. ثبَّت القفل على الباب، ثم جرى نحو الشاحنة وأنفاسه تتهدَّج ككلبٍ مُصاب.

سمع مُشوَّشًا صوت «رويال» يسأله عما حدث بالأسفل. أدار مُحرك السيارة وضغط بدَّال الوقود بقوة، فعوَت الإطارات والسيارة تندفع وتدور حول المنزل على عجلتين، تحفر الأرض من تحتها وتُثير الغبار. لم يقلل من سرعة الشاحنة إلا عندما وصل أول طريق «بروك»، مُتجهًا نحو مكتب «لاري كروكيت» في البلدة. وقتها فقط بدأ يرتجف بعنف حتى خشي أن يضطر لإيقاف السيارة.

سأله «رويال»:

- ماذا كان بالأسفل؟ ماذا رأيت؟

- لا أعرف.

جاءت حروف الكلمات مفصولة بصوت اصطكاك أسنانه. أردف:

- لم أرَ شيئًا، ولا أريد أن أراه ثانيةً أبدًا.

***

كان «لاري كروكيت» يستعد لإغلاق المكتب ومن ثمَّ الذهاب إلى المنزل، حين سمع طرقة قَلِقة على الباب، ودخل «هانك بيترز». كان ما يزال شاحبًا.

سأله «لاري»:

- هل نسيتَ شيئًا يا «هانك»؟

عندما عادا من منزل «مارستِن» بدوَا كأن أحدهم قد قَرَص خصيتَيهما بقوة. نَفَح كلًّا منهما عشرة دولارات زيادة، وست عُلب من البيرة، ثم طلب منهما ألا يُثرثرا عن رحلة الليلة أكثر.

قال «هانك»:

- عليَّ أن أخبرك يا «لاري». لا أستطيع... عليَّ أن أخبرك.

- بالطبع. ماذا يدور في عقلك؟

فتح «لاري» الدرج السفلي وأخرج زجاجة خمر من نوع «جوني ووكر»، وصبَّ لكل واحدٍ منهما قليلًا في كوب ورقي. صبَّ «هانك» بدوره مشروبه في فمه وتقلَّصت ملامحه قبل أن يبتلع ما في جوفه.

- حين أخذتُ المفاتيح لأضعها على الطاولة في القبو، رأيتُ شيئًا. ملابس تقريبًا. قميصًا وربما سروالًا، وحذاءً رياضيًّا... أعتقد أنه كان حذاءً رياضيًّا يا «لاري».

ابتسم «لاري» وسأل:

- ثم؟

كان يشعر أن كتلة ثلجٍ تجثم فوق صدره.

- الصبي ابن «جليك»، كان يرتدي الجينز. هذا ما قرأته في الجريدة. بنطالًا من الجينز وقميصًا شتويًّا أحمر اللون وينتعل حذاءً رياضيًّا. «لاري»، ماذا لو...

ظل «لاري» مُبتسمًا، وكأنما تجمَّدت ابتسامته. ازدرد «هانك» لُعابه وأردف:

- ماذا لو أن الرجلين اللذين اشتريا منزل «مارستِن» والمتجر قد قتلا الصبي؟

هكذا، وبعد أن أخرج كل ما يعتمل في صدره، جرع باقي المشروب ذي المذاق الحارق المُتبقي في كوبه.

قال «لاري» المُبتسم:

- ربما رأيتَ جثة أيضًا؟

- كلا، كلا... لكن...

- هذا شيء يخص الشرطة.

قالها «لاري كروكيت» وهو يعيد ملء كوب «هانك»، ولم ترتجف يده قط. كانت باردة وثابتة كصخرة وسط جدولٍ مُتجمد. أردف:

- وسأصحبك لتقابل «باركِنز». لكن شيئًا كهذا...

هز رأسه ثم أضاف:

- سيثير الكثير من القلق. قلق بشأنك وبشأن النادلة في حانة «ديل»... اسمها «جاكي»، أليس كذلك؟

شحب وجه «هانك» وهو يهتف:

- عمَ تتحدث بحق الجحيم؟!

- وبالطبع ستقود التحقيقات إلى كشف تسريحك غير المُشرِّف من الجيش. لكن، افعل ما يُمليه عليك ضميرك يا «هانك». افعل ما تراه صائبًا.

همس «هانك»:

- لم أرَ أحدًا.

قال «لاري» باسمًا:

- جيد. وربما لم ترَ أيضًا أي ملابس... ربما ما رأيته لم يكن سوى... بعض الخِرَق لا أكثر.

ردد «هانك» بصوت أجوف:

- بعض الخِرَق...

- بالطبع أنت تعرف هذه الأماكن القديمة. تحوي كل أنواع النفايات. ما رأيته لا يتعدى كونه قميصًا قديمًا أو شيئًا من هذا القبيل حوَّله أحدهم إلى خرقة تنظيف.

أفرغ «هانك» كوبه مرةً أخرى ثم قال:

- بالتأكيد. لديك نظرة أفضل للأشياء يا «لاري».

أخرج «كروكيت» محفظته من جيبه الخلفي، وفتحها، ثم عدَّ منها خمسين دولارًا أخرى ووضعها على المكتب.

- لأي شيء؟

- نسيتُ أن أدفع لك مقابل عملك لدى «برينان» الشهر الماضي. عليكَ أن تُذكِّرني بهذه الأمور يا «هانك». أنت تعرف أنني أنسى كثيرًا.

- لكنك لم...

قاطعه «لاري» مُبتسمًا:

- لماذا؟ كلنا ننسى. ها أنت تجلس أمامي تحكي لي أمورًا، وفي الصباح التالي لن تذكرها. أليس كذلك؟

همس «هانك» وهو يمد يده المُرتجفة ويأخذ المال:

- بلى...

وضع النقود سريعًا في جيب سُترته المصنوعة من الجينز، وكأنه يستعجل الخلاص من ملمسها. قام مُتطوحًا حتى كاد يُسقِط كرسيه.

- اسمع، يجب أن أرحل يا «لاري»... أنا... أنا لم... يجب أن أرحل.

- خذ الزجاجة.

لكن «هانك» كان قد وصل إلى باب المكتب، ولم يتوقف.

استراح «لاري» في جلسته، وصبَّ لنفسه كأسًا أخرى دون أن ترتجف يداه بالطبع. لم يُكمل طقوس إغلاق المكتب. ظل يجرع كأسًا فأخرى وهو يفكر في صفقات الشيطان.

في النهاية، رن جرس هاتفه، فرفع السماعة وأنصت، ثم قال:

- كل شيء تحت السيطرة.

أنصت مرة أخرى، ثم أغلق الخط، وصبَّ كأسًا أخرى.

***

استيقظ «هانك بيترز» في الصباح التالي مُتأخرًا، على كابوس رأى فيه فئرانًا ضخمة تزحف خارجةً من قبرٍ مفتوح، قبر يحوي جسد «هَبي مارستِن» المتعفن المُخضَر، الذي يحيط بعنقه حبلٌ غليظ.

رقد «هانك» مُستندًا إلى كوعه، ثقيل الأنفاس، يلتمع جذعه العاري بالعرق، وحين لمست زوجته ذراعه صرخ.

***

متجر «ميلت كروسِن» لبيع منتجات المزارع يقع عند الزاوية التي يُشكِّلها تقاطع شارع «جوينتر» وشارع «ريلرود». أغلب عجائز البلدة يجتمعون هناك حين تُمطر، ولا يصير المُتنزه قابلًا للمكوث فيه. خلال فصول الشتاء الطويلة، يجتمعون هناك يوميًّا.

حين قاد «ستراكر» سيارته الـ «باكار» موديل 1939 -أم لعلها 1940؟- كانت السماء بالكاد تُمطر، و«ميلت» و«بات ميدلر» يتجادلان حول ما إن كانت فتاة «فريدي أوفلوك» هجرته عام 1957، أم 1958. اتفق الرجلان على أنها هربت مع موظف المبيعات لدى «سالادماستر»، واتفقا كذلك على أنه لم يكن يساوي أكثر من حفرة حفرها البول في الثلج، وهي بالمثل.

توقفت كل الحوارات الجانبية حين دخل «ستراكر».

جال بعينيه في وجوههم - «ميلت» و«بات ميدلر» و«فيني آبشو» و«كلايد كُرليس»- ثم ابتسم بلا روح وقال:

- مساء الخير أيها السادة.

قام «ميلت كروسِن»، ولفَّ مئزره حول خصره سريعًا وسأل:

- كيف يمكن أن أساعدك؟

- ممتاز... أريد بعض اللحم لو سمحت.

اشترى لحمًا للشواء، ودستة من الضلوع الممتازة، وأقراص لحم خنزير مفروم، ورطلًا من كبد العجل، ثم أضاف بعض البقالة الأخرى؛ دقيق، سكر، فاصوليا، عددًا من أرغفة الخبز الجاهزة.

تبضَّع الرجل في صمت تام، بينما جلس الماكثون في المتجر من العجائز حول موقدٍ من طراز «بيرل كينيو»، يُدخنون وينظرون بحكمة إلى السماء، ويرمقون الغريب بأركان أعينهم.

حين انتهى «ميلت» من تعبئة المشتريات في صندوق كبير من الورق المُقوَّى، دسَّها الرجل تحت إبطه بعد أن دفع ثمنها، ثم لوَّح بابتسامته الباردة إلى الجالسين.

- أتمنى لكم يومًا لطيفًا أيها السادة.

قالها ثم انصرف.

وضع «جو كرين» التبغ داخل غليونه العتيق، وسَحَب «كلايد كُرليس» شهيقًا عظيمًا ثم بصق كتلة من البلغم والتبغ الممضوغ فحطَّت فوق الكومة المُتصلبة القديمة جوار المدفأة. أخرج «فيني آبشو» علبة لف التبغ من صدريته، ووضع التبغ في صفٍّ داخلها، ثم دس أوراق لف السجائر خلفها بأصابع شوَّهَها الروماتويد.

راحوا جميعًا يراقبون الغريب يخرج ويضع الصندوق في سيارته. جميعهم واثق أن وزن الصندوق يزيد على الثلاثين رطلًا مع كل هذه البقالة، ومع ذلك يحمله الرجل بذراعه النحيلة كأنه يحمل وسادة ريش.

دار حول السيارة إلى كرسي القيادة، ثم ركبها وقاد مُتجهًا نحو شارع «جوينتر». صعدت السيارة التل، ثم انعطفت عند طريق «بروك»، واختفت، ثم ظهرت بعد لحظات مرةً أخرى عبر ستار الأشجار، وقد جعلتها المسافة في حجم علبة ثقاب. وحين انحرفت إلى مدخل منزل «مارستِن»، اختفت عن الأنظار.

قال «فيني»:

- رجل غريب الأطوار.

دس سيجارته بين شفتيه، وانتزع بعض فتات التبغ من طرفها، ثم أخرج عود ثقاب من جيب صدريته. قال «جو كرين»:

- لا بد وأنه واحدٌ من صاحبَي ذلك المتجر.

وافقه «فيني» مُضيفًا:

- وصاحبَي منزل «مارستِن» كذلك.

أطلق «كلايد كُرليس» ريحًا، وراح «بات ميدلر» يجذب أطراف الجلد المُتيبس من كفه في اهتمام بالغ.

مرَّت خمس دقائق.

- هل تعتقد أنهما سينجحان؟

لم يكن سؤال «كلايد» موجَّهًا لشخصٍ بعينه. أجاب «فيني»:

- ربما... ربما يسطُع نجمهما في أيام الصيف. من الصعب التنبؤ بما ستؤول إليه الأمور في هذا الزمن.

سادت غمغمات جماعية، غلبت عليها تنهيدات الاتفاق مع ما قيل. قال «جو»:

- رجل قوي هو.
غمغم «فيني»:
- أجل. هذه سيارة «باكار» موديل 1939، بلا رقعة صدأ واحدة.
خالفه «كلايد»:
- بل موديل 1940.
هتف «فيني»:
- موديل 1940 ليس بها (عَتَبة).
قال «كلايد»:
- أنت مخطئ في هذا.
مرَّت خمس دقائق أخرى، ثم رأوا «ميلت» يفحص العشرين دولارًا التي دفعها «ستراكر». سأل «بات»:
- هي مزوَّرة يا «ميلت»، أليس كذلك؟
- نعم، لكن انظروا...
وضعها على المنضدة فنظروا إليها جميعًا. كانت أكبر بكثير من أوراق البنكنوت المُتداوَلة. رفعها «بات» نحو الضوء وفحصها، ثم قلبها وهو يقول:
- هذه عملة قديمة، أليس كذلك يا «ميلت»؟
- بلى. لقد أوقفوا طباعتها منذ خمسة وأربعين أو خمسين عامًا. حسب معلوماتي، فهي تساوي مبلغًا كبيرًا إن بعتها في سوق العملات الأثرية.
دارت العملة بينهم ليفحصها كل منهم، يُقربها أو يبعدها حسب مشكلات الإبصار لديه، ثم أعادها «جو كرين،» فدسَّها «ميلت» تحت آلة الدفع مع الشيكات الخاصة والكوبونات.
قال «كلايد» في حماس:
- بالتأكد هو رجل غريب الأطوار.
- بالتأكيد...
قالها ثم صمت هنيهة قبل أن يُضيف:
- هذه السيارة موديل 1939. أخي غير الشقيق «فيك» لديه واحدة، وكانت أول سيارة يشتريها. اشتراها مُستعملة عام 1944. ذات صباحٍ أفرغها من الزيت، وأحرق الكبَّاسات اللعينة بداخلها.
قال «كلايد»:
- أنا أعتقد أنها موديل 1940، لأنني أذكُر صديقًا اعتاد أن يصنع هياكل المقاعد لـ «ألفريد»، ويمكنه أن يذهب لإصلاح المقاعد في المنزل إن أردت، و...
وبدأ الجدال مرةً أخرى، يتخلله الصمت أكثر من الحديث، إنها مباراة شطرنج تُلعَب عن طريق الخطابات. اليوم توقَّف وامتد بالنسبة إليهم إلى الأبد، وظل «فيني آبشو» يلف السجائر ببطء بأصابعه المصابة بالروماتويد.

***

كان «بِن» يكتب، حين سمع طرقة على بابه. وضع علامة حيث توقَّف قبل أن يقوم ليفتح. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من سبتمبر، وقد أنهت الأمطار أي خطط لاستكمال البحث عن «رالفي جليك»، واجتمع الناس على أن البحث قد انتهى. الصبي قد انتهى أمره.

فتح الباب ليجد «باركِنز جيلسبي» يقف خلفه، يدخن سيجارة. كان يمسك كتابًا، وسُرَّ «بِن» حين عرف أنها روايته (ابنة كونواي).

- تفضَّل يا سيدي. ثمة أمطار بالخارج.

قال «باركِنز» وهو يخطو للداخل:

- جَو سبتمبر المُمرِض هذا. دائمًا ما أنتعل حذاءً مُضادًّا للبلل هذه الأيام. البعض يسخر مني، لكنني لم أُصَب بالبرد منذ معركة سان لو عام 1944.

- ضع معطفك على الفراش، معذرة لا يمكنني تقديم قهوة لك.

- لا داعي لإفساد فراشك.

قالها ونفَّض التبغ في سلة مهملات «بِن»، ثم أضاف:

- وقد شربت قهوتي في مقهى «إكسلنس».

- هل يمكنني مساعدتك؟

قال وهو يرفع الكتاب:

- حسنًا... زوجتي تقرأ هذه، وقد سمعت أنك في البلدة، لكنها خجولة. كانت فقط تتمنى لو تكتب لها اسمك عليها أو شيء من هذا القبيل.

أخذ «بِن» الكتاب وقال:

- يقول «ويزل كريج» إن زوجتك توفيت منذ أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا.

لم يُفاجأ «باركِنز» مطلقًا. قال:

- هكذا إذن؟ «ابن عُرس» هذا يحب الثرثرة كثيرًا. في مرة سيفتح فمه أكثر، وسيسقط فيه.

لم يُعلِّق «بِن». أردف «باركِنز»:

- هلا وقَّعته لي إذًا؟

- بكل سرور.

أخذ قلمًا من على المكتب، وفتح غطاءه، ثم فتح الكتاب على الصفحة الأولى وكتب: (أطيب التمنيَّات للشرطي «باركِنز جيلسبي»، من «بِن ميرز»).

ثم أعاد الكتاب لصاحبه. قال «باركِنز» دون أن ينظر إلى ما كتب «بِن»:

- أشكرك.

انحنى ليُطفئ سيجارته في ركن سلة المُهملات، ثم أضاف:

- هذا هو كتابي المُوقَّع الوحيد.

سأله «بِن» باسمًا:

- هل جئت تستجوبني؟

- أنت ذكي حقًّا. كنت أفكر في وجوب طرح سؤال أو اثنين، أما الآن وقد ذكرت الأمر بنفسك... كنت أنتظر أن ينشغل «نولي» عني. شاب ممتاز، لكنه يتحدث كثيرًا. إلهي... لن تصدق كمية الشائعات السارية.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أين كنت مساء الأربعاء الماضي؟

- الليلة التي اختفى فيها «رالفي جليك»؟

- أجل.

- هل أنا ضمن المشتبَه بهم أيها الشرطي؟

- كلا يا سيدي. أنا لا أتهم أحدًا. يمكنك القول إن شيئًا كهذا خارج اختصاصي. مهامي تتمثل في إيقاف المُسرعين الثملين، أو مطاردة الأولاد في المتنزه قبل أن تغلب عليهم شهوتهم. أنا فقط أدُس أنفي هنا وهناك.

- لو افترضنا أنني لا أريد أن أخبرك عن المكان الذي كنت فيه؟

هز «باركِنز» كتفيه وأخرج سيجارة وقال:

- هذا شأنك يا بُني.

- كنت أتناول العشاء مع «سوزان نورتون» وعائلتها، ولعبت تنس الريشة مع والدها.

- أراهن أنه فاز عليك أيضًا. دائمًا ما يهزم «نولي». لقد ثرثر «نولي» عن أمنيته في أن يهزم «بيل نورتون» ولو مرة. متى تركتهم؟

ضحك «بِن»، إلا أن ضحكته كادت تخلو من الفُكاهة. قال:

- أنت تعرف هدفك جيدًا.

- أنت تعرف، لو أنني واحد من مُحققي نيويورك الذين نراهم في التلفاز، كنت سأظن أن لديك ما تُخفيه بسبب تلك الطريقة التي تدور بها حول أسئلتي.

- ليس لدي ما أخفيه. فقد سئمت من دور الغريب في البلدة. الناس تشير إليَّ في الشارع، يلكزون بعضهم بعضًا في المكتبة، ثم ها أنت ذا تسلك سلوك مُهربي المخدرات لتعرف إن كنت أخفي فروة رأس «رالفي جليك» في خزانتي.

حدق إلى «بِن» من فوق سيجارته وقال:

- لا أظن هذا، ولم أفكر فيه مُطلقًا. أنا فقط أحاول أن أستثنيك. لو أنني أشك أن لك يدًا في شيء، فكنت ستجد نفسك في الزنزانة.

- حسنًا. تركت منزل آل «نورتون» في السابعة إلا ربع. تمشيت حتى المدرسة، وحين حلَّ الظلام ولم أستطع أن أتبين طريقي، عُدت إلى هنا وكتبت لساعتين قبل أن أخلد إلى الفراش.

- متى وصلت هنا؟

- الثامنة والربع تقريبًا.

- حسنًا. هذا لم يُبرئ ساحتك كما كنت آمل. هل قابلت أحدًا؟

- كلا. لم أقابل أحدًا.

همهم «باركِنز» بلا تعليق، وسار نحو آلة الكتابة.

- عمَّ تكتب؟

علا صوت «بِن» وهو يجيب:

- ليس من شأنك اللعين. سأكون شاكرًا إن أبعدت عينيك ويديك عنها، إلا إذا كان معك تصريح بالتفتيش بالطبع.

- أنت حساس، أليس كذلك؟ بالنسبة إلى شخص يريد أن تُقرأ رواياته.

- تُقرأ بعد ثلاث مسوَّدات، وتصحيح المُحرر، والتصحيح اللغوي، والمراجعة الأخيرة، والطباعة. سأتأكد من إيصال أربع نسخ لك، موقَّعة. أما الآن، فهذه الأوراق تُعَدُّ أوراقًا خاصة.

ابتسم «باركِنز» وابتعد وهو يقول:

- هذا حقك. كدت أشُك أن الأوراق عبارة عن اعتراف موقَّع بكل شيء.

قابل «بِن» ابتسامته بابتسامة أخرى وقال:

- «مارك توين» قال إن الرواية اعتراف بكل شيء، كتبه شخص لم يفعل أي شيء.

نَفَخ «باركِنز» الدخان وهو يتجه نحو الباب، وقال:

- لن أفسِد بِساطك أكثر من هذا يا سيد «ميرز». أودُّ أن أشكرك على وقتك، وللعلم فقط، لا أعتقد أبدًا أنك قابلت الصبي «جليك»، لكن من صميم عملي أنا أجمع معلومات عن هذه الأمور.

أومأ «بِن» وهو يقول:

- مفهوم.

- وعليك أن تعرف كيف تسير الأمور في مكانٍ مثل بلدة «سالم» أو «ميلبريدج» أو «جويلفورد» والقرى الصغيرة. ستظل الغريب في المدينة حتى يمر على إقامتك عشرون عامًا.

- أنا أعرف. سامحني إن انفجرت فيك. لكن بعد أسبوع من البحث غير المُجدي عن الصبي...

- أجل. الأمر قاسٍ على والدته... قاسٍ للغاية. خذ حذرك.

- بالتأكيد.

- لا ضغائن؟

- لا ضغائن. هلا أخبرتني بشيء؟

- بالطبع، إن استطعت.

- من أين جئت بالرواية؟

ابتسم «باركِنز جيلسبي» وقال:

- هناك شخص في «كمبرلاند» لديه مكان لبيع الأثاث المستعمل... شاب رقيع هو. يبيع الكتب القديمة، الكتاب بعشرة سنتات. اشتريت خمسة كتب.

ارتفعت رأس «بِن» وقهقه ضاحكًا، وخرج «باركِنز جيلسبي» باسمًا يُدخن. راح «بِن» يراقب الشرطي من النافذة إذ يعبُر الشارع، ويسير محاذرًا الخوض في بِرك الماء، وهو ينتعل حذاءه الواقي المُضحك.

***

توقَّف «باركِنز» للحظات، ينظر إلى واجهة عرض متجر الأثاث الجديد، قبل أن يقرع الباب. حين كان المكان مغسلة البلدة، كان المرء ينظر خلال هذه الواجهة فلا يرى سوى السمينات يُضفن المُبيّضات إلى الغسيل، أو يأخذن العملات من الآلة المُثبتة في الحائط. أغلبهن تلُكن اللادن كما تلوك الأبقار العلف. كانت هنا سيارة مُصمم ديكورات من «بورتلاند»، وظلت في مكانها منذ عصر الأمس وحتى أغلب اليوم، وصار المكان مختلفًا بشكل كبير.

نُصِبت منصة خلف واجهة العرض، وغُطيَت ببساط فاخر سميك، بلونٍ أخضر فاتح، وعُلِّق كشافان يُلقيان ضوءًا ناعمًا فوق القطع الثلاث المعروضة؛ ساعة، عجلة غزل خشبية، خزانة عتيقة من خشب الكرز. ثمة حامل أمام كل قطعة، مثبتٌ فوقه لوحة تحمل السعر. إلهي! لمَ قد يريد شخصٌ في كامل عقله أن يشتري عجلة غزل خشبية بستمائة دولار، بينما يمكنه شراء ماكينة خياطة «سينجر» بأقل من خمسين دولارًا؟

تنهَّد «باركِنز» وقرع الباب. انفتح الأخير بعد ثانية وكأن الرجل الجديد كان يقبع خلفه في انتظار من يقترب من الباب.

صاح «ستراكر» بابتسامته الباردة:

- أيها المُفتش! لطيف منك أن تمُر علينا.

- أنا فقط شرطي عادي.

أشعل سيجارة «بول مول» وخطا داخلًا، ثم أردف:

- «باركِنز جيلسبي». سعيد لمقابلتك.

ومد يده، فقبض عليها الرجل واعتصرها بخفة بيده شديدة القوة، شديدة الجفاف. قال الرجل الأصلع:

- «ريتشارد ثروكيت ستراكر».

- عرفت اسمك.

راح «باركِنز» ينظر حوله. المتجر كله مفروش بالأبسطة، وفي مرحلة الطلاء. رائحة الطلاء الجديد لطيفة، لكن ثمة رائحة أخرى خبيثة تحتها. لم يستطع «باركِنز» تحديدها، فأعاد انتباهه مرة أخرى إلى «ستراكر» الذي سأله:

- ماذا بوسعي تقديمه لك في هذا اليوم شديد الحُسن؟

نظر «باركِنز» إلى نافذة العرض التي أظهرت المطر الذي استمر في الهطول.

- لا شيء على الإطلاق. أنا فقط جئتُ كي... كي أرحب بك في البلدة وأتمنى لك وافر الحظ.

- يا له من تقدير! هل تود بعض القهوة؟ بعض الكرز؟ لدي كلاهما.

- كلا، أشكرك. لن أستطيع أن أمكث كثيرًا. هل السيد «بارلو» هنا؟

- السيد «بارلو» في «نيويورك»، في رحلة تجارة. لا أتوقع عودته قبل العاشر من أكتوبر.

- ستفتتح المحل دونه إذًا.

ظل «باركِنز» يُفكر في الأسعار التي رآها في واجهة العرض، وهي مؤشر أن «ستراكر» لن يغرق في طوفان الزبائن.

- ما اسم السيد «بارلو» بالكامل، بالمناسبة؟

عادت ابتسامة «ستراكر» الحادة كالموسي، وأجاب:

- هل تسأل بصفتك الرسمية أيها الـ... المُفتش؟

- كلا. فضول لا غير.

- اسم شريكي بالكامل: «كُرت بارلو». لقد عملنا معًا في لندن وهامبرج. وهذا...

فرد ذراعيه إلى جانبيه مُردفًا:

- هذا هو مشروع تقاعدنا. بسيط وراقٍ... لا نتوقع أن نكسب منه أكثر مما يغطي نفقات معيشتنا. كلانا يحب الأغراض القديمة، الأغراض الفاخرة، ونتمنى أن نكسب سمعةً حسنة في البلدة. وربما تمتد إلى «نيو إنجلند»، منطقتكم بارعة الحُسن. هل تظن هذا ممكنًا أيها الشرطي «جيلسبي»؟

- كل شيء جائز على ما أعتقد.

قالها «باركِنز» وهو يبحث حوله عن مطفأة سجائر، وحين لم يجد واحدة نفَّض الرماد في جيب معطفه، ثم أضاف:

- عمومًا، أتمنى لك أوفر الحظ، وأبلغ السيد «بارلو» حين تراه أنني سأحاول ملاقاته.

- سأفعل بالتأكيد. هو يُحب الصُّحبة.

- ممتاز.

قالها «جيلسبي» وهو يتجه نحو الباب، لكنه توقف ونظر خلفه. كان «ستراكر» يحدق إليه باهتمام. سأله «باركِنز»:

- بالمناسبة، هل أعجبكما المنزل القديم؟

- يحتاج إلى كثير عملٍ. لكن لدينا وقت لهذا.

- أعتقد هذا. ألم تروا أي عفاريت هناك؟

انعقد حاجبا «ستراكر» مُتسائلًا:

- عفاريت؟

فسَّر «باركِنز»:

- عفاريت، أعني أطفالًا. أنت تعرف كيف يتصرف الأطفال أحيانًا كالعفاريت، ويضايقون السكان الجدد. يرمون المنازل بالأحجار، أو يضربون الجرس ثم يهربون. تصرفات كهذه.

- كلا... لم نرَ أطفالًا.

- يبدو أننا فقدنا واحدًا.

- هكذا الأمر إذًا؟

قال «باركِنز» بحكمة:

- أجل. نظن أننا لن نجده... حيًّا على الأقل.

قال «ستراكر» شاردًا:

- يا له من عار!
- نوعًا ما. لو أنك رأيت أي...
- سأبلغك فورًا بالطبع، ببالغ السُّرعة.
ثم ابتسم ابتسامته الباردة مرة أخرى.
- ممتاز.
فتح «باركِنز» الباب وراح يرمق المطر بالخارج. أضاف:
- أخبِر السيد «بارلو» أنني أتوق لمقابلته.
- بكل تأكيد سأخبره أيها الشرطي «جيلسبي». تشاو!
- تِش... ماذا؟
اتسعت ابتسامة «ستراكر» وأجاب:
- إلى اللقاء أيها الشرطي جيلسبي. كلمة إيطالية تعني إلى اللقاء.
- أوه. حسنًا. ما يزال المرء يتعلم شيئًا جديدًا في كل يوم. أليس كذلك؟ سلام.
ثم خرج إلى المطر وأغلق الباب من خلفه. غمغم:
- كلمة غير مألوفة بالنسبة إلي... ليست كذلك.
ابتلت سيجارته بالماء، فرماها بعيدًا.
في الداخل، ظل «ستراكر» يراقبه عبر واجهة العرض، ولم يعد يبتسم.

***

حين عاد «باركِنز» إلى مكتبه في مبنى البلدية، نادى:
- «نولي»؟ هل أنت هنا يا «نولي»؟

لم يحصل على ردٍّ. أومأ «باركِنز». «نولي» شاب ممتاز، لكن عقله متواضع. خلع معطفه، وحذاءيه المضادين للبلل، وراح يبحث عن رقمٍ في سجل هاتف «بورتلاند»، ثم بدأ يطلبه، فرد الطرف الآخر مع أول جرس.

- مكتب التحقيق الفيدرالي، «بورتلاند». معك العميل «هَنرَن».
- أنا «باركِنز جيلسبي»، شرطي بلدة «أورسالم». لدينا ولد مفقود هنا.
أجاب «هَنرَن» في تركيز:
- لدي خبر. «رالف جليك»، تسعة أعوام. طوله أربعة أقدام وثلاث بوصات، أسود الشعر أزرق العينين. هل تُبلغ عن اختطاف؟
- لا شيء من هذا. هل لك أن تتحقق من بعض الأسماء لأجلي؟
رد «هَنرَن» بالإيجاب. أردف «باركِنز»:
- الأول «بنجامين ميرز»، كاتب، كتب رواية اسمها (ابنة كونواي). أما الآخران فذو صلة ببعضهما. «كُرت بارلو»، والآخر...
- اسم كُرت، هل يُكتب كورت أم كُرت؟

- لا أعرف.
- حسنًا. أكمل.
فأكمل وهو يتصبب عرقًا، فالحديث إلى السُّلطات يُشعره أنه أحمق.
- الرجل الآخر هو «ريتشارد ثروكيت ستراكر». هو و«بارلو» يعملان في الأثاث الأثري، وقد افتتحا متجرًا هنا في البلدة. يزعم «ستراكر» أن «بارلو» في نيويورك، في رحلة عمل. كما زعم أنهما عملا معًا في لندن وهامبرج.
- هل تشُك أن لهؤلاء الأشخاص يدًا في قضية «جليك»؟
- حتى الآن لا أعرف إن كانت هناك قضية من الأساس. لكنهم جميعًا ظهروا فجأة في البلدة وفي نفس الوقت.
- هل تظن أن هناك صلة بين «ميرز» والرجلين الآخرين؟
تراجع «باركِنز» في كرسيه وهو يرمق النافذة وأجاب:
- هذه من الأمور التي أود معرفتها.

***

تُصدر أسلاك الهاتف طنينًا مستمرًّا في الأيام الباردة الصافية، وكأنما تهتز بالغيبة والشائعات التي تنتقل عبرها، وهو صوت لا كأي صوت... صوتٌ وحيد يسافر عبر الفراغ. أعمدة خطوط الهاتف رمادية مُشققة، جليد الشتاء وذوبانه أمالها في اتجاهات غير مُنتظمة، وأبعدها عن المظهر العملي المُتشابه المُميز لعواميد الهاتف المُثبتة إلى الخرسانة. قواعدها مُلطخة بالقار إن كانت قريبة من الطُّرُق المرصوفة، أو مُغبرة إن كانت قريبة من الطرق الخلفية. تظهر على أوتادها آثار تقشير جرَّاء صعود وهبوط عمال الهاتف عليها ليصلحوها في الأعوام 1946 أو 1952 أو 1969.

تقف الطيور من غربان، وغِدفان، وزرازير، مُتراصة في صمت، على الأرجح ينصتون إلى الطنين الذي يحمل أصوات الناس عبر الأسلاك تحت أرجلهم. إن كان هذا صحيحًا، فأعينهم الشبيهة بالخرز لا تُبدي أي إشارة على ذلك. للمدينة شعور بالوقت، لا بالتاريخ، ويبدو أن أعمدة الهاتف تعرف هذا. لو أنك وضعت كفك على واحدة منها، ستشعر بالاهتزازات تسري في الخشب، وكأنها أرواح سُجِنت بالداخل وتتصارع لأجل خلاصها.

«... وقد دفع عشرين دولارًا قديمة يا «مَيبل»، من تلك الأوراق الكبيرة. يقول «كلايد» إنه لم يرَ هذه العُملة منذ إفلاس بنك «جيتس» عام 1930. كان...».

«... أجل، هو رجلٌ من نوعٍ غريب يا «إيفي». رأيته عبر منظاري المُقرِّب خلف المنزل يدفع عربة يدوية. أتساءل إن كان هناك وحده، أم...».

«... ربما يعرف «كروكيت»، لكنه لن يتحدث. هو يكتم كل شيء عن هذا. لطالما كان...».

«... الكاتب عند «إيفا». تُرى ماذا سيكون رد فعل «فلويد تِبتس» لو عرف أنه...».

«... يقضي وقتًا طويلًا في المكتبة. «لوريتا ستارشر» تقول إنها لم تقابل شخصًا يعرف كل هذه الـ...».

«... تقول إن اسمه...».

«... أجل، «ستراكر». السيد «ر. ث. ستراكر». والدة «كيني دانلز» تقول إنها قد مرت على هذا المتجر الجديد، ورأت خزانة من نوعية «ديبيرز» أصلية في واجهة العرض، ويريدون ثمانمائة دولار ثمنًا لها. هل تتخيلين؟ لذا قلتُ...».

«... غريب، مجيئه، ثم اختفاء الصبي ابن «جليك»...».

«... ألا تظنين...؟».

«... كلا، لكن هذا غريب. بالمناسبة، أما زلتِ تملكين وصفة الـ...؟».

وتظل الأسلاك تَطِن، وتَطِن، وتَطِن.

***

23 - 9 - 1975

الاسم: «دانيال جليك فرانسيس».

العنوان: صندوق بريد #1، طريق «بروك»، بلدة «أورسالم»، ولاية «مَين» 04270

العمر: 12 عام.

الجنس: ذكر.

العِرق: قوقازي.

تاريخ التسجيل: 22- 9-1975 عن طريق: «أنتوني ه. جليك» (الوالد).

الأعراض: صدمة، فقدان ذاكرة جزئي، غثيان، فقدان شهية، إمساك، تشتُّت.

التحاليل (انظر المرفقات).

- اختبار رقعة الجلد للسل: سلبي.
- اختبار السل في البول والدم: سلبي.
- مرض السكري: سلبي.
- عدد الخلايا البيضاء: سلبي.
- عدد الخلايا الحمراء: 45%
- عينة النخاع: سلبي.
- أشعة سينية على الصدر: سلبي.

التشخيص المُحتمَل: فقر دم خبيث ابتدائي أو ثانوي، أظهر الفحص السابق نسبة هيموجلوبين 68%، مما يستبعد فقر الدم الثانوي. لا يوجد تاريخ مرضي بالقرح أو البواسير... إلخ. عدد الخلايا التفاضلية: سلبي.

فقر دم أولي مصحوب بصدمة نفسية على الأرجح. نوصي بفحص بالباريوم، وأشعة سينية للتأكد من عدم وجود نَزف داخلي في أقرب وقت، على الرغم من عدم تعرض الحالة لحادث حسب مزاعم الأب. نوصي كذلك بجرعة يومية من فيتامين ب12.

ريثما تُجرى التحاليل المطلوبة، يمكن خروجه من الحجز.

الممارس العام «جوربي».
طبيب مُقيم.

***

في الساعة الواحدة من صباح يوم الرابع والعشرين من سبتمبر، دخلت الممرضة إلى حجرة «داني جليك» كي تعطيَه دواءه. توقَّفت عند الباب وعقدت حاجبيها، فقد كان الفراش خاليًا.

قفزت عيناها من الفراش إلى الكومة البيضاء جواره. نادت:

- «داني»؟

خطت نحوه وهي تقول لنفسها إنه تهاوى في أثناء محاولته الذهاب إلى دورة المياه لا أكثر.

قلبت الجسد المُسجى على ظهره، وكان أول خاطر مر ببالها قبل أن تُدرك أنه ميت، أن فيتامين ب12 كان يؤتي ثماره، وأنه كان يتحسن.

ثم تحسست بشرة رسغه الباردة، وسكون الشريان الأزرق تحت لمستها، فهرعت خارجةً كي تُبلِغ عن حالة الوفاة.

نوع من المُعجنات شبيه بالمكرونة، تُحشى باللحم أو الخضر أو الجُبن، ومنها نوع مُعلَّب في علب صفيحية.

مُبيد حشري شهير.

أنفاق قطارات مهجورة تحت جسور أو تخترق الجبال، يستخدمها العُشاق لاختلاس لحظات معًا في سياراتهم بعيدًا عن الأنظار.

Cricket تعني صرصار الليل.

Crew Cut.

نوع من حلاقة الشعر القصيرة التي يكون فيها أعلى الشعر أطول قليلًا من الشعر على الجانبين وأعلى العُنق.

الفصل الخامس

«بِن»

في يوم الخامس والعشرين من سبتمبر، تناول «بِن» العشاء مع آل «نورتون» مرةً أخرى. كان هذا في مساء الخميس، وكانت الوجبة اعتيادية؛ فاصولياء ونقانق. شوى «بيل نورتون» النقانق على المِشواة في الخارج، وتركت «آن» الفاصولياء تُطهى ببطء في دِبس السُّكَّر منذ التاسعة من صباح اليوم. تناولوا العشاء على الطاولة في الحديقة، ثم جلس أربعتهم يدخنون بعدها، ويتحدثون عن قلة فرص فريق «بوسطن» للبيسبول في الفوز في المباراة.

طرأ تغيُّرٌ في الطقس؛ كان مُعتدلًا بالنسبة إلى أرديتهم الخفيفة، لكنهم شعروا بلمسة من برودة الآن. الخريف يُطل على العالم، وشجرة القيقب العملاقة العتيقة أمام بيت ضيافة «إيفا ميلَّر» بدأت تتحول أوراقها إلى اللون الأحمر.

لم تتغير علاقة «بِن» بآل «نورتون». إعجاب «سوزان» به كان صادقًا، واضحًا، تلقائيًّا، وهي تعجبه كذلك. بالنسبة إلى «بيل» كان يشعر أن إعجاب الرجل به يتزايد، فقط يُحجِّمه ما يُحجِّم مشاعر كل الآباء لا شعوريًّا تجاه من يوجَدون بجوارهم لا من أجلهم، بل لأجل بناتهم. حين ترتاح لرجلٍ آخر بصدق، فأنت تتحدث بحُرية عن النساء وأنتما تشربان البيرة، تثرثران عن السياسة، لكن مهما كان شعور الارتياح، فلا يمكن أن تنفتح تمامًا مع رجل قد يفُض يومًا بكارة ابنتك.

تساءل «بِن» إن تحوَّل بعد الزواج ما كان ممكنًا إلى أمرٍ واقع، فهل يمكن أن تصير صديقًا للرجل الذي يضاجع ابنتك كل ليلة؟ ثمة معنى أخلاقي هنا، لكنه لا يُدركه.

ظلت «آن نورتون» على برودها، وقد أخبرته «سوزان» عن أمر «فلويد تِبتس» من قبل، وعن أن والدتها كانت قد رتبت حياتها على أنه سيكون زوج ابنتها، وارتاحت لهذا الترتيب. «فلويد تِبتس» كان معروفًا لها، مُطمْئِنًا، أما «بِن ميرز» على الناحية الأخرى، فقد هبط عليهم من اللامكان، وربما يختفي كما ظهر في أي وقت. كانت تكره الرجل المُبدع الكاره لحياة البلدات الصغيرة بالغريزة. يشك «بِن» أنها تؤمن بمبدأ سائد: الشواذ أو الشبقون جنسيًّا على حد السواء، القتلة منهم والمُختلون والانتحاريون، يميلون إلى إرسال أذنهم اليُسرى في طردٍ إلى الفتيات الصغيرات. تطوُّع «بِن» للبحث عن «رالفي جليك» بدا لها مُثيرًا للشك بدلًا من الثقة، وقد أيقن «بِن» أن كَسبها في صفِّه في حُكم الاستحالة. تساءل إن كانت تعرف بأمر زيارة «باركِنز جيلسبي» له في حجرته.

كان يلُوك تلك الأفكار في خمولٍ، حين قالت «آن»:

- أمر ابن «جليك» هذا مُفزع.

قال «بيل»:

- «رالفي»؟ حقًّا...

- كلا، أعني الابن الأكبر؛ لقد مات.

فزع «بِن» وهتف:
- مَن؟ «داني»؟
بدت مدهوشة لجهل الرجلين بالخبر، فقد كان الأمر حديث الساعة. قالت:
- مات صباح أمس.
وجدت كفَّ «سوزان» كفُّ «بِن» من تحت المنضدة، فأمسك بها. قالت:
- سمعتهم يتحدثون عن الأمر عند «مِيلت». كيف حال آل «جليك» الآن؟
أجابت «آن» ببساطة:
- لو كنت مكانهم لفعلت مثلهم، لقد فقدوا عقولهم.
فكَّر «بِن»: ربما كانوا قد فقدوا عقولهم حقًّا، فمنذ عشرة أيام كانت حياتهم تدور بشكل معتاد، والآن تحطمت عائلتهم وتناثرت. سرت قشعريرة مرعبة في نفسه لهذه الخواطر.
سأل «بيل» «بِن»:
- هل تظن أن الولد الآخر قد يعود؟
قال «بِن»:
- كلا. أظنه مات أيضًا.
أضافت «سوزان»:
- مثلما حدث في «هوستون» منذ عامين. لو أنه مات، فأتمنى ألا يجدوه. أيًّا من استطاع فعل شيءٍ كهذا لطفل قليل الحيلة...
قاطعها «بِن»:
- أظن أن الشرطة ما زالت تبحث.
- ألقوا القبض على ستة من أصحاب السوابق المعروفين، وجاري التحقيق معهم.
قال «بيل نورتون»:
- يجب أن يشنقوه في مكانٍ عام إن وجدوه. هل تود أن تلعب كرة الريشة معي يا «بِن»؟
قام «بِن» وهو يقول:
- كلا، أشكرك. الأمر يجعلني أشعر أنني أحمق تمامًا أمامك. أشكركم على الوجبة الرائعة. لدي عمل الليلة.
رفعت «آن نورتون» حاجبًا ولم تُعلِّق. قام «بيل» هاتفًا:
- كيف حال روايتك الجديدة؟
قال «بِن» بإيجاز:
- جيد. هل تحبين أن تسيري معي يا «سوزان» ونتناول بعض الصودا عند «سبنسر»؟
قاطعته «آن» بسرعة:
- أوه، لا أظن. بعد ما حدث لـ «رالف جليك»، سأطمئن أكثر لو أنها...
قاطعتها «سوزان» بدورها:
- أمي، أنا كبيرة. ثم إن الطريقَ مُضاء من هنا حتى «بروك هيل».

- سأعيدك إلى المنزل بعدها بالطبع.

قالها «بِن» بشكلٍ رسمي. كان قد ترك سيارته عند بيت الضيافة، فقد كانت بداية الأمسية أجمل من أن يُبددها في القيادة.

قال «بيل»:

- سيكونان بخير، أنتِ تقلقين أكثر من اللازم.

قالت وهي تبتسم في وهن:

- أوه، أعتقد هذا. الشباب يعرفون أكثر هذه الأيام، أليس كذلك؟

غمغمت «سوزان» مُخاطبة «بِن»:

- سأذهب لأحضِر سُترة.

استدارت عائدة إلى المنزل. كانت ترتدي تنورة حمراء قصيرة، كشفت عن أغلب ساقيها وهي تصعد الدرجات. ظل «بِن» ينظر إليها وهو يعلم أن «آن» تراقبه، بينما زوجها يطفئ فحم الشواء.

سألته «آن» مُحاولة إظهار الأدب في سؤالها:

- إلى متى تُخطط للبقاء في البلدة يا «بِن»؟

- حتى أنتهي من كتابة روايتي. بعدها، لا أستطيع أن أقرر إن كنت سأبقى أم لا. المكان هنا جميل للغاية في الصباح، والهواء نقي.

ثم ابتسم في وجهها وأردف:

- ربما أبقى فترة أطول.

بادلته الابتسامة بمثلها وقالت:

- الجو هنا يصير باردًا في الشتاء يا «بِن». قارس البرودة.

عادت «سوزان» من الداخل مُعلِّقة سُترة خفيفة على كتفيها وهتفت:

- مُستعد؟ أريد شوكولاتة. لا أعرف إن كانت بشرتي ستغفر لي هذا الطلب.

- لا تقلقي بشأن بشرتك.

ثم استدار إلى السيد والسيدة «نورتون» وأضاف:

- أشكركما مرة أخرى.

قال «بيل»:

- لا عليك. يمكنك أن تأتي غدًا وتحضر معك ست علب من البيرة. سنحظى بوقتٍ رائع في أثناء مشاهدة مباراة البيسبول.

- سيكون هذا ممتعًا. لكن ماذا سنفعل في الشوط الثاني؟

ظلت ضحكة «بيل» المُجلجلة الصادقة تتبعهما حتى مُنعطف المنزل.

***

قالت وهما ينزلان التل:

- لا أريد الذهاب إلى متجر «سبنسر». لنذهب إلى المتنزه.

- ماذا عن اللصوص يا سيدتي؟

- لا لصوص بعد السابعة مساء، هذا هو نظام البلدة. الساعة الآن الثامنة وثلاث دقائق.

سارا هابطَين التل، والظلام يخيم عليهما، ظلالهما تطول وتقصر تحت ضوء أعمدة الإنارة.

- لصوصكم مهذبون. ألا يذهب أحد إلى المُتنزه ليلًا؟

- أحيانًا يذهب الأولاد لسرقة لحظات من المداعبات، فهم لا يستطيعون دفع تذاكر سينما سيارات.

قالتها وغمزت له، ثم أردفت:

- لذا، لو رأيت أحدهم يتحرك حركات مُريبة بين الأجمة، أدِر وجهك.

دخلا المُتنزه من الناحية الغربية، التي تواجه مبنى البلدية. كان المكان مُفعمًا بالظلال كأنه حُلم، تلف الممرات الأسمنتية بين الأشجار الوارفة وتعكس بقعُ الماء على الأرض الضوءَ المُنبعث من أعمدة الإنارة في الشارع. لو أن أحدهم هنا، فـ «بِن» لا يراه.

سارا حول النصب التذكاري للحرب، المنقوش عليه قائمة أسماءٍ طويلة، أقدمها يعود إلى الحرب الثورية، وأحدثها يعود إلى حرب «فايتنام». في القائمة ستة أسماءٍ من السكان المحليين، نَقش أسمائهم الجديدة على النحاس اللامع يبدو كجروح حية. فكَّر «بِن» في أن اسم البلدة لا يليق بها. عليهم أن يسموها (بلدة الزمن). وكأن الفكرة قادته بالضرورة للفِعل، وجد نفسه ينظر نحو منزل «مارستِن»، لكن مبنى البلدية كان يحجبه عن نظره.

لاحظت نظرته، فعقدت حاجبيها.

فرشا سُترتيهما على العُشب وجلسا (كانا قد استبعدا الجلوس على مقاعد الحديقة دون أن يتفوَّها بحرف). قالت:

- تقول أمي إن «باركِنز جيلسبي» يتحرى عنك، من باب أن المُستجد هو من يحمل وزر أي حادث كالعادة.

قال «بِن»:

- يا له من شخصية!

- لو كانت أمي مكانه لأرغمتك على الاعتراف.

قالتها بخفَّة مازحة، لكن المزاح زال سريعًا تاركًا خلفه أفكارًا أكثر جدية. سألها «بِن»:

- والدتك لا تحبني كثيرًا، أليس كذلك؟

أمسكت «سوزان» بيده وقالت:

- بلى. أعتقد أنها حالة كراهية من النظرة الأولى. أنا آسفة للغاية.

- لا عليكِ. لقد أصبتُ نصف الخير إذًا.

ابتسمت هاتفةً:

- أبي؟ هو يعرف الرجل الجيد حين يراه.

تلاشت ابتسامتها وهي تسأل:

- «بِن»، عمَّ تدور روايتك الجديدة؟

خلع حذاءيه وغمس قدميه في العشب الندي وهو يجيب:

- من الصعب أن أقول.
- أنت تُغيِّر الموضوع كي لا تُجيب.
- كلا، أنا لا أمانع إخبارك.

لدهشته، وجد أن ما قاله كان صادقًا. لطالما كان يعُدُّ العمل غير المكتمل طفلًا، طفل ضعيف يجب حمايته وتربيته. الكثير من الحركة قد تؤذيه. كان قد رفض إخبار «ميراندا» أي شيء عن روية (ابنة كونواي) أو (رقصة الريح) في أثناء كتابتهما، على الرغم من أنها كانت فضولية للغاية بشأنهما. لكن «سوزان» مُختلفة. أسئلة «ميراندا» كانت أقرب للتحقيقات.

- دعيني أفكر كيف أصيغ الأمر لك.

تمددت على العُشب وقالت:

- هلا قبَّلتني وأنت تُفكر؟

أدرك فجأة كم أن تنورتها قصيرة، تكشف أكثر من اللازم.

- أظن هذا سيتداخل مع عملية التفكير. لنُجرب.

قالها برقة، ثم مال وقبَّلها ووضع يده برقة على خصرها. قبضت يدها على يده، وغابت في قبلة شعر خلالها بلسانها يمس لسانه للمرة الأولى. اعتدلت كي تُقبله بشكلٍ أفضل، وصار صوت حركة تنورتها بالنسبة له عاليًا، يثير الجنون، للمرة الثانية منذ عرفها شعر أنه في السادسة عشرة من عمره، مراهق طائش كل شيء أمامه مثل طريق من ست حارات، لا شيء يمكن أن يقف أمام انطلاقه.

- «بِن»؟
- نعم.
- مارس معي الحب. هل تريد ذلك؟
- أجل، أريد ذلك.
- هنا، على العشب.
- أجل.

صارا ظلَّين في العتمة.

***

في البداية كانا يسيران بلا هدف في المُتنزه، ثم اتجها نحو شارع «بروك». سألها:

- هل أنت نادمة؟

نظرت إليه وابتسمت دون تصنُّعٍ:

- كلا، أنا مسرورة.
- حسنًا.

تعانق كفَّاهما وهما يسيران دون حديث. ثم سألته:

- الرواية؟ كنت ستخبرني عنها قبل أن يُقاطع حبنا حديثك.

أجاب ببطء:

- الرواية عن منزل «مارستِن». ربما لم تتبلور الأحداث لتدور حوله بعد. كنت أظنها ستدور حول البلدة، لكن ربما كنت أخدع نفسي. أجريت بحثًا عن «هَبي مارستِن». كان رجل عصابة، وشركة الشاحنات لم تكن سوى واجهة تغطي أعماله غير المشروعة.

كانت تنظر إليه ذاهلة. سألته:

- وكيف عرفت هذا؟

- بعض المعلومات من شرطة «بوسطن»، وبعضها من امرأة تُدعى «مانيلا كوري»، أخت «بيردي مارستِن». هي في التاسعة والسبعين الآن، لكنها لم تنسَ شيئًا حدث قبل عام 1940.

- وقد أخبرتكَ...

- بكل ما تعرف. تعيش في دار رعاية في «نيو هامشاير»، وأعتقد أنه لا أحد حاول سماعها منذ سنوات. سألتها إن كان «هَبرت مارستِن» حقًّا كان يعمل قاتلًا أجيرًا في «بوسطن» -البوليس كان متأكدًا من هذا- وقد أومأت هي إيجابًا. سألتها: كم قتل؟ فرفعت كفيها مفرودتي الأصابع أمام وجهها وحركتهما أمامًا وخلفًا وقالت: حتى أي رقم يمكنك العد؟

- يا إلهي!

- شرطة «بوسطن» بدأت تقلق للغاية بشأن «هَبرت مارستِن» عام 1927، وقد استدعوه مرتين للتحقيق، مرة استدعته شرطة المدينة، ومرة شرطة «مالدِن». اتهمته شرطة «بوسطن» بجرائم مُنظمة، لكن أُطلِق سراحه بعد ساعتين. أما سبب استدعاء شرطة «مالدِن» فقد كان بسبب مقتل طفل في الحادية عشرة ونزع أحشائه.

قالت «سوزان» مُتقززة:

- «بِن»!

- لكن الذين يعمل لديهم «مارستِن» أخرجوه من هذا الاتهام، أراهن أنه كان على علم بمكان دفن بعض الجثث. لكن بهذا انتهت إقامته في «بوسطن»، وانتقل بهدوء إلى بلدة «سالم» كمدير سابق لشركة شاحنات يتقاضى معاش تقاعده شهريًّا. لم يكن يخرج كثيرًا، أو على الأقل حسب علمنا.

- ماذا تعني؟

- أمضيت وقتًا طويلًا في المكتبة أطالع الأعداد القديمة من الجرائد المحلية، والتي صدرت بين عامي 1928، و1939. اختفى أربعة أطفال خلال هذه الفترة. بالطبع هذا ليس غريبًا في منطقة قروية. الأطفال يضلون، وأحيانا ما يُغتَصبون أو يقتَلون وتُلقى جثثهم في حفرة. ليس هذا أمرًا مقبولًا، لكنه يحدث.

- لكنك لا تؤمن أن هذا ما حدث، أليس كذلك؟

- لا أعرف، لكن كل ما تأكدت منه أنه لم يظهر أيٌّ من الأربعة. لم يجد صيَّادٌ أو مقاولٌ جثة أحدهم بالصدفة. عاش «هَبرت» و«بيردي» في المنزل أحد عشر عامًا، وكان الأطفال يختفون، وهذا كل ما أعرفه. لكنني أظل أعود وأفكر في الطفل قتيل مدينة «مالدِن». أفكر فيه كثيرًا. هل تعرفين رواية أشباح هيل هاوس للكاتبة «شيرلي جاكسِن»؟

- أجل.

- أقتبس منها: «وأيًّا ما كان يجوّل هناك، فهو يجوِّل وحيدًا». سألتِني عن روايتي، وها أنا أقول إنها عن عودة قوى الشر.

وضعت كفيها على ذراعه وقالت:

- أتظن أن «رالفي جليك»...

- خطفته روح «هَبرت مارستِن» الحقودة، التي تعود كل ثلاثة أعوام عند اكتمال القمر؟

- شيء كهذا.

- أنت تسألين الشخص الخاطئ إن كنتِ تريدين معلومات مُطمْئنة. لا تنسي أنني الطفل الذي فتح باب الحجرة العلوية ورآه مُعلَّقًا من السقف.

- هذه ليست إجابة.

- كلا، ليست كذلك. لكن دعيني أخبرك بشيء إضافي قبل أن أقول لكِ رأيي. شيء أخبرَتني به «مانيلا كوري». قالت إن هناك رجالًا خبيثين في الدنيا، خبيثين بحق. أحيانًا ما نسمع عنهم، لكن في الأغلب هم يعملون في الظلام المُطلق. قالت إنها ملعونة بمعرفة رجلين من هذه النوعية في حياتها؛ «أدولف هِتلر»، و«هَبرت مارستِن». قالت إن في الوقت الذي قتل فيه «هَبرت» أختَها، كانت قد حصلت على وظيفة في «كيب كود»، على بعد ثلاثمائة ميل. كانت تعمل كمدبرة منزلٍ في الصيف لعائلة ثرية. كانت تُقلِّب السلاطة في وعاء خشبي، وكانت الساعة الثانية والربع ظهرًا. فجأة شعرت بصاعقة ألمٍ كأنها برق تسري في رأسها، وسمعت صوت إطلاق نار، ثم سقطت على الأرض. عندما استطاعت أن تقوم، كانت وحدها في المنزل وقد انقضت ثلث ساعة. نظرت إلى وعاء السلاطة وصرخت، فقد هُيِّئ لها أنه مُفعم بالدماء.

غمغمت «سوزان»:

- إلهي.

- بعد لحظة، كل شيء عاد إلى طبيعته، زال الصداع، ولم يعد شيء في الوعاء إلا السلاطة. لكنها قالت لي إنها عرفت -عرفت تأكيدًا- أن أختها ماتت، قُتلت بطلقٍ ناري.

- هذه قصة لا أساس لها.

- أتفق معكِ أنها بلا أساس، لكنها ليست مُدَّعية، بل هي امرأة عجوز لا تملك العقل الكافي لحَبك الأكاذيب. عمومًا، فتلك القصة لا تهمني كثيرًا على الأقل. في حكايتها اعتماد كثير على القدرات الفائقة للحواس، حتى ليضحك الرجل العاقل ملء شدقيه، لكن على مسؤوليته الخاصة. لكن فكرة أن ترسل «بيردي» أحداث مقتلها عبر أكثر من ثلاثمائة ميل عن طريق التخاطر العقلي لا أجدها فكرة مرفوضة تمامًا بالنسبة إليَّ، مثلها مثل فكرة الشر -الشر المخيف الشيطاني- الذي أكاد أجزم أنني أراه في تفاصيل هذا المنزل.

- إن سألتني عن رأيي، فسأقول لك. أظن من السهل نسبيًّا أن يصدق الناس أمورًا مثل التخاطر أو المعرفة الاستباقية أو الجِبلَّة الخارجية، لأن رغبتهم في التصديق لن تُكلفهم شيئًا، لن تُقلق منامهم كل ليلة. لكن فكرة أن يحيا الشر بعد موت الشرير أمر مُقلق جدًّا.

نظر نحو منزل «مارستن» وتحدث ببطء:

- أعتقد أن هذا المنزل هو مَعلَمُ شر «هَبرت مارستِن»، شيء مثل التجسد، مثل منارة ما ورائية. وجوده طيلة هذه الأعوام ربما يحفظ جوهر شر «هَبي» بين عظامه القديمة المتعفنة.

- وبعدما كان مسكونًا بلعنة «هبي» فقط، الآن صارَ يسكنه بشر مرة أخرى.

- والآن تبدأ سلسلة اختفاء الأطفال مرة أخرى.

نظر نحوها واحتوى وجهها بين كفيه مُردفًا:

- كما ترين، هذا شيء لم أضعه في حسباني حين عدت إلى البلدة. كنت أظنه قد هُدِم، لكنني لم أتوقع في أسوأ كوابيسي أنه قد بيع. رأيت نفسي أستأجره، ثم... أوه، لا أعرف... أواجه مخاوفي وشياطيني، أو ربما ألعب دور طارد الأشباح... اخرج من هنا يا «هَبي» بحق القديسين. أو على الأقل أظل في المكان أستوحي منه رواية تضعني في مصاف الكُتاب الأثرياء. أيًّا كان، فكنت أظنني قادرًا على احتواء الأمر، أو تغييره. أنا لم أعد ذلك الطفل ذا التسع سنوات، الذي يعدو فزِعًا من عرض الفانوس السحري، ويخاف من أمور خلقها خياله. لكن الآن...

- ماذا تريد أن تقول يا «بِن»؟

- المنزل الآن مسكون!

انفجر، وضرب راحة يده بقبضته مُردفًا:

- لم أعد مُسيطرًا على الأمر. لقد اختفى طفل ولا أعرف كيف أفيد من شيء كهذا. ربما لا علاقة له بهذا المنزل، لكن... لا أصدق هذا.

آخر ثلاث كلمات خرجت واضحة مؤكَّدة.

- ومن تظنهم سكنوه؟ أشباح؟ أرواح؟

- ليس بالضرورة. ربما هم أشخاص تعلَّقوا بالمنزل منذ طفولتهم فابتاعوه... صاروا مهووسين به.

بدت قلقة وهي تسأل:

- هل تعرف شيئًا عن...

- السُّكان الجدد؟ كلا، أنا فقط أخمِّن. لكن فيما يخص المنزل، أود لو أنهم فقط مهووسون به، بدلًا من أن يكون...

- ماذا يكون؟

أجاب ببساطة:

- أن يكون المنزل قد جذب شخصًا خبيثًا آخر.

***

راحت «آن» تراقبهما عبر النافذة. كانت قد اتصلت بمتجر «سبنسر» قبل قليل: «كلا سيدة «نورتون» -أجابوها بشيء من السرور- ليسا هنا، ولم يحضرا».

أين كنت يا «سوزان»؟ أين كنتِ؟

التوى رُكنا فمها إلى الأسفل في تكشيرة قبيحة.

ابتعد عن هنا يا «بِن ميرز»، ابتعد ودعها وشأنها.

***

حين أطلقت سراح ذراعه، قالت:

- ثمة أمر مهم أريدك أن تفعله من أجلي يا «بِن».

- ما دام في وسعي.

- لا تذكر أيًّا من تلك الأمور لأي شخصٍ في البلدة. أي شخص.

ضحك بخفة وهو يقول:

- لا تقلقي. لا أستعجل أن يعدني الناس مجنونًا.

- هل تحكم غلق حجرتك عند «إيفا»؟

- لا.

- أغلقها من الآن فصاعدًا. عليك أن تُفكِّر في أنك مُشتبَه به.

- وأنت كذلك تشتبهين بي؟

- كنت لأشتبه بك لو أنني لا أحبك.

هرعت نحو المدخل، فظل يتبعها بعينيه، مُتعجِّبًا مما قال، أشدُّ تعجُّبًا مما قالته في آخر كلماتها.

***

حين عاد إلى بيت «إيفا» للضيافة، لم يقدر أن ينام أو يكتب؛ كان متحمسًا أكثر من اللازم. سَخَّن مُحرك سيارته الـ «سِتروين»، وبعد دقيقة قادها إلى حانة «ديل».

كان المكان مزدحمًا، غارقًا في الدخان والصخب. ثمة فريق موسيقي -يعزف موسيقى الكَنتري والويسترن- يُدعى «الحَرَس»، كان يلعب رؤيته الخاصة لأغنية «لم تتجاوز هذا الحد من قبل»، والتي أفقدها الصوت العالي ما قد تحويه من جودة. أكثر من أربعين زوجًا من الشباب يجوبون حلبة الرقص، أغلبهم يرتدي الجينز الأزرق.

ظل «بِن» يرمقهم باسمًا وهو يُفكر في الكاتب «إدوارد ألبي»[19]، ومسرحيته «من يخشى فيرجينيا وولف». ثمة عبارة في مسرحيته تقول: «يحبان حركاتهما، تلك الطريقة في الرقص، كرقص القِرَدة».

المقاعد أمام المشرب يجلس خلفها البنَّاؤون وعمال المصانع، كلهم يشربون نفس البيرة من نفس الكؤوس، ويرتدون ذات الأحذية الثقيلة الملوَّثة بالطين، المربوطة بخيوط من الجلد غير المدبوغ.

تجول حول الطاولات والكبائن مُضيفات، مكتوب على أرديتهن بالخيط الذهبي أسماؤهن «جاكي- توني- شيرلي».

خلف المشرب، يقف «ديل» يصب المشروبات، وعند الطرف البعيد رجل يشبه الصقر، بشعرٍ مُدهن أسود، يخلط المشروبات بوجه جامد، يقيس جرعات الخمور في الكؤوس الصغيرة، ويضيف إليها ما يتماشى معها.

مشى «بِن» تجاه المشرب وهو يمسح بعينيه حلبة الرقص، فناداه أحدهم:

- «بِن»! مرحى يا رفيق! كيف حالك يا صديقي؟

نظر بِن حوله، فوجد «ويزل كريج» يجلس إلى طاولة جوار المشرب، وزجاجة بيرة نصف فارغة أمامه. قال «بِن» وهو يجلس أمامه:

- أهلًا «ويزل».

شعر براحة إذ رأى وجهًا مألوفًا، وكان الرجل يروق له. سأله «ويزل» وهو يضرب كتفه:

- هل قررت أن تجرب حياة الليل يا صديقي؟

- أجل.

كانت فاتورة حسابه قد جاءت، بعد أن فاحت أنفاس الرجل بما قد يمكن شمه من مسافة أميال. أخرج دولارًا ووضعه على المنضدة الملوَّثة بأثر قواعد الأكواب المستديرة. استطرد «بِن»:

- كيف حالك؟

- بخير. ما رأيك في هذه الفرقة الجديدة؟ رائعة، أليس كذلك؟

- معقولة. أنهِ بيرتك قبل أن تزول عنها رغوتها. سأدعوك أنا إلى أخرى.

- كنت أنتظر أن ينطق بها أحدٌ طيلة الليلة!

ثم صاح:

- هاتي لصديقي هنا كوبًا يا «جاكي»!

جاءت «جاكي» بكوب على صحفة منثورة بالعملات المعدنية الغارقة في البيرة، ثم وضعته على الطاولة. ذراعها اليُمنى قوية كذراع مصارع. نظرت إلى الدولار كأنه سلالة جديدة من الصراصير وقالت:

- حسابك دولار وأربعون سنتًا.

وضع بِن دولارًا آخر، فأخذت الورقتين، ثم اصطادت ستين سنتًا من الصحفة المبتلة، وألقت بهم على المنضدة وهي تقول:

- «ويزل»، حين تصيح هكذا يصير صوتك كصوت ديكٍ ملتوي الرقبة.

قال «ويزل»:

- أنت جميلة يا عزيزتي. هذا هو «بِن ميرز»، يكتب الروايات.

- تشرفنا.

قالتها واختفت وسط الزحام والعتمة.

صبَّ «بِن» لنفسه بعض البيرة، وكذا فعل «ويزل»، وأفعم كوبه باحتراف حتى الحافة، فهددت الرغوة بالانسكاب لحظة، ثم تراجعت.

- في صحتك يا صديقي.

رفع «بِن» كوبه، ثم شرب.

- ها، أخبرني؛ كيف حال الكتابة؟

- بخير يا «ويزل».

- أراك تخرج مع ابنة «نورتون». هي كثمرة خوخ حقيقية... هي كذلك. لن تجد أفضل منها هنا.

- أجل، هي...
- يا «مات»!
صاح بها «ويزل» فجأة حتى كاد «بِن» أن يُسقط كوبه فزِعًا. فكَّر: إلهي! صوته مثل صوت ديك يودِّع الحياة حقًّا!
- «مات بُرك»!
ظل «ويزل» يُلوِّح في جنون، فرفع رجل أبيض الشعر ذراعه مُحييًا، وبدأ يشُق الزحام نحوهما.
- رفيق يستحق التعرف إليه. «مات بُرك» واحد من أبناء العاهرة الأذكياء.
الرجل القادم نحوهما بدا في الستين من العمر، طويل، يرتدي قميصًا قطنيًّا نظيفًا، وشعره الأبيض كشعر «ويزل» مُسطحٌ من أعلى. هتف:
- أهلًا «ويزل».
- كيف حالك يا صاحبي؟ أريد أن أعرِّفك على رفيق يقيم عند «إيفا». «بِن ميرز»، يكتب الروايات... رجل مُحبب إلى النفس.
ثم نظر إلى «بِن» وأردف:
- تربَّينا أنا و«مات» معًا، لكن هو حصل على تعليمٍ بينما كان الخازوق من حظي أنا.
انفجر ضاحكًا. وقف «بِن» وصافح يد «مات» القوية وهو يقول:
- كيف حالك؟
- بخير، أشكرك. قرأت واحدة من رواياتك يا سيد «ميرز»؛ رقصة الريح.
- ادعُني «بِن» من فضلك. أتمنى أن تكون قد راقت لك.
- أعجبتني أكثر مما أعجبت النقاد كما يبدو.
جلس «مات» مُردفًا:
- أعتقد أن سوقها سيصير أكثر رواجًا مع الوقت. كيف حالك يا «ويزل»؟
- في قمة رونقي كالعادة.
ثم صاح:
- جاكي، أحضري كوبًا لـ «مات».
صاحت «جاكي» بدورها وهي تضحك إذ تقف عند منضدة قريبة:
- انتظر دقيقة أيها الحقير.
قال «ويزل»:
- يا لها من فتاة جميلة! ابنة «مورين تالبوت».
أضاف «مات»:
- أجل. كنتُ أدرِّس لجاكي في المدرسة عام 1971، أما أمها فكانت دُفعة 1951.
قال «ويزل» لـ «بِن»:
- «مات» يُدرس اللغة الإنجليزية لطلاب الثانوية. سيكون لديكما الكثير مما تتحدثان عنه.
قال «بِن»:

- أذكر فتاة تُدعى «مورين تالبوت». كانت تأخذ الغسيل من أمي، ثم تعيده نظيفًا مطويًّا في سلة من الخيزران. سلة ذات مِمسَكٍ واحد.

سأله «مات»:

- أنت من البلدة يا «بِن»؟

- قضيت بعض الوقت هنا وأنا طفل. كنت أقيم عند خالتي «سينثيا».

- «سينثيا ستوِّنز»؟

- أجل.

جاءت «جاكي» بكوبٍ نظيف، فصبَّ «مات» البيرة فيه وهو يقول:

- عالمٌ صغير بحق. خالتك كانت في أول فصل أدرِّس فيه في بلدة «سالم». هل هي بخير؟

- توفيت عام 1971.

- آسف لذلك.

- رحلت في سلام.

قالها «بِن» وملأ كوبه. كانت الفرقة قد أنهت فقرتها، وبدأ أعضاؤها في التوجُّه نحو المشرب، بينما انخفض صوت الحاضرين قليلًا. سأله «مات»:

- هل أتيت إلى البلدة كي تكتب رواية عنا؟

دق جرس إنذار في عقل «بِن»، فقال:

- بشكل ما، هذا ما أفعل.

- لا يمكن أن تفيد البلدة من توثيق تاريخها. (رقصة الريح) كانت رواية جيدة، وربما تكون هناك أحداث هنا تملأ رواية جديدة. في مرة فكَّرت في كتابة واحدة.

- ولمَ لمْ تفعل؟

ابتسم «مات»، ابتسامة بسيطة بلا أي أثر للمرارة أو السخرية أو الحقد:

- كان ينقصني شيء حيوي: الموهبة.

قال «ويزل» وهو يفرِغ آخر قطرات من الزجاجة في كوبه:

- لا تصدقه. «مات» العجوز لديه موهبة عظيمة. التدريس مهنة رائعة، إلا أن أحدًا لا يُقدِّر التدريس، لكنهم...

تمايل قليلًا في كرسيه باحثًا عن كلمات مناسبة، وكان قد أضحى ثملًا للغاية.

أضاف أخيرًا:

- لكنهم مِلح الأرض.

أنهى عبارته ورشف من البيرة، كشَّر، ثم قام مُردفًا:

- اعذراني، سأذهب لأخفف حصرتي.

ابتعد، وراح يتخبط في الناس، ويناديهم بالاسم. البعض ضاق منه، والبعض حيَّاه بأحسن من تحيته، إلا أن الجميع راح يرقُبه في وجهته نحو دورة المياه كما يراقبون كرة تتقافز حتى تدخل المرمى.

قال «مات»:

- ها قد ذهب الرجل الطيب الثمل.

رفع إصبعه فظهرت نادلة فورًا، ونادته بالسيد «بُرك». بدت كأنما تشعر بحرجٍ من أن تلقى مُدرس اللغة الإنجليزية الذي كان يُدرِّس لها هنا في الحانة، يثمل مع أمثال «ويزل كريج». حين استدارت لتجلب له المزيد من الشراب، ظهر عليه الارتباك نوعًا. قال «بِن»:

- يروق لي «ويزل»، ويراودني الشعور أنه لم يكن على ما هو عليه الآن طيلة عمره. ماذا حدث له؟

قال «مات»:

- أوه، لا توجد قصة معينة وراء ذلك. استحوذت عليه الخمر، ثم راحت تستحوذ عليه أكثر فأكثر حتى نالت منه تمامًا. لقد حصل على وسام النجمة الفضية بعد الحرب العالمية الثانية. من يعيبُ عليه سيرى أنه من الأفضل لو كان مات في الحرب.

- لستُ أعيبُ عليه. أنا أحبه وأظن أن عليَّ أن أوصله للبيت الليلة.

- سيكون هذا كرمًا منك. آتي إلى هنا من حينٍ لآخر لأستمتع ببعض الموسيقى. أحبُ الموسيقى الصاخبة منذ أن بدأ سمعي يضعُف. فهمتُ أنك مهتم بمنزل «مارستِن». هل تكتب عنه؟

أجاب «بِن» متعجبًا:

- من أخبرك بهذا؟

ابتسم «مات» وهو يقول:

- كيف صاغها «مارفِن جاي» في أغنيته القديمة؟ لغة الأغنية جذابة، حيوية، على الرغم من أن الصورة الكاملة قد تكون غامضة. إن المرء ليستحضر صورة رجل يُنصت باهتمام لصوت طائرة كونكورد أو توكاي. أنا أخرِّف... أخرِّف كثيرًا هذه الأيام، ونادرًا ما أحاول السيطرة على تخاريفي. سمعتُ ممن يدعونهم الصحافيون «مصدرًا مُتطلعًا»... وهنا أعني «لوريتا ستارتشر» في الحقيقية. هي أمينة مكتبتنا وحارسة قلعتنا الأدبية. قالت إنك كنت تبحث كثيرًا في الصحف المحلية عن الفضيحة القديمة الخاصة بالمنزل، وقد أحضرت لك كتابَي جريمة ذُكِر فيهما ذلك الحادث. بالمناسبة، كتاب «لوبرت» جيِّد، فقد جاء للبلدة بنفسه وقام بالبحث عام 1946، إلا أن الفصل الخاص بالثلج مجرد هراء.

قال «بِن» بتلقائية:

- أعرف.

وضعت النادلة البيرة، وراودت «بِن» فجأة صورة غير مُريحة: سمكة تسبح هنا وهناك، تلتقط الأسماك الصغيرة والعوالق، ثم توسِّع مجال بحثها وفجأة تكتشف أن عالمها مجرد حوض أسماك زينة.

دفع «مات» للنادلة، ثم قال:

- أمور كريهة جرت هناك، وظلت عالقة في لا وعي البلدة. بالطبع القصص البشعة والمرعبة تُنقَل للأجيال التالية كأن فيها خلاص الأرواح، يعشق الشباب هذه القصص، بينما يتملصون ويتأففون من

قصص ملهمة لشخصيات مثل «جورج واشنطن كارفر»[20]، أو «جوناس سالك»[21]. أعتقد أن الأمر أكبر من كونها حكايات، بل هي بسبب الخصوصية الجغرافية للمكان.

- أجل.

انجذب «بِن» للحديث رغمًا عن نفسه، فقد أثار المُدرس فكرة كانت تجول تحت مستوى لا وعيه منذ وصل البلدة، وربما من قبل ذلك.

أردف:

- هو يُشرف على البلدة من فوق تلٍّ مثل... مثل صنمٍ شرير.

ضحك كي يبدو ما قال تافهًا، فقد تفوه حالًا بكلمات يشعر بها في أعماق نفسه، ولم يُفكر قبل أن يفتح نافذة إلى روحه بهذا الشكل أمام غريب. تفحَّص «مات بُرك» له بهذا الشكل المُدقق المفاجئ لم يُشعِره بتحسن.

قال:

- هذه موهبة.

- اعذرني؟

- أنت لخَّصت الأمر ببراعة. منزل «مارستِن» يُطل علينا منذ قرابة خمسين عامًا، يراقب هفواتنا وذنوبنا وكذبنا... كصنم معبود وثني.

- ربما يراقب الأفعال الخيِّرة كذلك.

- الخير شحيح في بلدة كسولة كهذه. الكثير من اللامبالاة، تقطعها أحيانًا شرور مبتذَلة... أو ما هو أسوأ، شرور مُتعمَّدة. أعتقد أن «توماس وُلف»[22] كتب كثيرًا عن هذا.

- ظننتك لا تعيب الآخرين.

- أنت قلتها. لستُ كذلك.

ابتسم «مات» ورشف بيرته. الفرقة الموسيقية تبتعد عن المشرب، يرفلون في قمصانهم الحمراء وصدرياتهم وربطات أعناقهم اللامعة. أمسك مغنٍّ منهم جيتاره وراح يداعب الأوتار.

- بغض النظر عن كل هذا، أنت لم تُجب عن سؤالي. هل تدور روايتك الجديدة عن منزل «مارستِن»؟

- من المفترض، بشكلٍ ما.

- أنا أزعجك. آسف.

شعر «بِن» بالانزعاج وهو يفكر في «سوزان».

- لا عليك. أتساءل لمَ تأخر «ويزل»؟ لقد غاب كثيرًا.

- بمناسبة هذا التعارف القصير، هل لي في طلب خدمة؟ لو رفضت سأتفهم ذلك.

قال «بِن»:

- بالتأكيد، تفضَّل.

- لدي فصل لتدريس الكتابة الإبداعية، ومجموعة من الطلبة الأذكياء من الصفين الحادي عشر والثاني عشر، وأريد أن أقدم لهم شخصًا يحترف مهنة الكتابة... شخص... كيف أقولها؟ حوَّل

الكلمات إلى لحم ودم.

شعر «بِن» بالإطراء بشكل مبالغ فيه. قال:

- سأكون سعيدًا للغاية بفرصة كهذه. لكَم تمتد الحصة الواحدة؟

- خمسون دقيقة.

- ممتاز. لا أظنني قادرًا على إصابتهم بالملل في وقت كهذا.

- لا أظنك ستتسبب بأي ضجر. ما رأيك؟ الأسبوع القادم مناسب؟

- مناسب. أخبرني باليوم والساعة.

- الثلاثاء؟ الحصة الرابعة؟ من الحادية عشرة حتى الثانية عشرة إلا عشر دقائق. لن يضايقك أحد، لكن أعتقد أنك ستسمع صوت أمعائهم الجائعة كثيرًا.

- سأجلب قطنًا لأذنيَّ.

ضحك «مات» وهو يقول:

- أنا سعيدٌ للغاية. سأقابلك في المكتب، اتفقنا؟

- ممتاز. هل...

- سيد «بُرك»؟

كانت هذه من «جاكي»، ذات الذراعين القويتين. أردفت:

- لقد فقد «ويزل» وعيه في دورة المياه. هل تود...

- أوه؟ إلهي! «بِن»، هلا جئت...

- بالطبع!

نهضا، ثم عبَرَا المكان. كانت الفرقة قد بدأت الغناء مرة أخرى.

دورة المياه تفوح برائحة البول والكلور، وكان «ويزل» على الأرض مسْتندًا إلى الحائط بين مِبوَلتين، بينما يقف جواره رجل في زي الجيش يبول واقفًا على بعد بوصتين من أذنه.

كان فم «ويزل» مفتوحًا، واندهش بِن من الشيخوخة التي بدت عليه وهو في هذا الوضع. مُسن أنهكته قوى باردة مجهولة بلا أدنى رحمة. الرجل يتحلل يومًا بعد يوم، وهي حقيقة فاجأت «بِن» وصدمته، وراحت الشفقة تتجمع في حلقه، ليس فقط على حال «ويزل»، بل على نفسه هو الآخر وكيف قد يصير في المستقبل.

قال «مات»:

- هل بوسعك أن تضع ذراعك تحته بعد أن يُنهي هذا المُحترم تبوله؟

- أجل.

قالها «بِن» ونظر نحو الرجل في زي الجيش، الذي كان يُنهي ما يفعل باستمتاع. هتف به:

- أسرِع، لو تستطيع.

قال الرجل وهو ينظر نحو «ويزل»:

- لماذا؟ لا أعتقد أنه مُتعجِّل.

على الرغم من ذلك، أغلق بنطاله، وابتعد عن المبولة حتى يستطيعا حمل الرجل. لفَّ «بِن» ذراعه حول ظهر «ويزل»، ودس كفه تحت إبطه، ثم رفعه. للحظات لمس «بِن» بظهره الحائط، فشعر باهتزازات الموسيقى تسري فيه. ارتفع «ويزل» عن الأرض مرتخيًا كأنه جوال بريد غير واعٍ. دسَّ «مات» رأسه تحت إبط «ويزل» الآخر، ولف ذراعه حول ظهره، ثم حملاه خارجَين من الباب.

صاح أحدهم:

- ها هو «ويزل» يخرج.

ثم صدحت ضحكة. قال «مات»:

- يجب أن يقلل «ديل» من حصته في البيرة، هو يعلم جيدًا إلامَ قد تُفضي الأمور.

خرجا من الحانة، بينما يهتف «بِن»:

- على مهلٍ...

راحا ينزلان الدرجات، وقدما «ويزل» المرتخيتان تقرعان كل درجة كقطعتي خشب. أردف «بِن»:

- سيارتي هناك، الـ «ستروين».

حملاه، والبرودة تزداد حِدَّة. حتمًا سيجدان أوراق الشجر في الصباح قد تحولت للونٍ برتقالي. بدأ «ويزل» يطلق صوت نخير عميق من حلقه بينما يتدلى رأسه على صدره في وهن.

سأل «مات»:

- هل يمكنك أن تودعه الفراش حين تصلان عند «إيفا»؟

- أجل، أعتقد هذا.

- ممتاز. انظر، يمكنك أن ترى سقف منزل «مارستِن» خلف الأشجار من هنا.

نظر «بِن» إلى حيث ينظر «مات»، وكان مُحقًّا. قمة السقف المُدببة تظهر من خلف قمم أشجار الصنوبر، تشير نحو نجوم السماء المرئية.

فتح «بِن» باب السيارة الأمامي وهو يقول:

- اتركه لي.

تحمَّل وزن «ويزل» كاملًا، وأودعه برفق على المقعد، ثم أغلق الباب. تدحرج رأس «ويزل» نحو النافذة، فانضغط وجهه خلف الزجاج فبدا مُسطَّحًا عجيبًا.

- الثلاثاء في الساعة الحادية عشرة؟

- سأكون هناك.

- أشكرك، وأشكر مساعدَتَك لـ «ويزل» كذلك.

ركب «بِن» سيارته، وقادها نحو البلدة. بمجرد أن اختفت الأضواء خلف الأشجار، بدا الطريق مظلمًا موحشًا، وبزغت في ذهن «بِن» فكرة أنها طُرُق مسكونة.

أطلق «ويزل» شخيرًا مُفاجئًا جواره، ففزِع «بِن»، وتمايلت السيارة للحظة على الطريق.

لمَ عساني أفكر في فكرة مخيفة كهذه؟!

لكنه لم يجد ردًّا.

***

فتح «بِن» زجاج النافذة كي يدخل الهواء البارد إلى وجه «ويزل» مباشرة في الطريق. وبوصولهما إلى مدخل بيت ضيافة «إيفا»، كان قد بدأ يستعيد وعيه.

قاده «بِن» -نصف متعثر- إلى الشرفة الخلفية، ومنها إلى المطبخ. تأوه «ويزل»، ثم غمغم:

- هي فتاة حُلوة يا «جاك»، لكنها متزوجة. هم يعرفون... يعرفون...

اقترب ظلٌّ من الصالة، واتضح لهما أنها «إيفا»، ضخمة ترتدي روبًا صوفيًّا، شعرها ملفوف حول أسطوانات صغيرة ومغطى بشبكة خفيفة، وكان وجهها شاحبًا مُبيضًّا من أثر الكريم الليلي.

همست:

- «إد»، أوه، «إد»... أما زلت تذكُر، أليس كذلك؟

فتح عينيه على صوتها، وظهرت ابتسامة على ملامحه وهو يقول:

- سأذكُر، وأذكُر... ألا تعرفين هذا أكثر من أي شخصٍ آخر؟

سألت «بِن»:

- هل يمكنك أن تصعد معه إلى حجرته؟

- بالتأكيد.

أحكم الإمساك بـ «ويزل» وبشكل ما استطاع أن يصعد به إلى أعلى. لم تكن حجرته موصَدة، فأدخله، وبمجرد أن وضعه في فراشه، زالت معالم الوعي عنه وغاص في نومٍ عميق.

توقَّف «بِن» برهة لينظر إلى المكان حوله. الحجرة نظيفة، تكاد أن تكون مُعقَّمة، كل شيء مصفوف بعناية.

بدأ يخلع حذائي «ويزل» عنه، حين دخلت «إيفا ميلَّر» وقالت وهي تقف خلفه:

- لا تُثقل نفسك بهذا يا سيد «ميرز». اذهب إلى حجرتك إن أردت.

- لكن عليه أن...

قالت وقد علا وجهها حزن ذو كبرياء:

- أنا سأغير له ملابسه، وسأدلِّك جسده بالكحول كي يستطيع أن يتخطى صداع الثمالة في الصباح. لقد فعلتها من قبل... كثيرًا.

- كما تشائين.

قالها «بِن» وصعد إلى حجرته دون أن ينظر خلفه. خلع ملابسه ببطء وهو يفكر في الاستحمام، ثم عَدَل عن ذلك. خلد إلى الفراش، وتمدد هناك دون نوم لفترة طويلة.

إدوارد فرانكلن البي الثالث، كاتب مسرحي أمريكي شهير.

جورج واشنطن كارفر عالم زراعة أمريكي ابتكر الكثير من المعدات التي ساهمت في تطوير أساليب الزراعة.

طبيب مختص في الفيروسات، طور أول لقاح لمرض شلل الأطفال.

روائي أمريكي.

الفصل السادس

البلدة

حلَّ الربيع فجأة على بلدة «سالم»، بنفس الطريقة التي يحل بها الشروق والغروب في المناطق الاستوائية. الفاصل بين الفصول قد يصل إلى يومٍ واحدٍ فقط. إلا أن الربيع لم يكن هو أفضل الفصول في «نيو إنجلند»؛ هو قصير للغاية، غير مُحدَّد، متقلب دون إنذار. على الرغم من ذلك، هناك أيام في شهر إبريل تعلق في الذاكرة، حتى بعد أن ينسى المرء ذكرى لمسة الزوجة، أو شعور فم الطفل الخالي من الأسنان على حلمة الثدي.

بحلول منتصف مايو، تشرق الشمس في الصباح بكل قوتها وعنفوانها، وتصل إلى عتبة دارك في السابعة وأنت تحمل فطورك في سلة معلَّقة على ذراعك. ستعرف وقتها أن الندى سيذوب عن العشب في الثامنة، وسيظل غبار الطرق الخلفية مُعلَّقًا في الهواء لخمس دقائق بعد مرور سيارة فوقه، وبحلول الواحدة ظهرًا، ستبلغ أشعة الشمس الطابق الثالث من المصنع، وسينحدر العرق عن ذراعيك كالزيت، ويُلصق قميصك بظهرك مُشكِّلًا بقعة تتسع باضطراد.

لكن حين يأتي الخريف، راكلًا مؤخرة الصيف كما اعتاد أن يفعل في أحد أيام سبتمبر من كل عام، يظل فترة كصديق قديم أوحشك. سيجلس كما يجلس صديقك في مقعدك المُفضل، ويخرج غليونه ويشعله، ثم يملأ الأمسيات بحكايات حِلِّه وترحاله، وما فعل في تلك الأيام التي تركك فيها.

يبقى حتى أكتوبر، ونادرًا ما يظل حتى نوفمبر. يومًا بعد يوم تصفو السماء وتشتد زرقتها، ثم تأتي السحب التي تسبح دومًا من الغرب إلى الشرق كسُفُن هادئة بيضاء ذات عوارض رمادية. تبدأ الرياح في الهبوب ولا تهدأ أبدًا، تندفع في الطرقات حيث تسير، وتدفع أوراق الشجر أمامها بجنون في شتى الاتجاهات. تشعرك الرياح بألم في أماكن أعمق من عظامك، وكأنك تمَس شيئًا أقدم في النفس البشرية، خيط من ذاكرة الجنس البشري يردد: هاجر أو تموت... هاجر أو تموت.

حتى في منزلك خلف الحوائط، تظل الريح تطرق الأخشاب والنوافذ، وتحرك أصابعها العارية من اللحم على الأفاريز. عاجلًا أو آجلًا ستضطر لترك ما تفعل، وتقوم لترى ماذا يحدث بالخارج. ستقف عند عتبة دارك في وقت ما من بعد الظهيرة، وسترى ظلال السحب تعبر مراعي «جريفِن»، متجهة نحو المدرسة، تحبس خلفها أشعة الشمس حينًا وتُطلقها حينًا، كأنها نوافذ الرب تُفتَح وتُغلَق. ستتمايل أزهار العصا الذهبية -التي تُميز حقول «نيو إنجلند»- في تناغم وصمت مَهيبَين. لو لم تكن هناك سيارات أو طائرات، أو طيور سمان أو ذيَّال، لو خلا العالم من كل الأصوات فلم تعد تسمع سوى صوت دقات قلبك، سيمكنك أن تسمع صوتًا آخر؛ صوت الحياة إذ تخمُد انصياعًا لدورة حياتها، في انتظار أول ثلج الشتاء كي يقوم بطقوسه.

***

أول يوم من أيام خريف هذا العام -الخريف الحقيقي لا خريف التقويم- كان يوم الثامن والعشرين من سبتمبر، وهو اليوم الذي دُفِن فيه «داني جليك» في مقابر «هارموني هيل».

كانت مراسم الجنازة خاصة، لكن مراسم الدفن كانت مفتوحة لأهالي البلدة، وقد حضر عدد كبير منهم؛ زملاؤه، فضوليون، عجائز تستهويهم الجنائز مع اقتراب النهاية ونسج الزمن أكفانه حولهم.

اصطفت سيارات الحضور على طول طريق «بيرنز»، وامتدت حتى التل البعيد. على الرغم من ضوء النهار، كشافات السيارات كانت مُضاءة.

في البداية جاءت سيارة «كارل فورمان»، واجهتها الأمامية مرصعة بالورود، ثم سيارة «توني جليك» الـ «ميركوري» طراز 1965، يعلو صوت محركها غير المنتظم كأنما تطلق الريح. خلفها أربع سيارات لأقارب والدة المتوفَّى ووالده، بعضهم جاء من أماكن بعيدة مثل «توسلا» و«أوكلاهوما». ثمة آخرون في الموكب الطويل المُضاء؛ «مارك بِتري» -الطفل الذي كان «رالفي» و«داني» ذاهبَين إليه يوم اختفاء أصغرهما- ووالده ووالدته، و«ريتشي بودِن» وعائلته، و«مَيبل وُرتس» في سيارة مع السيد والسيدة «نورتون»، تجلس في المقعد الخلفي وعصاها بين ساقيها المتورمتين، وتثرثر بلا انقطاع عن الجنازات التي حضرتها منذ عام 1930. في سيارة أخرى «ليستر دُرهام» وزوجته «هاريِّت»، ثم «بول مايبري» وزوجته «جلينز»، ثم «بات ميدلر» و«جو كرين» و«فيني آبشو» و«كلايد كُرليس» -كان «ميلت» قد فتح صندوق تبريد البيرة قبل أن يأتوا وشربوا منه أمام المدفأة- ثم «إيفا ميلَّر» في سيارة مع صديقتيها المقرَّبتين العانستين «لوريتا ستارشر» و«رودا كُرليس». حضر أيضًا «بارِكنز جيلسبي» ومساعده «نولي جاردنر» يركبان سيارة شرطة «أورسالم»، و«لورانس كروكيت» وزوجته، و«تشارلز رودز» سائق الحافلة مُتعكِّر المزاج والذي حضر كل جنازات نُظار المدرسة، و«تشارلز جيرفين» وعائلته بما فيهم زوجته وولداه؛ «هال» و«جاك» اللذان ما يزالان يعيشان معه.

حفر «مايك ريرسون» و«رويال سنو» القبر في الصباح الباكر، وغطيا التراب الذي أخرجاه من الأرض بالعشب الصناعي مؤقتًا. أشعل «مايك» شعلة الذكرى التي طلبها آل «جليك». يتذكر «مايك» أن «رويال» لم يبدُ على طبيعته هذا الصباح، فهو في العادة كثير المزاح والنكات. لكنه كان هادئًا هذا الصباح بشكل استثنائي، أقرب إلى الكآبة. ظن «مايك» أنه ربما كان يعاني صداع الثمالة، ويبدو أنه وصديقه «بيترز» أمضيا ليلتهما في السُكر لدى «ديل» حتى الفجر.

منذ خمس دقائق، حين رأى سيارة الحانوتي «كارل» تقترب من التل على بعد ميل، فتح البوابة الحديدية على مصراعيها، وهو ينظر إلى القضبان المُدببة التي وجد عليها الكلب «دوك» من قبل. بعدما فتح البوابة عاد إلى القبر حيث وقف الأب «دونالد كالاهان» قس إبرشية بلدة «أورسالم» في الانتظار. كان يعلق دِثارًا كنسيًّا على كتفيه، ويحمل كتابًا مفتوحًا على صفحة مراسم دفن الأطفال. هذه هي المحطة الثالثة، فالأولى هي بيت الجنازات، والثانية كنيسة القديس «أندرو»، والأخيرة مقابر «هارموني هيل».

سرت في جسد «مايك» قشعريرة وهو ينظر إلى العشب الصناعي البرَّاق، ويتساءل عن سبب كونه جزءًا من كل جنازة. بالنسبة إليه كان مجرد تقليد رخيص للحياة، لتغطية التربة السوداء للقبر. قال للقس:

- هم في الطريق يا أبتاه.

«كالاهان» رجل طويل ذو عينين زرقاوين حادتين وبشرة متوردة. شعره رمادي بلون الصلب. كان «مايك ريرسون» -الذي لم يذهب إلى الكنيسة منذ كان في السادسة عشرة- يحبه كثيرًا، ربما أكثر من باقي المشعوذين أمثال «جون جروجين» قس الكنيسة المنهجية المنافق، و«بارتسون» من كنيسة قديسي اليوم الآخِر وأتباع الصليب، والذي كان مجنونًا كدُبٍّ عَلَق في عُش نحل.

في جنازة واحد من شمَّاسي الكنيسة منذ عامين أو ثلاثة، ارتمى «باترسون» أرضًا وتدحرج كجزءٍ من طقوس الدفن الحماسي. لكن «كالاهان» يبدو لطيفًا بالنسبة إلى واحد من محبي البابا، جنازاته هادئة قصيرة. يتساءل «مايك ريرسون» إن كان خدًّا وأنف «كالاهان» المُحمرُّون دومًا قد وصلوا لهذه الحالة جرَّاء الصلاة فقط. إن كان «كالاهان» يحب الشُّرب، فمن يلومه؟ من العجب ألا ينتهي المطاف بكل أولئك الوُعاظ في مستشفى المجانين.

قال «كالاهان» وهو ينظر إلى السماء الصافية:

- شكرًا يا «مايك». ستكون جنازة ثقيلة.

- أعتقد هذا. كم ستبقى؟

- عشر دقائق لا أكثر. لن أستَدِرَّ كرب أبويه، لديهم المزيد ليتحملاه.

- حسنًا.

قالها «مايك» وسار نحو نهاية المقابر. كان سيقفز فوق السور الحجري قاصدًا الغابة القريبة ليتناول غداءه. يعلم أن آخر ما يود أهل المتوفَّى وأصدقاؤه رؤيته خلال المرحلة الثالثة هو منظر حفَّار القبور بملابسه المُتسخة بالتراب، فهذا يفسد كُليةً صورة الخلود وبوابة الجنة اللؤلؤية.

قرب السور الخلفي توقَّف، وانحنى يفحص شاهد قبرٍ حجريًّا مائلًا للأمام، فعدَّل وضعه، لكنه شعر مرة أخرى برَعْدةٍ تسري في أوصاله وهو ينفِّض التراب عن الكتابة عليه.

هَبرت باركلاي مارستِن

6 أكتوبر 1889

12 أغسطس 1939

ملاك الموت الذي يحمل المصباح البرونزي خلف الباب الذهبي

أخذك إلى المياه المُظلمة.

تحت هذه العبارات، بخط كاد يزول بمرور ستة وثلاثين عامًا من البَرَد والجليد:

فليهبه الله السكون.

على الرغم من أن شعور الضيق ظل يصاحبه بلا سبب. ذهب «مايك ريرسون» إلى الغابة وجلس جوار الجدول يلتهم غداءه.

***

أيام كان في معهد اللاهوت، صديق للأب «كالاهان» أعطاه لوحة مُطرزة تحمل عبارات في باطنها شيء من التجديف، فانطلقت منه عاصفة ضحكٍ وهلعٍ في آن واحد. مع مرور الوقت لم تبدُ العبارة بهذه الخطورة.

كانت العبارة هي: «اللهم امنحني السكينة لأتقبل الأشياء التي لا أستطيع تغييرها، والشجاعة لتغيير ما أستطيع تغييره، والحظ الذي لا يجعلني أخرب كل شيء كثيرًا».

العبارة كانت مكتوبة بخط إنجليزي قديم مزخرف مع رسم للشروق في الخلفية.

الآن يقف أمام مُعزِّي «داني جليك»، الذين يفعلون ما تُقِر به عاداتهم من وجوب أن يحمل النعش عمَّان للمتوفَّى أو خالان، وابنا عم أو خال. أنزل الأربعة النعش أرضًا.

كانت «مارجوري جليك» ترتدي معطفًا أسود، وقبعة ذات غطاء وجه شبكي يكشف وجهها عبر النسيج مثلما يكشف الشاش عن الجُبن بداخله. وقفت متمايلة، ترتكن إلى ذراع أبيها، وتقبض على حقيبة سوداء كأن فيها سبب حياتها. يقف «توني جليك» بعيدًا عنها، على وجهه أمارات الصدمة والدهشة. أكثر من مرة خلال الجنازة، راح ينظر حوله وكأنما يحاول أن يؤكد لنفسه أنه هنا، لكن وجهه ظل وجه رجل يؤمن أنه يحلُم.

فكَّر «كالاهان» أن الكنيسة لا تستطيع إيقاف هذا الحلم، ولا حتى كل السكينة والشجاعة والحظ الحسن قادرين على ذلك. الإخفاق والخراب قد وقع وانتهى الأمر.

راح يرش الماء المُقدس على النعش والقبر، يضفي عليهما الطهر والقداسة.

صاح والكلمات تخرج مُنغَّمة من حنجرته كعادته في النور والظلام، في الصحو والسُّكر:

- لنُصلي...

أحنى المُعزون رؤوسهم. فأردف:

- ربنا، دع رحمتك ترشد من عاشوا في إيمان إلى السلام الأبدي. بارك هذا القبر وأرسل ملاكك ليحرسه. حين ندفن جثمان «دانيال جليك»، رحِّب به في حضرتك مع قديسيك ليبتهج بك للأبد. ندعو المسيح ربنا، آمين.

- آمين.

غمغم الجمع، وحملت الرياح كلماتهم بعيدًا. ظل «توني جليك» ينظر حوله بعينين متسعتين قلقتين، بينما زوجته تغطي فمها بمنديل.

- بإيماننا بيسوع المسيح، ندفن بخشوع جثمان هذا الصبي، بزلَّاته البشرية. لنصلي بإيمانٍ بالله، الذي يمنح الحياة لكل شيء، أن يمنح القيامة لهذا الجسد الفاني ليحيا للأبد بصحبة القديسين.

قلَب صفحات كتابه. امرأة من الصف الثالث في الجمع المُتحلِّق حول القبر كحدوة حصان بدأت تبكي وتُنهنه، بينما راح طائرٌ يرد على نحيبها بزقزقته في الغابة القريبة.

- لنصُلِّ ليسوع المسيح من أجل أخينا «دانيال جليك»، فقد قال لنا: أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد. ربنا لقد بكيت لموت «لازاروس»، صديقك، فأرِح قلوبنا، ندعوك بإيمان.

ردد الكاثوليكيون:

- ربنا، اسمع صلاتنا.

- بعثت الموتى ليحيوا، امنح أخانا «دانيال» الحياة الأبدية. ندعوك بإيمان.

رددوا:

- اسمع صلواتنا يا ربنا.

ظهر شيء في عيني «توني جليك»، شيء شبيه بإلهامٍ.
- لقد تطهَّر أخونا «دانيال» بالتعميد، امنحه رفقة كل قديسيك، نسألك بإيمان.
- اسمع صلاتنا يا ربنا.
- ترعرع جسده بجسدك ودمائك، امنحه مكانًا في مأدبتك السماوية. نسألك بإيمان.
- اسمع صلاتنا يا ربنا.
بدأت «مارجوري جليك» تترنح أمامًا وخلفًا وتنتحب.
- واسِنا في حزننا لموت أخينا، ليكن إيماننا عزاءً، والحياة الأبدية أملنا. نسألك بإيمان...
أغلق «كالاهان» كتاب القداس، وهو يضيف:
- لنصلي كما علَّمنا سيدنا.
أردف بهدوء:
- أبانا الذي في السماوات...
صرخ «توني جليك»:
- كلا!
اندفع وهو يضيف:
- لن تهيلوا التراب على ابني!
امتدت الأيادي لتُبقيَه مكانه، لكنه تملَّص منهم. للحظة تمايل عند حافة القبر، ثم عرقله العشب الصناعي، فسقط في الحفرة فوق التابوت الخشبي مُصدِرًا صوت ارتطامٍ عالٍ. ظل يصرخ:
- «داني»، اخرج من هنا...
- أوه، إلهي!
قالتها «مَيبل وُرتس»، وغطت فمها بمنديلها الأسود المخصص للجنازات. كانت عيناها يقظتين، تُخزِّنان الأحداث كما يُخزِّن السنجاب الجوز للشتاء.
ظل الأب يصرخ:
- «داني»! توقف عن هذا الهراء!
أومأ الأب «كالاهان» نحو اثنين من حاملي النعش، فتراجعا، إلا أن ثلاثة رجال آخرين منهم «باركِنز جيلسبي» و«نولي جاردنر» تقدموا قبل أن يخرج «جليك» من القبر يركل ويصرخ ويعوي.
- «داني»، توقف عن هذا الآن! أنت تُفزع أمك! سأصفع ردفيك على هذا التصرف... إليكم عني... إليكم عني... أريد ابني... اتركاني أيها الحقيرون... آه، إلهي!
بدأ الأب «كالاهان» في الصلاة مرة أخرى:
- أبانا الذي في السماوات...
رافقته الأصوات الأخرى، ترفع الصلوات نحو السماء.
- ... ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك...
- تعالَ هنا يا «داني». هل تسمعني؟

- ... في الأرض، كما في السماء. خبزنا الذي للغد أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا...
- «داني»!
- ... كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا...
- هو لم يمُت! لم يمُت... اتركوني أيها التعساء اللُّوطيُّون...
- ... ولا تُدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير. بالمسيح يسوع ربنا لأن لك المُلك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين.
انتحب «جليك» وهو يردد:
- لم يمُت... لا يمكن أن يموت. هو في الثانية عشرة من عمره عليكم اللعنة...
انخرط في بُكاءٍ ثقيل، وراح يتملَّص -على الرغم من الذين يمسكونه- بوجهٍ مُغطى بالدموع. هوى على ركبتيه أمام قدمي «كالاهان»، وقبض على طرفي بنطاله بيديه الملوَّثتين بالتراب وغمغم:
- أعِد إليَّ ابني رجاءً. لا تتلاعبوا بي أكثر.
وضع «كالاهان» كفيه على خدي الرجل وقال:
- لنُصلِّ معًا.
كان يشعر بشهقات «توني جليك» تسري في فخذيه.
- ربنا، عزِّ هذا الرجل وزوجته في مأساة ابنهما. طهِّر هذا الطفل بماء المعمودية وامنحه حياةً جديدة. عسانا نلحق به يومًا ونشاركه نعيم السماوات للأبد. باسم يسوع المسيح نرجوا.
رفع رأسه، ورأى «مارجوري جليك» تسقط فاقدة الوعي.

***

عندما انصرف المُعزُّون، عاد «مايك ريرسون» وجلس عند حافة القبر المفتوح ليأكل آخر نصف شطيرة معه وهو ينتظر عودة «رويال سنو».
كانت الجنازة في الرابعة، والساعة الآن الخامسة تقريبًا. الظلال طويلة والشمس قد بدأت رحلتها نحو الأشجار الغربية الشاهقة. لقد وعد «رويال» اللعين بالعودة عند الخامسة إلا ربع تقريبًا، فأين ذهب؟
الشطيرة التي كان يأكلها تحوي الـ «بولونيا» والجبن، شطيرته المُفضلة، وكل الشطائر التي يصنعها من المُفضَّلات لديه. هذه مزية أن يكون المرء عازبًا. أنهى طعامه ونفَّض كفيه مُسقِطًا بعض فتات الخبز على النعش.
ثمة من يراقبه...
شعر بهذا فجأة، وكان منه واثقًا. راح ينظر حوله إلى المقابر بعينين مُتسعتين خائفتين.
- «رويال»؟ أهذا أنت يا «رويال»؟
لم يتلقَ إجابة. أطلقت الريح تنهيدة عبر الأشجار، فحركتها حركةً غامضةً مُرعبة. خلف ظلال أشجار الدردار المُتمايلة خلف السور الحجري، يستطيع أن يرى دوارة ريح منزل «مارستِن»،

وفجأة فكَّر في كلب «وِن» المُخوزَق فوق أسياخ البوابة الأمامية، عيناه ذابلتان بلا أي تعبير... يحدق ويراقب.

لا أريد أن يحل عليَّ الظلام وأنا هنا...

ارتعد، وكأن هناك من نَطق بعبارته هذه بصوتٍ عالٍ. صاح محاولًا الحفاظ على هدوئه:

- اللعنة يا «رويال»!

كان قد فقد الأمل أن «رويال» قد يكون في مكان قريب، أو أنه سيعود من الأساس. يجب أن يُتِم الدفن وحده على الرغم من أن هذا قد يتطلب وقتًا طويلًا.

ربما حتى يحل الظلام.

بدأ عمله، محاولًا تحاشي التفكير في الذعر الذي ألمَّ به فجأة. تعجَّب أن عمله الذي لم يُضايقه من قبل، ضايقه اليوم للغاية.

كانت حركاته سريعة محسوبة. جذب شريط الحشائش الصناعية بعيدًا عن الأرض الرطبة، وطواه بعناية، ثم علَّقه على ذراعه ووضعه في شاحنته الواقفة خلف البوابة. لكن مع خروجه من المقابر زال عنه شعور أن هناك من يراقبه.

بعد أن وضع الحشائش الصناعية في الصندوق، أخرج مِجرفة وشرع في العودة، إلا أنه تردد وهو ينظر إلى القبر المفتوح الذي بدا كأنما يسخر منه.

خطر بباله أن الشعور المقيت بالمُراقبة قد قلَّ حين زال النعش في قاع الحفرة عن نظره. باغتته صورة «داني جليك» راقدًا ورأسه على وسادة من قماش الساتان، وعيناه مفتوحتان. كلا... هذا حُمق. لقد أغلقوا العينين، وقد شاهد «كارل فورمان» يفعلها مِرارًا. يذكُر قوله: بالطبع نُلصِق الأجفان، لا نريد أن تغمز لنا الجثة في أثناء المراسم، أليس كذلك؟

ملأ مجرفته بالتراب وأهاله على النعش، فصدر صوت ارتطامه على خشب الماهوجني اللامع المصنوع منه التابوت. تقلَّص وجه «مايك» وقد أشعره هذا الصوت بالغثيان. انتصب مُعتدلًا، ونظر حوله مُشتَّتًا إلى باقات الأزهار. خسارة مقيتة. غدًا ستتناثر بتلاتها الذابلة في كل مكان، وتغطي الساحة باللونين الأحمر والأصفر. لماذا يعبأ الناس بشراء كل هذه الأزهار؟ لو أنهم يَوَدُّون الإنفاق، فمن الأفضل أن يتبرعوا بالمال لعلاج السرطان أو دعم الأمهات وأطفالهن أو حتى للنوادي النسوية، هكذا لن تُهدَر الأموال على ما لا ينفع.

أهال كمية أخرى من التراب في الحفرة، ووقف يرتاح مُجددًا.

هذا التابوت كذلك مَضيعة للمال. تابوت من خشب الماهوجني يساوي ألف دولار على الأقل، وها هو يدفنه في التراب. لا يملك آل «جليك» أكثر مما يملك الآخرون من مال، ولا يدفع أحدهم مالًا لشركات التأمين لتغطية مصاريف دفن الأطفال. ربما استدانوا كي يشتروا صندوقًا يدفنونه في التراب.

مال مُحمِّلًا مجرفته، ثم ألقى ما بها في الحفرة، ومرة أخرى يسمع صوت التراب يرتطم بالخشب، إلا أن لمعان التابوت ما يزال باديًا مؤبِّخًا.

كفاك تحديقًا إليَّ!

ألقى حمولة أخرى أصغر من التراب.

ثَمب!

الظلال صارت أطول كثيرًا الآن. توقَّف ونظر إلى الأفق، إلى منزل «مارستِن» مُغلق النوافذ. جانبه الشرقي، الجانب الذي يتلقى ضوء الصباح أولًا، يُحدِّق مباشرة إلى بوابة المقابر الحديدية، حيث وجد الكلب...

أجبر نفسه على التركيز في عمله، وأهال المزيد من التراب...

ثَمب!

بعض التراب هوى على جانبي التابوت، مُتخللًا المقابض النحاسية. لو أن أحدًا فتحه الآن لصدر صوت صرير مزعج يليق بفتح باب مقبرة.

توقَّف عن التحديق إليَّ، اللعنة!

انحنى ليملأ المجرفة، لكن الفكرة بدت ثقيلة على نفسه، فوقف يرتاح دقيقة. كان قد قرأ من قبل في جريدة محلية أو شيء من هذا القبيل، عن رجل من تكساس يعمل في البترول، وقد أوصى بدفنه في سيارة «كاديلاك» جديدة مكشوفة. وقد نفَّذوا الوصية. حفروا القبر بحفَّار، ووضعوا فيه السيارة برافعة. الناس في مختلف الأماكن يقودون سياراتهم القديمة، التي يثبِّتون أجزاءها إلى بعضها بالبُصاق والأسلاك، بينما واحد من أولئك الخنازير الأغنياء يُدفَن خلف مقود سيارة جديدة ثمنها يربو على العشرة آلاف دولار، بكامل إكسسواراتها و...

فجأة شهق وتراجع خطوة إلى الخلف، وراح يهُز رأسه في حذر. لقد كان يغيب في سِنةٍ كما يبدو. إحساس أنه مُراقَب يتزايد. نظر إلى السماء وأهاله الضوء الذي كاد يزول عنها تمامًا. قمة منزل «مارستِن» كانت الوحيدة المُضاءة بضوء الشمس الغاربة، وساعته تخبره أنها السادسة وعشر دقائق. أيا يسوع! انقضت ساعة ولم يهِل أكثر من ست حمولات من التراب داخل هذه الحُفرة!

انهمك «مايك» في عمله ولم يترك نفسه للأفكار مرةً أخرى.

ثَمب.. ثَمب.. ثَمب!

صار صوت ارتطام التراب بالتابوت مكتومًا، غُطي سطح النعش وراحت ذرات الغبار تنحدر إلى الجوانب وتكاد تغطي القفل.

ألقى حمولتين أخريين ثم توقَّف.

القفل؟

من بحق السماء قد يضع قفلًا على تابوت؟ هل يظنون أن أحدهم سيحاول الدخول إليه؟ لا تفسير إلا هذا، وإلا فلماذا قد يظنون أن أحدًا قد يحاول الخروج منه؟

صاح «مايك ريرسون»:

- كفى تحديقًا إليَّ!

شعر بقلبه يعلو ليسُد حنجرته، وغَشيته رغبة عارمة في الفرار من هذا المكان إلى شوارع البلدة. قاوم هذا الشعور بجُهدٍ جهيد. ما يشعر به ليس إلا نوبة ذعر عابرة، ومَن لا يُصاب بها من وقت لآخر وبخاصة إن كان يعمل في المقابر؟ ما يفعله أشبه بأفلام الرعب. عليه أن يدفن طفلًا في الثانية عشرة، وعيناه مفتوحتان...

صاح:

- إلهي! كفى!

نظر نحو منزل «مارستِن» وقد فقد السيطرة على نفسه. لم يتبق داخل حَيِّز الضوء إلا قمته التي يبلغ ارتفاعها ستين قدمًا.

بدأ يعمل أسرع. ينحني، ويُهيل التراب، ويحافظ على عقله صافيًا، إلا أن إحساس المراقبة زاد بدلًا من أن يقل، وبدت كل حمولة تراب أثقل من سابقتها، ولم يختفِ التابوت بالكامل، ظلت هيئته تظهر من تحت الثَّرى.

صلاة الموتى الكاثوليكية تُردَّد في عقله، مثلها مثل كل تلك الأفكار التي راودته بلا سبب. كان قد سمع الأب «كالاهان» يقولها وهو يتناول غداءه جوار الجدول، بالإضافة إلى صرخات الأب المكلوم بالطبع.

- لنصلِّ لربنا يسوع المسيح من أجل أخينا، فقد قال لنا: ...

(سيدي... زَكِّني)

توقَّف وحدَّق إلى القبر. كان عميقًا، عميقًا للغاية، وقد انصبَّت داخله ظلال الليل، لزجة حيَّة. لكنه ظل عميقًا، ولن يستطيع ملأه قبل حلول الليل... مستحيل.

أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد.

(يا سيد الذباب، زكِّني الآن...)

أجل، العينان مفتوحتان، لهذا ظل يشعر أنه مُراقَب. لم يضع «كارل» صمغًا كافيًا لإغلاقهما، فلا بد أنهما انفتحتا كمصراعي نافذة، والولد «جليك» يُحدق إليه الآن. يجب فعل شيء حيال ذلك.

أنا هو القيامة والحياة، من آمن بي ولو مات فسيحيا، وكل من كان حيًّا وآمن بي، فلن يموت إلى الأبد...

(ها أنا أجلُبُ إليك اللحم المتعفن والأجساد المُنتنة).

أخرِج التراب، أخرِج التراب واكسر القفل وافتح التابوت وأغلِق هاتين العينين اللعينتين المُحدقتين، هذا هو المَخرج الوحيد مما أنت فيه. ليس بحوزته صمغ الحانوتي، لكن لديه عُملتين فضيتين في جيبه. أجل، الفضة هي ما يحتاج إليه هذا الصبي.

تجاوزت الشمس قمة منزل «مارستِن» الآن، وبالكاد تَمَس أعالي قمم أشجار الصنوبر غرب البلدة. على الرغم من أن مصاريع المنزل مغلقة، ما زال يحدِّق إليه.

بعثت الموتى ليحيوا، امنح أخانا دانيال الحياة الأبدية.

(من أجلك قمت بالتضحية، وبيُسراي أقدمها لك).

قفز «مايك ريرسون» فجأة داخل القبر وراح يحفر سريعًا، يرمي بالتراب إلى الخارج فبدا كانفجاراتٍ بُنية. أخيرًا ارتطم طرف المجرفة بسطح التابوت الخشبي، فبدأ «مايك» في إزاحة باقي التراب، ثم ركع فوقه يضرب طرف القفل مرات ومرات.

بدأت الضفادع عند الجدول في النقيق، وراح طائر السُبد الهندي يغني في الظلال. من مكان قريب ارتفعت أصوات الطيور الليلية الحادة.

السادسة وخمسون دقيقة.

ما هذا الذي أفعل؟ (سأل «مايك» نفسه) ما هذا الذي أفعل بحق الله؟

ظل راكعًا فوق التابوت يُفكر في إجابة، لكن شيئًا في غياهب عقله يحثه على الإسراع، فلتُسْرِع، الشمس تغيب!

يجب ألا يحُل الليل عليَّ هنا.

رفع المِجرفة على كتفه، ثم هوى بها على القِفل مرة أخرى، فسمع صوته يُكسَر.

نظر إلى أعلى لحظة، في آخر لحظات تعقُّله، بوجهه المُلوَّث بالغبار والعرق، وبعينيه المُحدقتين الجاحظتين البيضاويتين.

كوكب الزهرة يبرُق على صدر السماء.

أخرج نفسه من القبر وهو يلهث، وتمدد أرضًا على بطنه، ثم تحسس التابوت بحثًا عن مقبض غطائه. جذبه فانفتح الغطاء بصرير مقيت، كما تخيل أن يحدث بالضبط. ظهر من خلفه أولًا قماش الساتان الوردي، ثم ذراع مكسوة بكُم أسود (كان «داني جليك» قد دُفِن بالبذلة التي كان يذهب بها إلى القداسات)، ثم... ثم ظهر الوجه.

احتبس النَّفَس في صدر «مايك»، وسدَّ حنجرته. كانت العينان مفتوحتين بالضبط كما تصوَّر. مفتوحتين عن آخرهما وقد انطفأ فيهما البريق، إلا أنه رأى فيهما لمعة حياة بشعة تظهر في آخر لحظات النهار. لم يشحُب هذا الوجه بالموت؛ الخدان كانا متوردين ينبضان بالحيوية.

حاول إبعاد عينيه عن هذه النظرة البرَّاقة المتجمدة، لكنه لم يقدر.

غمغم:

- أيا يسوع...

واختفى آخر جزء من قرص الشمس خلف الأفق.

***

كان «مارك بِتري» يعمل على نموذجٍ لمسخ «فرانكنشتاين» في حجرته، وينصت إلى صوت أبويه بالأسفل في حجرة المعيشة. حجرتُه في الطابق الثاني من المنزل الريفي الذي اشتروه في جنوب شارع «جوينتر»، وعلى الرغم من أن تدفئة المنزل تعتمد على المدفأة الزيتية الجديدة الآن، فتحات التدفئة القديمة في الطابق الثاني ما زالت موجودة.

في الماضي، حين كانت تدفئة المنزل تعتمد على موقد المطبخ، كان الهواء الساخن الصادر منه يحفظ دفء الطابق الثاني، على الرغم من ذلك، المرأة التي كانت تعيش هنا مع زوجها المعمداني الصارم منذ عام 1873، حتى 1896 كانت تأخذ حجرًا ساخنًا ملفوفًا بالقماش معها إلى الفراش كي تنعم بالدفء. الآن تخدم فتحات التدفئة تلك غرضًا مختلفًا؛ كانت تنقل الصوت بشكلٍ ممتاز.

على الرغم من أن والديه بالأسفل في حجرة المعيشة، يبدو كأنما يتناقشان وراء بابه.

في مرة، وجده أبوه ينصت السمع من خلف باب حجرته، وقد كان مارك في السادسة وقتها، فأخبره بمثلٍ إنجليزي قديم: لا تتنصت على أحدٍ إلا إذا كنت تريد تكدير نفسك. شرح له أبوه أن المثل يعني أن على المرء أن يحذر من سماع ما قد لا يسرُّه.

ثمة مثل آخر كان يردده أبوه: قد أعذر من أنذر.

في عمر الثانية عشرة، كان «مارك بِتري» أصغر حجمًا من أقرانه، وأكثر رقة، لكنه كان يتحرك بثقة ومرونة يفتقر إليها الأولاد في عمره، والذين كانوا يتميزون بالخِرق والخدوش والكدمات على رُكَبِهم وأذرعهم. بشرته بيضاء، حليبية، ذو ملامح ناعمة، تنبئ بخشونة في المستقبل. كل هذا قد سبَّب له مشكلات من قبل حادث «ريتشي بودِن» في المدرسة، وقد عزم على حلها بمفرده. كان قد حلَّل المشكلة، وخَلُصَ إلى أن أغلب المُتنمرين ضِخام، قبيحو الخِلقة، خُرَقاء، يخيفون الناس بقدرتهم على إيذائهم. شجارهم قذر خادع، لكن على الرغم من ذلك، إن لم تخشَ بعض الإيذاء، وإن كنت تنتوي الشجار الخادع، يمكنك أن تهزم متنمرًا.

«ريتشي بودِن» كان أول إثباتٍ لنظريته، هو ومِن قبله المتنمر في مدرسته الابتدائية السابقة، وقد أسفرت نتيجة شجارهما عن التعادل، وعلى الرغم من أن المتنمر قد خرج من الشجار جريحًا، لكنه لم يستسلم. لاحقًا زعم أنه و«مارك بِتري» أصدقاء، إلا أن «مارك» كان يراه مجرد حقير، لكنه كان يفهم واجب الحذر.

الحديث العاقل لا يُجدي مع المُتنمرين. الإيذاء هو اللغة الوحيدة التي يفهمها كل مَن هم أمثال «ريتشي بودِن» في العالم، لهذا أدرك «مارك» الصعوبة التي يواجهها العالم في التواصل بعضه مع بعض.

يومها، أعادت المدرسة «مارك» إلى بيته مُبكرًا، وقد غضب والده للغاية، حتى صارحه «مارك» بعد انتهاء نوبة بكائه أن «هِتلر» لم يكن سوى «ريتشي بودِن» في أعماق قلبه. جعل هذا أباه ينفجر ضحكًا، حتى أمه ضحكت على استحياء، وقد أعفياه من العقاب.

والآن تقول «جُون بِتري»:

- هل تظنه قد أثَّر عليه يا «هنري»؟

- من الصعب أن أجزم.

عَلِم «مارك» من فترة الصمت التي تلت العبارة أن أباه يُشعل الغليون. أردف الأب:

- الولد وجهه كوجه مقامر لا يمكن قراءته.

- لكن يجري ما يجري تحت سطح الماء الهادئ.

كانت أمه تتفوه بمثل هذه العبارات دائمًا، مثل يجري ما يجري تحت سطح الماء الهادئ، وهذا طريق طويل بلا رجعة. كان يحبهما بشدَّة، لكن أحيانًا ما يبدوان مُضجرَين كالكتب في قسم السجلات بالمكتبة... مُضجرَين ومُتربَين.

أكملت والدته:

- كانا في طريقهما لزيارة «مارك»، كي يلعبا بقطاره الجديد... والآن أحدهما توفي والآخر مفقود! لا تخدع نفسك يا «هِنري»، فالولد يشعر بشيء.

قال السيد «بِتري»:

- الولد ثابت الجنان، وأيًّا ما تكون مشاعره، فأنا واثق أنها تحت سيطرته.

ألصق «مارك» ذراع مِسخ «فرانكنشتاين» اليُسرى بالكتف. كان هذا مُجسمًا خاصًّا يُضيء بالأخضر في الظلام، مثله مثل تمثال يسوع الذي حصل عليه كجائزة بعد حفظه المزمور 119 في

مدرسة الأحد في بلدة «كيتري» التي كان يسكن بها.
قال السيد «بِتري»:
- أحيانًا ما أفكر في إنجاب طفلٍ آخر. سيفيد هذا «مارك» على نحوٍ ما.
قالت أمه بصوتٍ يتعالى:
- لا يمكننا فعل هذا على سبيل التجربة يا عزيزي.
ضحك أبوه. ساد الصمت برهة، وعرف «مارك» أن أباه يتصفَّح جريدة «وول ستريت»، وربما تقرأ أمه رواية لـ «جين أوستِن»، أو «هِنري جيمس». كانت تقرأ رواياتِهما مرارًا، ولم يفهم «مارك» السبب الذي يجعل المرء يقرأ ذات الرواية أكثر من مرة وهو يعلم نهايتها.
سألت أمه أخيرًا:
- هل تظن الغابة خلف المنزل آمنة؟ هل نتركه يذهب وحده إلى هناك؟ يقولون إن هناك رمالًا متحركة في...
- تفصلنا عنها أميال.
هدأ «مارك» قليلًا، وبدأ يلصق ذراع المِسخ الأخرى. لديه منضدة كاملة عليها نماذج الوحوش المرعبة، مُرتبة في مشهدٍ يتغير كلما أضاف إلى مجموعته نموذجًا آخر. مجموعة رائعة هي، وقد كان «داني» و«رالفي» آتيَين ليلتها كي يرياها حين... أيًّا كان ما حدث.
قال أبوه:
- أعتقد أننا سنسمح له بالذهاب إلى هناك، لكن قبل الظلام بالطبع.
- حسنًا. أتمنى ألا تُصبه تلك الجنازة الرهيبة بالكوابيس.
يكاد «مارك» أن يرى أباه يهز كتفيه وهو يقول:
- مسكين «توني جليك». لكن الموت والحزن جزءان من الحياة. الوقت كفيل بمساعدته على اعتياد الأمر.
- ربما.
ثم ساد الصمت مُجددًا. ماذا سيحدث لاحقًا؟ تساءل «مارك»، ثم بدأ في لصق المسخ إلى قاعدته والتي كانت على هيئة قبر مفتوح خلفه شاهد حجري مائل.
- في وسط الحياة يجلس الموت. لكن ربما تزورني الكوابيس.
- أوه؟
- السيد «كارل فورمان» فنان حقيقي. لقد بدا الولد كأنما هو نائم ليس أكثر، وسوف يفتح عينيه ويتثاءب في أي لحظة، و... لا أعرف لِمَ يحب هؤلاء الناس تعذيب أنفسهم بمراسم دفن ذات تابوت مفتوح. هذا... طقس وثني.
- حسنًا، لقد انتهى الأمر.
- أجل، أعتقد هذا. هو ولد طيب، أليس كذلك يا «هِنري»؟
- تعنين «مارك»؟ هو الأفضل.
ابتسم «مارك».

- ألا يُعرض شيء على التلفاز؟
- سأرى.
صرف «مارك» انتباهه عما قيل في باقي الأمسية، فقد انتهى النقاش المهم. وضع التمثال الصغير على إفريز النافذة كي يجف. خلال ربع ساعة ستناديه أمه ليستعد للنوم، فأخرج منامته من درج الخزانة العلوي، وبدأ يُغير ملابسه.

كحقيقة، والدته تقلق كثيرًا بشأن حالته النفسية، التي لم تكن هشة أو ضعيفة على الإطلاق. لا يوجد سبب مُحدد لضعفها، فهو مثالي على مُختلف النواحي، وحالة عائلته المادية ممتازة. كان ينتمي إلى الطبقة المتوسطة العُليا، وزواج والديه مُستقر ووالداه يحبان بعضهما بشدة. لم تكن ثمة صدمات كُبرى في حياة «مارك»، ونزالات المدارس لا تُخيفه، بالإضافة إلى أنه متوافق مع أقرانه وعمومًا كانت أهدافه نفس أهدافهم.

إن كان ثمة ما يعيبه، فهي عزلته، وتحكمه في نفسه ومشاعره. لم يغرس أحد هذا البرود فيه، بل يبدو أنه وُلِد على هذا الحال. حين أُصيب كلبه «كوبر» في حادث سيارة، أصرَّ على الذهاب مع والدته للطبيب البيطري، وحين أعلن الطبيب أن عليهم إخضاع الكلب لعملية قتل رحيم، سأله الطبيب إن كان يفهم معنى القتل الرحيم، فأجاب «مارك» أنه يعرف أنهم سيقتلونه بالغاز. قبَّل «كوبر»، ثم طلب من الطبيب أن يفعل هذا.

شعر بالأسف تجاه الكلب، لكنه لم يبكِ، ولم تقترب الدموع حتى من عينيه. أمه بَكَت، لكن بعد ثلاثة أيام كانت قد نسيت كل شيء عنه، لكن «مارك» لم ينسَ.

هذه هي قيمة كبت البُكاء. البكاء يشبه أن يتخلص المرء من عبء مثانته الملأى على الأرض.

صَدمَه اختفاء «رالفي جليك»، وصدمته مرة أخرى وفاة «داني»، لكنه لم يهلع. سمع شخصًا في المتجر يزعم أن منحرفًا جنسيًّا قد خطف «رالفي». هو يعرف معنى هذا، أن يفعلوا بك شيئًا يتضمن ممارسة شائنة، وحين ينتهون يخنقونك (كما يُخنَق الناس في الكُتب المصورة مُطلقين صوت أرررغغغ) ويدفنونك تحت ألواح أرضية كوخٍ مهجور. لو أن منحرفًا من هؤلاء قدَّم إليه قطعة حلوى، سيركله بين ساقيه ويجري بسرعة الضوء.

- «مارك»؟
يسمع صوت أمه عبر الدَّرج. أجابها:
- أنا هُنا.
قالها مُبتسمًا مرة أخرى.
- لا تنسَ أذنيك حين تغتسل.
- لن أنسى.
نزل بخِفة كي يُقبِّلهما قبلة قبل النوم. نظر خلفه سريعًا إلى مسوخه المُتراصة على المنضدة في شكلٍ تمثيلي: «دراكيولا» بفمه المفتوح، يُظهر أنيابه بعد أن عضَّ فتاة ملقاة تحت قدميه، بينما دكتور «ماد» يُعذب امرأة فوق منضدة، والسيد «هايد» يتسلل من خلف رجل يسير وحيدًا إلى منزله.

أتفهم الموت؟ بالتأكيد. حتى تهاجمك المسوخ.

***

أوقف «روي مَكدوجال» شاحنته في مكانها، وكانت الساعة الثامنة والنصف، ثم أغلق المُحرك. أنابيب السيارة مُعطلة، وكذا أنوار تحديد الاتجاه، سيارة مُهدَّمة كحياته. ابنه يعوي داخل المنزل، وامرأته تصرخ فيه.

يا له من زواجٍ عظيم!

ترجَّل عن سيارته، فتعثَّر في واحدة من الأحجار التي كان يعزم تحديد ممشى بها يصل حتى درج المنزل، وسقط على وجهه.

غمغم وهو يتحسس ذقنه ويرمق قطعة الحجر:

- اللعنة.

كان ثملًا للغاية، فقد خرج من عمله في الثالثة، وظل عند «ديل» كل هذه الفترة، يشارك «هانك بيترز» و«بَدي مايبيري» الشراب. كان الأول مُتحمسًا للغاية، راغبًا في إنفاق كل ماله في الشرب، وهذا ما حدث. كان يعرف رأي «ساندي» في رفاقه. حسنًا، دعها وضيق أفقها. كيف تحسد الرجل على بضعة أكواب من البيرة يومي السبت والأحد مع رفاقه، بعد أن يظل طيلة الأسبوع يكسر ظهره في المصنع اللعين؟ من تكون كي تتصرف وكأنها قديسة؟ كل ما تفعله هو المكوث في المنزل طيلة اليوم لتعتني به، وتثرثر مع رجل البريد، وتتأكد أن الطفل لن يتسلل إلى داخل الفرن. هي لم تعُد تعنى به مؤخرًا، فقد سقط الطفل التعس من فوق منضدة تغيير الحفاضات منذ أيام.

أين كُنتِ؟

كنت أمسكه يا «روي»، لقد تملص.

تملَّص، أليس كذلك؟

توجه إلى الباب ورأسه يكاد يشتعل غيظًا، وساقه تؤلمه. هو لا يشعر بأي تعاطفٍ تجاهها. ماذا كانت تفعل بينما كان يلفظ أنفاسه صراخًا؟ بالطبع كانت تقرأ مجلة فضائح وتأكل الكرز المغطى بالشوكولاتة، أو تشاهد مسلسلًا هزليًّا في التلفاز وتأكل الكرز المغطى بالشوكولاتة. لقد غطَّت الحبوب مؤخرتها كما غطَّت وجهها، وقريبًا لن يستطيع التفرقة بين ردفها الأيمن والأيسر.

دفع باب المنزل ودخل.

هاله منظر ما رأى، وأفاقه من ثمالته كأنما أُلقيَت على وجهه منشفة مبللة. كان الرضيع عاريًا يبكي ويصرخ، والدم يسيل من أنفه، بينما «ساندي» تحمله، وقميصها مُلطخ بالدماء، وأمامها حفاضة على الأرض. نظرت إليه من فوق كتفها، وعلا وجهها تعبير المفاجأة والخوف.

الكدمات حول عيني «راندي» بالكاد بدأت تختفي. رفع الرضيع يديه نحوه كأنما يتضرَّع.

سألها «روي» ببطء:

- ماذا يحدث هنا؟

- لا شيء يا «روي». هو فقط...

قال بلا تعبير:

- ضربتِه؟ لم يثبت مكانه في أثناء تغيير الحفاضة فضربتِه.

ردَّت بسرعة:
- كلا... لقد تدحرج عن فخذي وارتطم أنفه بالأرض. هذا كل ما حدث.
- كان يجب أن أضربك حتى تُسلمي الروح.
- «روي»، لقد اصطدم أنفه...
أحنى كتفيه وسألها:
- ماذا لديك للعشاء؟
- همبرجر... محترق.
قالتها بفظاظة، وأخرجت طرف قميصها من بنطالها الجينز ومسحت به أسفل أنف «راندي». لمح «روي» الدهون التي تجمعت حول خصرها. لم تستعد وزنها السابق قبل الحمل، وهو لا يكترث.
- أخرِسيه.
- هو لا...
صرخ «روي»:
- أخرِسيه!
بدأ «راندي» في الصراخ مُجددًا بعد أن هدأ وتحوَّل بُكاؤه إلى شهقاتٍ ضعيفة.
قالت «ساندي»:
- سأعطيه زجاجة الرضاعة.
قامت، فعاجلها قائلًا:
- وأحضري لي عشائي.
بدأ يخلع سُترته وهو ينظر حوله ويهتف:
- يا إلهي! المكان كالحظيرة. ماذا كنتِ تمارسين طيلة اليوم؟
قالت وهي تُمثل الصدمة:
- روي!
ثم قهقهت، وقد بدأ غضبها تجاه الرضيع الذي لا يثبُت مكانه في الزوال. ربما كانت قد فعلتها حقًّا في أثناء قراءة واحدة من قصص ما بعد الظهيرة.
- هاتي عشائي ثم نظفي المكان اللعين.
- حسنًا، بالتأكيد.
أخرجت زجاجة رضاعة من البرَّاد، ووضعت «راندي» أرضًا معها فوق حشية اللعب. بدأ يمتص ما بها بلا مُبالاة وهو ينقل نظره بين أمه وأبيه وبالعكس.
- «روي»؟
- ماذا تريدين؟
- كل شيء انتهى.
- ماذا تعنين؟
- أنت تعرف ماذا أعني. هل تريد؟ الليلة؟

- بالتأكيد... بالتأكيد.
رددها وهو يفكر مرة أخرى: أليست هذه حياة من نوعٍ ما؟

***

كان «نولي جاردنر» يسمع موسيقى الـ «روك آند رول» في المذياع، ويطرقع إصبعيه مُصاحبًا نغماتها، حين دق جرس الهاتف. أنزل «باركِنز» عن وجهه المجلة التي يحل فيها الكلمات المُتقاطعة، وقال:

- أخفِض هذا الصوت لو سمحت.
- بالتأكيد يا «بارك».

أخفَض «نولي» الصوت لكنه ظل يُطرقع أصابعه. قال «باركِنز» عبر الهاتف:

- مرحبًا.
- الشرطي «جيلسبي»؟
- أجل.
- أنا العميل «توم هَنرَن» يا سيدي. لدي المعلومات التي طلبت.
- شاكر أنك عدت إليَّ بهذه السرعة.
- لم نجد الكثير على أي حال.
- لا عليك. علامَ حصلتم؟
- حُقِّقَ مع «بِن ميرز» بعد حادث طريقٍ قاتل في نيويورك في مايو عام 1973، ولم يُتَّهم بشيء. كان حادث دراجة بخارية، قُتِلَت فيه زوجته «ميراندا». قال الشهود إنه كان يتحرك ببطء، ولم يثبُت أنه كان ثمِلًا. هو يساري، شارك في تظاهُرة للسلام عام 1966، وألقى خطبة في سباق لدعم السلام في بروكلين عام 1967، وحضر مسيرتين في واشنطن عامي 1968، و1970. اعتُقِل خلال مسيرة «سان فرانسيسكو» السلمية عام 1971. هذا هو كل شيء عنه.
- ماذا أيضًا؟
- «كُرت بارلو». يحمل الجنسية البريطانية، لكنه ليس بريطانيَّ الأصل. وُلد في ألمانيا وفر إلى إنجلترا -غالبًا من المُخابرات- عام 1938. لا توجد أي معلومات عنه قبل ذلك، لكن يبدو أنه في السبعينيات من عمره. اسمه الأصلي «برايشِن». يعمل في الاستيراد والتصدير في لندن منذ عام 1945، لكنه مُتهرب من الضرائب. «ستراكر» شريكه منذ ذلك الوقت، ويبدو أنه من يتعامل في الأمور العلنية.
- وماذا بعد؟
- وُلد «ستراكر» في إنجلترا، يبلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا. أبوه كان صانع خزانات في «مانشستر». كلا الرجلين لا غبار عليهما، وقد دفعا لمد زيارتهما إلى الولايات المُتحدة منذ ثمانية عشر شهرًا. هذا كل ما لدينا، فيما عدا احتمالية أن يكونا لوطيَّين طبعًا.

قال «باركِنز» مُتنهدًا:

- آه. هذا ما ظننته تقريبًا.

- إن كنت تريد المزيد من المساعدة، يمكننا مراسلة «سكوتلانديارد» والاستعلام عن تاجريكَ الجُدد.

- كلا، هذا يكفي.

- لا توجد صلة بين «ميرز» والرجلين بالمناسبة، إلا إذا كانت صلة مخفية بعناية.

- حسنًا. أشكرك.

- هذا واجبنا. إن أردت المساعدة، اتصل بي.

- سأفعل. شكرًا لك.

وضع السماعة مكانها، وظل يحدق إليها وهو يُفكر. سأله «نولي» وهو يعيد صوت الراديو إلى سابقه:

- من كان هذا يا «بارك»؟

أجاب بعد أن زَفَر:

- مقهى «إكسلنت». ليس لديهم لحم خنزير. لا شيء سوى شطائر الجبن وسلاطة البيض.

- لدي حلوى التوت في مكتبي إن أردتها.

- كلا، شكرًا.

قالها وزَفَر مرة أخرى.

***

مستودع النفايات ما يزال ينفُث الدخان.

يسير «دَد روجرز» على امتداده يشُم رائحة الفضلات المُحترقة، تحت قدميه تتهشم الزجاجات الصغيرة ويتناثر الرماد الأسود الناعم مع كل خُطوة.

عند مكان تخزين النفايات المنزلية، مساحة من الفحم المُلتهب، يستعر وينطفئ مع حركة الريح، كأنه عين ضخمة حمراء تُغمَض وتُفتح... عين عملاق.

من آن لآخر، يسمع انفجارًا صغيرًا مكتومًا صادرًا من عُلبة رشٍّ أو مصباح إنارة. الكثير من الفئران قد هربت من المستودع حين أشعل النار صباحًا، عدد أكبر مما رأى من قبل. أطلق الرصاص على ما يزيد على الثلاثين منها، وسَخِنت بندقيته بشدة. كانت فئران حقيرة عملاقة، بعضها وصل طوله إلى قدمين إن فردته على أقصى امتدادٍ له. من الغريب أن أعدادهم تتزايد وتتقص من عامٍ إلى عام. ربما هو سبب ذو علاقة بالطقس. لو ظل العدد في ازدياد فسيضطر إلى وضع فخاخ سامة هنا وهناك، وهو شيء لم يفعله منذ عام 1964.

واحد منها الآن يتسلل تحت حوامل الأخشاب الصفراء التي يستخدمها كحواجز للنيران.

أخرج «دَد» بندقيته، جذب الزناد، صوَبها، أطلقها. ركلت الرصاصة التراب أمام الفأر، وغطته بالغبار. لكن بدلًا من الهرب، وقف على قائمتيه الخلفيتين ونظر إليه، وعيناه الشبيهتان بخرزتين تلمعان في ضوء النار. إلهي، بعضهم حقًّا وقح!

قال «دَد» وهو يُصوب بعناية أكبر:
- وداعًا يا سيد فأر.
وأطلق الرصاص، فانقلب الفأر على ظهره يتلوى. سار «دَد» نحوه، ثم راح يدعسه بحذائه الثقيل. راح الفأر يقضم مقدمة جلد الحذاء في وهن، بينما جانباه ينتفخان من الضغط.
قال «دَد» بغير اكتراث:
- وغد.
ثم سحق رأسه. انحنى يتفحصه ووجد نفسه يُفكر في «رَثي كروكيت» التي لا ترتدي حمالات صدر، حين ترتدي واحدًا من تلك السترات الخفيفة الضيقة.
التقط الفأر من ذيله وراح يؤرجحه كبندول.
- هل تحبين أن أدس لك السيد فأر في علبة أقلامك يا «رَثي»؟
راقه المعنى المزدوج الوقح لعبارته، فقهقه، وراح رأسه يتمايل فوق عنقه المُعوَج.
وهو يطوِّح الفأر إلى القمامة، لاحظ شخصًا... شخصًا طويلًا نحيلًا للغاية، على بُعد خمسٍ وخمسين خطوة إلى يمينه. مسح «دَد» كفيه في بنطاله الأخضر، ثم جذبه إلى أعلى، وسار نحو من يرى.
- المستودع مُغلق أيها السيد.
استدار الرجل نحوه، وكان الوجه الذي رآه على ضوء النار الأحمر ذا عظمتي فك عاليتين. شعره أبيض، مع مسحات غريبة من لونٍ رمادي معدني، مرفوع بعيدًا عن جبهته اللامعة كالشمع كأنه واحد من عازفي البيانو الشواذ. تلاقت الأعين، وظل انعكاس النيران يضفي توهج العنبر على عيني الرجل فبدوتا حمراوين.
سأل الرجل في أدب:
- حقًّا؟
ثمة لكنة في كلماته على الرغم من وضوحها التام. ربما كان الرجل مبحوح الصوت أو من أصلٍ بوهيمي.
- لقد جئت أشاهد النار. هي جميلة.
- أجل. أنت من البلدة؟
- أنا ساكن جديد في بلدتكم الرائعة. هل تصطاد الكثير من الفئران؟
- إلى حد ما. لكن مؤخرًا يبدو أن هناك الملايين من أبناء العاهرة هؤلاء. أقول لك، ألست أنت الرفيق الذي اشترى بيت «مارستِن»؟
عقد الرجل كفيه خلف ظهره وغمغم:
- حيوانات مفترسة.
لاحظ «دَد» في دهشة أن الرجل يرتدي حُلة كاملة. أردف الرجل:
- أحب المُفترِسات الليلية؛ الفئران... البوم... الذئاب. هل ثمة ذئاب في المنطقة؟
أجاب «دَد»:

- لا. لكن رجلًا في «دَرهام» اصطاد قيُّوطًا منذ عامين، وهناك قطيع من الكلاب البرية تصطاد الغزلان و...

قال الغريب في ازدراء:

- كلاب... حيوانات دنيئة تعوي وتتلوى عند سماع خطوات غريبة، لا تنفع في شيء سوى التذلل والانبطاح. أخرج أحشاءهم جميعًا، أخرج أحشاءهم!

قال «دَد» وهو يتراجع خلفًا دون تفكير:

- لم أفكر في الأمر على هذا النحو. من الرائع أن يأتي أحد إلى هنا، و... أنت تعرف، يرى ما لدينا. لكن المستودع يُغلق في الساعة السادسة أيام الأحد، والساعة الآن جاوزت التاسعة.

- أفهم.

لكن الغريب لم يبدُ عليه أي نية للرحيل. فكَّر «دَد» في أنه قد سبق باقي البلدة وقابل المدعو «ستراكر»، فيما عدا طبعًا أن «لاري كروكيت» كان أول من قابله. في المرة القادمة التي ينزل فيها إلى البلدة ليشتري الطلقات من «جورج مِدلر» سيقول بشكل معتاد: لقد قابلت الرجل إياه الليلة الماضية. الرجل الذي اشترى منزل «مارستِن». شخص لطيف، يتحدث كالبوهيميين.

سأل الغريب حين لم يبدُ عليه أنه سيحرك مؤخرته من هنا:

- هل هناك أشباح في المنزل القديم؟

- أشباح!

قالها العجوز وابتسم، وكان هناك شيء مزعج للغاية في ابتسامته. ربما تبتسم سمكة الـ «باراكودا» المتوحشة على هذا النحو. أردف:

- كلا، لا يوجد أشباح.

قالها مؤكدًا بخفَّة على الكلمة الأخيرة، وكأنه يعني أن هناك ما هو أسوأ -ربما- من الأشباح.

- حسنًا. الوقت يتأخر، وربما يجب أن تعود إلى بيتك الآن يا سيد...

- لكنني مسرور للغاية بالحديث معك.

للمرة الأولى أدار وجهه بالكامل ليواجه «دَد» وينظر إلى عينيه. كانت عيناه واسعتين مُتقدتين، ولم يكن سبيل للهرب منهما، على الرغم من أن التحديق ليس من الذوق.

- هل تمانع لو تحدثنا أطول؟

- كلا، لا أعتقد أنني أمانع.

قالها «دَد» وبدا له صوته بعيدًا. تلك العينان تتسعان، تمتدان كحفرتين مظلمتين تحيطهما النيران، حفرتين ربما تسقط فيهما فتغرق.

- أشكرك. أخبرني، هل حدبة ظهرك تُعطلك عن مهام عملك؟

- كلا.

ما زال يشعر أن صوته بعيد. فكَّر: أقطع ذراعي إن لم يكن هذا الرجل نوَّمني مغناطيسيًّا، مثل الحاوي في احتفالات «توبشام»... ماذا كان اسمه؟ السيد «ميفستو». يجبرك على النوم ثم القيام بمُختلف الأفعال المُضحكة؛ تتصرف كدجاجة، أو تهرول ككلب، أو تحكي عما حدث في يوم عيد مولدك السادس. لقد نوَّم العجوز «ريجي سوير». إلهي، لكَم ضحكنا!

- هل يزعجك بأي شكل؟
- كلا. حسنًا.
ظل ينظر إلى عيني الغريب مأخوذًا. تهادى صوته وهو يردد:
- لا عليك. نحن صديقان الآن، أليس كذلك؟ حدِّثني... أخبرني.
- حسنًا، الفتيات... أنت تعرف، الفتيات...
قال العجوز مُهدئًا:
- بالطبع. تسخر الفتيات منك، أليس كذلك؟ لا يعرفن شيئًا عن رجولتك... عن قوتك.
همس «دَد»:
- هذا صحيح. يسخرن مني. تسخر مني.
- ومن تكون؟
- «رَثي كروكيت». هي... هي...
طارت الفكرة بعيدًا. لم يعد شيء يهم إلا حالة السلام التي يشعر بها الآن. السلام البارد التام.
- ربما تنسج عنك النِّكات؟ تلكز صديقاتها عندما تعبر أمامهن؟
- أجل.
قال في إصرار:
- لكنك تشتهيها، أم أنا مخطئ؟
- أوه، أجل...
- ستحصل عليها. واثق أنا من ذلك.

ثمة شيء... سارٌّ في كل هذا. يسمع أصواتًا جميلة تغني كلمات بذيئة. أجراس فضية، وجوه بيضاء، صوت «رَثي كروكيت». يكاد يراها...

الأمر أشبه بالغرق، الغرق في عيني الرجل المحاطتين بالأحمر.

اقترب الغريب، فهم «دَد» كل شيء ورحَّب به، وحين جاء الألم، كان عذبًا كالفضة، أخضر كلون الماء الهادئ العميق.

***

يداه ترتجفان، وبدلًا من أن يمسك بالزجاجة، أسقطها عن المكتب وهوت على البساط مُصدرة صوت ارتطام ثقيلًا، وبدأ الخمر الثمين يتدفق منها على الأرض.
- اللعنة.

قالها الأب «دونالد كالاهان»، وانحنى يلتقطها قبل أن تفرغ، ولم يكن فيها الكثير من الأساس. وضعها على المكتب بما تبقى فيها بعيدًا عن الحافة، ثم ذهب إلى المطبخ بحثًا عن خرقة تحت الحوض وزجاجة السائل المُنظِّف. لا يصح أن يدع السيدة «كُرليس» ترى بُقعة من الخمر المسكوب جوار مكتبه. نظراتها المشفقة الطيبة كانت فوق احتماله مع كل صباح تراه فيه مُتعَبًا.

تعاني صداع الثمالة، هذا ما تعنيه.

أجل، صداع الثمالة، ممتاز. لنتصارح هنا، فالحقيقة ستحررك. لنطالب بالحقيقة.

وجد زجاجة مكتوب عليها «إي- فاب»، ذكَّره وقع الاسم بعبارة: الارتجاع العنيف.

(إي- فاب يقتل العجوز السِّكير الذي يتغوَّط في ملابسه ويقيء غداءه). أخذ الزجاجة وعاد بها إلى مكتبه. لم يكن يترنَّح على الإطلاق، تقريبًا. راقب أيها الضابط، سأسير على الخط الأبيض كي أثبت لك أنني لستُ ثملًا.

«كالاهان» كان في الثالثة والخمسين، ذو شعر فضي وعينين زرقاوين (يشوبهما احمرار) محاطتين بتجاعيد الضحك التي تُميز الآيرلنديين. شفتاه حادتان، ذقنه المشقوقة حازمة. في بعض الأيام، حين ينظر إلى نفسه في المرآة، يفكر في أنه حين يبلغ السبعين، سيترك العمل الكنسي ويرحل إلى هوليود ليؤدي دور الممثل «سبنسر ترايسي».[23]

غمغم:

- أيها الأب «فلاناجان»، أين أنت حين نحتاج إليك؟

ظل يرددها وهو مشغول بالبقعة. ضيَّق عينيه محاولًا قراءة تعليمات الاستخدام على ظهر الزجاجة، ثم صب ملء غطاءين من المُنظف فوق البقعة. فابيضَّت فورًا وبدأت تفور. راقب «كالاهان» ما يحدث في قلق، وعاد ليقرأ التعليمات مرة أخرى.

- مخصص للبقع العنيدة.

قرأ المكتوب بصوته الغني العالي، الذي كان سببًا في الترحيب به في الإبرشية بعد رحيل الأب «هيوم» المسكين ذي طاقم الأسنان دائم الاصطكاك.

- اترك المُنظف ليعمل من سبع إلى عشر دقائق.

قام ليقف جوار نافذة المكتب، المُطلة على شارع «إلم»، وكنيسة القديس «آندرو» عند الناصية البعيدة.

ممتاز... ممتاز... هأنذا في ليلة الأحد، ثملًا مرة أخرى.

باركني يا أبتاه لأنني أخطأت.

في الليالي الطويلة المُنعزلة، يعمل الأب «كالاهان» على تدوين ملاحظاته، وقد عكف على تدوينها لسبعة أعوام بغرض كتابة كتاب عن الكنيسة الكاثوليكية في «نيو إنجلند»، لكن تراوده الشكوك من آن لآخر أنه لن ينتهي من هذا الكتب أبدًا. كحقيقة مُجردة، فتلك الملاحظات ومشكلاته مع الكحول قد بدآ معًا. سفر التكوين1:1 «في البدء كان الخمر، ثم قال الأب «كلاهان»، لتكن الملاحظات».

لو أنك انغمست في العمل وتمهَّلت فيه، فلن تُدرك زيادة إحساسك بالسُّكر، وستدرِّب يديك ألا تنتبه لانخفاض وزن زجاجة الخمر.

لقد مر يوم منذ آخر اعتراف لي.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف، وبالنظر عبر النافذة لم يرَ سوى الظلام المُتجانس، لا يقطعه سوى ضوء أعمدة الإنارة أمام الكنيسة. في أي لحظة قد يظهر الممثل «فريد استير»[24] ويرقص حولها وهو يرتدي قبعة وسترة طويلة الذيل وينتعل حذاءين أبيضين. سيقابل «جِنجر روجرز»[25] وسيرقصان على أنغام أغنية (سيساعدني سائل «إي- فاب» على تخطي أحزاني مرة أخرى).

أسند جبهته إلى النافذة، سامحًا للوجه المليح -الذي كان سبب لعنته بشكلٍ ما- أن ترتخي ملامحه المُشتَّتة المُضجَرة.

أنا سكِّير، وأنا قس فاشل يا أبتاه.

أغمض عينيه ورأى ظُلمة حجيرة الاعتراف، شعر بأصابعه تتحرك نحو النافذة وتغلق الستار على أسرار القلب البشري. شمَّ رائحتي الورنيش والمِخمل القديم المُنبعثتين من مُتكئات الركوع، شمَّ رائحة العجائز، واستطاع أن يُميز طعمًا قلويًّا في لعابه.

باركني يا أبتاه...

(لقد عطَّلت سيارة أخي، ضربت زوجتي، تلصصت عبر نافذة السيدة «سوير» ورأيتها تُغير ملابسها. كذبت، غششت، راودتني أفكارٌ شَبِقة...).

... لأنني أخطأت.

فتح عينيه، ولم يكن «فريد أستير» قد ظهر بعد. ربما عند منتصف الليل. البلدة نائمة فيما عدا...

نظر إلى أعلى. أجل، الأنوار مُضاءة هناك بالأعلى.

فكَّر في ابنة «بُوي» -هي الآن السيدة «مَكدوجال»- وهي تخبره بصوت مرتجف أنها ضربت ابنها، وحين سألها كم مرة ضربتِه من قبل، كاد يقسم أنه يسمع صوت تروس عقلها تدور، وتحيل عشرات المرات إلى خمس مرات، أو ربما مائة مرة إلى بضع مرات. كلها أعذار بائسة. كان قد عمَّد الطفل «راندال فراتوس مَكدوجال». تخيَّل الرضيع جالسًا في المقعد الخلفي لشاحنة والده «رويس مَكدوجال». شيء صغير باكٍ. تساءل إن كانت قد خمَّنت أو عرفت برغبته في مد يديه عبر نافذة حجيرة الاعتراف وجذب تلك الروح على الجهة الأخرى، بينما ترفرف سيخنقها ويضغطها حتى تصرخ. سيحكم عليها بضرب رأسها إلى الحائط ست مرات مع ركلة مُؤخرة مُعتبرة. اغربي عني ولا تُخطئي ثانية!

قال:

- ملل.

ولم يكن سوى الملل في هذا الحوار. لم يكن هو نفسه ما أثار اشمئزازه، أو ما دفعه للنادي الآخذ في التوسُّع؛ رابطة الكهنة الكاثوليك أصحاب الزجاجة، وفرسان ويسكي «كَتي سارك». ما دفعه للجنون هو مُحرك الكنيسة الثابت الميت، المُحمَّل بكل هذه الخطايا البائسة، وعليه أن يصل بها إلى بوابة الفردوس.

ما دفعه للجنون هو تعريف الكنيسة للشيطان بكونه شرًّا مُجتمعيًّا خالصًا، بينما وجود الشيطان الحقيقي في حجيرات الاعتراف، ملموس كرائحة المخمل القديم، لكنه كان شرًّا شيطانيًّا بلا عقل، لا مفر منه ولا تأجيل؛ لكمة وجه الرضيع، قطع إطار سيارة بمطواة، دس أمواس داخل تفاح عيد القديسين، التأهيل الممسوخ المستمر للعقل البشري بكل متاهاته للقيء الفكري ثم المُضي قُدُمًا. أيها السادة، تحسين السجون سيُصلح كل هذا، تحسين وكالات الخدمات المُجتمعية، تحسين حبوب منع الحمل، تحسين تقنيات التعقيم، تحسين عمليات الإجهاض. أيها السادة، إن انتزعنا هذا الجنين من الرحم ككتلة دموية مشوَّهة الأطراف، فلن يكبُر ليضرب سيدة مسنة بمطرقة حتى الموت. أيتها السيدات، لو أننا ربطنا هذا الرجل إلى كرسي عجيب، وشويناه صعقًا بالكهرباء كاللحم في

الميكروويف، فلن تتسنى له فرصة أخرى لتعذيب الأطفال حتى الموت. أيها الريفيون، لو تناولتم أقراص تحديد النسل هذه، فسنضمن لكم...

اللعنة

حقيقة حالته صارت أوضح بالنسبة إليه منذ فترة، ربما منذ ثلاثة أعوام. صارت مُحدَّدة كأنها صورة أُعيد ضبط نقطة التركيز فيها، كل تفصيلة فيها صارت أكثر حدةً. كان يسعى لخلق تحدٍّ. الرهبان الجدد لديهم تحدياتهم؛ التمييز العرقي، تحرير المرأة، أو حتى تحرير اللوطيين، الفقر، الجنون، مخالفة القانون... كل تلك الأمور لا تُشعِره براحة، والراهب الوحيد المُهتم بالشؤون المجتمعية الذي شعر معه بألفة كان مُعارضًا قويًّا لحرب فايتنام. والآن وقد عفا الزمن على قضيتهما، صارا يجلسان معًا يناقشان المسيرات والتظاهرات كزوجين عجوزين يناقشان أيام بداية زواجهما أو أول رحلة لهما بالقطار. لكن لم يكن «كالاهان» كاهنًا قديمًا ولا جديدًا، لقد وجد نفسه يلعب دور المُتمسك بالتقاليد، غير القادر على الوثوق في مُسلَّماته الأساسية. كان يطمح إلى قيادة فصيلة من جيش... مَن؟ الرب، الله، الإله؟ كلها مُسميات لنفس الذات، في حرب ضد الشيطان. كان يطمح إلى خطط وتعقيدات، ولا يأبه بالوقوف خارج المتاجر وتوزيع منشورات تدعو لمقاطعة الخس، أو الإضراب عن العنب. يريد أن يرى الشيطان بكل مراسم خديعته يُنحَّى جانبًا، بوجه ظاهر القسمات. كان يحلم بأن يقف للشيطان رأسًا برأس، مثل الملاكم محمد علي أمام «جو فريزر»، أو مثل السِّلت أمام النِّكس، أو مثل يعقوب أمام الملاك. يريد أن يكون هذا الصراع نقيًّا بعيدًا عن السياسة التي تمتطي ظهر أي قضية اجتماعية وتلتصق بها كتوأم سيامي.

كان هذا حلمه منذ أن صار كاهنًا، وقد جاءته الفرصة في سن الرابعة عشرة، حين كان مهووسًا بقصة القديس «ستيڤن»، أول شهيد مسيحي، والذي رُجِم حتى الموت. الجنة بالنسبة إليه لا تُضاهي بريق المعارك، وربما الهلاك في خدمة الرب.

لكن لم تكن ثمة معارك، فقط بعض المناوشات بلا نتائج واضحة. لكن للشيطان أوجُهًا عديدة، وكلها فارغة مألوفة كذقن مجذوب تلمع باللُّعاب. في الحقيقة هو مُجبَر على استنتاج أنه لا شياطين في العالم على الإطلاق، بل مُجرد شر. في لحظاتٍ كهذه يشُك أن «هِتلر» لم يكن سوى بيروقراطي غاضب، بل وأن إبليس نفسه يعاني تخلُّفًا عقليًّا وحس فُكاهة بدائيًّا من النوع الذي يدُس المُفرقعات النارية في أرغفة الخبز ويُطعمها للنوارس، ويجد فعلًا كهذا ممتعًا للغاية.

المعارك الاجتماعية والأخلاقية والروحية العظمى التي خاضتها أجيال سابقة، اختُزِلَت إلى صفع الأمهات لأبنائهن في الخفاء، وسيكبُر أطفالهن ليصفعوا أبناءهم في الخفاء. هي حلقةٌ مُفرغة، والشكر لله على زبدة الفول السوداني الخشنة، والسلام لكِ يا مريم، لتساعديني في ربح سباق السيارات.

أجل، الأمر أكبر بكثير من كونه مُملًّا، كفى بنتائجه المُفزِعة على أصعدة الحياة كافة، وربما الآخرة كذلك. تُرى ماذا في الجنة؟ نعيم أبدي من لعبة البينجو؟ ملاهٍ؟ مضمار سباق سماوي؟

نظر نحو ساعة الحائط، الساعة تجاوزت منتصف الليل بست دقائق ولا أثر لـ «فريد أستير» و«جِنجر روجرز»، ولا حتى «ميكي رُوني». لكن كان يجب أن يمنح سائل التنظيف فرصته. الآن سيكنُس القشرة التي تكوَّنت على البساط، ولن تنظر إليه السيدة «كُرليس» نظرة الشفقة هذه، وستستمر الحياة... آمين.

سبنسر بونافينشر تريسي- ممثل أمريكي وأحد نجوم العصر الذهبي في هوليود.
فريد أستير راقص وممثل ومغنٍّ أمريكية.
جينجر روجرز راقصة وممثلة أميركية شاركت فريد أستير في عشرة أفلام.

الفصل السابع

«مات»

يوم الثلاثاء، بعد نهاية الحصة الثالثة، اتجه «مات» إلى المكتب، وكان «بِن ميرز» في انتظاره هناك.

هتف «مات»:

- مرحبًا! وصلت مُبكرًا.

وقف «بِن» وصافحه وهو يقول:

- لعنة عائلية هي على ما أعتقد. قلتَ إن أولئك الأولاد لن يلتهموني، أليس كذلك؟

أجاب «مات»:

- بالتأكيد، تعالَ معي.

كان مُتفاجئًا إلى حدٍّ ما. «بِن» كان يرتدي سُترة رياضية أنيقة، وبنطالًا رماديًّا مُزدوِج النسيج، وينتعل حذاءين لا يبدو عليهما أثر الاستهلاك. كان «مات» قد استضاف عددًا من الأدباء في فصله، وكانوا يرتدون أزياءً مُختلفة، إما عادية أو عجيبة للغاية. منذ عام قابَل شاعرة في ندوة لإلقاء الشعر في جامعة «مَين» بـ «بورتلاند»، وسألها إن كان من الممكن أن تقبل إلقاء محاضرة لطلبة فصله عن الشعر. لبَّت دعوته مُرتدية بنطالًا يصل طوله إلى منتصف قصبة الساق، ومُنتعلة حذاءً ذا كعب عالٍ. بدت له كأنها تقول دون وعي: انظروا إلي، فقد ضربت النظام في مقتل، وها أنا آتي وأرحل كالريح.

ازداد إعجابه بِـ «بن» مقارنة بشعوره تجاهه سابقًا. بعد نيف وثلاثين عامًا في مهنة التدريس، أيقن أنه لا أحد يهزم النظام، فقط الفشَلَة هم من يظنون أنهم مُتفوقون.

بينما يسيران في الرواق، راح «بِن» ينظر حوله ويقول:

- مبنى جميل. يختلف كثيرًا عن مدرستي الثانوية حيث كانت أغلب النوافذ تبدو كثغرات لا أكثر.

قال «مات»:

- هذا هو خطؤك الأول. لا يمكن أن تُطلق على المكان لفظة مبنى، بل هو كوكب. السُّبورات ما هي إلا (مُعينات بصرية)، وما الطلبة إلا (جسد واحد مُتجانس مؤلف من شباب في منتصف سن المراهقة).

قال «بِن» باسمًا:

- يبدو هذا رائعًا.

- أليس كذلك؟ هل درست في الجامعة يا «بِن»؟

- حاولتُ دراسة الآداب، لكن يبدو أن الجميع كانوا يلعبون ذات اللعبة، لعبة اصطياد السُّمعة الدراسية لكسب محبة وثقة القرَّاء. لكنني كذلك فشلت. حين بيعت روايتي (ابنة كونويل) كنت أعمل

في تحميل صناديق المُرطبات في الشاحنات.

- أخبر الأولاد بهذا، فهو مُهم.

سأله «بن»:

- هل تُحب التدريس؟

- بالتأكيد أحبه. دون تلك المحبة كنت سأفشل منذ أربعين عامًا.

رنَّ الجرس، وصدح صوته العالي في الممر الخالي إلا من تلميذ يتسكع ببطء تحت لافتة على شكل سهمٍ ملون تحمل عبارة (ورشة النجارة).

سأل «بِن»:

- ما هو وضع المخدرات هنا؟

- من كل نوع. مثلنا مثل أي مدرسة في «أمريكا»، لكن مشكلتنا الأكبر في الخمور أكثر من أي شيء آخر.

- ليست الماريجوانا؟

- لا أعُدُّ الماريجوانا مشكلة، ولا تعُدُّها الإدارة كذلك أيضًا. تأثيرها لا يتعدى خلق بعض المشكلات التافهة. أنا جربتها بنفسي. التأثير لطيف، لكنها تصيبني بالحموضة.

- جربتَها؟

قال «مات»:

- ششش... الأخ الأكبر يراقب كل شيء هنا، هذا بالإضافة إلى أننا وصلنا إلى فصلي.

- إلهي!

قال «مات» وهو يقوده إلى الداخل:

- لا تتوتر. صباح الخير يا جماعة...

قالها للعشرين طالب الجالسين يرمقون «بِن» ويتفحصونه. أردف:

- هذا هو السيد «بِن ميرز».

***

في البداية ظن «بِن» أنه ضل الطريق إلى المنزل.

حين دعاه «مات بُرك» للعشاء، كان مُتأكدًا أن الرجل قال إن منزله هو المنزل الرمادي الصغير، لكنه الآن يسمع موسيقى الـ «روك آند رول» تصدح من هذا المنزل.

طرق الباب مُستخدمًا المطرقة الصغيرة النحاسية، لكنه لم يجد ردًّا، فطرق مرةً أخرى. هذه المرة سمع صوت الموسيقى ينخفض، وصوت «مات» يصيح:

- الباب مفتوح، تفضَّل!

دخل ناظرًا حوله في فضول. يُفضي الباب الأمامي مباشرة إلى حجرة معيشة صغيرة، مفروشة بأثاث مُستعمَل يتوسطه تلفاز «موتورولا» عتيق، وينبعث صوت الموسيقى من سماعات رباعية موصولة بنظام صوتي ممتاز.

خرج «مات» من المطبخ مُرتديًا حول خصره مِئْزَرًا ذا مربعات باللونين الأحمر والأبيض، تتبعه رائحة صلصة المكرونة.

قال «مات»:

- آسف بشأن الضوضاء. لدي مشكلة في السمع فأضطر إلى رفع الصوت.

- اختيار جيد للموسيقى.

- لطالما كنت مغرمًا بموسيقى الروك، منذ أيام «بَدي هولي». موسيقى مُحبَّبة إلى النفس. هل أنت جائع؟

- أجل. شكرًا مرة أخرى لدعوتك. لقد أكلت منذ وصولي إلى بلدة «سالم» أكثر من مجموع ما أكلته في الخمس سنوات الماضية.

- هي بلدة حميمة. أتمنى ألا تُمانع الأكل في المطبخ. جاءني تاجر عاديات من شهرين وعرض عليَّ مائتي دولار مقابل طاولة العشاء، ولم أشترِ واحدة غيرها.

- لا عليك، أنا مُحبٌّ للأكل في المطبخ، مُنحدِر من سُلالة تحب الأكل في المطبخ.

كان المطبخ مُرتبًا إلى درجة مُقبِضة. فوق الموقد ذي الشعلات الأربع وعاءٌ تغلي فيه صلصلة المكرونة، جواره وعاء آخر يحوي الإسباجيتي. ثمة منضدة صغيرة فوقها طبقان غير متشابهين وكوبان مطبوع عليهما صور شخصيات كرتونية ترقص حول الحافة... أكواب تقديم الهلام! ابتسم «بِن» وقد تهاوى آخر حاجز بينه وبين «مات» كغريب، وبدأ يشعر أنه في بيته.

قال «مات» وهو يشير:

- لدي خمر «بوربون»، و«رِي»، و«فودكا» في الخزانة أعلى الحَوض. ثمة مثلجات في البرَّاد. أخشى أنني لم أحضِر لك شيئًا مُميزًا.

- الـ «بوربون» وكوب مياه. هذا كل ما أريد.

- اذهب وأحضرهما بنفسك ريثما أجهِّز هذه الخلطة الفوضوية.

قال «بِن» وهو يصُب مشروبه:

- أحببتُ طَلَبتك، يسألون أسئلة ممتازة. صعبة، لكنها ممتازة.

- مثل سؤال: من أين تحصل على إلهام؟

قالها «مات» وهو يُقلد طريقة كلام «رَثي كروكيت» التي تفتعل الطفولة.

- يا لها من فتاة!

- فعلًا. هناك زجاجة بيرة في صندوق الثلج خلف قطع الأناناس. هي لك.

- ما كان عليكَ أن تحضر شيئًا.

- أوه، مهلًا يا «بِن». المرء لا يقابل كاتبًا من ضمن الأكثر مبيعًا في البلدة كل يوم.

- هذه مُبالغة.

أنهى باقي مشروبه، ثم أخذ طبق الإسباجيتِّي من «مات»، وصبَّ عليه الصلصة، ثم راح يبرُم فيه الشوكة ويسندها إلى الملعقة.

- «مامَّا ميا»! إلهي، رائعة!

- بالتأكيد!

نظر «بِن» إلى طبقِه الذي خلا بسرعةٍ رهيبة. مسح فمه شاعرًا ببعض الذنب.

- هل تريد المزيد؟

- نصف طبقٍ لو سمحت. المكرونة رائعة.

جاءه «مات» بطبقٍ كامل وهو يقول:

- لو لم نأكلها سيأكلها قطي. وزنه عشرون رطلًا وما زال يتبختَر نحو طبقه راغبًا في الطعام.

- إلهي، كيف لم أره؟

ابتسم «مات» مُجيبًا:

- هو في جولة. هل كتابك الجديد رواية؟

- شيء خيالي نوعًا. كي أكون أمينًا معك، أنا أكتبها من أجل المال. الأدب رائع، لكنني أرغب ولو لمرة واحدة في الاستفادة المادية منه.

- وهل لديك خُطة؟

- ليست واضحة حتى الآن.

قال «مات»:

- لننتقل إلى حجرة المعيشة. حشو المقاعد مُتكتِّل لكنه أفضل حالًا من مقعد المطبخ المخيف. هل معك ما يكفي من الطعام؟

في حجرة المعيشة، وضع «مات» أمامهما كومة من الألبومات الموسيقية، ثم انشغل في إشعال غليون ضخم. حين انتهى من إشعاله وجلس وسط سحابة الدُّخان، نظر نحو «بِن» وقال:

- لا يمكنك رؤيته من هنا.

نظر «بِن» حوله بحدة مُتسائلًا:

- ماذا؟

- منزل «مارستِن». أراهن أن هذا ما كنت تبحث عنه.

ضحك «بِن» في توتر وقال:

- لا داعي للرهان.

- أتدور قصتك في بلدة مُشابهة لبلدة «سالم»؟

أومأ «بِن» وقال:

- بلدة مشابهة وأناس مشابهون. ثمة سلسلة من الجرائم الجنسية والتشويه. سأبدأ بواحدة منها وأصفها تدريجيًّا عبر الأحداث من البداية إلى النهاية. سأدُس أنف القارئ فيها. كنت أخطط لهذا الجزء حين اختفى «رالفي جليك»، مما أشعرني بـ... حسنًا، أشعرني بالتردد.

- هل بنيت كل هذا على حوادث الاختفاء التي وقعت في البلدة في فترة الثلاثينيات؟

نظر إليه «بِن» مُدقِّقًا وسأله:

- أنت تعرف هذه الجرائم؟

- أوه، بالطبع. الكثير من السكان العجائز يربطون بين ما يحدث وبين الحوادث القديمة أيضًا. لم أكن في البلدة وقتها، لكن «مَيبل وُرتس» و«ميلت كروسِن» و«جلينز مَيبيري» عاصروها واستنتجوا الرابط.

- أي رابط؟

- مهلًا يا «بِن»... الرابط واضح، أليس كذلك؟

- أعتقد هذا. في آخر مرة سكن أحدهم المنزل، اختفى أربعة أطفال على مدار عشر سنوات. والآن هو مسكون بعد ستة وثلاثين عامًا، وها قد اختفى «رالفي جليك».

- هل تظنها مُصادفةً؟

قال «بِن» بحذر وكلام «سوزان» يتردد في عقله:

- أعتقد هذا. لكنها مصادفة غريبة. لقد تحققتُ من إصدارات الجريدة المحلية بين عامي 1939 و1970 كي أجري مقارنة. ثلاثة أطفال اختفوا، واحد منهم عرفوا أنه قد هرب ووجدوه يعمل في «بوسطن»، كان في السادسة عشرة ويبدو أكبر من سنِّه. واحد آخر انتشلوه من الماء بعد شهر من اختفائه، والأخير غالبًا كان ضحية حادث دهس، وُجد مدفونًا على جانب طريق 116 في «جيتس». كلها اختفاءات مُفسَّرة.

- ربما سيفسرون اختفاء ابن «جليك» كذلك.

- ربما.

- لكنك لا تظن هذا. ماذا تعرف عن هذا الرجل؛ «ستراكر»؟

- لا شيء على الإطلاق. لستُ واثقًا حتى من أنني قابلته. لدي كتاب أكتبه الآن، وله صلة بمنزل «مارستِن» وبسكَّانه. التأكد من أن «ستراكر» مجرد رجل أعمال عادي سيُفسِد ما بنيته من أحداث.

- لا أظن أن هذا ما سيحدث. لقد افتتح متجره الجديد اليوم، أنت تعرف. «سوزي نورتون» وأمها مرَّا عليه، أتفهم هذا... اللعنة! معظم نساء البلدة ذهبن لإلقاء نظرة تروي فضولهن. بحسب كلام «ديل ماركي»، وهو مصدر معلومات لا تشوبه شائبة، إن «مَيبل وُرتس» كذلك قد ذهبت. من المفترض أن الرجل مذهل، أنيق للغاية، كريم جدًّا، أصلع تمامًا، ساحر. قيل لي إنه قد باع بعض القطع فعلًا.

ابتسم «بِن» وقال:

- رائع. هل رأى أحد نصفه الآخر؟

- من المفترض أنه في رحلة عمل.

- ولماذا من المُفترَض؟

هز «مات» كتفيه وقال:

- لا أعرف. كل شيء على الأغلب مضبوط للغاية، لكن المنزل يثير قلقي. وكأنهما تعمَّدا البحث عنه. كما قلت أنت، هو كالصنم الجاثم فوق التل.

أومأ «بِن»، فأردف «مات»:

- وجاثم فوق كل شيءٍ آخر. لدينا حادث اختفاء، ثم ما حدث لـ «داني جليك»، لقد مات في الثانية عشرة من عمره بسبب فقر الدم الخبيث.

- وما الغريب في ذلك؟ هذا شيء مؤسف بالطبع، لكن...

- طبيبي المُعالج شاب يُدعى «جيمي كودي» يا «بِن». كنت أدرِّس له في المدرسة، وهو طبيب ممتاز الآن. لكن لتعُد أن ما أقوله مجرد ثرثرة.

- اتفقنا.

- كنت لديه لإجراء فحص دوري، ودار بيننا حديث عن ابن «جليك»، وموته المُفجِع الذي زاد كرب أبيه وأمه بعد اختفاء الولد الصغير. قال «جيمي» إنه تشاور مع «جورج جوربي» بشأن الحالة. كان الصبي مصابًا بفقر الدم، هذا صحيح، وقال إن نسبة الخلايا الحمراء لمن في سنة تكون بين خمس وثمانين إلى تسعين بالمائة. نسبة «داني» كانت خمسًا وأربعين بالمائة.

صاح «بِن»:

- إلهي!

- أعطوه فيتامين ب12 بالحَقن، وكبد عجل، وبدا أنه في تحسُّن. كانوا سيُخرِجونه في اليوم التالي، ثم فجأة، سقط ميتًا.

قال «بِن»:

- لا نريد أن تعرف «مَيبل وُرتس» هذه المعلومات. ما يخطر على بالها هم السكان الأصليون بسِهامهم الصغيرة المُسمَّمة.

- لم أخبر أحدًا بشيء سواك، ولا أنتوي أن أفعل. بالمناسبة يا «بِن»، لو كنت مكانك لأبقيت موضوع كتابي سرًّا، ولو سألتك «وريتا ستارشر» أخبرها بأنك تكتب عن الهندسة المعمارية.

- سمعت هذه النصيحة من قبل.

- من «سوزان نورتون» بلا شك.

نظر «بِن» إلى ساعته وقام هاتفًا:

- على ذِكر «سوزان»...

- ها هو الذَّكر المُغازل يستعد للتزاوج. بينما أنت مع «سوزان»، سأكون أنا في المدرسة أحضِّر الفصل الثالث من مسرحية كوميدية ذات بُعد اجتماعي اسمها: (مُعضلة تشارلي).

- وما المُعضلة؟

قال «مات» ضاحكًا:

- البثور!

مشيا حتى الباب معًا، توقَّف «مات» ليلتقط سترة المدرسة الباهتة، ولاحظ «بِن» أن جسده أقرب لجسد مُدرب رياضي متقاعد منه لمُدرس لغة إنجليزية، إذا ما تغاضيت بالطبع عن وجهه الحالم الذكي البريء إلى حدٍّ بعيد.

قال «مات» وهما يخطوان خارج المنزل:

- ماذا لديك مساء الجمعة؟

- لا أعرف. أظنني و«سوزان» سنذهب إلى السينما. هذا ما يمكننا فعله هنا.

- أفكر في شيء آخر. ربما يمكننا أن نُشكِّل لجنة ثلاثية ونصعد إلى منزل «مارستِن» فنُقدِّم أنفسنا للسكان الجدد، نيابة عن باقي البلدة.

- بالطبع ستبدو هذه مجاملة عادية.
وافقه «مات» قائلًا:
- ترحيب تقليدي قديم.
- سأطرح الأمر على «سوزان» الليلة، أعتقد أنها ستوافق.
- جيد.
رفع «مات» كفه ملوِّحًا بينما سيارة «بِن» الـ «ستروين» تبتعد. توقَّف «بِن» مرتين ردًّا للتحية، ثم انطلق فاختفت الأضواء الخلفية للسيارة خلف التل.
ظل «مات» واقفًا عند عتبة داره لدقيقة كاملة حتى اختفى صوت السيارة، كفَّاه مُندسَّتان في جيبي سترته، عيناه تستديران نحو المنزل عند قمة التل.

***

لم يكن لديه تدريب على المسرحية ليلة الخميس، فقاد «مات» سيارته في التاسعة إلى حانة «ديل» ليجرع زجاجتين أو ثلاثًا من البيرة. ما لم يصفه الطبيب الأحمق «جيمي كودي» للأرق الذي يعانيه، فسيصفه لنفسه.
حانة «ديل» تكون شبه خاوية في الليالي التي لا يعزف فيها فريق موسيقي. وجد «مات» ثلاثة أشخاص يعرفهم فقط: «ويزل كريج» يحتسي البيرة في ركن، و«فلويد تِبتس» مُتعكر المزاج (وكان قد تحدَّث إلى «سوزان» ثلاث مرات الأسبوع الماضي، مرتان عبر الهاتف، ومرة في حجرة المعيشة في منزلها، ولم تسِر أي من تلك النقاشات بشكل جيد)، و«مايك ريرسون» الذي كان يجلس في كابينة بعيدة ووجهه للحائط.
سار «مات» نحو المشرب، حيث يقف «ديل ماركي» يُلمِّع الأكواب ويشاهد فيلمًا في التلفاز الصغير. قال له:
- أهلًا يا «مات». كيف الحال؟
- معقول. ليلة بطيئة.
ضحك «ديل» وقال:
- أجل. يعرضون فيلمين من أفلام المطاردات في السينما في «جيتس». لا يمكنني منافسة ذلك. أتريد كوبًا أم إبريقًا؟
- ليكن إبريقًا.
صب «ديل» البيرة، وأزال الرغوة، ثم أضاف بوصتين أخريين من السائل. دفع له «مات» ثمن الإبريق، وبعد دقيقة تردُّد سار نحو الكابينة حيث يجلس «مايك». مثله مثل باقي الناس في البلدة، حضر «مايك» دروس اللغة الإنجليزية مع «مات»، وقد استمتع الأخير بصحبته. كان ذكاؤه متوسطًا، لكنه استطاع أن يصل إلى نتائج فوق المتوسطة في المدرسة لأنه كان يذاكر بكَدٍّ، ويسأل كثيرًا عما لا يفهمه حتى يفهم. بالإضافة إلى ذلك، فلديه حس فكاهة نقي متدفق، مع مسحة من التفرُّد جعلته المفضل لدى زملائه.

- مرحبًا يا «مايك». هل تمانع لو انضممت إليك؟

نظر «مايك» نحوه، فشعر «مات» بالهول يضربه، كان الشاب كسلكٍ عارٍ متوتر، وأول ما خطر ببال «مات»: المخدرات.

قال «مايك» بصوت فاتر:

- بالطبع يا سيد «بُرك». اجلس.

بشرته شاحبة للغاية، مع هالات داكنة تحيط عينيه المُتسعتين المحمومتين، يداه تتحركان ببطء عبر الطاولة كشبح، وكوب من البيرة لم يُمَس أمامه.

سأله «مات» وهو يصُب لنفسه كوبًا من البيرة:

- كيف حالك يا «مايك»؟

حاول «مات» أن يسيطر على رجفة يديه قدر الإمكان. لطالما كانت حياته متوازنة، رسم بياني بنقاط صعود وهبوط متقاربة (فيما عدا الهبوط العنيف وقت وفاة زوجته منذ ثلاثة عشر عامًا)، وواحد مما يُعكر استقرار حياته هي تلك المشكلات التي تطرأ على تلامذته. توفي «بيلي رويكو» في فايتنام في حادث تصادم مروحية قبل شهرين من وقف إطلاق النار. «سالي جرير» -واحدة من أنبه تلامذته- قتلها حبيبها المخمور حين طلبت منه الانفصال. أخو «بَدي مايبري»، «دوج»، الفتى الوحيد الطيب في هذه العائلة، غرق في شاطئ «أولد أوركارد». ثم المخدرات، الموتُ الأصغر. ليس كل من حام حولها غاص فيها، لكن هناك عددًا يكفي ممن لن يعودوا من أغوارها.

سأل «مايك» ببطء:

- أحوالي؟ لا أعرف يا سيد «بُرك». لستُ على ما يرام.

سأل «مات» برفق:

- ما نوع الخراء الذي غُرستَ فيه يا «مايك»؟

نظر إليه «مايك»، ولم يفهم. فسَّر له «مات»:

- ماريجوانا؟ أم فيتامينات؟ الحبوب الحمراء المنومة؟ كوكايين؟ أم...

- لا أتعاطى المخدرات. أعتقد أنني مريض.

- هل هذه هي الحقيقة؟

- أنا لم أنغمس في المخدرات طيلة حياتي.

قالها «مايك»، وبدت كلماته كأنما تُرهقه للغاية. أردف:

- لم أجرب سوى الحشيش، ولم أتعاطَه منذ أربعة أشهر. أنا مريض... مريض منذ يوم الاثنين تقريبًا. أظنني غفوت في مقابر «هارموني هيل» ليلة الأحد، ولم أستيقظ إلا صباح الاثنين.

هز رأسه ببطء وأكمل:

- أشعر أنني مُتعب للغاية من وقتها، وأتدهور في كل يوم... يبدو كأنني...

تنهَّد، وانطلق صفير من رئتيه راح يهز جسده كما تهز ريح الخريف أوراق الشجر.

مال «مات» نحوه مُهتمًّا، وسأله:

- حدث هذا بعد جنازة «داني جليك»؟

نظر «مايك» إليه مرة أخرى وأجاب:

- أجل. عدتُ كي أنهي الدفن بعد أن انصرف الجميع. إلا أن هذا اللعين... معذرة يا سيد «بُرك». إلا أن «رويال سنو» لم يظهر قط. انتظرته طويلًا ولا بد أنني بدأت أمرض وقتها، لأن كل شيء بعد ذلك... أوه، رأسي يؤلمني، من الصعب أن أفكر.

- ماذا تذكُر يا «مايك»؟

- أذكُر؟

حدَّق إلى لون البيرة الذهبي في كوبه، وراح يراقب الفقاقيع تنفصل عن السطح الداخلي للزجاج وتطفو إلى السطح فتنفجر.

- أذكر الغناء... أجمل غناء سمعته في حياتي. والشعور أنني... أغرق، إلا أنه كان إحساسًا لطيفًا. فيما عدا العينين... العينين.

أمسك كوعيه بكفيه وراح يرتجف. سأله «مات» وهو يميل نحوه:

- عينا مَن؟

- كانتا حمراوين... مرعبتين.

- عينا مَن؟

- لا أذكر. لم تكن ثمة عينان، لقد حلمت بكل هذا.

حاول أن يبعد الذكرى عن نفسه، وقد لاحظ «مات» هذا. أردف:

- لا أذكر شيئًا آخر عن ليلة الأحد. استيقظت صباح الاثنين ووجدت نفسي مُمدًّا على الأرض لا أستطيع أن أحرك أي عضو في جسدي. كنت مُتعَبًا. تحاملتُ على نفسي وقمت، فقد خشيت أن أُصاب بحروق شمس. ذهبت إلى الغابة جوار الجدول، مُتعَبًا... مُتعَبًا للغاية، فنمت مرةً أخرى حتى الرابعة أو الخامسة عصرًا.

ضحك ضحكة خشنة قصيرة وأردف:

- حين استيقظتُ كنت مُغطى بأوراق الشجر، لكنني كنت أفضل حالًا، فقمت وتوجهت نحو شاحنتي.

مسح وجهه بكفه مُضيفًا:

- لا بد وأنني أتممت دفن الصبي ليلة الأحد، لكن هذا غريب، فأنا لا أذكر ذلك.

- أتممت دفنه؟

- القبر كان مردومًا. بوجود «رويال» أو دونه، كان التراب يملأ الحفرة بتناسق. لا أذكر أنني فعلتها، على الأغلب كنت مريضًا للغاية.

- أين أمضيت ليلة الاثنين؟

- في بيتي، أين عساني أبيت؟

- بماذا شعرت صباح الثلاثاء؟

- لم أستيقظ صباح الثلاثاء. نمت اليوم كله، ولم أستيقظ إلا ليلة الخميس.

- وبمَ شعرت وقتها؟

- كنت في حالة يُرثى لها. ساقاي مرتخيتان، حاولت أن أجلب لنفسي ماءً فهويت أرضًا. كنت أتحرك نحو المطبخ وأنا أستند إلى الأشياء حولي. كنت ضعيفًا كقط مولود.

عقد حاجبيه مُردفًا:

- كان لدي علبة حساء للغداء، لكنني لم أستطع أن أتناولها، مجرد النظر إليها أشعرني بغثيان رهيب. الأمر أشبه بأعراض ما بعد الثمالة.

- لم تأكل أي شيء؟

- حاولت، لكنني تقيأت ما أكلت. حين شعرت بتحسن، خرجت وتمشيت قليلًا ثم عدت إلى الفراش.

مرَّر إصبعه حول آثار قواعد أكواب البيرة القديمة المستديرة وهو يقول:

- أصابني الذعر قبل أن أخلد إلى الفراش، مثلما يُذعَر الطفل من قصة مرعبة. دُرت في المنزل أتأكد أن كل الأبواب والنوافذ موصدة، ونمت والأنوار كلها مُضاءة.

- ماذا عن صباح أمس؟

- إممم... كلا، لم أستيقظ قبل التاسعة أمس.

ضحك ضحكته الخشنة مرة أخرى وأردف:

- ظننت أنني إن لم أنظر إلى الساعة، فربما أنام إلى الأبد، وهذا ما يفعله المرء حين يموت.

ظل «مات» يراقبه بعناية. قام «فلويد» ووضع ربع دولار في صندوق الموسيقى وبدأ في انتقاء أغنية. قال «مايك»:

- غريب أن نافذة حجرتي كانت مفتوحة حين استيقظت. لا بد وأنني من فتحها. حلمت أن شخصًا كان خلفها، فقمت لأدخِله. كأنك قمت لتُدخِل صديقًا يشعر بالبرد أو... أو الجوع.

- ومن كان هذا؟

- هذا مجرد حلم يا سيد «بُرك».

- ومن كان في الحلم؟

- لا أعرف. كنت أحاول أن آكل، لكن الفكرة أثارت اشمئزازي.

- ثم ماذا فعلت؟

- شاهدت التلفاز حتى انتهى الإرسال، فشعرت بتحسن كبير، وذهبت إلى الفراش.

- هل أغلقت النوافذ؟

- كلا.

- ونمت طيلة اليوم؟

- استيقظت قرب الغروب.

- شعرت بضعف؟

مرَّر كفه على وجهه وغمغم:

- ليتني أعرف، لكنني شعرت باعتلال.

صرخ أخيرًا:

- أنا مصاب بالبرد أو شيء كهذا، أليس كذلك يا سيد «بُرك»؟ لستُ مريضًا بمرضٍ عُضال.

قال «مات»:
- لا أعرف.
- ظننت أن بضعة أكواب من البيرة قادرة على إنعاشي، لكن رشفة واحدة منها أثارت معدتي. أنا خائف، حقًّا خائف.
أخفى وجهه بين كفيه ورأى «مات» أنه يبكي.
- «مايك»؟
لم يرُد. جذب كفَي «مايك» بعيدًا عن وجهه برفق وكرر:
- «مايك»، أريدك أن تعود معي إلى المنزل الليلة، ستنام في غرفة الضيوف، هلا فعلت ذلك؟
- حسنًا، لا أعبأ.
مسح وجهه في كُمه ببطء وبؤس.
- وغدًا أريدك أن تذهب للطبيب «كودي» معي.
- اتفقنا.
- تعالَ، لنرحل.
فكَّر في أن يتصل بـ «بِن ميرز»، لكنه لم يفعل.

***

عندما طرق «مات» الباب، أجاب «مايك ريرسون»:
- تفضَّل.
دخل «مات» حاملًا منامة وهو يقول:
- قد يكون مقاسها كبيرًا بعض الشيء.
- لا مشكلة يا سيد «بُرك»، سأنام بملابسي الداخلية.
كان يقف أمامه بسرواله الداخلي، واكتشف «مات» كم أن جسده شاحب، بارز الأضلع.
قال له «مات»:
- أدِر وجهك إلى هذه الناحية.
أطاعه «مايك» وأدار وجهه.
- «مايك»، من أين لك بهذه العلامة؟
لمس «مايك» حنجرته بأصابعه تحت فكه وقال:
- لا أعرف.
اضطرب «مات»، وسار نحو النافذة. المزلاج مُغلق جيدًا، لكنه هزَّه أمامًا وخلفًا للتأكد. من خلف الزجاج، الظلام الكثيف يضغط من الجهة الأخرى.
- نادِني إن احتجت إلى شيء بالليل، أي شيء. حتى لو رأيت كابوسًا. هل ستفعل ذلك يا «مايك»؟
- أجل.

- أعني، أي شيء على الإطلاق. أنا في الصالة بالخارج.
- سأناديك لو احتجت إلى شيء.
تردد قبل أن يخرج، شاعرًا أن هناك شيئًا إضافيًّا يمكن أن يفعله، لكنه في النهاية خرج.

***

لم ينَم مُطلقًا، والشيء الوحيد الذي يمنعه من الاتصال بـ «بِن» علمه أن الجميع سيكون نائمًا الآن في بيت «إيفا» للضيافة. المكان هناك يعُج بالعجائز، وإن دق جرس الهاتف ليلًا، لن يعني هذا لهم إلا خبر موت أحدهم.

رقد قلِقًا، يحدِّق إلى عقربي الساعة المُضيئين يتحركان من الحادية عشرة والنصف، إلى الثانية عشرة. كان المنزل هادئًا بشكل غير طبيعي، ربما لأن أذنيه حساستان لا إراديًّا لأقل الأصوات.

المنزل قديم، مبني بعناية، وقد استقرت ألواحه الخشبية منذ زمن فكفَّت عن إصدار أي صرير. لم يكن هناك صوت إلا صوت الساعة والرياح الخفيفة. لا تمر سيارات في طريق «تاجرت ستريم» في ليالي الأسبوع العادية بعيدًا عن الإجازات.

ما تفكر فيه جنون...

لكن، بالتدريج، صار مُجبَرًا على التفكير فيما لا يُعقَل. بالطبع، كونه رجلًا مُطلعًا على الأدب، كان هذا الجنون هو أول ما خطر بباله عندما حكى له «جيمي كودي» عما حدث لـ «داني جليك». وقتها ضحك الرجلان، لكن ها هو يُعاقَب على سخريته.

خدوش؟ هذه العلامة لا يمكن أن تكونَ خدوشًا... هذان ثقبان.

يعلم المرء أن تلك التفسيرات لا يُمكن أن تكون حقيقة. كتابات مثل رواية الكاتب «كولريدج»[26] «كريستابِل»[27]، أو رواية «دراكيولا» لبرام ستوكر هي مجرد خيال محض.

الوحوش موجودة في الحقيقة؛ الرجال الذين يتأهبون لضغط زر تفجير الصواريخ النووية، المُختطفون، القتلة العشوائيون، المُتحرشون بالأطفال، لكنهم ليسوا وحوشًا خيالية.

ما يعدُّونه وَسم الشيطان على صدر امرأة ما هو إلا وحمة، الرجل الذي عاد من الموت ليقف أمام باب منزله مُسربلًا في أكفانه كان يعاني اختلاجًا حركيًّا، العفريت الجاثم في ركن حجرة طفل هو ببساطة كومة أغطية، حتى إن بعض رجال الدين قد أعلنوا موت الرب في صورته الساحرة الجليلة البيضاء.

حتى إنه كان ينزف بياضًا.

لا أصوات من جهة الممر. لا بُد وأن «مايك» نائم كالحجر. حسنًا، ولمَ لا؟ لماذا دعى «مايك» للبيات عنده ما لم يكن الغرض هو منحه نومًا هادئًا، لا تقاطعه... لا تقاطعه الكوابيس؟ قام من فراشه وأضاء المصباح، ثم اتجه نحو النافذة. من حيث وقف، يستطيع المرء أن يرى قمة منزل «مارستِن»، مُتجمدة في ضوء القمر.

أنا مُرتعِب.

لم يكن مُرتعبًا، بل هو مذعور حدَّ الموت. ظل عقله يسترجع أساليب الحماية من ذلك المرض الذي لا يجب ذكره: الثوم، الماء المُقدَّس، الصليب، المِسبحة، الماء الجاري. ليس لديه أي من الأغراض المُقدَّسة، ولم يكن يُمارس طقوس الكنيسة المنهجية، وفي داخله كان مُتأكدًا أن القس المِنهجي النصاب «جون جروجنز» هو أحمق الغرب الأعظم.

الشيء الوحيد ذو القداسة في المنزل هو...

بهدوء، لكن بوضوح، جاءت الكلمات بصوت «مايك ريرسون»، يتحدث بصوت النائمين:

« أجل، ادخل...»

توقَّف مات عن التنفُّس، ثم أطلق صرخة بلا صوت. شعر أنه سيفقد الوعي من الذعر، واستحالت معدته إلى رَصاص، وانكمشت خصيتاه إلى أعلى.

ماذا دعى إلى منزله بحق الجحيم؟!

سمع الصوت الخفيض لقفل النافذة بالخارج، ثم صوت احتكاك الخشب ببعضه إذ تنفتح الضلفة بعنف.

يمكنه أن ينزل بسرعة إلى الطابق السفلي، ويهرع ليجلب الكتاب المُقدس، ثم يعود مُسرعًا فيفتح باب حجرة الضيوف، ويرفع الكتاب المقدس عاليًا وهو يصرخ: بسم الآب والابن والروح القدس، آمرك أن ترحل...

لكن مَن هناك كي يأمره بالرحيل؟

نادني إن احتجت أي شيء في الليل.

لكنني لا أستطيع يا «مايك»، أنا رجل مُسن... خائف.

غزا الليل عقله، وأحاطه بصوَرٍ مفزعة تتراقص في الظلام والظلال. وجوه بيضاء كأوجه المهرجين، أعين ضخمة، أسنان حادة، أجساد تنزلق من وسط الظُلمة مادَّة أيديها نحو... نحو...

انفلتت منه شهقة ذعر، فغطى وجهه بكفيه.

لا أستطيع، أنا خائف.

كان عاجزًا عن الحركة حتى ومقبض حجرته النحاسي يدور. شلَّه الخوف، وتمنى بجنون لو أنه لم يذهب إلى حانة «ديل» الليلة.

أنا خائف...

ووسط سكون المنزل الثقيل، وحيث جلس في فراشه مُغطى الوجه، سمع صوت ضحكة طفل حُلوة شريرة... ثم صوت الامتصاص.

سامويل تيلور كولريدج كاتب وشاعر أمريكي وفيلسوف صوفي.

ملحمة شعرية عن فتاة اسمها كريستابل تجد فتاة أخرى ذات قدرات شيطانية غريبة.

إمبراطور الآيس كريم

لنستدعِ من يلُف لنا سيجارًا ضخمًا...
سيجارًا عضليًّا، يضرب الشهوة ويخُض الحليب في المطبخ.
لتتعجل الرفيقات ارتداء فساتينهن اللاتي يألفنها.
وليُحضِر الفتيان الأزهار، ملفوفة في صُحُف الشهر الماضي.
دع الحياة تضع حدًّا للمظاهر والادعاء...
فالإمبراطور الوحيد هو إمبراطور الآيس كريم.
أخرِج هذه الملاءة من الخزانة رخيصة الأخشاب...
ناقصة المقابض.
ملاءة زخرَفَتها بنقش ذيل الطاووس البَهي،
وغَطِّ بها وجهها.
وإن تبدَّت من تحت الملاءة قدماها الخشنتان،
فلتتبدَّ...
لتُظهر برودتها، وسكونها.
أضئ المصباح وسلِّط ضوءه،
فالإمبراطور الوحيد هو إمبراطور الآيس كريم.

«والاس ستفينز»[28]

العَمود متقوب، ألا ترين؟

يا ملكة الموتى؟

«جورج سيفريس»

شاعر أمريكي معاصر. وإمبراطور الآيس كريم قصيدة جنائزية.

الفصل الثامن

بِن

يبدو أن الطَرَقات قد استمرت طويلًا، حتى إنها راحت تتردد عبر شوارع النوم، بينما يجاهد كي يستيقظ.

كان الظلام حالكًا بالخارج، لكن حين استدار في نومته ليمسك المُنبه ويقرِّبه من وجهه، أسقطه أرضًا.

شعر بالغُربة والذعر. صاح:

- مَن؟

قام وارتدى بنطاله، وفتح الباب عاري الصدر. وجد «إيفا» أمامه ترتدي معطفًا منزليًّا أبيض، ووجهها يعلوه ضعف من كان نائمًا لتوه، وما يزال.

حدَّق كلاهما إلى الآخر، وفكَّر «بِن»: مَن مرِضَ؟ مَن مات؟

- هل لدي مكالمة من ولاية أخرى؟

- كلا، «ماثيو بُرك».

إجابة سؤاله لم تُطمئنه كما كان يأمل. سألها:

- كم الساعة؟

- الرابعة تقريبًا. يبدو صوت السيد «بُرك» مُضطربًا للغاية.

نزل «بِن» إلى الأسفل ورفع سماعة الهاتف.

- أنا «بِن» يا «مات».

كان «مات» يتنفس سريعًا عبر الهاتف، وتبدو زفراته قصيرة حادة.

- هلا أتيت يا «بِن»؟ الآن.

- حسنًا، سآتي. ماذا حدث؟ هل أنت مريض؟

- لن أستطيع الحديث عبر الهاتف. تعال.

- امنحني عشر دقائق.

- «بِن»؟

- أجل؟

- هل لديك صليب؟ أو دلاية القديس «كريستوفر»؟ أي شيء من هذا القبيل؟

- كلا... أنا... كنت... بابَويًّا.

- حسنًا. أسرِع.

أغلق «بِن» السماعة وصعد سريعًا إلى حجرته. كانت «إيفا» واقفة ويدها عند درابزين السُّلم، يعلو وجهها القلق والفضول لمعرفة ماذا يحدث، لكنها في نفس الوقت لم تكن تريد التدخل في شؤون

النُّزلاء.

- هل السيد «بُرك» بخير يا سيد «ميرز»؟

- يقول إنه بخير. هو فقط طلب مني... أقول، ألستِ كاثوليكية؟

- زوجي كان كاثوليكيًّا.

- هل لديك صليب أو مِسبحة أو ميدالية القديس «كريستوفر»؟

- حسنًا. صليب زوجي في حجرة النوم، يمكنني...

- أجل، هل يمكنك إحضاره؟

هرعت نحو نهاية الرواق، وخفاها المغطيان بالفراء يحتكان بما تبقى من شريط البساط على الأرض.

عاد «بِن» إلى حجرته وارتدى قميص الأمس، ودس قدميه الحافيتين في حذاء خفيف. حين خرج مرةً أخرى، كانت «إيفا» تقف جوار بابه تحمل الصليب الذي يعكس لمعة الفضة.

قال لها وهو يأخذه منها:

- شكرًا لكِ.

- هل طلب منك السيد «بُرك» صليبًا؟

- أجل.

عقدت حاجبيها وقد استيقظت تمامًا الآن.

- هو ليس كاثوليكيًّا، ولا أعتقد أنه يذهب إلى الكنيسة.

- لم يشرح لي شيئًا.

أومأت وهي تُعطيه الصليب.

- حافظ عليه، فله قيمة كبيرة عندي.

- أفهم ذلك، وسأحافظ عليه.

- أتمنى أن يكون السيد «بُرك» بخير، فهو رجل صالح.

نزل إلى الطابق السفلي، ومنه إلى الخارج. لم يستطع أن يُمسك الصليب ويبحث عن مفاتيح سيارته في نفس الوقت، وبدلًا من أن يمسك الصليب بيسراه ببساطة، ارتداه حول عنقه، فانزلقت الفضة لترتاح على صدره. ركب السيارة، وبالكاد شعر أنه مُطمئن.

***

الضوء ظاهر من كل نوافذ الطابق الأرضي لمنزل «مات»، وحين أنار ضوء كشافات سيارة «بِن» المدخل، فتح «مات» الباب وانتظره.

كان «بِن» مُستعدًّا لأي شيء، لكن مع ذلك، صدمه وجه «مات» الشاحب للغاية، وزاويتا فمه المُرتعشتان. عيناه مُتسعتان لا ترمشان.

قال سريعًا:

- لنذهب إلى المطبخ.

دخل «بِن»، فانعكس ضوء مصباح الصالة على الصليب المُعلّق على صدره. قال «مات» مشيرًا نحو الصليب:

- أحضرتَ واحدًا.

- هو ملك لـ «إيفا ميلَّر». ماذا يحدث عندك؟

كرر «مات»:

- تعالَ إلى المطبخ.

عبرا الدرج الذي يؤدي إلى الطابق الثاني، نظر «مات» إلى أعلى وبدا كأنه يتحاشى النظر في نفس الوقت.

منضدة المطبخ حيث أكلا الإسباجيتي كانت خالية الآن إلا من ثلاثة أشياء: كوب قهوة، كتاب مقدس قديم، مسدس ذي ساقية دوَّارة. اثنان منهم كانا خارج السياق المُتوقَّع.

- قل لي الآن يا «مات» ماذا يحدث، تبدو في حالة مُريعة.

- ربما أكون قد حلمت بكل هذا، لكن... حمدًا لله أنك هنا.

تناول المُسدس وراح ينقله بين يديه في قلق. هتف «بِن»:

- أخبرني وتوقف عن العبث بهذا الشيء. هل هو مُعبَّأ؟

وضع «مات» المسدس على المنضدة، وخلَّل شعره بأصابعه وهو يقول:

- أجل. ومع ذلك لا أظنه سينفعنا في شيء... ما لم أقتل نفسي به.

ضحك ضحكة مهتزة خشنة كصوت زجاجٍ يُطحَن.

- كفى!

قطعت صيحته الخشنة النظرة الغريبة الثابتة في عينيه. هز «مات» رأسه، لا كما يهز المرء رأسه نافيًا، بل كما يهز الحيوان رأسه حين يخرج من الماء.

- ثمة قتيل في الطابق العلوي.

- مَن؟

- «مايك ريرسون». يعمل لدى البلدة... حارس المقابر.

- أنت واثق أنه قد مات؟

- لم أجرؤ على تفحُّصه، لأن هناك احتمالًا أنه لم يمُت على الإطلاق.

- «مات»، أنت تُخرِّف.

- ألا تدري أنني أعرف هذا؟ أنا أخرف، أتفوه بالتفاهات وأفكر بجنون، لكن لم أجد من أتصل به سواك. من بين كل سكان البلدة، أنت الوحيد الذي قد... قد...

ظل يهز رأسه مرات ومرات.

- لقد تحدثنا عن «داني جليك».

- أجل.

- وكيف أن سبب وفاته قد يكون فقر الدم الخبيث؟

- أجل.

- «مايك» هو من دفنه، وهو من وجد كلب «وِن بورينتون» مُعلّقًا على سور المقابر. قابلت «مايك ريرسون» في الحانة الليلة الماضية، و...

***

قال «مات»:

- ... ولم أستطع الدخول. لم أستطيع. جلست في فراشي أربع ساعات تقريبًا، ثم تسللتُ إلى الأسفل كاللصوص واتصلت بك. ما رأيك؟

كان «بِن» قد خلع الصليب عن رقبته، وظل يرمقه وهو أمامه. كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة، وسماء الشرق تُلطّخ بالشروق الأحمر، فبدا ضوء مصباح الفلورسنت فوقهما أكثر شحوبًا.

- أعتقد أنه من الأفضل أن نصعد إلى حجرة الضيوف ونُلقي نظرة. هو اقتراح لا بأس به الآن.

كل شيء يبدو كحُلم مجنون الآن، بعد أن بدأ الضوء في التسلل عبر النافذة.

ضحك وراح يهتز وهو يقول:

- أتمنى لو أجد «مايك» بخير، نائمًا كطفل.

- لنذهب ونرَ.

- حسنًا.

زمَّ «مات» شفتيه، ونظر إلى المنضدة ثم إلى «بِن» في تساؤل صامت. قال «بِن» وهو يعلِّق الصليب حول رقبة «مات».

- بالتأكيد، علِّقه.

ضحك «مات» واعيًا لنفسه:

- في الحقيقة لقد أشعرني بالاطمئنان.

- هل تريد المسدس؟

- كلا، أعتقد لا. كل ما سأفعله أنني سأدُسه في خصر بنطالي، وسأفجر به خِصيتيَّ.

صعدا، و«بِن» في المُقدمة. كان هناك رواق قصير بالأعلى، يتفرع إلى الجهتين، في نهاية جهة منهما حجرة «مات» المفتوحة، والتي يخرج منها ضوء مصباح شاحب، ينسكب خارجًا على البساط الرفيع البرتقالي.

قال «مات»:

- الحجرة عند الناحية المُقابلة.

سار «بِن» حتى وصل حجرة الضيوف. لا يصدق الوحشية التي حكاها «مات»، لكنه على الرغم من ذلك غَشيه إحساس رعبٍ لم يشعر به من قبل.

ستفتح الباب وستجده معلقًا من السقف، وجهه متورم مُسود، وفجأة ستنفتح العينان وتجحظان خارج محجريهما، لكنهما تريانك، وسعيدتان بقدومك...

عادت إليه الذكرى بكل تفاصيلها الحسية، وللحظة شلَّته تمامًا. يكاد يشم رائحة الدهان وأعشاش الحيوانات البرية الصغيرة، حتى خُيِّل له أن رائحة ورنيش أرضية حجرة ضيوف «مات» تحول

بينه وبين كل أسرار الجحيم.
ثم أدار المِقبض، ودفع الباب إلى الداخل. «مات» خلفه يقبض على صليب «إيفا».
نافذة حجرة الضيوف تواجه الشرق، وكانت حافة الشمس المُقوَّسة تظهر عند خط الأفق، وأول ضوء النهار يضيء الحجرة عبر النافذة، ينعكس لونها الذهبي على الملاءة البيضاء الناصعة التي تغطي «مايك ريرسون» حتى صدره.
نظر «بِن» نحو «مات» وأومأ وهو يقول:
- هو بخير، نائم.
قال «مات» بلا أي تعبير:
- النافذة مفتوحة، وكنت قد أوصدتها. تأكدت من ذلك.
ركز «بِن» نظره على الحافة العلوية للملاءة النظيفة التي تغطي «مايك». هناك نقطة دم صغيرة واحدة، وقد جفَّت وتحول لونها إلى البُني.
قال «مات»:
- لا أظنه يتنفس.
خطا «بِن» خطوتين إلى الأمام ثم توقَّف هاتفًا:
- «مايك»؟ «مايك ريرسون»... استيقظ يا «مايك»!
لم يتلقَ ردًّا. ظلت أهداب «مايك» ساكنة، مُمدَّة على خديه، وشعره متناثر فوق حاجبيه. ولوهلة رآه «بن» أكثر من مجرد وسيم الشكل، بل هو جميل كتمثال إغريقي. اللون الأحمر يزدهر على خديه، ولا يبدو عليه أي من سيماء الموت التي زعمها «مات»... لون بشرته ممتاز.
قال «بِن» في نفاد صبر:
- بالطبع يتنفس، لكنه نائم.
مد يده وهزَّ «مايك» برفق، فانزلقت ذراعه اليسرى التي كانت مثنية فوق صدره، وتدلَّت جواره على الأرض مُرتخية، تقرع مفاصل أصابعها الأرضية بقوة.
اقترب «مات» وأمسك الذراع المُتدلية، وضغط إبهامه عند الرسغ وهو يقول:
- لا يوجد نبض.
قبل أن يتركها تتدلى مرة أخرى، تذكر صوت القرع الذي صدر عن ارتطامها بالأرضية، وكأنها تطرق بابًا تستأذن في الدخول، فوضع الذراع كما كانت برفق فوق الصدر.
لم يصدق «بِن» هذا، الرجل نائم، لا بد وأن يكون نائمًا، وإلا فكيف بلونه النَّضر، وليونة عضلاته، وشفتيه المُنفرجتين كأنما يتنفس... شعر بأن كل هذا غير حقيقي. وضع كفه على رسغ «ريرسون» ليجده باردًا. بلل إصبعه ووضعه أمام هاتين الشفتين المُنفرجتين، ولم يشعر بشيء... ولا حتى نَفَس سطحي.
نظر هو و«مات» بعضهما إلى بعض، وسأل الأخير:
- ماذا عن العلامة في رقبته؟
أمسك «بِن» فكي «ريرسون» بين كفيه، وأدار رأسه برفق حتى كشف العُنُق والخد المواجِه للوسادة. تلك الحركة أسقطت الذراع المُرتخية مرة أخرى، ومُجددًا قرعت المفاصل الأرض.

لم يكن ثمة علامات على عنق مايك ريرسون.

***

كانا جالسَين إلى طاولة المطبخ مرةً أخرى، وكانت الساعة الخامسة والنصف وخمس دقائق، وقد تعالى صوت أبقار «جريفِن» التي ترعى أسفل التل خلف الأشجار القصيرة والأدغال التي تحجب جدول «تاجرت» عن الأعين.

قال «مات» فجأة:

- بحسب المعتقدات القديمة، فالعلامة تختفي حين تموت الضحية.

- أعرف هذا.

تذكَّر «بِن» هذه المعلومة من رواية «دراكيولا» ومن أفلام شركة «هامر» عن مصاصي الدماء من بطولة «كريستوفر لي».

- يجب أن نغرس وتدًا في قلبه.

قال «بِن» بعد أن رشف قهوته:

- عليكَ أن تُفكر مرة أخرى. سيكون هذا عسير التبرير أمام أي محكمة، على الأقل سيودعونك السجن بتهمة التمثيل بجثة، أو على الأقل سيرسلونك إلى مستشفى المجانين.

سأل «مات» بهدوء:

- هل تظن أنني مجنون؟

بلا تردد أجاب «بِن»:

- كلا.

- هل تصدق ما قلته لك بشأن العلامة؟

- لا أعرف. أعتقد أنني يجب أن أصدق، فلمَ قد تكذب عليَّ؟ لا أجد لك مكسبًا في الكذب، أعتقد فقط أنك ستكذب إن كنت قتلته.

قال «مات» وهو يحدق إليه:

- ربما قتلته إذًا...

- هناك ثلاثة دلائل ضد ما تقول، أولها: ما دافعك لقتله؟ اعذرني يا «مات»، لكنك قد كبُرت على الدوافع الكلاسيكية القديمة مثل الغيرة أو المال. ثانيها: كيف قتلته؟ لو أنه السُّم، فهو يبدو أنه قد مات بسلام، وهذا يستثني أغلب السموم المُتاحة هنا.

- وما دليلك الثالث؟

- لا يوجد قاتل عاقل يختلق قصة كقصتك ليغطي على جريمة. سيكون هذا جنونًا.

قال «مات» بعد أن تنهَّد:

- ندور وندور ثم نعود لمناقشة سلامتي العقلية، ويبدو أن هذا النقاش ضروري.

قال «بِن» وهو يضغط على أول كلماته:

- لا أظن أنك مجنون. تبدو عاقلًا كفاية.

- لكنك لستَ طبيبًا، أليس كذلك؟ والمجانين أحيانًا ما يفلحون في التظاهر جيدًا بالعقل.

قال «بِن» موافقًا:

- وإلى أين يقودنا هذا؟

- إلى البداية مرةً أخرى.

- كلا، لن يحتمل أيٌّ منا العودة للبداية، لأن هناك جثة بالأعلى، وقريبًا علينا أن نجد تفسيرًا لما حدث له. ستحتاج الشرطة إلى معرفة ماذا حدث، وكذلك الطب الشرعي، وشريف البلدة. «مات»، ألا يمكن أن يكون «مايك» قد أُصيب بفيرس نادر، وتصادف أن سقط ميتًا في بيتك؟

لأول مرة منذ نزلا إلى الطابق السفلي، أظهر «مات» الاعتراض:

- «بِن»، لقد أخبرتك بما حكاه لي. رأيت العلامة على رقبته! وسمعته يدعو شخصًا إلى بيتي! ثم سمعت... إلهي... سمعت هذه الضحكة.

تحوَّلت نظراته إلى تلك النظرة الخاوية مرةً أخرى.

- حسنًا...

قالها «بِن» واتجه نحو النافذة محاوِلًا ترتيب أفكاره. كما قال لـ «سوزان» من قبل، الأمور لها طريقتها في الخروج عن السيطرة.

كان ينظر إلى منزل «مارستِن».

- «مات»، هل تعرف ما سيحدث لك لو تسربت منك همسة واحدة عما حكيته لي؟

لم يرُد «مات»، فأردف «بِن»:

- سيبدأ الناس في الإشارة إلى أدمغتهم من خلف ظهرك عندما تعبر أمامهم في الشارع. سيُركِّب الأطفال أطقم الأسنان المُخيفة ويقفزون أمامك وهم يصيحون «بووو» عنما تمُر من خلف أسوار بيوتهم. سيؤلف أحدهم أغنية هزلية عنك على غرار: واحد اثنان ثلاثة أربعة، كل من يؤمن بمصاصي الدماء إمَّعة. سيحفظها الأولاد في المدرسة وسيرددونها كلما رأوك في الطُّرُقات. ستتغير نظرة زملائك تجاهك، سيتصل بك من يدَّعون أنهم «داني جليك» أو «مايك ريرسون» ساخرين. سيحيلون حياتك إلى جحيم، وسيُخرجونك من البلدة خلال ستة أشهر.

- لن يفعلوا كل هذا، فهم يعرفونني.

استدار له «بِن» وقال:

- هل يعرفون حقًّا الرجل الوحيد الساكن جوار طريق «ستريم»؟ فكرة أنك غير متزوج تؤكد أنك تفتقد إلى واحدة أو أكثر من صواميل مُخك. أي دعم قد أستطيع منحه لك؟ لقد رأيت جثة ولا شيء آخر. حتى لو دعمتك، سيقولون إنني مجرد دخيل، وربما يتصورون كذلك أننا لوطيَّان.

كان «مات» ينظر إليه برعبٍ يتعاظم. أردف «بِن»:

- كلمة واحدة يا «مات»، ربما تنهي وجودك في بلدة «سالم».

- إذًا فلا يوجد ما نفعله.

- بل هناك شيء. أنت لديك نظرية عن الشيء أو الشخص الذي قتل «مايك ريرسون»، والنظريةُ سهلة الإثبات أو الدحض على ما أعتقد. أنا في ورطة، فلا أستطيع أن أصدق أنك جُننت، ولكني

كذلك لا أصدق أن «داني جليك» قد قام من الموت وامتص دماء «مايك ريرسون» لمدة أسبوعٍ كامل قبل أن يقتله. لكنني سأختبر هذه النظرية، وعليك أن تساعدني.

- كيف؟

- اتصل بطبيبك، اسمه «كودي»؟ ثم اتصل بـ «باركِنز جيلسبي»، ودع الماكينة تدور. احكِ قصتك كأنك لم تسمع شيئًا في تلك الليلة. أنت ذهبت للحانة وجلست مع «مايك». أخبرك أنه يشعر بتوعك منذ يوم الأحد، فدعوته للمبيت عندك. ذهبت لتطمئن عليه نحو الساعة الثالثة والنصف صباحًا، فلم يستيقظ، فاتصلت بي.

- أهذا كل شيء؟

- هذا كل شيء. عندما تتحدث إلى «كودي»، لا تقُل حتى إنه مات.

- لم يُمت؟

انفجر «بِن»:

- إلهي! وكيف نعرف أنه مات؟ حاولت قياس نبضه فلم تشعر به، حاولتُ أنا أن أشعر بتنفسه فلم أستطع. لا يمكن أن يرمي بي شخص في قبر بناء على هذه الأدلة فقط، وبخاصة إن كنت أبدو حيًّا كما يبدو.

- مظهره الحي يزعجك كما يزعجني، أليس كذلك؟

قال «بِن» مُعترفًا:

- بلى يُزعجني. يبدو كتمثال شمع لعين.

- حسنًا. أنت تتحدث بالعقل في موقفٍ كهذا. أعتقد أنني من أبدو كمجنون.

حاول «بِن» أن يحتج، لكن «مات» أشار له وأردف:

- لكن لنفترض نظريًّا أن شكِّي الأول صحيح، هل ستترك احتمالًا كهذا؟ احتمال أن يعود «مايك ريرسون»؟

- قلت لك إنه من السهل إثبات أو دحض هذه النظرية، لكنها ليست ما يُقلقني في كل هذا.

- وما يُقلِقك؟

- دقيقة، الأولويات أولًا. الإثبات والدحض يجب ألا يكون أكثر من تمرين منطقي، بحث في الاحتمالات. الاحتمال الأول: مات «مايك» بمرضٍ ما، فيرس أو شيء كهذا. كيف تثبت هذا أو تستبعده؟

هز «مات» كتفيه وهو يقول:

- بالفحص الطبي على ما أعتقد؟

- بالضبط. وهي نفس الطريقة التي تكشف إن كانت هناك جريمة، مثلًا أن أحدهم سمَّمه أو أطلق عليه الرصاص أو أغراه بأكل قطعة حلوى مليئة بالأسلاك...

- الجرائم قد تفلت من تحت مِنظار الاكتشاف أحيانًا.

- بالطبع، لكنني أراهن على الطبيب.

- وإن قال الطبيب إن سبب الوفاة غير معروف؟

قال «بِن» عامدًا:

- ساعتُها يمكننا أن نزور القبر بعد الجنازة، ونرى إن كان سيقوم. إن قام -وهو أمر لا أستطيع تخيُّله- سنعرف. إن لم يقُم، فسنواجه الشيء الذي يُقلقني.

قال «مات» ببطء:

- جنوني. «بِن»، أقسم باسم أمي أن هذه العلامة كانت موجودة، وسمعت النافذة تُفتَح، و...

قال «بِن» بهدوء:

- أصدقك.

صمت «مات»، وظهرت على وجهه ملامح رجلٍ تحصَّن ضد صدامٍ لم يحدث. سأل في شك:

- حقًّا؟

- سأصيغ الأمر بشكلٍ آخر. لنقل إنني لا أصدق أنك مجنون أو كنت تُهلوس. مررت بتجربة من قبل... تجربة ذات صلة بالبيت اللعين فوق التل، جعلتني متعاطفًا بشدة مع كل مَن تبدو حكاياتهم جنونًا. سأحكي لك يومًا.

- ولِمَ لا تحكي الآن؟

- لا وقت لذلك. عليك أن تُجري هذه المكالمات، ولدي سؤال أخير، فكِّر فيه جيدًا. هل لديك أي أعداء؟

- لا يوجد من قد يرقى لمكانة كهذه.

- طالب سابق ربما؟ يحمل ضغينة ما تجاهك؟

ضحك «مات» في أدب، موقنًا بتأثيره على حياة طُلابه. أردف «بِن»:

- حسنًا، سآخذ كلمتك بثقة.

هز رأسه يُمنةً ويُسرة وهو يُكمل:

- لا يروق لي كل هذا، أولًا يظهر هذا الكلب عند سور المقابر، ثم يختفي «رالفي جليك»، ويموت أخوه، ثم «مايك ريرسون»... ربما هناك شيء يربط بينهم جميعًا. لكنني... لا أصدق.

قال «مات»:

- من الأفضل أن أتصل بمنزل «كودي». سيكون «باركِنز» في بيته كذلك.

- واتصِل بالمدرسة للإبلاغ عن إجازة.

ضحك «مات» عفويًّا وهو يقول:

- ستكون هذه أول إجازة لي منذ ثلاث سنوات. سيحتفلون بهذا اليوم كمناسبة خاصة.

ذهب إلى حجرة المعيشة وبدأ في إجراء الاتصالات. انتظر أن يوقظ النائمين كي يردوا عليه. أحالته زوجة «كودي» إلى رقم آخر في «كمبرلاند» فاتصل بالرقم وسأل عن «كودي»، ثم أخبره بالقصة. أغلق السماعة وقال موليًا وجهه تجاه المطبخ:

- «كودي» سيكون هنا خلال ساعة.

- ممتاز. سأصعد للطابق الثاني.

- لا تمس شيئًا.

- لا تقلق.

عند وصوله للطابق الثاني، سمع «مات» يتحدث إلى «باركِنز جيلسبي» ويجيب عن أسئلته. ذابت الكلمات وتحولت إلى همهمات بينما يسير «بِن» تجاه حجرة الضيوف.

باغته شعور «نصف ذكريات-نصف حلم» المقيت وهو يفتح باب الحجرة. عينا عقله تصوِّر له المشهد من وجهة نظر طفل، الحجرة أوسع بكثير.

الجثة راقدة وذراعها اليسرى مُدلاة إلى الأرض، وخده الأيسر تجاه الوسادة التي ما زال يظهر على غطائها أثر الطي بعد الغسل. فُتِحت العينان فجأة، والتمعتا بنصرٍ حيواني. انغلق الباب، ارتفعت الذراع اليسرى وتقلصت الأصابع على هيئة مِخلب، وكشفت الشفتان عن نابين طويلين حادين...

خطا «بِن» أمامًا ودفع الباب بإصبعه، فصرَّت المفصلات السفلية صريرًا طويلًا حادًّا.

الجثة ممدَّة حيث تركاها، الذراع اليسرى مُدلَّاة، الخد الأيسر مواجه للوسادة..

- «باركِنز» قادم.

قالها «مات» من خلفه، فكاد «بِن» أن يصرخ.

***

أدرك «بِن» مدى ملاءمة عبارته (دع الماكينة تدور). الأمر أشبه بماكينة منضبطة ألمانية الصُّنع، كل شيء دقيق مدروس.

وصل «باركِنز جيلسبي» أولًا، حول رقبته ربطة عنُق خضراء مُثبتة بدبُّوس محاربي الحروب الخارجية، وكان النوم باديَ الأثر في عينيه. قال لهما إنه قد أبلغ الطبيب الشرعي للمُقاطعة.

أضاف وهو يشعل سيجارة «بول مول» ويدسها في ركن فمه:

- لن يأتي بنفسه، هذا العاهر، لكنه سيرسل شرطيًّا ومُصورًا. هل لمستما الجيفة؟

أجاب «بِن»:

- ذراعه تدلَّت خارج الفراش، حاولتُ أن أرجعها مكانها لكنها لم تثبت.

نظر إليه «باركِنز» من أعلى إلى أسفل ولم يُعلق. تذكر «بِن» الصوت الذي صدر عن مفاصل يد الجثة حين ارتطمت بالأرضية الخشبية لحجرة الضيوف، فاحتشدت ضحكة مُغثية في معدته، فبلعها كي تظل في مكانها.

قاد «مات» الرجلين إلى أعلى، ودار «باركِنز» حول الجثة عدة مرات، ثم سأل في النهاية:

- هل أنت واثق أنه ميت؟ هل حاولت إيقاظه؟

وصل الطبيب «جيمس كودي» لاحقًا، وقد عاد لتوه من عملية توليد في «كَمبرلاند». بعد أن دار واجبُ الضيافة بينهم، وبعد أن أشعل «باركِنز» سيجارة أخرى، قادهم «مات» إلى الأعلى مُجددًا. خطر ببال «بِن» خاطرة مُضحكة أخرى؛ لو أننا جميعًا قادرون على العزف الموسيقي، لمنحنا الرجل حفل توديع حقيقيًّا. شعر بالضحكة تحاول الفرار مرة أخرى من حنجرته.

أزال «كودي» الملاءة ودقق في الجثة لدقيقة. سأله «مات بُرك»:

- ذَكَّرني منظره بما أخبرتني به بشأن ابن «جليك» يا «جيمي».

- ما قلتُه لك تصريح خاص بيننا يا سيد «بُرك»، لو سمع والدا «داني» ما قلت لسارعا بمُقاضاتي.

- وهل سيكسبون القضية؟

- كلا، على الأرجح لا.

قالها «جيمي» وتنهَّد. سأل «باركِنز» عاقدًا حاجبيه:

- ماذا حدث لابن «جليك»؟

أجاب «جيمي»:

- لا شيء. لا علاقة له بشيء مما يحدث هنا.

وضع مسماعه على صدر الجثة، غمغم، فتح جفنيها وأضاء الكشاف تجاه الكرتين تحتهما. رأى «بِن» الحدقة تضيق فهتف:

- يا إلهي!

قال «جيمي»:

- رد فعل مثير، أليس كذلك؟

ترك الجفن، فانغلق ببطء شديد، كأن الجثة تغمز لهما.

- سجل «ديفي براين» في مستشفى «جون هوبكنز» حالات تضيق فيها الحدقتان تحت تأثير الضوء في بعض الجثث التي لم يمر على وفاتها أكثر من تسع ساعات.

غمغم «مات»:

- ها هو الآن أصبح عالمًا. كانت درجاته بائسة في الكتابة التعبيرية.

- أنت الذي لا تحب القراءة عن التشريح أيها العجوز الشَّكَّاء.

قالها «جيمي» شاردًا، وأخرج مطرقة صغيرة. فكرَّ «بِن»: هو يحافظ على أدب رعاية المرضى، حتى لو كان المريض مجرد جيفة كما يطلق عليه «باركِنز». ترددت الضحكة الكئيبة بداخلة ثانيةً.

سأل «باركِنز» وهو يُنفض سيجارته داخل مزهرية خالية:

- هل مات؟

تقلص وجه «مات» لما فعله الشرطي. أجاب «جيمي»:

- أجل، هو ميت.

قام الطبيب، وعرَّى ساقي «ريرسون»، ثم ضرب ركبته بالمطرقة الصغيرة. لم تتحرك أصابعه. لاحظ «بِن» أن لدى «ريرسون» حلقات صغيرة من الجلد الجاف المُصفر عند كعبيه وأسفل مشط قدمه، وتذكَّر قصيدة «والاس ستيفينز» عن المرأة المُتوفاة. فقال:

- وإن تبدَّت من تحت الملاءة قدماها الخشنتان، فلتتبدَّ... فلتُظهِر برودتها، وسكونها. أضئ المصباح وسلِّط ضوءه، فالإمبراطور الوحيد هو إمبراطور الآيس كريم.

نظر «مات» نحوه بحدة، وللحظة بدا أنه يفقد التحكم في نفسه. سأل «باركِنز»:

- ما هذا؟

أجاب «مات»:

- قصيدة. قصيدة عن الموت.

- تبدو كجزء من فيلم «الرجل خفيف الظل».
قالها «باركِنز» ونفَّض الرماد في المزهرية مرة أخرى.

***

نظر «جيمي» إلى «بِن» وسأل:
- هل تعارفنا؟
قال «مات»:
- أجل، لكن بشكلٍ عابر. «جيمي»، طبيب دجال محلي، «بِن ميرز»، كاتب مبتذل محلي. ها قد تعارفتما.
قال «جيمي»:
- هذا هو كل ما يفلح فيه. هكذا يكسب رزقه.
تصافح الرجلان من فوق الجثة. أضاف الطبيب:
- ساعدني كي أقلبه يا سيد «ميرز».
في وجوم، ساعده «بِن» في قلب الجثة على بطنها. الجسد بارد، لكن ليس إلى درجة ملحوظة. حدَّق «جيمي» إلى ظهره، ثم أنزل سرواله الداخلي إلى أسفل.
سأل «باركِنز»:
- ولمَ هذا؟
أجاب «جيمي»:
- أحاول معرفة وقت الوفاة عن طريق مظهر الجلد. عندما يتوقف ضغط الدم، فالدم يتجلط بالأسفل بسبب الجاذبية، مثله مثل باقي سوائل الجسد كذلك.
- أها، مثل إعلان منظف البالوعات «درانو». لكن ما تفعله من اختصاص الطبيب الشرعي، أليس كذلك؟
- سيرسلون «نوربرت» وأنت تعرف ذلك، و«برينت نوربرت» لا يتقبل مساعدة أي شخص.
قال «باركِنز»:
- «نوربرت» غير قادر على إيجاد مؤخرته مستخدمًا كلتا يديه وكشاف.
طوَّح سيجارته عبر النافذة وأردف:
- «مات»، بالمناسبة... وجدت إطار هذه النافذة السلكي في أول الشارع وأنا آتٍ. يبدو أنه سقط دون أن تدري.
قال «مات» بصوتٍ يجاهد كي يسيطر عليه:
- حقًّا؟
- نعم.
أخرج «كودي» مقياس حرارة من حقيبته، وأدخله في شرج «ريرسون»، ثم وضع ساعة يده على الملاءة. كانت تشير عقاربها إلى السابعة إلا ربع.

قال «مات» بصوتٍ مخنوق:
- سأنزل.
قال «جيمي»:
- من الأفضل أن تنزلوا جميعًا، سأظل هنا مدة أطول. هلا صنعت لي قهوة يا سيد «بُرك»؟
- بالتأكيد.

نزلوا جميعًا بعد أن أغلق «بِن» الباب على المشهد. آخر ما رآه ظلَّ عالقًا بذهنه؛ الحجرة المشرقة بضوء الشمس، الملاءة المطوية النظيفة، ساعة اليد الذهبية تعكس الضوء وتلوِّن به ورق الحائط، «كودي» نفسه بشعره الأحمر المتوهج يجلس جوار الجثة كتمثال معدني.

كان «مات» يُحضِّر القهوة، حين وصل «برينتون نوربرت» -مساعد الطبيب الشرعي- في سيارته الـ «دودج» القديمة الرمادية. دخل بصحبة رجل آخر يحمل كاميرا كبيرة.

سأل «نوربرت»:
- أين هو؟
أشار «جيلسبي» بإبهامه نحو الدَّرج وقال:
- «جيم كودي» معه بالأعلى.
- لا بد أن الرجل يتقافز على قدم واحدة الآن.

صبَّ «باركِنز» القشدة في كوب قهوته، حتى سال ما فيه وأغرق الطبق تحته. دس إصبعه في الكوب ليتذوق، ثم مسحه في البنطال، وأشعل سيجارة «بول مول» أخرى وهو يقول:
- كيف تورطت في هذا يا سيد «ميرز»؟

بدأ «بِن» و«مات» استعراضهما الصغير، ولم يكن كل ما قالاه كذبًا، فقد أزالا فقط ما يورطهما في الجريمة، وما يكفي لجعل «بِن» يتساءل إن كان في أمان حقًّا أم أنه غاص في شيء أخطر، وأكثر شؤمًا. تذَكَّر كيف قال «مات» إنه اتصل به لأنه الوحيد في البلدة القادر على استيعاب قصة كهذه. أيًّا كانت نواقص عقل «مات»، فقراءة الشخصية ليست منها. هذا أيضًا زاد من توتره.

***

كل شيء انتهى بحلول التاسعة والنصف.

جاءت عربة جنازات «كارل فورمان»، وأخذت جثمان «مايك ريرسون»، والآن صارت مسؤوليته ومسؤولية البلدة. عاد «جيمي كودي» إلى مكتبه، ورجع «نوربرت» والمُصور إلى «بورتلاند» كي يلتقيا طبيب المقاطعة الشرعي.

وقف «باركِنز جيلسبي» عند عتبة المنزل لحظات، وراح يراقب سيارة الحانوتي تتهادى ببطء على الطريق، بينما السيجارة تتدلى من بين شفتيه ويقول:
- كان «مايك» يقود واحدة من عربات الحانوتي هذه طيلة الوقت. أعتقد أنه لم يتصور قط أن يركب في صندوق إحداها بهذه السرعة.
ثم التفت نحو «بِن» وسأله:

- لن تغادر البلدة في القريب، أليس كذلك؟ أريدك أن تشهد أمام هيئة مُحلّفِي الوفيات لو أن هذا يناسبك.

- بلى، لن أرحل.

حاولت عينا الشرطي الزرقاوان الباهتتان تقييم الشاب أمامه، ثم قال:

- تحريت عنك من خلال المباحث الفيدرالية وشرطة ولاية «مَين» المركزية في «أوجوستا». سُمعتك ناصعة.

قال «بِن» بهدوء:

- لطيف أن أعرف هذا.

- سمعتُ أنك تواعد ابنة «نورتون».

- هذا صحيح.

قال «باركِنز» في جدية:

- هي فتاة ممتازة.

اختفت سيارة الحانوتي، وسيارتا الطبيبين عن الأنظار الآن، حتى أصوات محركاتهم قد زالت. أردف «باركِنز»:

- لا أعتقد أنها تقابل «فلويد تِبتس» كثيرًا هذه الأيام.

قاطعه «مات» برفق:

- أليس لديك أوراق تُجهزها يا «بارك»؟

تنهَّد وألقى بعقب السيجارة بعيدًا وقال:

- بالتأكيد. الأطنان منها. هذه المهنة مثيرة للمشكلات أكثر من العاهرات، وبخاصة خلال الأسبوعين الأخيرين. يبدو أن منزل «مارستِن» هذا نَحس البلدة.

حافظ «مات» و«بِن» على تعبير وجهيهما المُحايد. هتف «باركِنز»:

- حسنًا... أراكما لاحقًا.

رفع خِصر بنطاله وسار نحو سيارته، فتح باب السائق، ثم التفت نحوهما مُردفًا:

- أنتما الاثنان لا تُخفيان شيئًا عني، أليس كذلك؟

قال «مات»:

- «باركِنز»، لا يوجد ما نُخفيه. لقد مات الشاب.

حدق إليهما للحظات بعينيه اللامعتين الزرقاوين تحت حاجبيه الحادين المعقودين، ثم تنهَّد وقال:

- مات فعلًا. لكن الأمر غريب بحق. الكلب... ابن «جليك»، ثم ابن «جليك» الآخر، والآن «مايك». يبدو أن هذا العام سيكون وبالًا على هذه البلدة البائسة الحمقاء. كانت جدتي تقول إن الأمور تميل إلى التكرار ثلاث مرات متتالية، لا أربع.

ركب السيارة وأدار المُحرك، ثم تراجع عن المدخل، وخلال دقيقة كان قد اختفى بسيارته خلف التل يتبعه صوت نفير الوداع الذي أطلقه.

تنفس «مات» الصُعداء وقال:

- لقد انتهى الأمر.

- أجل. أنا متعَب، وأنت كذلك؟

- أنا فعلًا مُتعَب، لكن... أشعر بشيء غريب. أنت تعرف كيف يصف الشباب هذا الشعور؟

- أجل.

- يقولون «أنا خارج النطاق»، حين تخرج لتوك من رحلة مخدرات، حين تشعر أن كونك طبيعيًّا هو ضرب من الجنون.

مسح وجهه بكفه وأكمل:

- إلهي! أعتقد أنني مجنون. كل ما أقوله يبدو كتخاريف.

وضع «بِن» يده على كتف «مات» وقال:

- أنت مُحق ومخطئ في نفس الوقت. «جيلسبي» على حق، وثمة شيء غريب يجري، وله صلة بمنزل «مارستِن». فيما عداي، فساكناه هما الغريبان الوحيدان في البلدة، وأنا موقن أنني لم أقترف أي شيء. هل فكرة الصعود إلى المنزل الليلة ما زالت قائمة؟

- إن كنتَ ترغب في ذلك.

- أرغب. نَم قليلًا، وسأتصل أنا بـ «سوزان» وسنمر عليك الليلة.

- حسنًا.

صمت برهة، ثم أردف:

- ثمة شيء واحد ضايقني منذ ذكرتَ التشريح.

- ما هو؟

- الضحكة التي سمعتها، أو خُيِّل لي أنني سمعتها، كانت ضحكة طفل. بمراجعة قصة «مايك»، ألا ترى الصلة بين ما حدث له و«داني جليك»؟

- أرى الصلة بالفعل.

- هل تعرف ما هي بالضبط عملية التحنيط؟

- ليس بدقة. أعتقد أنها تصفية الدم من الجثمان وضخ سائل ما مكانه. كانوا يستخدمون مادة الـ «فورمالدِهايد» ولا أعرف إن كانوا يتبعون الآن إجراءً أكثر تعقيدًا. كذلك تُنزَع أحشاء الجثة.

نظر «مات» إليه وتساءل:

- تُرى هل فعلوا كل هذا مع «داني»؟

- هل تعرف «كارل فورمان» لدرجة تُمكِّنك من سؤاله بشكل خاص؟

- أجل. أعتقد أنني سأجد طريقة لسؤاله.

- اسأله على أي حال.

- سأفعل.

تبادلا نظرة طويلة، نظرة ودود، لكن يصعب تعريفها؛ من ناحية «مات» كانت نظرة الرجل العاقل الذي أُجبِر على التفوه بأمور غير منطقية، ومن ناحية «بِن»، كانت نظرة رعب من القوى التي لا يفهمها كِفاية حتى يُفسرها.

***

حين دخل «بِن»، كانت «إيفا» تكوي وتشاهد برنامج «اتصل واربح الدولارات». كان المكسب وصل إلى خمسة وأربعين دولارًا، ومُقدم البرنامج يختار رقم هاتف من وعاء زجاجي عملاق.

قالت «إيفا» وهي تفتح الثلاجة وتُخرِج علبة كولا:

- سمعت ما حدث. رهيبٌ ما حدث للمسكين «مايك».

مد «بِن» يده داخل جيب قميصه وأخرج الصليب الفضي بسلسلته الدقيقة وقال:

- أمر مريع بالفعل.

- هل عرفوا ما...

- ليس بعد. أنا مُتعَب للغاية يا سيدة «ميلَّر». سأنام قليلًا.

- لك هذا بالطبع. الحجرة بالأعلى ستكون حارة للغاية في هذا الوقت من اليوم. نَم في الغرفة بالطابق الأول إن أردت. الملاءات نظيفة.

- لا داعي. صرير فراش حجرة الطابق العلوي مألوف لدي.

قالت وكأنما تخبره بحقيقة راسخة:

- المرء يعتاد صرير فراشه. قُل لي، فيمَ احتاج السيد «بُوك» إلى صليب «رالف» بحق الله؟

توقَّف «بِن» في طريقه إلى الطابق العلوي، ونظر إليها في حيرة.

- أعتقد أنه ظن أن «مايك ريرسون» كاثوليكي.

وضعت «إيفا» قميصًا آخر على لوح الكي وقالت:

- لا أعتقد، فـ «مايك» كان طالبًا عنده في المدرسة، والجميع يعرف أنه لوثَري.

لم يكن لدى «بِن» رد على هذا. صعد إلى حجرته، وبدَّل ملابسه وخلُدَ إلى الفراش فنام سريعًا، نومًا عميقًا بلا أحلام.

***

حين استيقظ، كانت الساعة الرابعة إلا ربع. غارقًا في العرق رَكل غطاءه. مع ذلك، شعر أنه استعاد صفاء ذهنه. أحداث هذا الصباح بدت بعيدة خافتة، وأوهام «مات بُرك» فقدت إلحاحها. كل ما عليه الليلة هو مسايرته ثم إبعاده عن تلك الأفكار إن استطاع.

***

قرر أن يتصل بـ «سوزان» من عند «سبنسر» ويطلب منها أن تقابله هناك، ثم يذهبان إلى المُتنزه فيحكي لها كل ما حدث من البداية حتى النهاية، ويسمع رأيها في طريقهما إلى منزل «مات».

في منزل المُدرس العجوز، يمكنها أن تستمع إلى الحكاية على لسانه وتُكمل حُكمها.

لكن استعادة فكرة منزل «مارستِن» دفعت بموجة من المخاوف استقرت في صدره.

كان غارقًا في أفكاره حتى إنه لم يلاحظ أن أحدًا جالس في سيارته، حتى فُتح الباب ونزل منه شخص طويل. جمَّدته المفاجأة لحظة، فما رآه عقله كان أشبه بخيال مآتة، ثم أظهر ضوء الشمس التفاصيل بحدة وقسوة. القبعة من طراز «فيدورا» القديم تُغطي أذنيه، نظارة شمسية مقوَّسة تغطي عينيه، ياقة المعطف المُتهالك مرفوعة، القفازان المطاطيان الأخضران...

أخيرًا استطاع «بِن» أن يصيح:

- مَن...؟

اقترب هذا الكيان أكثر، تتأرجح قبضتاه إذ يسير. رائحة العث المقيتة تنبعث منه، يسمع «بِن» أنفاسه الثقيلة.

قال «فلويد تِبتس» بصوت ثابت:

- أنت ابن العاهرة الذي سرق حبيبتي... سأقتلك.

بينما يحاول «بِن» استيعاب كل هذا، هجم «فلويد تِبتس».

الفصل التاسع

سوزان

وصلت «سوزان» من «بورتلاند» إلى بيتها قرابة الساعة الثالثة عصرًا، تحمل ثلاثة أكياس ورقية. كانت قد باعت لوحتين بمبلغ ثمانين دولارًا، فقررت الإسراف قليلًا واشترت تنورتين جديدتين وسُترة خفيفة.

صاحت أمها:

- «سوزان»؟ أهذا أنتِ؟

- وصلت يا أمي، اشتريت...

- تعالي هنا يا «سوزان»؛ أريد التحدث إليكِ.

ميزت نبرة الصوت فورًا، على الرغم من أنها لم تصل إلى هذه الحدة منذ كانت في المدرسة الثانوية حين كان الشجار يدور حول طول التنورات المناسب والشباب.

وضعت مشترياتها على المنضدة ودخلت إلى حجرة المعيشة. كان برود أمها تجاه «بِن ميرز» يزداد يومًا بعد يوم، وتبيَّن لـ «سوزان» أن هذه قد تكون كلمتها الأخيرة في الموضوع.

كانت أمها تجلس على الكرسي الهزاز جوار النافذة، تغزل، بينما التلفاز مُغلق، وهاتان علامتان مشؤومتان.

قالت السيدة «نورتون» وهي تغزل بسرعة وتنسج صفوف الخيط الأخضر:

- أرى أنكِ لم تسمعي آخر الأخبار، فقد غادرتِ مُبكرًا هذا الصباح.

- آخر الأخبار؟

- مات «مايك ريرسون» في منزل «مات بُرك» ليلة أمس. ومن كان هناك جوار فراش الموت إلا صديقك الكاتب «بِن ميرز»!

- «مايك»... «بِن»... ماذا؟

ابتسمت السيدة «نورتون» ابتسامة قاتمة وقالت:

- اتصلت «مَيبل» بي نحو الساعة العاشرة وأخبرتني. يدَّعي السيد «بُرك» أنه قابل مايك في خمَّارة «ديلِبِرت» ليلة أمس، ولا أعرف أي مُدرس هذا الذي يرتاد الخمَّارات، واصطحبه معه إلى منزله لأن «مايك» لم يبدُ بخير. وقد مات في الليل، ولا يعرف أحدٌ ماذا كان يفعل السيد «ميرز» هناك!

قالت «سوزان» بشرود:

- هما يعرفان بعضهما. بل إن «بِن» قال لي إنهما صديقان. ماذا حدث لـ «مايك» يا أمي؟

لكن السيدة «نورتون» لم تكُن لتُخدَع بسرعة، فقالت:

- أيًّا كان. لكنني أرى أن هناك الكثير من الإثارة في البلدة منذ أشرق علينا وجه السيد «بِن ميرز». هذا كثير.

انفجرت «سوزان»:

- هذه سخافة! والآن، ماذا حدث لـ «مايك»؟

قالت السيدة «نورتون» وهي تُدير كرة خيط الصوف لتُطيل الخيط:

- لم يقرروا بعد. البعض يظن أنه أُصيب بعدوى من ابن «جليك» المتوفَّى.

- إن كان الأمر كذلك، فلماذا لم يُصَب الآخرون؟ أهله مثلًا؟

- بعض الصغار يظنون أنهم يعرفون كل شيء.

قالتها السيدة «نورتون» عامدةً، ثم أكملت غزلها. قامت «سوزان» وهي تقول:

- سأنزل لأرى...

قاطعتها السيدة «نورتون»:

- اجلسي دقيقة؛ ما زال لدي ما أقول لك.

جلست «سوزان» مرةً أخرى بوجهٍ مُحايد. قالت السيدة «نورتون» بصوت هادئ أثار حفيظة «سوزان»:

- أحيانًا ما يجهل الصغار بعض الأمور.

- مثل ماذا يا أمي؟

- حسنًا. اتضح لنا أن السيد «ميرز» قد تسبب في حادث منذ بضعة أعوام، بعد أن نُشِر أول كتاب له. حادث دراجة بخارية، وكان مخمورًا. ماتت زوجته جراء هذا الحادث.

قامت «سوزان» وقالت:

- لا أريد سماع المزيد.

قالت السيدة «نورتون» في هدوء:

- أنا أخبرك بهذا لمصلحتك.

- مَن أخبرك؟

سألت «سوزان» وهي تشعر بغضب عارم قديم، أو برغبة في الفرار من هذا الهدوء ونبرة الصوت العالمة ببواطن الأمور، والبكاء في حجرتها. أردفت:

- «مَيبل وُرتس»، أليس كذلك؟

- لا يهم مَن أخبرني، فهي الحقيقة.

- بالطبع هي، صاحبة أروع مجموعة من المعتقدات العجيبة؛ لقد ربحنا حرب فايتنام، يسوع المسيح يقود سيارة سباق صغيرة ويجوب البلدة في الظهيرة.

- «مَيبل» رأت أن وجهه مألوف، فبحثت في صحفها القديمة...

- تقصدين الصحف الصفراء، وصحف الفضائح. تلك المليئة بمقالات عن قراءة الطالع وصور حطام السيارات ونهود الفنانات. أوه! يا لها من مصادر موثوق بها!

ضحكت «سوزان» بخشونة. قالت والدتها:

- لا داعي للبذاءة. القصة كاملة كانت هناك، وبالصور. كانت زوجته تجلس على المقعد الخلفي للدراجة البخارية، وقد خرج عن الطريق واصطدم بجانب سيارة متحركة. أجروا له اختبار نَفَسٍ فوري في موقع الحادث... في... موقع... الحادث.

كررت آخر ثلاث كلمات مؤكِّدةً وهي تطرق بطرف إبرة الغزل على مسند كرسيها الخشبي.

- إذًا لماذا لم يحبسوه؟

قالت واثقةً:

- أولئك المشاهير لديهم معارف يُخرجونهم من كل مشكلة. انظري كيف فر أبناء «كينيدي» بأفعالهم.

- هل مَثُلَ أمام القضاء حتى؟

- قلت لك، لقد...

- أنت قلتِ إنهم أجروا اختبار نفس له، فهل اتضح أنه كان مخمورًا؟

احمر خدَّا الأم وهي تهتف:

- قلتُ لك إنه كان مخمورًا! لن يجروا اختبار نَفَسٍ إن كان واعيًا! زوجته ماتت! بالضبط كما جرى في حادث «تيد كينيدي» في «تشاباكويديك»[29]. بالضبط!

قالت «سوزان» ببطء:

- سأنتقل إلى المدينة. كنتُ سأخبرك. كان يجب أن آخذ هذه الخطوة منذ زمن يا أمي. من أجلي ومن أجلك. تحدثت إلى «بابس جريفِن»، وأخبرتني بأن هناك شقة من أربع غرف في...

تحدثت الأم إلى الهواء أمامها وقالت:

- أوه، لقد غَضِبت الصغيرة... أحدهم أفسد صورتها الجميلة عن البطل «ميرز»، وها هي قد غضبت وراحت تركل وتبصق.

هذه كانت عبارات فعالة للغاية منذ بضع سنوات. تساءلت «سوزان» في يأس:

- أمي، ماذا دهاكِ؟ ليس من شيمك هذا التدني...

رفعت «آن نورتون» رأسها فجأة، وسقطت عنها إبرتا الغزل وهي تقوم وتقبض بكفيها على كتفي «سوزان» وتهزهما وهي تهتف:

- اسمعي! لن أدعك تدورين هنا وهناك مع شاب مخنث يملأ رأسك بالهراء. أتسمعينني؟!

صفعتها «سوزان». رمشت «آن نورتون» وانفتح فمها في ذهول. نظرتا إلى بعضهما في صمت وصدمة. صوت ضئيل صدر من حنجرة «سوزان»، لكنه مات على الفور.

- سأصعد إلى حجرتي. سأنتقل من المنزل يوم الثلاثاء على الأكثر.

- «فلويد تِبتس» كان هنا.

قالتها «آن» وخدها ما زال مُحمرًّا من أثر اللطمة، وأصابع ابنتها مُنطبعة عليها كعلامات تعجبٍ.

قالت «سوزان»:

- انتهت علاقتي بـ «فلويد». اعتادي هذه الحقيقة، وأخبري صديقتك «مَيبل» كل شيء عبر الهاتف، ولمَ لا؟ ربما يبدو لك ما أقول حقيقةً وقتها.

لمعت عينا «آن» وهي تتذكر:

- «فلويد» يحبك يا «سوزان». حُبك... يُدمره. لقد انهار وأخبرني بكل شيء. أفضى لي بمكنون قلبه، ثم انخرط في البكاء كطفل.

كانت «سوزان» تعلم أن هذا لا يمكن أن يكون تصرف «فلويد»، وتساءلت إن كانت أمها تختلق كل هذا، لكنها رأت في عينيها أنها تقول الحقيقة.

- هل هذا كل ما تتمنينه لي يا أمي؟ طفل باكٍ؟ أم أنكِ أحببتِ فكرة الأحفاد شُقر الشعر؟ وجودي يزعجك، ولن ترَي أن مهمتك اكتملت ما لم أتزوج برجل تستطيعين السيطرة عليه. شخص سيجعلني أحمل ويحوِّلني إلى ربة منزل ومربية سريعًا. هذا هو المُلخص، أليس كذلك؟ حسنًا، ماذا عما أريد أنا؟

- «سوزان»، أنت لا تعرفين ماذا تريدين.

قالتها كحقيقة ثابتة، مؤمنة أنها بهذا الشكل ستُقنع «سوزان». راودت الأخيرة صورة ذهنية، فيها أمها واقفة عند كرسيها الهزاز، و«سوزان» قبالتها جوار الباب، كل ما يربطهما هو خيط صوفي أخضر، خيط كاد يهترئ من كثرة الجذب. كأن الخيط بينهما خيط صنارة الصيد الذي تحاول به «آن» جذب سمكة عملاقة، لكنها لا تعرف الغرض من صيدها هذا، أهو أكل السمكة أم امتطاؤها.

- كلا يا أمي، أنا أعرف بالضبط ما أريد؛ «بِن ميرز».

استدارت وصعدت إلى حجرتها. عَدَت أمها خلفها وهي تصرخ:

- لا يمكنك أن تستأجري سكنًا مستقلًّا! أنت لا تملكين المال!

قالت «سوزان» ببرود:

- معي مائة دولار، وثلاثمائة أدخرها، ويمكنني أن أعمل عند «سبنسر». لقد عرض عليَّ السيد «لابري» وظيفة أكثر من مرة.

- كل ما سيهتم به هو التحديق إلى ما تحت فستانك.

قالتها السيدة «نورتون» وقد هدأت نبرة صوتها شيئًا. غادرها أغلب غضبها وترك خلفه الذعر.

- دعيه ينظر، سأرتدي سروالًا داخليًّا طويلًا.

صعدت «آن» درجتين وهي تقول:

- حبيبتي، لا تغضبي. كل ما أريده هو مصلحتك.

- اعفِني يا أمي. أعتذر عن صفعتي، هذا أمر فظيع. أنا بالفعل أحبك، لكنني سأرحل. عليكِ أن تقبلي هذا.

قالت السيدة «نورتون» وقد وضحَ أسفها وخوفها:

- فكري في الأمر. ما زلتُ أرى أن حديثي لم يكن تخريفًا. لقد رأيت أمثال «بِن ميرز» من الباهرين، وكل ما يهتمون به هو...

- كفى يا أمي... كفاكِ.

استدارت مُبتعدة. صعدت أمها درجة أخرى وصاحت:

- حين كان «فلويد تِبتس» هنا، كان في حالة سيئة، و...

لكن صوت انغلاق باب غرفة «سوزان» قاطع كلماتها.

رقدت على فراشها المُزيَّن بالدمى المحشوة، ودمية كلب «بودل» تحوي مذياع ترانزيستور في بطنه. تمددت تنظر إلى الحائط الذي تغطيه ملصقات نادي «سيِّرا»، ولم يكن قد مر وقت طويل منذ كست الحوائط ملصقات فرق «رولينج ستونز» و«كرين»، و«كروداديز»، وصور المشاهير أمثال «جيم موريسون» و«جون لينون» و«ديف فان رونك» و«تشاك بيري». شبح هذه الأيام يزحف نحوها كصورٍ عقلية عن أيام قاسية.

تكاد ترى عناوين الصُّحُف الرخيصة: (كاتب شاب وزوجته يتورطان فيما يبدو كـ (حادث) دراجة بخارية مميت.) والباقي تلميحات خبيثة مُصاغة بعناية، مع صورة صوَّرها أحد المحليين، وناسبت تمامًا ذائقة الجريدة، وسيدة مثل «مَيبل».

الأسوأ هو بذرة الشك التي غُرِست. يا للغباء! هل كنتِ تظنينه محفوظًا في براد قبل مجيئه؟ هل تصورتِ أنه مُغلَّف بورق السوليفان المضاد للجراثيم؟ حمقاء، لكن مع ذلك، فالبذرة غُرِست، لهذا كانت تشعر بشيء أكثر من مجرد غضبٍ مُراهِق... كانت تشعر بشيء كالكراهية.

أبعدت الأفكار عن رأسها، ووضعت ذراعها فوق عينيها وغابت في غفوة غير مريحة، قاطعها جرس الهاتف بالأسفل، ثم صوت أمها تنادي:

- «سوزان»، مكالمة لكِ.

نزلت إلى الطابق السفلي مُلاحظة أن الساعة تجاوزت الخامسة والنصف. الشمس كانت عند الغرب والسيدة «نورتون» في المطبخ تُحضِّر العشاء، ولم يعُد أبوها إلى المنزل بعد.

- مرحبًا؟

- «سوزان»؟

الصوت كان مألوفًا لكنها لم تستطِع تمييز صاحبه على الفور.

- أجل، من أنت؟

- «إيفا ميلَّر» يا «سوزان»، ولدي خبر سيئ.

- هل حدث مكروه لـ «بِن»؟!

جف ريقها تمامًا. رفعت كفها ووضعتها على حنجرتها. وقفت السيدة «نورتون» تراقبها عند باب المطبخ وهي تمسك ملعقة في يدها.

- حسنًا. كان هناك شجار. ظهر «فلويد تِبتس» عصرًا...

- «فلويد»!

أجفلت السيدة «نورتون».

- ... وقلت له إن السيد «ميرز» نائم، وكان ردُّه مهذبًا كالعادة، إلا أن ملابسه كانت غريبة للغاية. سألته إن كان بخير، فقد كان يرتدي معطفًا قديمًا وقبعة غريبة، وظلت يداه في جيبيه. لم أفكر في أن أخبر السيد «ميرز» بأنه سأل عنه، فقد كان اليوم مليئًا بـ...

كادت «سوزان» أن تصرخ وهي تقول:

- ماذا حدث لـ «بِن»؟

أجابت «إيفا» في تعاسة:

- ضربه «فلويد» في ساحة انتظار السيارات. خرج «شيلدون كورسون» و«إد كريج» فأبعداه عنه بصعوبة.

- و«بِن»؟ هل هو بخير؟

- لا أعتقد هذا.

قبضت «سوزان» على سماعة الهاتف وصاحت:

- ماذا حدث؟

- انفلت «فلويد» من الرجلين، ودفع السيد «ميرز» نحو سيارته الصغيرة العجيبة، وضرب رأسه. أخذه «كارل فورمان» إلى المستشفى في «كَمبرلاند» وقد كان فاقد الوعي. لا أعرف شيئًا آخر. إن كنتِ...

أغلقت «سوزان» سماعة الهاتف، وهرعت إلى الخزانة تأخذ منها معطفًا.

- «سوزان»، ما الأمر؟

قالت «سوزان» وهي لا تدرك أنها بدأت تبكي:

- الفتى اللطيف «فلويد تِبتس»، ضرب «بِن» وهو الآن في المستشفى.

وخرجت «سوزان» دون أن تنتظر ردًّا.

***

وصلت إلى المستشفى في السادسة والنصف، جلست على مقعد بلاستيكي غير مريح، تُحدق بلا وعي إلى نسخة مجلة «التدبير المنزلي». كانت وحدها وكان هذا مُريعًا. فكرت في أن تتصل بـ «مات بُرك»، لكن منعتها خشيتها من أن يعود الطبيب فلا يجدها.

احتشدت الدقائق في ساعة حجرة الانتظار، وصارت الساعة السابعة إلا عشر دقائق، حين خرج طبيب من الحجرة يحمل أوراقًا.

- الآنسة «نورتون»؟

- هذه أنا. هل «بِن» بخير؟

- لا يسعنا الإجابة عن هذا السؤال الآن.

لاحظ الذعر على وجهها، فأردف:

- يبدو أنه سيكون بخير، لكننا نريده أن يبقى هنا يومين أو ثلاثة. أُصيب بشرخ بسيط في الجمجمة، وبعض الرضوض والكدمات، منها واحدة عند عينه.

- هل يمكن أن أراه؟

- كلا، ليس الليلة، فقد حقناه بمهدئ.

- أريد أن أراه ولو لدقيقة. فقط دقيقة.

زَفَر ثم قال:

- يمكنك أن تُلقي نظرة، فهو غالبًا نائم. لا أريدكِ أن تحدثيه ما لم يبدأ هو الحديث.

اصطحبها إلى الطابق الثالث، ثم إلى حجرة في نهاية ممر طويل يعبق برائحة المطهرات. الرجل في الفراش الآخر في الحجرة يقرأ مجلة، وينظر إليهما بشكلٍ عابر.

كان «بِن» راقدًا مغمض العينين، مغطى بملاءة حتى ذقنه. شاحبًا للغاية حتى ظنت «سوزان» لوهلة أنه قد مات بينما هي والطبيب يتحدثان بالأسفل. ثم لاحظت ارتفاع صدره وانخفاضه وهو يتنفس، فغشيتها الراحة العظمى حتى إنها تمايلت وهي واقفة. نظرت إلى وجهه وكيف غطته الكدمات. شاب مُخنث، هكذا كانت تراه أمها والآن تعرف من أين جاءها هذا الانطباع. كانت ملامحه قوية لكنها حساسة (ودَّت لو تجد لفظة أخرى غير (حساسة) هذه، فهي تليق بأمين مكتبة يكتب الشعر المُرهف في وقت فراغه، لكنها كانت الكلمة الوحيدة المناسِبة) فقط شعره بدا رجوليًّا تقليديًّا، كثيفًا داكنًا كأنما يطفو فوق وجهه، ومن تحته الضمادة عند الصِّدغ الأيسر.

قالت في نفسها: أحب هذا الرجل. لتُشفَ سريعًا يا «بِن»، وانتهِ من كتابك حتى نرحل من هذه البلدة معًا. لقد آذتنا البلدة كثيرًا.

قال الطبيب:

- من الأفضل أن ترحلي الآن، ربما غدًا...

تململ «بِن» وأصدر صوتًا حلقيًّا غليظًا، وبدأ يفتح عينيه ببطء، ثم يغمضهما، ثم يفتحهما مرة أخرى. كانت عيناه غائمتين بفعل المُهدئ، لكن بدا أنه قد تعرف عليها. وضع يده فوق يدها، فانسكبت الدموع من عينيها. ابتسمت وقبضت على يده.

بدأ يُحرِّك شفتيه، فمالت كي تسمع جيدًا.

- هناك قتلة حقيقيون في البلدة، أليس كذلك؟

- «بِن»، أنا آسفة...

همس «بِن»:

- أظنني كسرت له سِنَّين قبل أن يتملَّك مني. ليس أداءً سيئًا بالنسبة إلى كاتب.

- «بِن»...

قاطعهما الطبيب:

- أظن هذا يكفي. عليه أن يرتاح كي يلتئم الشرخ.

حرَّك «بِن» عينيه نحو الطبيب وهمس:

- دقيقة واحدة.

رفع الطبيب عينيه إلى أعلى وقال:

- هذا ما قالته هي.

انغلقت عينا «بِن» مرة أخرى، ففتحهما بصعوبة وقال شيئًا غير واضح. مالت «سوزان» عليه أكثر وسألته:

- ماذا تقول يا حبيبي؟

- هل حلَّ الظلام بعد؟

- أجل.

- أريد أن تذهبي لتري...

- «مات»؟

أومأ وهمس:

- أخبريه... أنني أريدك أن تعرفي كل شيء. اسأليه إن... إن كان يعرف الأب «كالاهان». سيفهم.

- حسنًا. سأوصل له الرسالة، نم الآن يا «بِن».

- حسنًا. أحبك.

غمغم بشيء آخر مرتين، ثم أغلق عينيه، وصار تنفسه أعمق.

سأل الطبيب:

- ماذا قال؟

عقدت «سوزان» حاجبيها وهي تُجيب:

- كأنه قال: احكمي غلق النوافذ.

***

كانت «إيفا ميلَّر» و«ويزل كريج» في حجرة الانتظار حين عادت «سوزان» لتأخذ معطفها. «إيفا» ترتدي معطفًا خريفيًّا قديمًا ذا ياقة من الفراء المتهالك، غالبًا تدخر هذا المعطف للمناسبات، أما «ويزل» فكان يطفو داخل سُترة جلدية واسعة. مرآهما أشعر «سوزان» بالدفء.

سألت «إيفا»:

- هل هو بخير؟

كررت «سوزان» تشخيص الطبيب:

- سيكون بخير على ما أظن.

ارتاح وجه «إيفا»، وقالت:

- أنا سعيدة لهذا. إن السيد «ميرز» رجل لطيف للغاية. لم يحدث شيء كهذا في بيتي قط. اضطر «باركِنز جيلسبي» إلى حبس «فلويد» في زنزانة السكارى. كان نوعًا ما... مُخدَّرًا حائرًا.

هزت «سوزان» رأسها وقالت:

- لا أصدق أن «فلويد» قد يفعل شيئًا كهذا.

ثم سادت لحظات من صمتٍ غير مريح قبل أن يقول «ويزل» وهو يُربِّت على كف «سوزان»:

- «بِن» رفيق رائع. سيقوم من وعكته سريعًا. انتظري وسترين.

ضغطت «سوزان» كفيه بين كفيها وهي تقول:

- أنا واثقة أنه سيكون بخير. «إيفا»، أليس الأب «كالاهان» كاهن كنيسة القديس «آندرو»؟

- أجل، لماذا تسألين؟

- أوه، مجرد فضول. المهم، أشكر حضوركما للغاية. إن استطعتما العودة غدًا...

قال «ويزل»:

- سنعود غدًا. بالتأكيد سنعود، أليس كذلك يا «إيفا»؟

لفَّ ذراعه حول خصرها، وكان طريق ذراعه طويلًا لكنه وصل على أي حال.

- بالطبع سنعود.

خرجت «سوزان» معهما إلى ساحة انتظار السيارات، ثم عادت إلى بلدة «أورسالم».

***

لم يُجِب «مات» على طرقاتها، أو يصيح: ادخل! كعادته. لكنه قال بصوت حذر للغاية حتى إنها تعرَّفته بصعوبة:

- مَن؟

قالها همسًا من الجهة الأخرى من الباب.

- «سوزي نورتون» يا سيد «بُرك».

فتح الباب، فصُدِمت من التغيير الطارئ عليه، فقد بدا عجوزًا مُتهالكًا، ثم بعد لحظة أدركت أنه يرتدي حول عنقه صليبًا ذهبيًّا ثقيلًا. ثمة شيء غريب في الجسد المنقوش على الصليب ذي الخامة الرديئة، والمُدلى على قميصه، حتى إنها كادت تضحك، لكنها لم تفعل.

- ادخلي. أين «بِن»؟

أخبرته، فسادت قسماته تعابير الأسى، وقال:

- إذًا، فـ «فلويد تِبتس» من بين كل الناس قرر أن يلعب دور العاشق المغدور؟ لا يمكن أن يحدث هذا إلا في وقت نحس مثل هذه الأيام. لقد أعادوا جثمان «مايك ريرسون» من «بورتلاند» بعد الظهيرة كي يُدفَن. أظن أن رحلتنا إلى منزل «مارستِن» قد تؤجَّل...

- أي رحلة؟ وماذا عن «مايك»؟

سألها في شرود:

- هل ترغبين في بعض القهوة؟

- أريد أن أعرف ماذا يحدث. قال لي «بِن» إنك تعرف.

- هذه حكاية طويلة. من السهل أن يقول لك «بِن» إنني سأخبرك بكل شيء، لكن الفعل صعب. لكنني سأحاول.

- ماذا...

رفع يده مقاطعًا وقال:

- هناك شيء أريد سؤالكِ عنه أولًا؛ أنتِ ووالدتكِ زرتما متجر الأثاث الجديد؟

عقدت «سوزان» حاجبيها وقالت:

- بالتأكيد. لمَ السؤال؟

- هلا أخبرتِني بانطباعك عن المكان، وبشكل أدق، عن الرجل الذي يديره؟

- السيد «ستراكر»؟

- أجل.

- هو ساحر، مجامل إن أردت الدقة. مدح فستان «جلينس مايبري»، فاحمرَّ خداها كفتاة صغيرة. سأل السيدة «بودِن» عن الضمادة على ذراعها... كان قد انسكب دهن حار عليها، أنت تعرف هذه الأمور، فأخبرها بوصفة كمَّادة، بل وكتبها لها. حين جاءت «مَيبل»...

ضحكت حين استرجعت ما حدث، فسألها «مات»:

- ماذا حدث؟

- جلب لها مقعدًا... ليس مقعدًا، بل **مقعدًا!** شيء كالعرش منحوت من خشب الماهوجني. حمله من حجرةٍ خلفية وحده، بينما يتحدث ويمازح السيدات الأخريات. لا بد وأن هذا المقعد يزِن ثلاثمائة رطل على الأقل. وضعه في منتصف القاعة وقاد «مَيبل» إليه، وكانت تقهقه! لو أنك رأيت «مَيبل» تقهقه فقد رأيت كل شيء في العالم. قدَّم لنا القهوة، وكانت قوية للغاية وممتازة.

سألها «مات» وهو يراقب تعبيرات وجهها:

- هل راقَ لكُن؟

أجابت عن سؤاله بسؤال:

- كل هذا جزء من شيء أكبر، أليس كذلك؟

- قد يكون كذلك.

- حسنًا. سأخبرك بانطباع نسائي. كنت منجذبة إليه جنسيًّا بقدر بسيط؛ رجل كبير، غريب، ساحر، مُجامِل. أتعرف؟ هو من النوع الذي ينظر إلى قائمة طعام في مطعم فرنسي، فيعرف أي نوع خمر يليق بأي طعام، ويعرف سنة الصنع وحتى الكرمة التي زُرِع فيها. ببساطة، لا يبدو كأي شخص قد تلقاه هنا، ومع ذلك لا يبدو مخنثًا أو مُتأنّثًا. بالإضافة إلى سحر الرجال صُلع الرؤوس.

ابتسمت في دفاع عن النفس عالمة أن خديها قد احمرَّا، وتساءلت إن كانت قد باحت بأكثر مما انتوت البوح به.

- ثم زال هذا الإعجاب.

هزت كتفيها وهي تقول:

- من الصعب أن أضع يدي على إحساسي. أظنني... أظنني شعرت باحتقار ما تحت السطح... سخرية، كأنه يلعب دورًا ما وقد برع فيه، لكنه كان يعلم أن عليه ألا يفعل كل هذا كي يخدعنا. نوع من الهبوط في الأداء.

نظرت إليه غير مُتأكدة مما تريد قوله، ثم أردفت:

- ثم أنني شعرت أن هناك شيئًا قاسيًا فيه، لا أعرف لماذا حقًّا.

- هل اشترت إحداكن شيئًا؟

- ليست أشياء كثيرة، ولم يكن يُبالي. اشترت أمي رفًّا صغيرًا لعرض التماثيل مستوردًا من «يوجوسلافيا»، والسيدة «بِتري» اشترت منضدة جميلة. كان هذا كل ما علمت به. لم يكن يهتم للبيع، فقط طلب منا أن نخبر أصدقاءنا أن المتجر مفتوح، وأن نعود مرةً أخرى فلسنا غرباء. سحر العالم القديم هذا.

- وهل تظني أن الناس قد تأثرت بهذا السحر؟

- بالتأكيد.

قالتها «سوزان» وهي تقارن حماس والدتها لـ «ستراكر»، وبُغضها الفوري لـ «بِن».
- لم تقابلي شريكه؟
- السيد... «بارلو»؟ كلا، فهو في رحلة عمل في نيويورك.
تساءل «مات» كأنما يتحدث إلى نفسه:
- حقًّا؟ يا له من مراوغ!
- سيد «بُرك»، أعتقد أن عليك أن تخبرني ماذا يحدث بالضبط.
زفر بقوة وقال:
- يجب أن أحاول. ما قلتِه لي الآن مُقلق... مُقلق للغاية. كل شيء يلائم...
- ماذا؟ ماذا يلائم؟
- سأحكي لك. قابلت «مايك ريرسون» في حانة «ديل» الليلة الماضية، وبدا هذا كأنه منذ قرن...

***

انتهى من حكايته في الثامنة والثُّلث، وكان قد شرب كل واحد منهما كوبين من القهوة.
- أعتقد أن هذا هو كل ما حدث. هل فهمتِ ما أرمي إليه؟
- لا تكن سخيفًا. ثمة شيء يجري، لكن ليس كما تظن. عليك أن تعرف هذا.
- كنت أظنني سخيفًا، حتى ليلة أمس.
- لو لم تكن دعابة وانطلت عليك، فربما فعلها «مايك» وهو يهذي بالحمى.
كان تفسيرها واهيًا، لكنها أكملت:
- أو ربما نمت وحلمت بكل شيء. في مرة نمتُ لثلث ساعة دون أن أدري.
هز كتفيه في تعب وقال:
- كيف يدافع المرء عن شهادة لا يقبلها عقل؟ سمعت ما سمعت، ولم أكن نائمًا... شيء أقلقني بشدة. بحسب الأدب القديم، فمصاص الدماء لا يمكن أن يجول في منزل أحدهم ويمتص دمه. عليه أن يُدعى للدخول، لكن «مايك ريرسون» دعا «داني جليك» ليلة أمس، وأنا دعوت «مايك» نفسه!
- «مات»، هل أخبرك «بِن» عن موضوع كتابه الجديد؟
راح يعبث بالغليون، لكنه لم يُشعله. أجاب:
- أخبرني بالقليل، قال لي إن له صلة ما بمنزل «مارستِن».
- هل أخبرك بصدمة طفولة مر بها في منزل «مارستِن»؟
نظر إليها بحدة وهتف:
- في المنزل؟ كلا!
- دخله في لعبة تحدٍّ مع أصدقائه، كان عليه أن يدخل المنزل ويحضر أي شيء من الداخل. فعلها، لكن قبل أن يخرج صعد للطابق العلوي واتجه إلى الغرفة التي شنق فيها «هَبي مارستِن» نفسه، ورآه فيها مُعلَّقًا من السقف، ثم فتح عينيه. هرب «بِن»، لكن ما رآه ظل يطارده لأربعة وعشرين عامًا. عاد الآن إلى البلدة كي يكتب عن المنزل ويُخرِجه من عقله الباطن إلى الأبد.

غمغم «مات»:
- أيا يسوع!
- لديه... نظرية معينة عن منزل «مارستِن»، مبنية على ما حدث له فيه، وعلى البحث الذي أجراه عنه وعن «هبرت مارستِن»...
- أكان متورطًا في عبادة الشيطان؟
سألته مُتفاجئة:
- وكيف عرفت هذا؟
ابتسم في شرود وقال:
- ليست كل الشائعات في البلدات الصغيرة مُتداوَلة. ثمة أسرار، وبعض من الشائعات السرية في بلدة «سالم» تدور حول منزل «هَبي مارستِن». القصة يعرفها عدد يقل عن دستة من الأشخاص كلهم من العجائز الآن... «مَيبل وُرتس» من بينهم. لقد مر وقت طويل للغاية يا «سوزان»، لكن بعض القصص لا تنتهي بمرور الوقت. أتعرفين؟ الأمر غريب. حتى إن «مَيبل» لا تتحدث عن «هبرت مارستِن» إلا مع دائرة أصدقائها المُقرَّبين. يتكلمون بالطبع عن موته، وعن جريمة القتل، لكن إن سألتِ عن الأعوام العشرة التي قضاها وزوجته في المنزل أعلى التل، وما كانا يفعلانه هناك، فستجدين الصمت... صمت أقرب إلى «التابو» كما تعرفه حضارتنا الغربية. ثمة شائعات أن «هَبي مارستِن» قد خطف أطفالًا وقدمهم كقرابين إلى آلهته. أعتقد أن «بِن» قد توصَّل لهذا. لقد خلُصَت شائعات الناس إلى أن «مارستِن» وزوجته وبيته كيان واحد.
- «بِن» لم يصادف ذلك التفسير في البلدة.
- أشُك أن لهذه النظرية جذرًا بارسيكولوجيًّا قديمًا، حيث يظنون أن البشر يفرزون الشر مثلما يفرزون المخاط والفضلات. هذه إفرازات لا تنتهي، وبهذا فيمكن عَدُّ منزل «مارستِن» نوعًا من البطاريات الجافة، أو مخزنًا للشر.
نظرت إليه في دهشة وقالت:
- هو بالفعل عبَّر عن الأمر بنفس كلماتك.
أطلق ضحكة جافة وقال:
- لقد قرأنا نفس الكتب. والآن، ما استنتاجك يا «سوزان»؟ هل في فلسفتك ما هو أكثر من الفردوس والجحيم؟
قالت بحزم:
- كلا. لكن المنازل هي مجرد منازل، والشر يموت بنهاية الأفعال الشريرة.
- أنت ترين أن عدم استقرار «بِن» النفسي يُمكِّنه من دفعي إلى طريق الجنون الذي أنا في منتصفه بالفعل؟
- بالطبع لا أقصد هذا، فأنا لا أراك مجنونًا، لكن يا سيد «بُرك»، عليكَ أن تستوعب...
- صمتًا!
دفع رأسه إلى الأمام، فتوقفت عن الحديث وأنصتت. لا شيء، فيما عدا صوت لوح أرضية يتحرك. نظرت إليه مُتسائلة، فهزَّ رأسه وقال:

- ماذا كنت تقولين؟

- كنت أقول إن الصدفة هي ما جعلت كل هذا يحدث في نفس الوقت الذي قرر فيه مواجهة مخاوف الماضي وشياطينه. ثمة كلام رخيص يدور في البلدة منذ سكن الغريبان منزل «مارستِن»، وافتتحا المتجر، بل إن هناك حديثًا يدور حول «بِن» نفسه. معروف أن طقوس طرد الشياطين تنقلب على طارد الشياطين أحيانًا. يجب أن يخرج «بِن» من هذه البلدة، وربما تفيدك إجازة في مكان بعيد يا سيد «بُرك».

ذكَّرها طقس طرد الشياطين بطلب «بِن» أن تسال «مات» عن الأب «كالاهان»، ودون تفكير قررت ألا تسأله. السبب الذي طلب «بِن» هذا من أجله صار واضحًا، وما سيفعل سؤالها هو إضافة الوقود إلى نارٍ مُشتعلة خطرة من وجهة نظرها. إن سألها «بِن»، ستقول له إنها نسيت.

قال «مات»:

- أعرف أن ما سأقوله سيبدو جنونًا حتى بالنسبة إليَّ، وقد سمعت النافذة تُفتَح، وسمعت ضحكة الطفل، ورأيت سلك النافذة الذي سقط في الشارع. لكن أريد أن أخبرك أن رد فعل «بِن» تجاه كل هذا كان عقلانيًّا جدًّا. اقترح أن نصيغ ما حدث في شكل نظرية نُثبتها أو ننفيها، وقد بدأ بـ...

ثم أمال رأسه وأنصت. هذه المرة طال الصمت، وحين تحدث، أخافتها نبرة اليقين في صوته.

- ثمة شخص بالأعلى.

أنصتت، لكنها لم تسمع شيئًا.

- أنت تتخيل.

قال بصوت خافت:

- أنا أعرف منزلي، ثمة شخص في حجرة الضيوف... هاك، أتسمعين؟

في هذه المرة سمعت صوت صرير خشب الأرضية، لكنه صرير تُصدِره كل أرضيات المنازل القديمة ولا يعني أي شيء على الإطلاق، إلا أنها سمعت شيئًا إضافيًّا، شيئًا خبيثًا في هذا الصوت.

قال «مات»:

- سأصعد لأتبين الأمر.

- كلا!

خرجت منها الكلمة دون تفكير. قالت لنفسها: والآن من الجالس عند ركن المدفأة، ويؤمن أن صوت الريح ما هو إلا صوت كائن مرعب؟

- كنتُ خائفًا ليلة أمس ولم أفعل شيئًا، فتدهورت الأمور. الآن سأصعد.

- سيد «بُرك»...

بدأ الاثنان يتحدثان بصوت خافت، وقد سرى التوتر في عروقهما وصلَّب عضلاتهما. ربما كان هناك شخص بالأعلى، مُتسكِّع.

قال لها «مات» همسًا:

- استمري في الحديث بعد أن أصعد، تحدثي في أي شيء.

وقبل أن تُجادله، قام من كرسيه واتجه نحو الصالة بخفة مذهلة. نظر خلفه مرةً، لكنها لم تستطع قراءة نظرته، ثم أكمل طريقه صعودًا على الدرج.

دار عقلها بكل هذه الغرابة التي تغيرت بها مُجريات الأحداث وتفسيراتها. منذ دقيقتين كانا يتناقشان بهدوء تحت ضوء المصابيح الكهربية المُتعقِّل، والآن هي خائفة. سؤال: لو أنك تركت مختصًّا نفسيًّا مع رجل يظن نفسه نابليون في غرفة واحدة لمدة عام، أو اثنين أو عشرين، فهل نحصل على مجنونين أم عاقلَين؟ الإجابة: لا توجد معلومات كافية.

فتحت فمها لتقول:

- كنت و«بِن» لنذهب لرؤية البلدة التي صوروا فيها فيلم (منزل بيتون)، لكنني الآن أظننا سننتظر. هناك أجمل كنيسة يمكن أن...

وجدت نفسها ترتجل بسهولة على الرغم من أن يديها كانتا مضمومتين بشدة حتى ظهر بياض مفاصلهما. كان ذهنها صافيًا لم يتأثر بعد بكل هذا الحديث عن مصاصي الدماء واللاموتى. لكن الذعر كله كان منبعثًا في موجات من عمودها الفقري، من تلك الشبكة العتيقة من الأعصاب والعقدات العصبية.

***

الصعود إلى الطابق العلوي كان أصعب شيء فعله «مات بُرك» في حياته. لم يقترب شيء من هذه المكانة إلا حدث واحد.

حين كان في الثامنة، كان ضمن فريق أشبال الكشافة. كان مخيمهم على بعد ميل من الطريق، والذهاب إليه كان ممتعًا لأنك تسير في شمس ما بعد الظهيرة، لكن العودة إلى المنزل تكون عند الشفق الذي يُحرر الظلال لتتمدد عبر الطُّرقات في أشكال طويلة ملتوية. أما إن كان اللقاء في المخيم قد امتد لوقتٍ متأخر، فعليك أن تعود في الظلام، وحدك.

وحدك... أجل، هذه هي الكلمة المفتاحية، أفظع كلمة في اللغة. كلمة مثل «القتل» لا تضاهيها، وما «الجحيم» إلا مجرد مُرادف ضعيف لها...

كانت هناك كنيسة مهجورة في الطريق، مكان اجتماع لأتباع الكنيسة المنهجية، وكانت هناك مسربلة بالظلام خلف ساحة معشوشبة خَرِبة. وحين تمر من أمام نوافذها المُحدقة الفارغة، يصدح صوت خطواتك في أُذنيك عاليًا، ويموت اللحن الذي كنت تُصفِّره على شفتيك، وتفكر كيف هو المكان بالداخل... المقاعد المقلوبة، كتب التراتيل المُتعفنة، المذبح المتهدِّم الذي تحيي فيه الفئران طقوس السبت، وتتساءل، تُرى من بالداخل سوى الفئران؟ أيُّ مُختلين، أي وحوش؟ ربما يحدقون إليك الآن بأعين الزواحف الصفراء، وربما في ليلة لن يعود التحديق إليكَ كافيًا. ستنفتح الأبواب المتهالكة وما رأيته يختبئ هناك، سيدفعك للجنون.

لم تستطع أن تشرح كل هذا لوالدك ووالدتك، كما فشلت في أن تشرح لهما عندما كنت في الثالثة كيف تحول الغطاء الاحتياطي عند طرف سريرك إلى كومة من الثعابين ظلت تنظر إليك بعينين بلا أجفان. لم يقهر أي طفل تلك المخاوف، ولا سبيل لقهرها إن لم تكن قابلة للصياغة اللفظية أولًا.

والمخاوف المحبوسة في العقول الصغيرة أكبر بكثير من أن تعبر خلال الأفواه. عاجلًا أو آجلًا، ستظن أنك مررت بكل الكنائس المهجورة ما بين الطفولة الباسمة والشيخوخة النخرة. حتى الليلة...

حتى الليلة حين تكتشف أنك لم تتجاوز أيًّا من مخاوفك القديمة، بل دفنتها في توابيت صغيرة ووضعت فوقها الأزهار.

لم يُضئ النور، ظل يعتلي الدرجات الواحدة تلو الأخرى وهو يتحاشى الدرجة السادسة التي تُصِر. تمسَّك بالصليب بيده الزلقة الغارقة في العرق.

وصل إلى نهاية الدرج، ثم استدار ببطء ينظر إلى الصالة. كان باب حجرة الضيوف مواربًا وقد أغلقه من قبل. من الأسفل استمر صوت «سوزان» وهي تحدِّث نفسها.

مد يده ودفع الباب.

«مايك ريرسون» راقدًا على الفراش.

ضوء القمر الفضي يفيض من النافذة ويحوِّل الحجرة إلى بحيرة من أحلام. هزَّ «مات» رأسه كأنما ليُصفِّي عقله. شعر كأنما عاد بالزمن إلى الوراء، وأنه في الليلة السابقة، وعليه أن ينزل ليتصل بـ «بِن» لأن «بِن» لم يكن في المستشفى يومها.

فتح «مايك» عينيه.

لمعتا في ضوء القمر للحظات، فصارت فضية مُحاطة بالأحمر. كانتا بيضاويتين كسبورة تالفة، ولم يكن بها أي أفكارٍ أو مشاعر بشرية.

العينان نافذتان على الروح.

إن كان الأمر كذلك، فهاتان النافذتان تُطلان على حجرة خالية.

قام «مايك» جالسًا، فانحسرت الملاءة عن صدره، وكشفت الغُرز التي خاطها الطبيب الشرعي في لحمِه بعد تشريحه، توطئة لدفنه. غالبًا من خاطها كان يُصفر وهو يقوم بمهمته.

ابتسم «مايك»، وكانت أسنانه وأنيابه بيضاء حادة. كانت ابتسامته مجرد التواء للعضلات حول الفم، ولم تمس عينيه التي ظلتا خاويتين.

قال «مايك» بوضوح شديد: انظر إليَّ!

فنظر «مات». كانت عيناه خاويتين تمامًا، لكن عميقتين للغاية، يمكنك أن ترى نفسك تغوص فيهما وتغرق، وتشعر بتفاهة العالم وسطحية مخاوفك...

تراجع خلفًا وهو يصيح:

- لا! لا!

ورفع الصليب أمامه. أيًّا من كان على هيئة «مايك ريرسون»، فقد أطلق فحيحًا كأنما انسكب عليه ماء مغلي، وقد غطى وجهه بذراعيه كأنما يتقي انفجارًا. خطا «مات» خُطوة إلى الداخل، فزحف «مايك» مثلها إلى الوراء.

صاح «مات»:

- اخرج من هنا... أنا أسحب دعوتي لك!

صاح «مايك»، صيحة عالية كارهة مُتألمة. ترنح إلى الخلف أربع خطوات حتى ارتطمت خلفيتا رُكبتيه بحاجز النافذة، فاختل توازنه وترنح وهو يقول:

- سأراك تنام كالموتى أيها المدرس.

ثم قفز إلى الخارج في الظلام، ويداه فوق رأسه كغطّاس يقفز إلى الماء من علٍ. جسده الشاحب يلمع كالرخام في تضاد لوني واضح مع الخيط الذي خيطوا به جسده وضموا به ضفتي صدره.

صرخ «مات» صرخة رعب، وعدا نحو النافذة ينظر خلالها، ولم يكن ما يُرى سوى الظلام وضوء القمر المُعلَّق في الهواء تحت النافذة تسبح فيه جزيئات قد تكون غبارًا.

التفت ليجري، وهنا باغته ألم شديد. أمسك صدره، لكن الألم ظل يغشاه كالموج ويغطي ذراعه، بينما الصليب يتأرجح أمامه متدليًا من رقبته.

سار عبر الحجرة ممسكًا ذراعه ضامًّا إياه إلى صدره، وصورة «مايك ريرسون» معلقًا في الهواء كغطاس تتراقص أمامه.

- سيد «بُرك»!

قال «مات» من بين شفتيه الباردتين كالثلج:

- اسم طبيبي «جيمي كودي»، رقمه في مفكرة الهاتف. أعتقد أنني أمر بأزمة قلبية.

ثم تهاوى على الأرض.

***

طلبت الرقم المجاور لعبارة (جيمي كودي- طبيب). أجابها صوت نسائي، فقالت «سوزان»:

- هل الطبيب بالمنزل؟ حالة طوارئ.

قالت المرأة بهدوء:

- أجل، هو هنا.

- دكتور «كودي» معكِ.

- أنا «سوزان نورتون»، وأنا في منزل السيد «بُرك». لقد أُصيب بأزمة قلبية.

- مَن؟ «مات بُرك»؟

- أجل. هو فاقد الوعي الآن، ماذا...

- اطلبي الإسعاف في «كمبرلاند»، رقمها: 841-4000. ظَلي معه وغطِّه بغطاء لكن لا تُحركيه. أتفهمين؟

- أجل.

- سأكون عندك خلال عشرين دقيقة.

- هل...

لكن الخط أُغلِق، وصارت وحدها.

اتصلت بالإسعاف، ثم صارت وحدها مرةً أخرى، تواجه ضرورة أن تصعد إلى الرجل فاقد الوعي في الطابق الثاني.

***

حدقت إلى بئر السلم بذعرٍ أذهلها. وجدت نفسها تتمنى ألا يكون ما يحدث قد حدث من الأساس، ليس من أجل ما حدث لـ «مات»، بل لأجل ألا تشعر بهذا الشعور المقيت مرة أخرى؛ الخوف المُزلزِل لقناعاتها. لقد سمعت ما قاله «مات» عن ليلة أمس، وقد كانت حكايته خاضعة لقواعد تحليل الحقيقة المقبولة عندها، لا أكثر ولا أقل.

الآن، شكُّها القوي فيما قال تزعزع من تحتها، وشعرت بنفسها تهوي.

لقد سمعت صوت «مات»، وصوتًا غريبًا يقول: سأراك نائمًا كالموتى أيها المُدرس. الصوت الذي قالها ليس فيه أي مسحة إنسانية أكثر مما في نباح كلب.

صعدت إلى الطابق الثاني، تُجبِر جسدها على الحركة مع كل خطوة، وحتى ضوء الصالة لم يساعدها. كان «مات» راقدًا حيث تركته، وخده الأيمن منضغط على بساط الممر الطويل، يتنفس بصعوبة وحِدَّة. انحنت تفُك أول زِرين من قميصه، فارتاح تنفسه بعض الشيء، ثم ذهبت إلى حجرة الضيوف لتجلب غطاءً.

كانت الحجرة باردة، والنافذة مفتوحة، والسرير عاريًا إلا من غطاء الحشية، لكنها وجدت غطاءين مطويين في الرف العلوي للخزانة. حين استدارت عائدة للصالة، لفت نظرها شيء يلمع في ضوء القمر تحت النافذة. وقفت والتقطته، فتعرَّفته على الفور. كان خاتم مدرسة «كمبرلاند»، محفور بداخله ثلاثة أحرف: م. ك. ر.

«مايكل كوري ريرسون».

للحظة وهي تقف في الظلام، صدَّقت. صدَّقت كل شيء، وكتمت صرخة في حلقها، إلا أن الخاتم سقط من بين أصابعها واستقر تحت النافذة، يلمع في ضوء القمر الذي يضيء حُلكة الخريف.

حادث سيارة في جزيرة تشاباكويديك، تسبب فيه تيد كينيدي بإهماله في مقتل ماري كوبيشين، ولم يُعاقب بأكثر من إيقاف رخصة سيارته لمدة عامٍ ونصف.

الفصل العاشر

البلدة

تعرف البلدة الكثير عن الظلام.

تعرف عن الظلام الذي يحل على الأرض حين تغيب الشمس بفعل دوران الكوكب، وتعرف عن ظلام النفس البشرية.

تتألف البلدة من ثلاثة أجزاء، لكن مساحتها الكلية أكبر من مساحة الثلاثة أجزاء مُجتمعة. البلدة هي الناس الذين يعيشون فيها، والمباني التي شيدوها ليهجعوا إليها أو يعملوا فيها، وهي أيضًا الأرض. ناسها من أصول إنجليزية إسكتلندية أو فرنسية. فيها جنسيات أخرى، لكنهم كذرات فلفل مطحون منثور فوق وعاء ملح، لكن محتويات هذا الوعاء لم تُمزَج كليةً قط.

أغلب المباني من الخشب، والكثير من المباني القديمة كانت على هيئة ما يسمونه (صناديق المِلح) ذات طابقين أماميين وطابق واحد خلفي، وأكثرها واجهته الكبيرة ليس وراءها أي مبنى، لكن لا أحد يملك سببًا لبناء واجهة كهذه.

الناس تعرف أنه لا شيء خلف هذه الواجهات، كما يعرفون بالضبط أن «لوريتا ستارشر» ترتدي الجواهر الزائفة.

أرض البلدة ذات قاعدة جرانيتية، مُغطاة بطبقة رقيقة من التربة، وزراعتها عملية متعِبة بائسة غير مُجدية، تكسر أي آلة لتقليب التربة قد تعمل بها، وتُخرج كُتلًا من الجرانيت. في مايو تأخذ شاحنتك بمجرد أن تجف التربة وتتحمل وزنها، وتملؤها وأبناؤك بكُتل الأحجار ثم تُلقيها إلى الحفرة الكبيرة التي يُلقى إليها كل شيء منذ عام 1955، منذ قررت أن تعاند هذه الأرض، منذ قررت العمل فيها حتى يملأ التراب ما تحت أظفارك حتى تعجز عن إزالته إلا بالفرك الذي يُدمي أصابعك ويُجفف جلدك. تكسر وعورتها محراثك المرة تلو الأخرى. يساعدك ابنك في تغيير سلاح المحراث، بينما أول بعوضات الصيف تئز جوار أذنك بذلك الأزيز الذي يُدمِع الأعين، والذي تؤمن أنه آخر صوت يسمعه المجانين قبل أن يقتلوا أطفالهم أو يضغطوا دواسة الوقود في السيارة ويغلقوا أعينهم، أو يدسوا فوهة المُسدس في أفواههم.

العرق يجعل كل أداة تمسكها زلقة، كل شيء ينزلق، ينزلق الطرف الحاد للمِسلفة من بين يدي ابنك فيجرح ذراعك، فتنظر حولك في يأس يدفعك للتفكير في الاستسلام لمعاقرة الخمر، أو إعلان إفلاسك. في لحظة تكره الأرض والجاذبية التي تربطك إليها، لكنك كذلك تحبها، وتفهم أنها تعرف الظلام، ولطالما كانت تعرفه.

الأرض تعرفك وقد تمكَّنت منك، وتمكَّنت منك ورطتك، وتمكَّنت منك المرأة التي وقعتَ في حبها في المدرسة الثانوية (إلا أنها كانت فتاة وقتها، ولم تكن أنت تعرف عن الفتيات إلا أنك تختار واحدة وتتشبث بها، وتكتب هي اسمك في كل كتبها، ولو كسرتها ستكسرك ثم لا يعود أحدكما يهتم بكل هذه الفوضى)، وتمكَّنت منك الأطفال الذين بدؤوا في الوجود باهتزاز الفراش تحتك وتحت امرأتك. أنت

وهي صنعتما هؤلاء الأطفال بعد حلول الظلام... ستة أطفال أو سبعة أو عشرة. وتمكَّن منك المَصرِف، ووكلاء السيارات، ومتجر «سيرز» في «لويستون»، و«جون دير» في «برونزويك». أغلب البلدة قد تمكَّنت منك لأنك تعرفها كما تعرف شكل جسد زوجتك. تعرف من سيكون جالسًا خارج متجر «كروسِن» في الصباح لأنه طُرد من عمله، وتعرف من لديه مشكلة مع امرأة قبل حتى أن يعرفها هو، كما عرفت مشكلة «ريجي سوير» مع عامل الهاتف الذي يغمس عصاه في برميل «بوني سوير» زوجته.

تعرف مكان كل الطرق وإلى أين تؤدي. في عصر أيام الجمعة تذهب مع «هانك» و«نولي جاردنر» إلى المتنزه وتشربون بعض عُلب البيرة. تعرف وِهاد الأرض ومرتفعاتها، وتعرف كيف تعبر المستنقعات في أبريل دون أن تلوِّث حذاءك. تعرف كل هذا، وكل هذا يعرفك، ويعرف كيف يؤلمك مُنفرجك من طول الجلسة على مقعد الجرار، وكيف أن الكتلة في ظهرك مجرد كيس دُهني ولا شيء لتقلق بشأنه كما أخبرك الطبيب، وكيف ينشغل عقلك بالفواتير المُستحَقة آخر أسبوع في الشهر. البلدة ترى ما خلف أكاذيبك، حتى تلك التي تخدع بها نفسك، مثل أنك ستصحب زوجتك وأولادك إلى ديزني لاند العام المقبل أو الذي يليه، أو أنك تستطيع توفير أقساط تلفاز ملون جديد لو أنك قطعت الحطب من أجل المدافئ في الخريف، أو كيف سيكون كل شيء بخير.

الحياة في البلدة كمضاجعة مستمرة، تجعل ما تفعله وزوجتك على الفراش المُتأرجح مجرد مصافحة. الحياة في البلدة ابتذال، شهوانية، إدمان.

وفي الظلام، البلدة تمسي لك، وأنت لها، تنامان معًا كالموتى، مثل الأحجار الجرانيتية نفسها في حقلك الشمالي. لا حياة هنا إلا موت الأيام البطيء. لذا حين يهبط الشر على البلدة، فهو يأتي كقدرٍ حُلو مُخدِّر، كأن البلدة تعرف بقدومه، وبالشكل الذي سيظهر عليه.

للبلدة أسرارها، وهي تحفظها جيدًا، لكن سكانها لا يعرفونها كلها.

هم يعلمون أن زوجة العجوز «ألبي كرين» هربت مع مسافر من نيويورك، أو هم يظنون أنهم يعلمون هذا. لكن الحقيقة هي أن «ألبي» شجَّ جمجمتها بعد أن تركها المسافر، ثم ربط حجرًا إلى قدميها ورماها في البئر القديمة، وبعد اثنين وعشرين عامًا مات «ألبي» في سلام بأزمة قلبية، مثلما سيموت ابنه لاحقًا في هذه القصة. ربما في يوم سيعثر أحدهم على البئر القديمة، ويزيل غطاءه الخشبي الكالح ليجد هيكلًا عظميًّا ينظر إليه من أسفل الحفرة المُبطَّنة بالأحجار، وعقد الرجل المسافر الجميل ما يزال مُعلَّقًا -مُخضرًّا مكسوًّا بالعفن- على قفصه الصدري.

يعرفون أن «هَبي مارستِن» قتل زوجته، لكنهم لا يعرفون ما أجبرها على فعله قبلها، أو كيف كان الأمر بينهما في المطبخ المشمس قبل أن يُفجر رأسها، بينما رائحة شجرة صُريمة الجدي تحوم في الهواء الحار، مُثيرة للقيء. لم يعرفوا أنها توسلت إليه أن يقتلها.

بعض عجائز البلدة -«مَيبل وُرتس» و«جلينز مايبيري» و«أودري هيرسي»- تتذكرن أن «لاري مَكلويد» وجد بعض الأوراق المحترقة في مدفأة الطابق العلوي، لكن لم يعرف أحد أن تلك الأوراق كانت حصيلة مراسلات اثني عشر عامًا بين «هبرت مارستِن» ونبيل نمساوي عتيق يُدعى «برايشِن»، أو أن تلك المراسلات قد بدأت من خلال مكاتب تاجر كتب في بوسطن، مات ميتة شنيعة في عام 1933، أو أن «هَبي» قد أحرق كل خطاب بينهما قبل أن يشنُق نفسه، أطعمها للنيران واحدًا تلو الآخر، وراح يراقب اللهب يُسوِّد أطراف الورق السميك سُكري اللون، ويزيل زخارف

الكلمات الأنيقة، ولم يعرف أحد أنه كان مُبتسمًا وهو يفعل ذلك بنفس الطريقة التي يبتسم بها «لاري كروكِيت» وهو يضع عقود الملكية في خزانة في مصرفٍ في «بورتلاند».

يعرفون أن «كوريتا سيمونز»، أرملة «سيمونز» العجوز، تموت ببطء وبشاعة جراء سرطان القولون، لكنهم لا يعرفون أن هناك أكثر من ثلاثين ألف دولار نقدًا قد دسَّتهم خلف ورق حائط حجرة المعيشة الرَّث، وهو حصيلة تأمين لم تستغله أو تستثمره، وها هي قد نسيته تمامًا في نهاية عمرها.

يعلمون أن حريقًا التهم نصف البلدة في سبتمبر عام 1951، لكنهم لا يعرفون أنه لم يكن عشوائيًّا. الصبي الذي أشعله تخرَّج في مدرسته بتفوق عام 1953، وذهب ليكسب مئات الآلاف من الدولارات في بورصة «وول ستريت»، وحتى لو أنهم عرفوا، فلم يفهموا الدافع الذي لا يُقاوَم الذي سيطر على عقله وقتها كي يفعل ما فعل، ولن يفهموا كيف أكل هذا الدافع عقله لمدة عشرين عامًا تاليةً، حتى مات في سن السادسة والأربعين بانسداد شريان في المخ.

لا يعرفون أن الموقَّر «جون جروجِنز» يستيقظ أحيانًا في منتصف الليل بسبب أحلام مُتجلية مُخيفة تدور في رأسه الأصلع؛ كان يُلقي موعظة دينية للفتيات، وكان عاريًا وهن مُستعدَّات لما قد يفعله.

أو أن «فلويد تِبتس» ظل يجول بلا هدف طيلة يوم الجمعة، شاعرًا بضوء الشمس البغيض يؤذي بشرته الشاحبة، يتذكر ذهابه إلى «آن نورتون» بشكل ضبابي، ولا يذكر مُطلقًا هجومه على «بِن ميرز»، لكنه يذكر الراحة التي شعر بها مع غروب الشمس، والراحة والحماس لشيء أهم وأعظم.

لا يعرفون عن كُتُب «هال جريفِن» الإباحية الستة التي يخفيها في أعماق خزانته، ويمارس بها العادة السرية في كل فرصة.

لا يعرفون أن «جورج ميدلر» لديه حقيبة ملأى بالصدريات والملابس التحتية النسائية الحريرية، وأحيانًا ما يُنزل ستائر شقته فوق متجر المُعدَّات، ويُغلق الباب بالقفل والسلسلة، ثم يقف أمام المرآة الكبيرة ويرتدي تلك الملابس، يحدق إلى انعكاسه حتى تتقطع أنفاسه، ويسقط على رُكبتيه.

لا يعرفون أن «كارل فورمان» حاول أن يصرخ ولم يستطع حين بدأ «مايك ريرسون» في الانتفاض على منضدة التحنيط الباردة. جاءت صرخته خفية بلا صوت كالزجاج حين فتح «مايك» عينيه وقام جالسًا.

لا يعرفون أن «راندي مَكدوجال»، الطفل ذا العشرة أشهر، لم يُقاوم حين تسلل «داني جليك» إلى حجرته عبر النافذة، ورفعه عن فراشه، وغرس أنيابه في رقبته التي ما زالت مُزرَقة من ضرب أمه.

هذه هي أسرار البلدة، بعضها سينكشف لاحقًا، وبعضها سيُدفَن للأبد، وستحفظها البلدة تحت ملامحها الجامدة.

لا تعبأ البلدة بأفعال الشيطان، بالضبط كما لا تعبأ بأفعال الله أو البشر. هي فقط تعرف الظلام، والظلام كافٍ.

***

عرفت «ساندي مَكدوجال» فور استيقاظها أن هناك شيئًا غريبًا، لكنها لم تقدر على تحديد كنهه. الجهة الأخرى من فراشها كانت خالية؛ اليوم هو إجازة «روي» وقد خرج للصيد مع أصدقائه، وسيعود عند الظهيرة. لا توجد رائحة احتراق، وهي بخير، فما هو الشيء الغريب؟

الشمس... الشمس هي الشيء الغريب.

ضوؤها ينعكس عاليًا على ورق الحائط، يرقص بين الظلال التي تُلقيها شجرة القيقب خارج النافذة. لكن «راندي» دائمًا ما يوقظها قبل أن تلقي شجرة القيقب ظلالها بهذا الشكل على الحائط.

انتقلت عيناها الفزعتان إلى الساعة فوق الخزانة الصغيرة، فوجدت عقاربها تشير إلى التاسعة وعشر دقائق.

اختنقت حنجرتها بالذعر.

- «راندي»؟

نادت ومعطفها المنزلي يتطاير خلفها وهي تهرع عبر الممر الضيق:

- «راندي»؟ حبيبي؟

حجرة نوم الطفل كانت غارقة في ضوء الشمس المُنبعث من النافذة الصغيرة فوق المهد... النافذة المفتوحة. لكنها كانت قد أغلقتها قبل أن تخلُد إلى الفراش. دائمًا ما تُغلقها.

وكان المهد خاويًا.

همست:

- «راندي»؟

ثم رأته. الجسد الصغير ما يزال في ردائه الكالح، وقد أُلقي في ركن ككيس قمامة. ساقه مرفوعة لأعلى بشكل غريب كأنها علامة تعجُّب.

- «راندي»!

هوت على ركبتيها جوار الجسد، وجهها مُلطخ بعلامات الصدمة. حملت الرضيع على فخذيها، وكان جسده باردًا.

- «راندي»، طفلي الحبيب، استيقظ... «راندي»... «راندي»... استيقظ.

كل الكدمات زالت عنه، كلها. اختفت خلال الليل تاركة الوجه والجسد الصغيرين بلا أي شائبة. لونه كان جيدًا، ولأول مرة منذ ولادته تراه جميلًا، فصرخت لمرأى هذا الجمال...

- «راندي»! استيقظ! «راندي»؟ «راندي»؟ «راندي»؟

حملته وعادت به إلى الصالة وقد تعرى كتفها وانزاح عنه معطفها المنزلي.

ما زال كرسي الطفل الطويل في المطبخ، والصحفة عليها بقايا عشاء «راندي» الجاف. وضعت «راندي» على الكرسي الذي يقف تحت شعاع من ضوء النهار، فهوى رأسه على صدره، ومال جسده ببطء حتى استقر في مكان بين الصحفة ومسند الكرسي.

- «راندي»؟

قالتها وابتسمت. عيناها تجحظان خارج محجريهما كبلورتي لعب زرقاوين. راحت تضرب خده بلطف وتقول:

- استيقظ يا «راندي». الفطور يا «راندي». هل أنت جائع؟ رجاءً... يا إلهي... رجاءً.

ابتعدت عنه وفتحت واحدة من الخزانات فوق الموقد وراحت تبحث بداخلها عن شيء، فأسقطت علبة أرز، وعبوة من طعام الأطفال، وزجاجة زيت. تهشمت زجاجة الزيت وانتثر السائل السميك على الأرض والموقد. وجدت أخيرًا برطمانًا من طعام الأطفال المهروس (جَربر) بالشيكولاتة، فأخذت ملعقة بلاستيكية من مصفاة الأطباق.

- انظر يا «راندي»... طعامك المُفضل. استيقظ وذُق. شوكولاتة يا «راندي»... شوكولاتة، شوكولاتة!

غشيها الرعب والغضب فصرخت فيه:

- استيقظ!

تناثر لعابها على خديه وحاجبيه.

- استيقظ حُبًّا بالله... استيقظ أيها الحثالة الصغير! استيقظ!

فتحت البرطمان وأخرجت بالملعقة بعضًا من محتواه، يدها -التي كانت تعرف الحقيقة- تهتز وتُسقِط أغلب الشوكولاتة على الصحفة. دفعت ما تبقَّى بين شفتيه الصغيرتين، فتساقط الطعام مُحدثًا صوتًا مُقرفًا... بلوب! ثم اصطدمت الملعقة بأسنانه.

ترجَّته:

- «راندي»، توقَّف عن خداع أمك.

مدت إصبعها ففتحت فمه عنوة ودفعت الطعام إلى فمه.

- كُل...

قالتها «ساندي مَكدوجال» باسمة في أمل مكسور. لمست شفتيها، ثم تراجعت على كرسي المطبخ، عضلاتها تسترخي واحدة تلو الأخرى. كل شيء سيكون على ما يرام. الآن سيعرف أنها ما زالت تحبه وسيتوقف عن هذه التمثيلية.

غمغمت:

- شهي؟ الشوكولا شهية يا «راندي»؟ هلا ابتسمت لماما؟ كُن طفلًا جميلًا وابتسم لماما...

مدت أصابعها المُرتجفة ورفعت رُكني فم الطفل إلى أعلى، فسقط ما في فمه على الصحفة.

نفس الصوت المُقرف... بلوب!

ثم بدأت في الصراخ.

***

استيقظ «توني جليك» صباح السبت، حين سقطت زوجته «مارجوري» في حجرة المعيشة.

ناداها وهو يُنزل قدميه عن الفراش:

- «مارجي»؟ «مارج»؟

بعد فترة صمت طويلة، أجابته:

- أنا بخير يا «توني».

جلس عند طرف الفراش يحملق شاردًا في قدميه. كان عاري الجذع، يرتدي بنطال منامة يتدلى رباط خصره بين ساقيه. شعره أشعث كعُش غربان، شعر أسود كثيف ورثه عنه ابنَيه. كان الناس يظنونه يهوديًّا، لكن هذا الشعر كان هبةً من جده «جليكوتشي»، وقد نصحه أحدهم بتخفيف وقع هذا الاسم الإيطالي، والاندماج في المجتمع الأمريكي بتغيير اسمه إلى اسم قصير لافت، فغيَّره الجد رسميًّا إلى «جليك» غير واعٍ أنه يستبدل مظهر الأغلبية بأصالة الأقلية.

جسد «توني جليك» عريض، أسمر، عضلي، ووجه يحمل سمت من غادر الحانة مضروبًا.

كان قد أخذ إجازة من عمله، وقد نام كثيرًا الأسبوع الماضي، فكل شيء يبتعد عنك حين تنام بلا أحلام. كان يدخل إلى فراشه في السابعة والنصف ويستيقظ في العاشرة من صباح اليوم التالي، ثم يُقيل عند الظهيرة من الساعة الثانية إلى الثالثة. الوقت الذي مر عليه من يوم ما حدث في أثناء جنازة «داني»، حتى صباح اليوم كان مُشوشًا ويبدو غير حقيقي بالمرة.

ظل الناس يُحضِرون لهم الطعام؛ أوعية من الخُضر واللحم، معلبات، كعكات، فطائر. «مارجوري» قالت إنها لا تعرف ماذا سيفعلان بكل هذا، فلا أحد منهما يشتهي الطعام. حاول يوم الأربعاء ممارسة الحب مع زوجته، لكن انتهى بهما الأمر يبكيان.

لم تبدُ «مارجي» بخير على الإطلاق، كانت طريقتها في التعايش مع الواقع هي تنظيف المنزل من أعلاه إلى أسفله، وكانت تُنظف بدقة متناهية لتبعد عنها أي أفكار. الخلفية الصوتية لتلك الأيام كانت أصوات جر الدلاء، وصوت المِكنسة الكهربيَّة، بينما رائحة الهواء تعبق بالأمونيا والمُنظفات.

كانت قد صفَّت الملابس والألعاب بعناية في صناديق ورقية وأرسلتها إلى مؤسسة جيش الخلاص، ومتجر خيري. حين خرج من حجرته صباح الخميس، كانت كل تلك الصناديق مُصطفَّة أمام الباب الأمامي، كل واحد منها عليه علامة تعريف بمحتواه. لم يَرَ شيئًا مُريعًا في حياته أكثر من تلك الصناديق الخرساء. كانت زوجته قد أخرجت كل أبسطة المنزل وعلقتها على حبل تعليق الغسيل ثم ضربتهم بلا رحمة لتُنفض عنهم الغبار. حتى مع حالة التشوش التي أصابت ذهن «توني»، لاحظ شحوبها مقارنة بشكلها الأسبوع الماضي، وقد زال اللون عن شفتيها، وتسللت الظلال البُنية إلى ما تحت عينيها.

جرت هذه الخواطر على عقله في وقت أقل مما قد تحتاج إليه إن حُكِيَت، وكان على وشك التمدد مرة أخرى في الفراش، حين سقطت مُجددًا، ولم تُجب نداءه هذه المرة.

هرع إلى حجرة المعيشة فرآها راقدة على الأرض، تتنفس بصعوبة وتحدق إلى السقف بعينين مبهورتين. كانت تغير أوضاع أثاث حجرة المعيشة، وكل شيء في غير مكانه مما منح الحجرة مظهرًا مُفككًا غريبًا.

أيًّا ما كان بها، فقد تفاقم في أثناء الليل، وكانت حالتها رهيبة كفاية كي توقظه من ذهوله كطعنة سكين حاد. كانت ترتدي فستانها الذي انزاح إلى منتصف فخذيها، وبدت من تحته ساقاها بيضاء كالرخام وقد خبا كل اللون البرونزي الذي اكتسبته خلال أشهر الصيف والعُطلة. يداها تتحركان كالأشباح، فمها فاغر كأن رئتيها لا يصلها الهواء الكافي. لاحظ بروز أسنانها غير الطبيعي، لكنه عزى ذلك إلى زاوية سقوط الضوء عليها.

- «مارجي»، حبيبتي؟

حاولت أن تجيبه لكنها لم تستطع. انتابه الخوف الشديد، فقام ليتصل بالطبيب. كان يُدير قرص الهاتف حين قالت:

- كلا... كلا...

كررت الكلمة بين شهقاتها، ثم حاولت الجلوس، فملأ المنزل صوت معاناتها كي تتنفس.

- جُرَّني... ساعدني... الشمس ساخنة للغاية.

هرع إليها وحملها مدهوشًا من خفة وزنها، بدا كأنها لا تزن أكثر من وزن حزمة أخشاب.

- ... الأريكة...

أراحها عليها، وأسند ظهرها إلى المسند. صارت بعيدة عن مُربع ضوء الشمس الساقط على البساط من النافذة. بدأ تنفسها يعود إلى طبيعته تدريجيًّا. أغمضت عينيها، ومرةً أخرى أدهشه مظهر أسنانها وبياضها الشديد مقارنة بشفتيها، وشعر برغبة عارمة في تقبيلها.

- دعيني أتصل بالطبيب.

- كلا، أنا أفضل. الشمس كانت... تحرقني. أشعرتني بالدوار. أنا أفضل الآن.

عاد بعض اللون إلى خديها. سألها:

- هل أنتِ مُتأكدة؟

- أجل، أنا بخير.

- لقد أجهدتِ نفسك يا عزيزتي.

قالت بشرود وبعينين فاترتين:

- أجل.

مرر كفه خلال شعره وقال:

- علينا أن نعبر هذه المرحلة يا «مارجي»، أنت تبدين...

ثم صمت، لا يريد جرح مشاعرها. قالت:

- أبدو بشعة. نظرتُ إلى نفسي في مرآة الحمام أمس قبل أن أنام. للحظة لم أشعر أنني هنا...

لمست ابتسامةٌ ما شفتيها وهي تُردف:

- هُيّئ إليَّ أنني شفافة، أكاد أرى حوض الاستحمام من خلفي، وكأنه لم يتبقَ مني شيء...

- أريد أن يكشف عليكِ الطبيب «ريردون».

بدت كأنها لم تسمعه، وأكملت:

- وحلمت بأجمل حلم في الليالي الثلاث أو الأربع الماضية يا «توني». حلم بدا حقيقيًّا. جاءني «داني» في الحلم وقال: «أمي، أنا سعيد بعودتي للبيت»، وقال... قال...

سألها برفق:

- ماذا قال؟

- قال... إنه عاد طفلي مرة أخرى، طفلي أنا، يرضع من صدري. أعطيته ثديي ليرضع، ثم... ثم راودني شعور حُلو خَلَفَهُ شعور بالمرارة. الأمر أشبه بشعوري في أثناء رضاعته، قبل أن تنمو له أسنان، وبدأ... أوه، هذا يبدو مريعًا، ذا بُعدٍ نفسي ما.

- كلا يا عزيزتي، ليس مُريعًا.
ركع جوارها، فلفَّت ذراعيها من خلف عنقه وبكت في ضعف. كانت ذراعاها باردتين.
- سأرتاح اليوم يا «توني»، لا داعي للطبيب.
- كما تشائين.
الانصياع إلى رغبتها كان صعبًا. أردفت مُتحدِّثة ووجهها مدفون في رقبته:
- كان حلمًا جميلًا يا «توني».
حركة شفتيها، واحتكاك أسنانها من خلفهما أثاراه للغاية. أكملت:
- ليتني أحلم به مرة أخرى الليلة.
قال وهو يُمسد شعرها:
- ربما ستحلمين به. ربما...

***

قال «بِن»:
- إلهي، تبدين رائعة.
على خلفية من عالم المستشفى الأبيض والأخضر، بدت «سوزان نورتون» رائعة بالفعل. كانت ترتدي قميصًا أصفر فاقعًا ذا خطوط طولية سوداء، وتنورة قصيرة من الجينز.
عبرت الحجرة إليه وهي تقول:
- وأنت أيضًا تبدو رائعًا.
قبَّلها بعمق، وانزلقت يده إلى انحناء ردفيها الدافئ. قطعت القُبلة وقالت:
- مهلًا! سيطردونك لأجل هذا!
- أنا؟
- بل أنا!
نظرا بعضهما إلى بعض.
- أحبك يا «بِن».
- وأنا أحبك أيضًا.
- لو أنني أستطيع أن أندس في الفراش إلى جوارك الآن...
- انتظري ثانية، سأزيح الغطاء.
- وكيف سأفسر الأمر للممرضات؟!
- أخبريهن أنك تعطينني المِبولة.
هزت رأسها باسمة، وجذبت كرسيًّا وهي تقول:
- ثمة ما يدور في البلدة يا «بِن».
أفاق وقال:

- مثل؟
ترددت قبل أن تُجيب:
- بالكاد أعرف كيف سأخبرك، وماذا أظن أنا نفسي. أنا محتارة.
- قولي ما يخطر ببالك وسأفهم.
- ما حالتك يا «بِن»؟
- بسيطة، ليست خطِرة. طبيب «مات»، رجل يُدعى «كودي»...
- كلا، أقصد حالة عقلك. إلى أي مدى تصدق أمر الكونت «دراكيولا» هذا؟
- أوه، «مات» أخبرك بكل شيء؟
- «مات» هنا في المستشفى، في الطابق الذي يعلوك... في العناية المُركزة.
قام مُستندًا إلى كوعيه وهتف:
- ماذا؟ ماذا به؟
- نوبة قلبية.
- نوبة قلبية؟!
- يقول دكتور «كودي» إن حالته مُستقرة. أدخلوه العناية الفائقة للحالات الحرجة، لكن هذا طبيعي في أول ثمان وأربعين ساعة. كنت عنده حين مرض.
- أخبريني بكل شيء تذكرينه يا «سوزان».
زالت السعادة عن وجهه، وصار يقظًا، كان تائهًا في بياض الملاءات وبياض الحجرات وبياض مراحيض المستشفى، فتشبث بها كما يتشبث المرء بحافة النجاة.
- لم تُجِب عن سؤالي يا «بِن».
- عن رأيي في قصة «مات»؟
- أجل.
- دعيني أجيبك بإخبارك ما تظنين. أنت تعتقدين أن منزل «مارستِن» قد أفسد عقلي حتى إنني أرى الوطاويط في كل مكان. أليس هذا صحيحًا؟
- بلى، أعتقد هذا. لكنني لم أفكر فيه بهذه... بهذه الصياغة الحادة.
- أعرف هذا يا «سوزان»، فقط دعيني أتابع سرد أفكاري لك إن استطعت. ربما يساعدني أن أتفوه بما أفكر مباشرة. من مرأى ملامحك الآن، أعتقد أن شيئًا حدث قد دفعك عدة خطوات إلى الخلف. هل هذا صحيح؟
- أجل. لكنني لا أصدق، لا أستطيع...
- توقفي لحظة. هذه العبارة (لا أستطيع) تحجب عنك كل شيء، وقد كنت عالقًا بداخلها من قبل. تلك العبارة الإلزامية اللعينة: (لا أستطيع). لم أصدق «مات» يا «سوزان»، لأن هذه الأمور لا يمكن أن تكون حقيقة. لكنني لم أستطع أن أجد فجوة في قصته مهما دققت النظر. التفسير الوحيد الواضح أنه قد قفز بتفسيراته إلى حيث لا نرى، أليس كذلك؟
- أجل.

- هل بدا لك مجنونًا؟
- كلا، لكن...
رفع يده مُقاطعًا:
- انتظري... أنت تفكرين فيما (تستطيعين) تصديقه، أليس كذلك؟
- أعتقد هذا.
- لم يبدُ لي مجنونًا أيضًا. وأنا وأنت نعلم أن هلاوس الـ «بارانويا» أو عُقد الاضطهاد لا تظهر بين ليلة وضحاها. تصرفات كهذه تنمو مع الوقت، تحتاج إلى رعاية وتغذية وري. هل سمعتِ من قبل أن «مات» لديه صامولة مفكوكة في عقله؟ هل سمعت أن «مات» يرتاب في شخص بلا إثبات؟ هل تورط من قبل في أمور مثيرة للشك أو مع جماعات غريبة أو أُصيب بأمراض في المخ؟ هل أبدى اهتمامًا بتحضير الأرواح أو الإسقاط النجمي أو التناسخ؟ هل أُلقي القبض عليه من قبل؟
- كلا... لم يحدث أيٌّ مما ذكرت. لكن يا «بِن»... يؤسفني أن أقول هذا عن «مات»، حتى لو على سبيل الافتراض، لكن البعض يُجن بهدوء، يُجَنون بلا أعراض حادة.
قال «بِن» بهدوء:
- لا أظن ذلك. يجب أن يكون هناك علامات. أحيانًا لا تستطيعين رؤيتها من قبل، لكنك ترينها بعد ذلك. لو أنك في هيئة حُكم، هل ستصدقين شهادة «مات» عن حادث سيارة؟
- أجل...
- هل ستصدقينه إن شهد أنه رأى مُتسللًا يقتل «مايك ريرسون»؟
- أجل، أعتقد هذا.
- ولا تصدقين ما يقول الآن؟
- «بِن»، أنا فقط لا أستطيع...
- ها أنتِ قد قلتِها مرةً أخرى.
رآها تستعد للاحتجاج، فرفع يده وأردف:
- أنا لا أجادل في هذه القضية يا «سوزان»، أنا فقط أبدي لكِ تسلسل أفكاري. اتفقنا؟
- اتفقنا، أكمِل.
- ما جاء بذهني ثانيًا، أن شخصًا يخدعه، شخصًا شريرًا أو يحمل له ضغينة.
- فكرت في هذا كذلك.
- يقول «مات» إنه لا أعداء له، وأنا أصدقه.
- لكل شخصٍ أعداء.
- العداوة درجات، ولا تنسَي أهم شيء... ثمة قضية قتل وجثة. لو أن أحدهم ينتقم من «مات»، فقد قتل «مايك» لذلك.
- لماذا؟
- لأن كل هذا لن يُجدي نفعًا دون جثة. ومع ذلك، واستنادًا إلى قصة «مات»، فقد قابل «مايك» بالصدفة البحتة. لم يدفعه أحد للذهاب إلى حانة «ديل» تلك الليلة، لم تكن هناك مكالمة من مجهول،

ولا رسالة، ولا أي شيء. صدفة مقابلتهما كافية لإبعاد تفسير المُخططات.

- وماذا يظل لدينا من تفسيراتٍ عقلانية؟

- أن «مات» حلم بصوت فتح النافذة، والضحكة، وصوت الامتصاص، بينما «مايك» قد مات لسبب مجهول.

- وأنت لا تصدق هذا كذلك.

- لا أصدق أنه قد حلم بصوت النافذة، فقد وجدناها مفتوحة، والضلفة السلكية ساقطة بالأسفل. أنا لاحظت ذلك و«باركينز جيلسبي» لاحظ ذلك. لا يمكن انتزاع الضلفة السلكية من الداخل دون أدوات، وعلى الرغم من أن هذا صعب، فإنه كان سيترك علامات، وأنا لم أرَ أي علامات. ثمة شيء آخر، التربة تحت هذه النافذة ناعمة إلى حد ما، وإن أردتِ أن تنزعي ضلفة في الطابق الثاني، فعليكِ الاستعانة بسُلم، وهذا الأخير سيترك أثرًا على التربة، ولم نرَ آثارًا بالأسفل.

نظر كل منهما إلى الآخر في حزن. أكمل «بِن»:

- كنت أفكر في كل هذا صباحًا، وكلما فكرت، بدت قصة «مات» وجيهة، فقررت أن أبعد (استطاعتي) للتصديق جانبًا. والآن أخبريني بما حدث عند «مات» ليلة أمس. لو أن ما حدث سيمحو كل استنتاجاتي، ويفسر كل شيء تفسيرًا عقلانيًّا، فلن تجدي أسعد مني بهذا.

قالت «سوزان» في بؤس:

- لا توجد تفسيرات عقلانية، بل إن ما حدث يزيد الأمر سوءًا. بمجرد أن فرغ من إخباري بما حدث مع «مايك ريرسون»، قال إنه سمع صوتًا بالأعلى. كان خائفًا، لكنه صعد.

شبكت أصابع كفيها معًا بقوة على حجرها، وكأنهم سيطيرون، ثم أردفت:

- لم يحدث شيء آخر لبرهة، ثم صاح «مات» بعبارات محتواها يبدو كأنما يحل نفسه من دعوةٍ ما. ثم... لا أعرف كيف...

- استمري، لا تشعري بكربٍ تجاه شيء.

- أعتقد أن أحدًا -شخصًا سوى «مات»- أصدر صوت فحيح، ثم سمعت صوت ارتطام كأن شيئًا سقط، وسمعت صوتًا يقول: سأراك تنام كالموتى أيها المدرس. هذا بالضبط ما قيل، وحين دخلت الحجرة في النهاية كي أجلب غطاءً لـ «مات»، وجدت هذا.

أخرجَت الخاتم من جيب قميصها، وأسقطته في راحة كفه. أداره «بِن» ثم قرَّبه من ضوء الشمس كي يستطيع أن يقرأ المحفور بداخله.

- م. ك. ر. «مايك ريرسون»؟

- «مايك كوري ريرسون». سقط من يدي وأجبرت نفسي على التقاطه مرةً أخرى. رأيت أنه ربما يرغب أحدكما -أنت أو «مات»- في رؤيته. احتفظ به، لا أريده.

- أيجعلك تشعرين...

- شعورٌ سيئ للغاية.

ثم رفعت رأسها مُتحدية وأردفت:

- لكن كل التفسيرات العقلانية ضد هذا الاستنتاج يا «بِن». أفضِّل أن أصدق أن «مات» قتل «مايك ريرسون» لسبب ما وابتكر تلك القصة عن مصاصي الدماء، وخلع الضلفة السلكية، وافتعل

تلك المسرحية في حجرة الضيوف بينما أنا بالأسفل، ووضع خاتم «مايك»...

- وأصاب نفسه بنوبة قلبية ليبدو كل هذا حقيقيًّا؟

أردف «بِن» بمرارة:

- أنا لم أفقد الأمل في إيجاد حلٍّ عقلاني يا «سوزان»، أتمنى لو أجد واحدًا، أصلي من أجل ذلك. الوحوش في الأفلام مُسلية، لكن أن تكون حقيقية تتسكع في الطرقات ليلًا، فليس هذا من التسلية في شيء. يمكن أن أتفهَّم أن يكون قد ربط ضلفة النافذة بحبل وجذبها من فوق سطح المنزل، ولنذهب بأفكارنا أبعد ونقول إنه رجل مُثقف، وقد يكون هناك سموم قد تُسبب الأعراض التي كان «مايك» يشكو منها... سموم لا يمكن اكتشافها بالتشريح. بالطبع فكرة التسمم صعبة التصديق لأن «مايك» لم يكن يأكل إلا أقل القليل...

قاطعته:

- ليس لدينا إثبات على ضعف شهيته إلا شهادة «مات».

- لم يكن ليكذب، لأنه يعرف أن فحص معدة المتوفَّى جزء مهم من عملية التشريح الجنائي، وأي سُم كان سيظهر له أثر، لكن لنفرض جدلًا أن هذا ممكن، ورجل مثل «مات» قد يستطيع تناول دواء يزيف أعراض أزمة قلبية أو يتسبب فيها. لكن أين الدافع لكل هذا؟

هزَّت رأسها في انعدام حيلة.

- حتى لو أن هناك دوافع لا نعرفها، فلماذا قد يلجأ إلى مخطط بهذا التعقيد، أو يبتكر قصة عجيبة كهذه؟ ربما يكون المُحقق «إلري كوين» قادرًا على العثور على تفسير، لكن الحياة ليست رواية بوليسية بطلها «إلري كوين».

- لكن... هذا جنون يا «بِن».

- أجل.

انفجرت فيه فجأة:

- توقَّف عن لعب دور الرجل المُثقف المُتصنِّع، فهو لا يلائمك! نحن نتحدث عن ثرثرات النساء، والكوابيس، والأوهام، وأي شيء تُسميه...

- هذا هراء. عليكِ أن تُركزي في العلاقات والصِّلات. العالم يهوي فوق رؤوسنا وأنت مصممة على ألا تري سوى سخف فرضية مصاصي الدماء.

قالت في عِند:

- بلدة «سالم» بلدتي، إن كان شيء يحدث هنا، فهو شيء واقعي لا فلسفي.

مسَّ الضمادة على رأسه بإصبعه وقال:

- أوافقك. وحبيبك السابق مُحقٌّ كذلك.

- أنا آسفة. هذا جانب من شخصية «فلويد» لم أشهده من قبل، ولا أفهمه.

- أين هو الآن؟

- في زنزانة السكارى. قال «باركِنز جيلسبي» إنه سيُسلمه لشرطة المقاطعة، للشريف «مَكَّاسلين»، لكنه قرر أن ينتظر قليلًا إن كنت ستريد أن تتهمه رسميًّا.

- وما شعورك تجاه الأمر؟

أجابت في ثبات:
- لا شيء. لقد خرج من حياتي.
- أنا لن أتهمه.
رفعت حاجبيها، فأردف:
- لكنني أريد مُحادثته.
- عنا؟
- عن السبب الذي جعله يأتيَني مُرتديًا معطفًا وقبعة ونظارة شمسية... وقفازين مطاطيين.
- ماذا؟
قال وهو ينظر إليها:
- كانت الشمس ساطعة وقتها، وأظنها كانت تضايقه.
نظرا إلى بعضهما صامتين، فلم يكن هناك ما يُقال في هذا الأمر.

***

عندما أحضر «نولي» الإفطار لـ «فلويد» من مقهى «إكسلنت»، كان الأخير نائمًا. وجد «نولي» أنه لا فائدة من إيقاظه ليأكل بيضتين مسلوقتين وخمس أو ست قطع من الـ «بيكون»، لذا تخلَّص «نولي» من الإفطار بنفسه وأكله، ثم جلس في المكتب يشرب القهوة.

«بولين» تصنع قهوة جيدة، ربما يخبرها بذلك. لكن عندما أحضر غداء «فلويد»، كان ما يزال نائمًا وعلى نفس الوضع. قلق «نولي»، ووضع الصحفة على الأرض، ثم راح يقرع قضبان الزنزانة بملعقة.

- «فلويد»! «فلويد»! استيقظ، لقد أحضرت لك الغداء.

لم يستيقظ «فلويد»، فأخرج «نولي» سلسلة مفاتيحه من جيبه كي يفتح الزنزانة. توقف قبل أن يُدخِل المفتاح في القفل، فقد كانت حلقة الأسبوع الماضي من مسلسل (سلاح الجريمة) تحكي عن سجين ضخم تظاهر بأنه مريض، ثم هاجم السجَّان وهرب. لم تكن فكرة «نولي» عن «فلويد» أنه شاب خطر، لكنه كاد أن يودي بحياة هذا الشاب «ميرز».

تجمَّد مكانه مُفكرًا، حاملًا الملعقة في يد، وسلسلة المفاتيح في الأخرى. هو رجل ضخم، ياقة قميصه مفتوحة دومًا، وما تحت إبطيه مُبقع بالعرق في الأيام الحارة. كان لاعبًا مميزًا للبولينج، يحب التنقل من حانة لأخرى بحثًا عن أفضل الأسعار، ودائمًا ما يحتفظ بقائمة بأسماء الحانات والفنادق الرخيصة في المناطق التي تزدحم ببيوت البغاء وصالات التعري، ويدسها خلف تقويم الكنيسة اللوثرية في محفظته. كان رجلًا هيِّنًا، يُلام على الأخطاء دومًا، ردود أفعاله بطيئة، صعب الإغضاب. مع كل هذه المزايا المتواضعة، لم يكن ذكيًّا رشيق التفكير. لذا ظل واقفًا يفكر في التصرف الأمثل. هل يقرع القضبان بالملعقة وينادي «فلويد»، مُتمنيًا أن يتحرك أو يُشخِّر أو يُبدي أي علامة على الحياة؟ فكَّر أن يتصل بـ «باركِنز» ويتبع تعليماته، حين سمع صوت الأخير من عند باب المكتب يصيح مُسائلًا:

- ماذا تفعل بحق الجحيم يا «نولي»؟ تنادي الخنازير؟
احمرَّ وجه «نولي» وهو يقول:
- «فلويد» لا يتحرك يا «بارك». أخشى أن يكون... أتعرف؟ مريضًا.
- وهل تعتقد أن قرع القضبان بالملعقة اللعينة سيُحسن صحته؟
قالها ووقف إلى جواره يفتح الزنزانة. انحنى يهز كتف «فلويد» وهو يقول:
- «فلويد»؟ هل أنت...
سقط «فلويد» عن الفراش المُعلق. صاح «نولي»:
- اللعنة! لقد مات، أليس كذلك؟
ربما لم يسمعه «باركِنز»، فقد كان يُحدق إلى وجهه الهادئ إلى حدٍّ غريب. لاحظ «نولي» تدريجيًّا أن شيئًا ما قد أفزع «باركِنز».
- ماذا به يا «بارك»؟
- لا شيء. فقط... لنخرج من هنا.
ثم أضاف مُحدِّثًا نفسه:
- إلهي، ليتني لم أمسَّه.
نظر «نولي» إلى جثة «فلويد» في ذعر وتجمَّد مكانه. صاح فيه «باركِنز»:
- أفِق. يجب أن نستدعي الطبيب.

***

كان الوقت بعد الظهيرة حين قاد «فرانكلن بودِن» و«فيرجيل رَثبُن» الشاحنة إلى البوابة الخشبية عند نهاية مفترق طريق «بيرنز»، بعد ميلين خلف مقابر «هارموني هيل فرانكلن»، «شيفروليه» إصدار عام 1957، وقد كانت سوداء أبنوسية اللون في أول عام من فترة حُكم الرئيس «آيك» الثانية، لكن لونها الآن هو خليط من لون البراز البني والدهان التحتي الأحمر. صندوق الشاحنة الخلفي مليء بما يسميه فرانكلين (كراكيب)، وكل عدة أشهر ينقل الرجلان حمولة من الـ (كراكيب) إلى مستودع النفايات. أغلبها عبارة عن عُلب وزجاجات بيرة وخمور مُتنوعة فارغة.
ضيَّق (فرانكلن بودِن) عينيه وهو يقرأ اللافتة المُعلَّقة على سور المستودع:
- مُغلق. سنغرق في الخراء إذًا.
أزال سدادة زجاجة الخمر المُثبتة بين فخذيه، وجرع جرعة منها، ثم مسح شفتيه بذراعه وأردف:
- اليوم هو السبت، أليس كذلك؟
أجاب «فيرجيل رَثبُن»:
- بالتأكيد هو كذلك.
لم يكن لدى «فيرجيل» فكرة إن كان اليوم هو السبت أم الخميس، كان مخمورًا حتى إنه لم يكن يعرف في أي شهر هم.
تساءل «فرانكلن»:

- المستودع لا يُغلق أيام السبت، أليس كذلك؟

هناك لافتة واحدة، لكنه كان يرى ثلاثًا. ضيَّق عينيه مرة أخرى، فرأى أن اللافتات الثلاث تحمل نفس كلمة «مغلق» بطلاء أحمر فاقع جاء بالطبع من علبة الطلاء جوار باب كوخ حارس المستودع «دَد روجرز».

قال «فيرجيل»:

- المستودع لا يُغلَق أبدًا أيام السبت.

طوَّح زجاجة البيرة نحو وجهه، لكنه أخطأ مكان فمه، وصب دفقة بيرة على كتفه اليسرى.

قال «فرانكلن» في ضيق مُتزايد:

- مُغلق. ابن العاهرة في رحلة سُكرٍ، أنا واثق من هذا. لنرَ كيف سيكون المكان مُغلقًا.

ضبط الشاحنة على وضع الانطلاق، فاهتزَّت، وفارت البيرة لتُغرِق سرواله، صاح «فيرجيل»:

- حطِّم البوابة يا «فرانكلن»!

تجشأ بعُمق والشاحنة تُحطم البوابة وتُسقطها على جانب الطريق المليء بعلب البيرة الفارغة. هجم «فرانكلين» مرة أخرى فارتجَّت الشاحنة وتمايلت فوق ياياتها الصدئة، وسقطت الزجاجات من صندوقها الخلفي وتهشمت خلفها، وراحت النوارس تصرخ وتطير في كل مكان.

خلف البوابة بربع ميل، يتفرع طريق «بيرنز» (المعروف الآن بطريق المستودع) وينتهي إلى مساحة مُنبسطة هي المستودع نفسه. الأشجار العتيقة المُتراصة تحيط بالمساحة المُجرَّفة الواسعة، التي مهَّدها استخدام الجرَّافة القديمة المُتكرر، وهذه الأخيرة كانت تستقر في النهاية بجوار كوخ «دَد».

خلف هذه المنطقة المُنبسطة، تقع حفرة الحجارة، التي يُلقى فيها النفايات والقمامة حاليًّا، فتمتد في تلال لا نهائية من العلب الصفيحية الفارغة والزجاجات.

صاح «فرانكلن» وهو يضغط بقدميه الاثنتين على المكابح:

- الأحدب اللعين العَفِن الذي لا يساوي شيئًا، لم يحرق أو يحرث القمامة منذ أسبوع!

غاصت عجلات الشاحنة في الأرض، مُصدِرة صريرًا ميكانيكيًّا عنيفًا، ثم توقفت.

- ماذا حدث للرجل؟

قال «فيريجيل» وهو يُطوِّح زجاجته الفارغة خارج النافذة، ويُخرج واحدة أخرى من الكيس الورقي البني:

- ليس من المعروف عن «دَد» أنه يثمل كثيرًا.

فتح غطاء الزجاجة في قفل الباب، فخرجت الرغوة المجنونة وأغرقت كفه.

- كل ذوي الحدبات يثملون.

قالها «فرانكلن» في حكمة، بصق خارج النافذة، ثم اكتشف أنها كانت مُغلقة، فمسح البصقة بكُم قميصه وقال:

- لنذهب ونرَ ماذا حدث له.

تراجع بالشاحنة في قوس واسع ضخم، ثم أضاء النور الخلفي ووقف فوق آخر (كومة قمامة من نفايات البلدة)، ثم أغلق المُحرك فجثم عليهما الصمت فجأة. فيما عدا أصوات النوارس، فقد كان

الصمت مُطبقًا.

تمتم «فيرجيل»:

- أليس المكان صامتًا أكثر من اللازم؟

خرجا من الشاحنة، ودارا وراءها. فتح «فرانكلن» قفل الباب الخلفي وترك النفايات تسقط، فطارت النوارس التي كانت تأكل عند الناحية البعيدة من المستودع إثر الصوت العالي للتفريغ.

صعد الاثنان إلى صندوق الشاحنة، وبدءا في نزح بقايا (الكراكيب)، وراحت أكياس النفايات الخضراء تُقذَف فتطير في الهواء وتهبط على الأرض لتتقطع.

كانت هذه مهنتهما القديمة، كانا جزءًا من البلدة لا يعرفه السائحون (أو يهتمون لمعرفته)، لسببين، أولهما تجاهل المدينة لهما باتفاقٍ ضمني، وثانيهما أنهما اعتمدا طريقة لحمايتهما وإخفائهما. لو أنك صادفت شاحنة «فرانكلن» في الطريق، فستنساها في اللحظة التي تختفي فيها من مرآتك الأمامية. لو أنك رأيت كوخهما بسقفه الصفيحي ومدخنته التي ترسل خيطًا رفيعًا من الدخان إلى سماء نوفمبر البيضاء، فلن تلاحظه. لو أنك قابلت «فيرجيل» عائدًا من «كمبرلاند» حاملًا زجاجة فودكا رخيصة في كيسٍ بُني، ستلقي عليه التحية، ولن تتذكر مَن كنت تتحدث إليه، فوجهه مألوف لكن اسمه سقط من عقلك. أخو «فرانكلن» هو «ديريك بودِن»، والد «ريتشي» (ملك مدرسة شارع «ستانلي» السابق) وقد كاد «ديريك» أن ينسى أن «فرانكلن» حي وما زال في البلدة. لقد تجاوز «فرانكلن» مرحلة ابن العائلة الضال، إلى مرحلة انعدام الوجود.

والآن، وقد فرغت الشاحنة، ركل «فرانكلن» آخر علبة صفيحية، ثم رفع خصر بنطال العمل الأخضر وهتف:

- لنذهب لنرى «دَد».

نزلا من صندوق الشاحنة، وتعثر «فيرجيل» في رباط حذائه الجلدي، فهوى جالسًا. غمغم شاردًا:

- إلهي... لماذا لا يراعون عملهم في أثناء صنع تلك الأربطة؟

سارا عابرين الساحة إلى كوخ «دَد»، وكان بابه موصدًا. نادى «فرانكلين»:

- «دَد»! «دَد روجرز»!

قرع الباب مرة، فاهتز الكوخ بأكمله. انخلع القفل والسلسلة المُثبَّتان في الداخل، وانفتح الباب. كان الكوخ خاليًا، لكنه يعبق برائحة مُمرِضة جعلتهما ينظران إلى بعضهما ويجفُلان، وهما الخبيران بالروائح العفنة والفطرية. ذكَّرت «فرانكلن» بالمخلل الذي ظل في مكان مظلم لأعوام حتى يتحول السائل حوله إلى الأبيض.

قال «فيرجيل»:

- ابن الغانية... هذه رائحة أبشع من رائحة الغرغرينا.

الغريب أن الكوخ كان مُرتبًا بعناية؛ قميص «دَد» الإضافي مُعلَّق على خطاف فوق الفراش، مقعد المطبخ المشروخ مدفوع نحو الطاولة، والفراش مُهندم على طريقة الجيش. علبة الدهان الأحمر فوق صفحة من جريدة جوار الباب، وبعض قطرات الدهان الجديدة على سطحها الخارجي.

قال «فيرجيل» وقد تحول لون وجهه إلى الأبيض المخضر:

- سأقيء لو لم أخرج من هنا.

لم يشعر «فرانكلين» بشعور أفضل من رفيقه، فتراجع مُغلقًا الباب. بحثا في المستودع، فوجداه خاليًا مهجورًا كجبال القمر. قال «فرانكلين»:

- هو ليس هنا. ربما هو مُلقى في مكان ما في الغابة ثملًا.

- «فرانك»؟

رد «فرانكلن» سهل الانفجار:

- ماذا؟

- الباب كان مغلقًا من الداخل بالقفل والسلسلة، لو أنه ليس في الكوخ، فكيف خرج؟

في فزع، التفت «فرانكلن» ونظر إلى الكوخ. كان يريد أن يقول (خرج من النافذة) لكنه لم يتفوه بها. النافذة نفسها لم تكن سوى مُربع مقصوص في الورق السميك المبني به الكوخ، ولا يغطيه سوى رقائق من البلاستيك، بالإضافة إلى أنه لم يكن بالاتساع الذي يسمح لـ «دَد» بالمرور خلاله، وبخاصة مع حدبة ظهره.

قال «فرانكلن» في فظاظة:

- دعك منه. إن لم يكن يريد مشاركتنا العمل، فعليه اللعنة. لنخرج من هنا.

عادا إلى الشاحنة، لكن «فرانكلن» شعر بشيء يتسرب إلى غشاء الظلام الواقي... شيء لن يتذكره لاحقًا، ولن يريد أن يتذكره. شعور مقيت بأن هناك شيئًا مفزعًا قد جرى هنا. شعر كأن أرض المستودع لها قلب ينبض ببطء، لكن بحيوية مُريعة. باغتته برغبة مُلِحَّة في الرحيل فورًا.

قال «فيرجيل» فجأة:

- لا أرى أي فئران.

لم يكن هنا فئران تُرى، فقط بعض النوارس. حاول «فرانكلن» أن يتذكر آخر مرة جاء فيها إلى المستودع للتخلص من القمامة ولم يرَ فئرانًا، لكنه لم يستطع، ولم ترُق له الفكرة كذلك.

- لا بد وأنه قد وضع لها سُمًّا أو مصيدة، هه؟ أليس كذلك يا «فرانك»؟

قال «فرانكلن»:

- لنرحل من هنا. لنرحل سريعًا عن هذا المكان اللعين.

***

بعد العَشاء، سمحوا لـ «بن» أن يذهب ليطمئن على «مات بُرك». كانت زيارة قصيرة، فـ «مات» كان نائمًا، وقد أزاحوا ستار الأكسجين، قالت الممرضة لـ «بِن» إنه غالبًا سيفيق غدًا صباحًا، وسيستطيع استقبال الزوَّار لفترات قصيرة.

فكَّر «بِن» أن وجه «مات» قد شاخ للغاية، ولأول مرة بدا كوجه رجل عجوز. كان مُستلقيًا، يتدلى جلد رقبته خارج ملابس المُستشفى، ضعيفًا بلا حيلة. لو أن ما يظنه «بِن» حقيقي، فالأطباء لا يساعدون «مات». لو أن كل هذا حقيقي، فنحن إذًا في قلعة الشك، حيث تُستأصل الكوابيس بالمُبضع والمُطهرات والعلاج الكيميائي، بدلًا عن الأوتاد والكتاب المُقدس، والأعشاب الجبلية البرية. هم

فخورون بوحدات دعم الحياة والمحاقن الشرجية المملوءة بمحلول الـ «باريوم». لو أن الحقيقة بها ثقوب، فهم لا يعرفون ولا يهتمون.

سار «بِن» نحو رأس الفراش، وأدار رأس «مات» برفق، فلم يجد أي علامات على رقبته؛ كانت سليمة كجرس.

تردد لحظات، ثم ذهب إلى الخزانة ففتحها. كانت ملابس «مات» مُعلَّقة هناك، وعلى خطاف مُثبت إلى داخل الضلفة، وجد الصليب الذي كان يرتديه في أثناء زيارة «سوزان» مُعلَّقًا من سلسلته المُخرَّمة التي تلمع برقة تحت ضوء الغرفة الخافت. أخذه «بِن» وطوَّق به رقبة «مات».

- ماذا تفعل؟

دخلت ممرضة الغرفة، معها وعاء ماء ومبولة فراش مُغطاة بمنشفة نظيفة. أجاب «بِن»:

- أضع صليبَه حول رقبته.

- أهو كاثوليكي؟

قال «بِن» بحزن:

- هو كذلك الآن.

***

كان الليل قد جاء، حين جاءت طرقات من باب منزل «سوير» على طريق «ديب كات». قامت «بوني سوير» تفتح الباب بابتسامة على شفتيها. كانت ترتدي مئزرًا قصيرًا مربوطًا حول الخصر، وتنتعل حذاء ذا كعبين عاليين، ولا شيء آخر سوى ذلك.

عندما فتحت الباب، انفتح معه فم «كوري برااينت» واتسعت عيناه وهو يقول:

- ب... ب... «بوني»؟

وضعت يدها على مقبض الباب في تأنٍّ، وهي تظهر صدرها بأفضل زاوية، وسألته:

- ما بك يا «كوري»؟

لفَّت ساقًا حول ساق وهي تقف وقفة مُغرية. همس «كوري»:

- إلهي، ماذا لو أن الطارق كان...

- كان الرجل من شركة الهاتف؟

سألته وأطلقت ضحكة مائعة، ثم قبضت على كفه وأردفت:

- أتريد أن تقيس وَصَلاتي؟

بنخيرٍ مُتلهف جذبها نحوه.

قالت وهي تتمايل بين ذراعيه:

- أوه، هل ستختبر سمَّاعتي يا رجل الاتصالات؟ أنا أنتظر مكالمة مهمة للغاية طيلة اليوم...

رفعها عن الأرض، ثم أغلق الباب بكعبه. لم تكن في حاجة إلى إرشاده إلى حجرة النوم، فهو يعرف طريقه. سألها وعيناه تلمعان في الظلام:

- هل أنت واثقة أنه لن يعود الآن؟

- من تقصد يا رجل الاتصالات؟ أتقصد زوجي الوسيم؟ هو في «برلنجتون».

وضعها على الفراش. قالت بصوت بطيء مُتهدج:

- أشعل النور.

أضاء المصباح جوار الفراش، ثم حدق إليها. كان المئزر قد انزاح جانبًا. عيناها دافئتان ناعستان، حدقتاها مُتسعتان.

هوى على ركبتيه ثم زحف نحوها، يمد يده نحو رباط المئزر.

- هذا رائع يا «كوري». استمر... إلى الأعلى...

- هذا لطيف، أليس كذلك؟

صرخت «بوني سوير». نظر «كوري برااينت» إلى الأعلى في حيرة. كان «ريجي سوير» يقف عند الباب، مُستندًا إليه، يحمل بُندقية مُصوِّبًا فوهتها إلى الأسفل.

شعر «كوري» بمثانته تسترخي وتطلق ما بها.

خطا «ريجي» إلى داخل الغرفة باسمًا وهو يقول:

- إذًا فما يُقال حقيقي. هذا الشرير الهزلي يدين لي بزجاجة بيرة.

وجدت «بوني» صوتًا للتحدث أولًا، فقالت:

- «ريجي»، اسمع. ليس الأمر كما تظن. لقد اقتحم المنزل، وكان مجنونًا... كان... كان...

قال مُبتسمًا:

- اخرسي أيتها العاهرة.

كانت ابتسامته رقيقة، واسعة. ما يزال يرتدي نفس الملابس التي نزل بها منذ ساعتين.

قال «كوري» وفمه يقطر لعابًا:

- اسمع... رجاء، رجاء، لا تقتلني... حتى لو أنني أستحق الموت. أنت لا تريد أن تُسجَن، ليس بسبب كهذا. اضربني، لكن رجاء...

قال «ريجي سوير» بابتسامته الرقيقة:

- انهض أيها المُحامي البارع. سحَّاب سروالك مفتوح.

- اسمع يا سيد «سوير»...

- نادِني «ريجي»، فنحن تقريبًا صديقان حميمان، فنحن نتشارك نفس المرأة، أليس كذلك؟

صاحت «بوني»:

- ليس الأمر كما فهمت... لقد اغتصبني...

نظر «ريجي» لها بابتسامته وقال:

- لو أنك نطقتِ بكلمة أخرى، سأدُس فوهة البندقية داخلك، فتستقبلين رسالة خاصة للغاية.

بدأت «بوني» تولول، وقد صار وجهها بلون الحليب.

- سيد «سوير»... «ريجي»...

- اسمك «براينت»، أليس كذلك؟ والدك هو «بيت براينت»؟

هزَّ «كوري» رأسه سريعًا موافِقًا، وقال:

- أجل... هذا صحيح... صحيح للغاية. اسمع...

- اعتدت أن أبيعه زيت سيارات حين كنت أعمل سائقًا لدى «جيم ويبر». كان هذا منذ خمس أو ست سنوات، قبل أن أقابل هذه العاهرة هناك. هل يعرف أبوك أنك هنا؟

- كلا يا سيدي. سيحطم هذا قلبه. يمكنك أن تضربني، أنا أستحق، لكن لو قتلتني فسيعرف أبي السبب، وسيُسقطه هذا ميتًا، وبهذا تكون مسؤولًا عن اثنين...

- كلا. أراهن أنه لا يعرف. اخرج إلى حجرة المعيشة دقيقة لنتحدث. هيا.

ابتسم برقة كي يُثبت لـ «كوري» أنه لا ينتوي إيذاءه، ثم نظر نحو «بوني» التي كانت تنظر إليه في ذعر:

- أنتِ، امكثي هنا أيتها الغانية، وإلا فلن تعرفي نهاية هذه القصة أبدًا. تعالَ يا «برواينت».

أشار إليه بفوهة البندقية. سار «كوري» أمامه إلى حجرة المعيشة، يتعثر على ساقين من مطاط. حكَّة مُلحة يشعر بها بين كتفيه، وفكَّر أن هذا هو المكان الذي سيضع عليه فوهة بندقيته ويطلقها. تساءل إن كان سيعيش بعدها فترة كافية كي يرى أحشاءه تُغرِق الحائط المُقابل.

قال «ريجي»:

- استدِر.

استدار «كوري» وبدأ ينتحب. هو لا يريد الانتحاب لكنه فقد السيطرة على نفسه. لا يهم انتحابه أو عدمه، فقد بالَ على نفسه بالفعل.

لم تعد فوهة البندقية تتدلى نحو الأرض، بل كانت تشير الآن إلى وجه «كوري». بدا له أن فتحتَي الماسورتين تتضخمان لتتحوَّلا إلى بئرين بلا قرار.

سأله «ريجي» وقد زالت ابتسامته وصار وجهه محايدًا للغاية:

- أنت تعرف ما كنتَ تفعل؟

لم يُجب «كوري»، فقد كان هذا سؤالًا غبيًّا، لكنه استمر في الانتحاب على أي حال.

- أنت نمت مع زوجة رجل آخر يا «كوري». هذا اسمك؟

أومأ «كوري» والدموع تنهمر على خديه.

- أتعرف ما يحدث لأمثالك حين ينفضح أمرهم؟

أومأ «كوري».

- أمسك ماسورتي هذه البندقية يا «كوري»، فيها ثلاث طلقات. وتخيل... فقط تخيل أنك تمسك جسد زوجتي.

مدَّ «كوري» يدًا مُرتجفة وأمسك ماسورتي البندقية. المعدن بارد تحت كفه المُلتهبة. تأوَّه في كربٍ عظيم، فقد فات وقت التوسُّل.

- ضعه داخل فمك يا «كوري». كلا الماسورتين... أجل... هذا سهل! ممتاز... فمك كبير كفاية. دسَّ فيه الماسورتين. أنت ماهر في تلك الأمور، أليس كذلك؟

كان فك «كوري» مفتوحًا عن آخره، وفوهة البندقية تصل تقريبًا إلى سقف حلقه مما أثار معدته.

- أغمض عينيك يا «كوري».

ظلت عينا «كوري» المُتسعتان كطبقين تنظران إليه. ابتسم «ريجي» ابتسامته الرقيقة مرة أخرى وقال:

- أغلق هاتين العينين الزرقاوين يا «كوري».

أغلقهما «كوري»، ولم يدرك أنه قد تغوَّط. ضغط «ريجي» الزناد، فهوت إبرة الإطلاق على خزنة فارغة من الرصاص مُصدرة صوت «كليك- كليك».

سقط «كوري» أرضًا فاقدًا الوعي. نظر إليه «ريجي» للحظات، يبتسم برقة، ثم رفع فوهة بُندقيته واستدار عائدًا إلى حجرة النوم وهو يهتف:

- ها أنا آتٍ يا «بوني». مُستعدة؟

وصرخت «بوني سوير».

***

كان «كوري براينت» يترنح على طول طريق «ديب كات» متجهًا إلى حيث أوقف شاحنة شركة الهاتف. رائحته نَتِنة، عيناه مُحمرتان زائغتان، ومؤخرة رأسه متورمة جراء ارتطامها بالأرض حين فقد الوعي.

حذاءاه يُصدران صوت جرٍّ وحفيف على الأرض، فحاول التركيز على هذا الصوت ولا شيء غيره، وبخاصة دمار حياته المفاجئ والشامل.

كانت الساعة الثامنة والربع.

«ريجي سوير» كان مُحتفظًا بابتسامته وهو يطرده خارج المنزل من باب المطبخ الخلفي، بينما صوت انتحاب «بوني» المُستمر المُنتظم يتعالى من حجرة النوم.

قال له «ريجي»:

- يمكنك أن تخرج إلى الشارع كصبي طيب، اركب شاحنتك وارجع إلى البلدة، ثم اركب الحافلة الساعة العاشرة إلا ربع من «لويستون» إلى «بوسطن». من «بوسطن» يمكنك ركوب حافلة إلى أي مكان في البلاد. الحافلة تتوقف عند متجر «سبنسر» فاحرص على ألا تفوِّتها، لأنني إن رأيتك مرةً أخرى، سأقتلك. ستكون هي بخير الآن، فقد كُسِرت تمامًا، وستضطر لارتداء سراويل وقمصان طويلة الكُمين لأسبوعين على الأقل، لكنني لم أمس وجهها. عليك فقط أن تغادر بلدة «سالم» قبل أن تُنظف نفسك وتُفكر في أن تعود إنسانًا مرة أخرى.

وها هو الآن، يسير في الطريق، مُنفِّذًا أوامر «ريجي سوير». يمكنه أن يتجه إلى الجنوب من «بوسطن» إلى... إلى أي مكان. لديه أكثر من ألف دولار مُودَعين في المصرف، كانت أمه تخبره دومًا أنه يحب الادخار. يمكنه الإنفاق منها حتى يجد عملًا ثم يبدأ في رحلته الطويلة لنسيان هذه الليلة، وطعم ماسورتي البندقية، ورائحة برازه الملتصق بملابسه.

- مرحبًا سيد «براينت».

صرخ «كوري» صرخة مكتومة، وحدق حوله في الظلام، لكنه لم ير شيئًا في البداية. كانت الرياح تُحرك الأشجار، فتتراقص الظلال هنا وهناك على امتداد الطريق. ثم ميَّزت عيناه ظلًّا أكثر

تماسُكًا عند السور الحجري الذي يفصل الطريق عن مرعى «كارل سميث» الخلفي. للظل هيئة إنسان، لكن هناك شيئًا... هناك شيء...

- مَن أنت؟

- صديق ذو بصر وبصيرة يا سيد «براينت».

- كيف تعرف عني؟

- أعرف الكثير. عملي هو أن أعرف. أتدخن؟

- شكرًا.

أخذ منه السيجارة شاكرًا ودسَّها بين شفتيه، أشعل الغريب عود ثقاب، وعلى ضوء اللهب رأى أن للغريب عظام خدين عاليتين مثل السِّلاف، وجبينه عريض بارز، وشعره الأسود الناعم مُصفف إلى الخلف. ثم انطفأ اللهب، بينما يسحب «كوري» الدخان الكثيف إلى رئتيه. كانت سيجارة ملفوفة يدويًّا، لكنها أفضل من لا شيء.

كان قد بدأ يهدأ حين سأل الغريب مُجددًا:

- مَن أنت؟

ضحك الغريب ضحكة مُجسمة مُجلجلة حملتها الريح بعيدًا مع دخان سيجارة «كوري».

- يا للأسماء! ويا لإصرار الأمريكيين عليها. دعني أبيعك هذه السيارة، أنا «بيل سميث»، وما دام لديك اسم، فأنت قادر على إقناعي بأي شيء؛ شاهد هذا على التلفاز، كُل هذا! اسمي «بارلو» لو أن هذا يُريحك.

ثم انفجر في الضحك مرة أخرى، عيناه تلمعان وتضيئان. شعر «كوري» بابتسامة تتسلل إلى شفتيه وبالكاد استطاع أن يصدق أنه قادر على الابتسام. مشكلاته بدت بعيدة، تافهة مقارنة باجتياح هاتين العينين المرحتين السوداوين لعالمه.

سأله «كوري»:

- أنت أجنبي، أليس كذلك؟

- أنتمي إلى عدة بُلدان، لكن بالنسبة إلي... هذه الأرض... هذه البلدة... تبدو مليئة بالغرباء الأجانب. هل تفهمني؟ هه؟ هه؟

انفجر ضاحكًا مُجددًا وهذه المرة شاركه «كوري» الضحك، فجاءت ضحكته مدفوعة بالضغط النفسي، فتحولت إلى قهقهات هيستيرية. أكمل «بارلو»:

- أجل، أجانب. لكنهم أجانب رائعون، يضجون بالحياة والدماء الساخنة. هل تُدرك مدى جمال بلادك وبلدتك يا سيد «براينت»؟

ضحك «كوري» ضحكة إحراج من المُجاملة، ولم يبعد عينيه عن وجه الغريب، فقد أسره تمامًا.

- أهل هذه البلاد لم يعرفوا جوعًا أو حاجةً. مر جيلان على الأقل منذ آخر مرة عرفوا فيها شيئًا كهذا. حتى وقتها، ما حدث لم يزِد عن صوت ضعيف في حجرة واسعة. ظنوا أنهم عرفوا التعاسة، لكن تعاستهم لن تتجاوز تعاسة طفل سكب مثلجاته على العشب في حفل عيد ميلاد. ليس بهم... كيف تقولونها بلغتكم؟ ليس بهم ضعف. يسفكون دماء بعضهم البعض بكل عنفوان. هل تصدق ذلك؟ هل تفهمه؟

- أجل.
قالها «كوري» وهو ينظر إلى عيني الغريب، ويرى فيهما أمورًا كثيرة، وكلها رائعة.
- هذه البلاد هي التناقض المُدهش بعينه. في بلاد أخرى، حيث يأكل المرء ويملأ بطنه يومًا بعد يوم، يصير المرء سمينًا، كسولًا كالخنازير. لكن في هذه الأرض، كلما أكلتم، صرتم أكثر عدوانية، هل تفهم؟ مثل السيد «سوير». لديه الكثير، لكنه يستكثر عليك بعضًا من فُتات مائدته. هو كذلك كطفل في حفل عيد ميلاد، يدفع الأطفال الآخرين ويتزاحم على الحلوى على الرغم من أنه قد أخذ كفايته. أليس كذلك؟
- بلى.
قالها «كوري» بينما عينا «بارلو» تتسعان، وتتفهمان.
- هي مسألة وجهة نظر. أليس كذلك؟
صاح «كوري»:
- بلى!
لقد وضع الرجل يده على الحقيقة بدقة. سقطت السيجارة من يده ولم يلاحظ، واستقرت على أرض الطريق. قال الغريب عاكسًا ما يدور بذهن الشاب:
- ربما يفوتني مجتمع مثل مجتمع بلدتكم، ربما أذهب إلى واحدة من مدنكم... لكن، ماذا أعرف عن المُدن؟ غالبًا ستصدمني سيارة مُسرعة، أو أختنق بالهواء الملوث! سأقابل واحدًا من أولئك الناعمين المختالين الذين لا يهمهم سوى... كيف تقولونها؟ المُعاداة؟ أجل... لا يهمهم سوى مُعاداتي. كيف لشخص بسيط مثلي أن يتعامل مع تكلُّف وضحالة المدينة الكبيرة... حتى لو كانت مدينة أمريكية؟ بالطبع! أنا أبصق على مُدُنكم.
همس «كوري»:
- أوه. أنت على حق.
- لذا، جئت إلى هنا، إلى بلدة أخبرني عنها رجل عبقري، رجل من سكانها القدامى، لكنه الآن قد تُوفي. الناس هنا ما يزالون أغنياء، بكامل دمائهم، ناس تملؤهم عُدوانية وظلام ضروريان كي... لا توجد كلمة في لغتكم تُعبر عما أريد قوله. بوكول[30]، فُرديرلاك[31]، إياليك[32].. هل تتابعني؟
همس «كوري»:
- أجل.
- لم يقطع الناس الحبل السُّري الذي يربطهم لأمهم؛ الأرض، بالأسمنت والخرسانة. أياديهم مغموسة بالكامل في ماء الحياة. لقد انتزعوا الحياة من الأرض، انتزعوها كلها. أليس هذا صحيحًا؟
- بلى!
ضحك الغريب برقة، ووضع يده على كتف «كوري» وقال:
- أنت فتى طيب، حَسَن. فتى قوي. لا أظنك تريد تَرك تلك البلدة بارعة الحُسن.
- كلا.
همس بها «كوري»، وقد راودته فجأة الشكوك. عاد إليه الخوف، لكنه بالتأكيد لم يكن مهمًّا. هذا الرجل لن يسمح لشيء بإيذائه.

- لن تغادرها أبدًا.
وقف «كوري» يرتجف، مُثبَّت إلى مكانه بينما تقترب منه رأس «بارلو».
- وكذلك ستحصل على انتقامك ممن آثروا أنفسهم بينما الآخرون محرومون.
غاص «كوري برايت» في نهر النسيان، وكان هذا النهر هو الزمن، وكانت مياهه حمراء.

***

كانت الساعة التاسعة، وفيلم مساء السبت يُعرَض على التلفاز المُعلَّق في حجرة المستشفى، حين رنَّ جرس الهاتف جوار فراش «بِن». على الخط كانت «سوزان»، وبالكاد تُسيطر على انفعالاتها.
- «بِن»، «فلويد تِبتس» مات! مات في الزنزانة ليلة أمس. شخَّص دكتور «كودي» سبب الوفاة بفقر الدم الحاد، لكنني أعرف «فلويد» وكان يعاني ارتفاع ضغط الدم، لذا لم يُقبَل للتجنيد في الجيش!
قال «بِن» وهو يستقيم جالسًا:
- اهدئي.
- هناك المزيد. عائلة اسمها «مَكدوجال»، يعيشون هناك في منطقة المُنحنى، ابنهما ذو العشرة أشهر قد مات فجأة، وقد نقلوا السيدة «مَكدوجال» مُقيَّدة.
- هل سمعتِ عن سبب وفاة الطفل؟
- قالت أمي إن السيدة «إيفانز» سمعت «ساندرا مَكدوجال» تصرخ، فهرعت إليها ثم اتصلت بطبيب عجوز يُدعى دكتور «بلومان». هذا الأخير لم يقُل شيئًا، لكن السيدة «إيفانز» أخبرت أمي أنها لم تستطِع أن ترى خطبًا ما بالطفل، فيما عدا أنه كان ميتًا.
- وأنا و«مات» -المجنونان- خارج البلدة، وخارج الخدمة.
أردف «بِن» وهو يحدِّث نفسه أكثر مما يُوجه كلامه لـ «سوزان»:
- كأن هذا كان مُخطَّطًا.
- ما زال هناك المزيد.
- ماذا؟
- «كارل فورمان» الحانوتي مفقود، وكذلك جثة «مايك ريرسون».
سمع «بِن» نفسه يقول:
- قُضي الأمر. يجب أن أخرج من هنا غدًا.
- وهل سيتركونك تغادر قريبًا؟
- لن يعترض أحد، ليس في إمكانهم الاعتراض.
كان يتحدث بشرود وقد انتقل تفكيره إلى موضوعٍ آخر. سألها:
- هل لديكِ صليب؟
أجابت:
- أنا؟ إلهي، كلا.

- أنا لا أمازحكِ يا «سوزان»، لم أكن قط أكثر جدية من اليوم. هل هناك مكان تبتاعين منه واحدًا حالًا؟

- ربما لدى «ماري بودِن». يمكن أن أسير...

- كلا، ابتعدي عن الشوارع، وامكثي في المنزل. اصنعي واحدًا بنفسك حتى لو عن طريق لصق عصوَين مُتعامدتين ببعضهما. ضعيه جوار فراشك.

- «بِن»، ما زلت لا أصدق. ربما هناك شخص مُختل يظن نفسه مصاص دماء، لكن...

- صدقي ما تشائين، لكن اصنعي الصليب.

- لكن...

- هلا صنعتِه؟ ولو على سبيل مُجاراتي.

قالت دون حماس:

- حسنًا يا «بن».

- هل يمكنكِ أن تأتي غدًا في التاسعة إلى المستشفى؟

- أجل.

- سأكون بالأعلى مع «مات»، وسنخبره معًا، ثم سنذهب أنا وأنت إلى دكتور «كودي».

- سوف يظن بعقلك الظنون يا «بِن»، ألا تعرف هذا؟

- أعتقد أنني أعرف. لكن كل هذا يبدو حقيقيًّا بعد حلول الظلام، أليس كذلك؟

قالت بهدوء:

- بلى. إلهي... لديك حق.

بلا سبب على الإطلاق، فكر في «ميراندا»، وفكر فيها وهي تموت. الدراجة البخارية تنزلق فوق بقعة مُبللة في الطريق، صوت صراخها، فزعه المُميت، جانب الشاحنة يكبُر ويكبُر إذ يقتربان منه.

- «سوزان»؟

- أجل؟

- احترسي لنفسكِ لو سمحتِ.

بعد أن أغلَقَت الخط، أعاد السماعة إلى مكانها، ثم حملق في التلفاز بالكاد يفهم ما يدور على شاشته. شعر أنه عارٍ، مكشوف. لم يكن هو نفسه يملك صليبًا. انتقلت عيناه إلى النوافذ التي لم يكن خلفها سوى الظلام. عاد إليه الخوف الطفولي من الظُّلمة، فنظر إلى الشاشة وارتجف.

***

مشرحة المُقاطعة في «بورتلاند» عبارة عن حجرة باردة معقمة، مُبطنة بالكامل بالبلاط الأخضر، والسقف مدهون بدرجة أخف من نفس اللون. الحوائط مصفوفة بأبواب معدنية مُربعة شبيهة بخزانات الأمانات في محطة القطار، تلقي مصابيح الفلورسنت إضاءة مُحايدة باردة على كل هذا. لم يكن هناك أي زينة في المكان، لكن المقيمين به لم يشكوا من قبل.

في الساعة العاشرة إلا ربع من مساء يوم السبت، أدخل العاملون منضدة بعجلات، تحمل الجسد المُغطى لمتوفًّى مِثليِّ الجنس، كان قد أُطلق عليه النار في حانة بوسط البلدة. كان هو أول جثث الليلة، بينما ينتظرون وفود قتلى الطريق السريع الذين يصلون غالبًا بين الساعتين الواحدة والثالثة صباحًا.

كان «بَدي باكومب» في منتصف مُزحة بذيئة عن مزيل عرق مهبلي، حين توقَّف في منتصف جملته وهو ينظر إلى صف الخزانات السفلي، فقد كانت خزانتان منهما مفتوحتين.

نظر هو ورفيقه «بوب جرينبرج» الوافد الجديد وهرعا إلى الخزانتين. نظر «بَدي» إلى العلامة المُلصَقة على الباب الأول، بينما راح «بوب» يفحص الأخرى.

تِبتس، فلويد مارتِن.

الجنس: ذكر

الدخول: 10-4-75

التشريح: 10-5-76

الإمضاء: ج. م. كودي ممارس عام

فتح الباب عن آخره، فوجد خزانة الجثث خالية. صاح به «جرينبرج»:

- مهلًا! هذا الشيء اللعين خالٍ! أي شخص قد يمزح...

قاطعة «بَدي»:

- لقد كان هناك طيلة الوقت، وأقسم أن أحدًا لم يمسه طيلة وجودي. لا بد وأن هذا قد حدث في وردية «كارتي». ما اسم الجثة الأخرى؟

- مَكدوجال، راندال فراتوس. ماذا يعني هذا الاختصار على البطاقة؟

- يعني أنه كان رضيعًا. يا يسوع! أعتقد أننا في ورطة.

***

شيء ما أيقظه.

ظل راقدًا في الظلام الكثيف، ينظر إلى السقف.

ضوضاء، ضوضاء ما... لكن المنزل كان ساكنًا.

ها هي... صوت خربشات.

تقلَّب «مارك بِتري» في فراشه ونظر عبر النافذة، فوجد «داني جليك» ينظر إليه من الجهة الأخرى، بشرته باهتة للغاية، عيناه حمراوان مجنونتان، مادة غامقة اللون تلطخ شفتيه وذقنه. حين رأى «مارك» ينظر إليه، ابتسم كاشفًا عن أسنان طويلة حادة مفزعة.

همس الصوت:

- دعني أدخل.

لم يكن «مارك» واثقًا إن كان الصوت قد عبر هواء الحجرة حتى وصله، أم أنه قد سمعه داخل عقله مباشرة. أدرك الآن أنه خائف، ولم يكن قد خاف هكذا من قبل حتى حين تعرَّض لحادث غرق.

عقله -الذي ما زال عقل طفل- حدد مكانه بدقة خلال ثوانٍ، وأدرك أن حياته في خطر.

- دعني أدخل يا «مارك»، أريد أن ألعب معك.

لم يكن هناك شيء يقف عليه أو يتشبث به هذا الكائن المرعب بالخارج، فحجرته في الطابق الثاني، وليس هناك بروز يقف فوقه. مع ذلك، كان مُعلَّقًا في الهواء... أو ربما هو مُتشبث بشيء ما كالحشرات.

- «مارك» لقد عدت أخيرًا. رجاءً يا «مارك»...

بالطبع، عليك أن َتدْعُهُم ليدخلوا...

كان يعرف هذه القواعد من مجلات المُسوخ، تلك التي تخشى أمه تأثيرها السلبي عليه.

نهض من الفراش، وكاد يسقط أرضًا. وقتها فقط أدرك أن (الخوف) كلمة تافهة مُقارنة بما يشعر به. حتى كلمة (الرعب) غير قادرة على التعبير عن شعوره. الوجه الشاحب خارج النافذة يحاول الابتسام، لكنه كان قد مكث كثيرًا في الظلمات حتى نسي كيف يبتسم. ما رآه «مارك» يرتسم على وجهه مجرد تكشيرة مُرتعشة... قناع دموي مأسوي.

ومع ذلك، لو أنك نظرت إلى عينيه، فلن تجدها بمثل هذا السوء. لو أنك نظرت إلى عينيه، فلن تصير خائفًا بعدها، وسترى أن كل ما عليك فعله هو فتح النافذة ودعوته. تفضَّل يا «داني»، ثم بعدها سيزول كل خوف لأنك ستتوحَّد مع «داني»، ومعهم، وستصير أنت و(هو) واحدًا. ستصبح...

كلا! هكذا يصطادونك!

أبعد عينيه عنه قسرًا، وقد احتاج إلى كل إرادته وقدرته لفعل ذلك.

- «مارك»، دعني أدخل! آمرك! هو يأمرك!

سار «مارك» نحو النافذة مرة أخرى بلا حيلة منه، ولا مفر من اتِّباع هذا الصوت. باقترابه من زجاج النافذة، راح وجه الولد على الجهة الأخرى يرتعش ويُكشر في لهفة، ويخمش الإطار الخشبي بأظفاره المُسودة بالتراب.

فكِّر في شيء... بسرعة! بسرعة!

همس بصوت أجش أغنية يستخدمونها لعلاج اللعثمة، فقد كانت هي ما خطر بباله لسحب كل تركيزه بعيدًا عن تأثير المسخ وراء الزجاج.

قال «داني جليك» بصوت كالفحيح:

- «مارك»، افتح النافذة!

ظل يُردد كلمات الأغنية...

- النافذة يا «مارك»، هو يأمرك!

«مارك» يضعُف، هذا الصوت الهامس يخترق كل حصونه، والأمر بفتح النافذة مُلِحٌّ. وقعت عينا «مارك» على مكتبه، ونماذج المسوخ فوقه، وبدت له الآن سخيفةً طفوليةً...

ثبتت عيناه فجأة على جزء من النماذج المعروضة، واتسعتا قليلًا. الغول البلاستيكي يسير حول مقابر بلاستيكية، وواحد من شواهد القبور كان على هيئة صليب. دون تردد أو تفكير (وهو تردد وتفكير يراود الكبار فقط، وهذه مزية أن يكون طفلًا) انتزع «مارك» الصليب وقبض عليه، ثم صاح:

- ادخل إذًا.

غمر الوجه خلف النافذة تعبير ماكر مُنتصِر. ارتفعت ضلفة النافذة، وخطا «داني» إلى الداخل خطوتين للأمام. الزفير الصادر عن فمه له رائحة لا تُطاق، رائحة قبر مفتوح. مدَّ ذراعيه البيضاوين الباردتين ووضع كفيه على كتفي «مارك»، ثم أمال رأسه جانبًا ككلب، كاشفًا عن أسنانه العلوية اللامعة.

سريعًا، رفع «مارك» الصليب البلاستيكي وضغطه على خد «داني جليك». جاءت صرخته مُريعة، غير بشرية... صامتة. فقط صدحت في أروقة عقله وحُجُرات روحه. تحول تعبير الانتصار على وجه الشيء الشبيه بـ «داني» إلى صرخة عذاب، وتصاعد الدخان من اللحم الشاحب، وللحظة -قبل أن يتلوى الكائن ويبتعد قافزًا، غائصًا في الظلام بالخارج- شعر «مارك» أن اللحم يتسامى متحولًا إلى دخان.

ثم انتهى كل شيء، كأن ما حدث لم يحدث. لكن لوهلة أضاء الصليب بضوء قوي، وكأنه موصول بسلك كهربي داخلي، ثم خفت الضوء تاركًا انطباعًا أزرق على شبكية عيني «مارك».

عبر فتحة التدفئة في الأرض، سمع صوت مصباح حجرة والديه يُضاء، ثم صوت أبيه يتساءل:

- ما كان هذا بحق الجحيم؟

***

بعد دقيقتين، انفتح باب حجرة نومه، لكن الدقيقتين كانتا وقتًا كافيًا لإعادة كل شيء إلى نِصابه.

سأله «هنري بِتري» برفق:

- بُني؟ هل أنت مستيقظ؟

أجابه «مارك» بصوتٍ ناعس:

- أعتقد...

- هل راودك كابوس؟

- أ... أعتقد هذا. لا أذكر.

- لقد صرخت في أثناء نومك.

- معذرة.

- لا تعتذر.

تردد قليلًا، ثم خطرت بباله ذكريات قديمة عن ابنه، حين كان رضيعًا ملفوفًا في رداء أطفال أزرق أقرب لغطاء. سأله:

- هل تريد كوبًا من الماء؟

- كلا. شكرًا يا أبي.

مسح «هنري بِتري» الغرفة بعينيه سريعًا، غير قادر على فهم سبب الشعور المُرعب الذي أيقظه، والذي ما زال مُستمرًّا... الشعور بأن هناك مُصيبة ما على بعد خطوات. لكن بالطبع، كل شيء يبدو على ما يرام.

- «مارك»، هل بك شيء؟
- كلا يا أبي.
- حسنًا. تُصبح على خير إذًا.
- تصبح على خير.

انغلق الباب برفق، وسمع صوت قدمي أبيه في خُفَّيهما يهبطان الدرج. تنَّهد «مارك» في ارتياح، وترك جسده يرتخي كرَدَّةِ فعل مُتأخرة قليلًا. ربما يصاب الكبار بالهيستريا في وقت كهذا، وليس الكبار فقط، فالأطفال الأكبر والأصغر معرَّضون أيضًا للانهيار إن كان أحدهم مكانه. لكن «مارك» شعر بالرعب ينزلق عنه تدريجيًّا، وهو شعور ذكَّره بالريح الجافة إذ تُبخِّر عن جسدك الماء بعد السباحة. وحين انزاح الرعب، حلَّ محله النعاس.

قبل أن ينجرف تمامًا، وجد نفسه يُفكر في الكِبار، ولم تكن هذه هي المرة الأولى. هم يتعاطون المُلَيّنات، والأقراص المنوِّمة ويعاقرون الخمر كي يُبعدوا عنهم مخاوفهم فيستطيعون النوم، ويُروِّض قلقهم بشأن العمل والمال وما سيقوله المُعلمون عني إن لم أشترِ لـ «جيني» ملابس أفضل، وإن كانت زوجتي تُحبني، ومَن هم أصدقائي. كل هذا لا يُقارَن بمخاوف الأطفال الذين يكتمونها تحت أغطية فراشهم في الظلام، بلا أمل أن يفهمهم أحد، إلا بالطبع طفل آخر مثلهم. ليس لهم مكان في مجموعات العلاج النفسي، أو خدمات الدعم النفسي، وعلى الطفل أن يتعايش كل ليلة مع الوحش تحت فراشه أو داخل الخزانة، أو الشيء الذي يزحف ببطء خارج حدود إبصاره. عليه أن يدخل معركته وحيدًا كل ليلة، والعلاج الوحيد هو انتظار استئصال الخيال، أو بمعنى أدق؛ انتظار البلوغ.

تلك الأفكار مرَّت بشكل أقصر وأبسط خلال عقله. في الليلة السابقة واجه «مات بُرك» هذا الكيان المُظلم وتسبب له هذا اللقاء في نوبة قلبية، والليلة قابله «مارك بِتري»، وبعدها رقد على فخذي النوم، وهو بعد قابض على الصليب البلاستيكي مثل (شُخشيخة) أطفال.

هذا هو الفرق بين الرجال والصِّبية.

الجحيم بالمجرية.

كلمة بلا معنى، لكن هناك اقتراحات لترجمتها: مصاصو الدماء استنادًا إلى كلمات مُشابهة في رواية دراكيولا، أو بمعنى دوَّامة بالهولندية.

ربما تعني (المخدوش) ببعض اللغات الإفريقية، وهذا يجعل معنى الكلمات الثلاث يُعطي معنى فتح فجوة أو دوامة لعبور مصاص الدماء.

الفصل الحادي عشر

بِن

كانت الساعة التاسعة إلا عشر دقائق من صباح يوم الأحد -صباح أحدٍ مغسول بأشعة الشمس- حين صار «بِن» أشد قلقًا على «سوزان». عندما دق جرس الهاتف جوار فراشه، التقط سماعته فورًا وصاح:

- أين أنتِ؟

- اهدأ. أنا في الأعلى مع «مات بُرك» الذي طلب شرف صُحبتك حين تستطيع.

- لماذا لم تمُري عليَّ؟

- مررتُ عليك قبله، لكنك كنت نائمًا كحَمَلٍ.

- هم يحقنوننا بمخدر ليلًا ليتمكنوا من سرقة أعضائنا لصالح مليونير غامض مريض. كيف حال «مات»؟

- اصعد إليه واطمئن بنفسك.

وقبل أن تُغلق سماعة الهاتف، كان قد ارتدى معطفه المنزلي.

***

تحسَّن «مات» كثيرًا، ويمكن القول إنه قد استعاد رونقه. كانت «سوزان» تجلس جوار فراشه، مُرتدية فستانًا أزرق. عندما دخل «بِن»، رفع «مات» كفه مُحييًا وهتف:

- اجذب حَجرًا.

جذب «بِن» واحدًا من مقاعد المستشفيات غير المُريحة وجلس وهو يسأله:

- بمَ تشعر؟

- أشعر بتحسُّن. ما زلت ضعيفًا، لكنني أفضل بكثير. انتزعوا أنبوب التغذية الوريدية من ذراعي ليلة أمس، وأحضروا لي بيضة مسلوقة للإفطار هذا الصباح. كانت مُقرفة. تُذكِّرني بطعام دور المُسنين.

قبَّل «بِن» «سوزان» سريعًا، وقد لاحظ أنها بالكاد مُتماسكة، كأن كل شيء داخلها مُثَبَّت إلى بعضه بخيط رفيع. سألها:

- هل جدَّ جديد منذ هاتفتِني ليلة أمس؟

- لم أسمع شيئًا. غادرت المنزل نحو الساعة السابعة، والبلدة تستيقظ مُتأخرًا قليلًا يوم الأحد.

التفت «بِن» إلى «مات» وسأله:

- هل أنت قادر على مناقشة هذا الأمر والانتهاء منه؟

- أعتقد هذا.

قالها واعتدل في جلسته، فتحرك الصليب الذهبي مُنزلقًا على صدره، لامعًا. أردف مُشيرًا إليه:

- بالمناسبة، شكرًا لأجل هذا. لقد أراحني كثيرًا على الرغم من أنني قد اشتريته من سوق الرواكد عصر الجُمعة.

- ما حالتك؟

- (مُستقرة). هذا هو المُصطلح الفاخر الذي استخدمه الطبيب الشاب «كودي» بعد أن عاينني بعد ظهر أمس. بحسب تخطيط القلب الذي أجراه لي، فما أصابني هو نوبة قلبية بسيطة، بلا جلطات.

أجلى حنجرته وأكمل:

- آمل ألا تكون هناك جلطات حقًّا، فقد جاءتني النوبة القلبية بعد أسبوع من آخر فحصٍ دوري أجراه لي. سأقاضيه وأخربُ بيته!

نظر إلى «بِن» يُعاين رد فعله، ثم أردف:

- لقد قال إنه رأى بعض الحالات التي تسببت فيها الصدمة العُظمى في نوبة قلبية لرجل سليم. لم أتحدث أكثر، كان هذا تصرفًا سليمًا، أليس كذلك؟

- تصرف سليم للغاية. لكن الأمور تطورت. سنقابل -أنا و«سوزان»- الطبيب «كودي» اليوم ونحكي له كل شيء. وإن لم يوقِّع أوراق خروجي من المستشفى حالًا سنرسله لك.

قال «مات» وقد صار شاحبًا:

- سأخبره بكل شيء حتى تطفح أذناه. هذا الأبله ذو الأنف الملوَّث بالمخاط يمنع عني تدخين الغليون.

- هل أخبرتكَ «سوزان» بما يجري في بلدة «أورسالم» منذ ليلة الجمعة؟

- كلا. هي فقط قالت إنها ستنتظر أن نجتمع كلنا معًا.

- قبل أن تُخبرك، هلا حكيت لي ما حدث بالضبط في منزلك؟

أعتم وجه «مات»، وارتعش قناع التماثل للشفاء الذي كان يخبئ خلفه شعوره، ولمح «بِن» من تحته ملامح الرجل العجوز المريض الذي رآه في الفراش أمس.

قال له:

- إن كنت غير قادر على...

ابتسم في مرارة وقال:

- كلا، أنا بالطبع قادر، يجب أن أحكي، لو أن نصف ما أرتاب به صحيح. لطالما عددتُ نفسي مُفكرًا حُرًّا، لا أُصدَم بسهولة. لكن أهالتني قدرة العقل على إبعاد أي فكرة لا تعجبه أو تُهدده. عندما كنا نلعب ونحن صغار بلوح الرسم السحري، كنا بسهولة نمحوا ما لم يعجبنا عنه، بمجرد أن نسحب الشريحة العلوية، فيختفي.

قالت «سوزان»:

- لكن ما نرسمه يظل على البطانة السوداء أسفل الشريحة العلوية للأبد.

ابتسم لها وقال:

- تشبيه جميل عن التفاعل بين العقلين الواعي والباطن، لكن «فرويد» كان يستخدم تشبيه البصلة بطبقاتها.

نظر إلى «بِن»، وسأله:

- هل سمعت هذا من «سوزان»؟

- أجل، لكن...

- لا عليك. كنت فقط أسأل كي أعرف من أين أبدأ الحكاية، وما هي الخلفيات غير اللازمة.

حكى القصة بصوت مُسطح خالٍ من الإحساس، توقَّف فقط عندما دخلت المُمرضة تسير على أطراف أصابعها، تسأله إن كان يريد مشروبًا مُرطِّبًا، فوافق «مات» على الفور، وراح يرشف المشروب من الماصَّة بين فواصل الحديث حتى انتهى. لاحظ «بِن» أنه عندما وصل إلى قفز «مايك» من النافذة، تحرَّكت مكعبات الثلج في كوبه، لكن صوته لم يتغير، واستمر في استخدام نفس نبرة الصوت التي يستخدمها في فصوله. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يراه فيها «بِن» رجلًا مثيرًا للإعجاب.

بعد أن انتهت الحكاية، صمتوا قليلًا، ولم يقطع هذا الصمت سوى «مات» وهو يسأل:

- إذًا، أنتما يا مَن لم تريا شيئًا بأعينكما، ما قولكما؟

أجابت «سوزان»:

- لقد تحدثنا عن هذا الأمر أمس، سأدع «بِن» يخبرك.

في حرج، راح «بِن» يتحدث عن كل تفسير، وما ينفيه. حتى وصل إلى ذِكر الضلفة السلكية، وعن الأرض الطرية تحت النافذة والتي خَلَت من أي أثر لسُلم خشبي، صفَّق له «مات».

- برافو! أنت أفضل من مخبر سري!

نظر «مات» نحو «سوزان» وأردف:

- وأنتِ يا آنسة «نورتون»، يا مَن كنتِ تكتبين مواضيع تعبير مُنظمة كقطع القرميد، ما هو تفسيرك؟

نظرت إلى كفيها اللتين كانتا تفردان كسرة في فستانها، ثم نظرت إليه وقالت:

- ألقى «بِن» عليَّ محاضرة عن استخدامات تعبير «لا أستطيع» لغويًّا، لذا لن أستخدمه. لكن من العسير عليَّ تصديق أن مصاصي الدماء يغزون بلدة «سالم» يا سيد «بُرك».

- سأخضع لاختبار كشف الكذب، لو أن هذا لن يُفشي سرنا.

احمرَّ وجهها وقالت سريعًا:

- كلا، لا تسئ فهمي. أنا مقتنعة أن شيئًا ما يجري في البلدة. شيئًا... فظيعًا. لكن... هذا...

مدَّ يده يغطي بها كفيها وقال:

- أتفهَّم هذا يا «سوزان»، لكن هلا فعلتِ شيئًا لأجلي؟

- لو أنني أستطيع.

- لنكمل -ثلاثتنا- فرضية أن ما يحدث حقيقي. لنحفظ هذه الفرضية بيننا حتى يثبت عكسها. هذه طريقة علمية، ألا ترين هذا؟ ناقشت أنا و«بِن» الطُّرُق كافة التي نختبرها بها، ولا أحد يتمنى أكثر مني أن تُثبت خطأها.

- لكنك لا تظن ذلك؟
قال برفق:
- أجل. بعد نقاشٍ طويل مع نفسي، وصلت إلى قرار. أنا أؤمن بما رأيت.
قال «بِن»:
- لندع تأويلات الإيمان والكفر خلف ظهورنا الآن، فهذه أمور جدلية.
وافقه «مات» وأضاف:
- ما خطتك؟
- أود أنت تكون أنتَ الباحث العام، وبخبرتك ستكون الأنسب لهذا المنصب، وبخاصة وأنت الآن مريض.
لمعت عينا «مات» مثلما لمعتا عندما أعلن «كودي» منعه من تدخين غليونه، وقال:
- سأظل مع «لوريتا ستارتشر» على الهاتف بمجرد أن تفتح المكتبة. ستحضر لي الكتب بعربتها.
ذكَّرته «سوزان»:
- اليوم هو الأحد، والمكتبة مُغلقة.
قال «مات»:
- ستفتحها لأجلي، سأعرف كيف أجبرها.
قال «بِن»:
- اجلب كل شيء وأي شيء له علاقة بالموضوع، سواء كانت كُتبًا نفسية أو عن علم الأمراض أو الأساطير. أتفهم؟ كل شيء.
- سأبدأ بحثي. هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها أنني إنسان منذ أفقت ووجدت نفسي هنا. ماذا ستفعل أنت؟
- أولًا، سأطلب من الطبيب «كودي» فحص جُثمانَي «ريرسون» و«فلويد تِبتس»، وربما نقنعه أن يُخرِج جثة «داني جليك» من القبر ويفحصها.
سألت «سوزان» «مات»:
- هل تظنه سيوافق؟
رشف «مات» من مشروبه قبل أن يُجيب:
- «جيمي كودي» الذي كنت أعرفه منذ كان طالبًا عندي سيوافق فورًا. كان خياليًّا، مُتفتِّح العقل، مُقاوم بشكل باهر لفكرة عدم الاستطاعة. لكنني لا أعرف ما قد فعلَته به الدراسة الجامعية ودراسة الطب.
قالت «سوزان»:
- كل هذا بالنسبة إليَّ غير مُقنع، وبخاصة الذهاب إلى «كودي» والمغامرة بصدِّه لنا. لماذا لا نذهب أنا و«بِن» إلى منزل «مارستِن» ونُنهي الأمر؟ لقد كان هذا هو المُقترح الوحيد منذ أسبوع.
فسَّر لها «بِن»:
- سأخبرك السبب. لأننا نتبع فرضية أن كل هذا حقيقي. هل تتلهفين إلى دس رأسك في فم الأسد؟

- كنت أظن مصاصي الدماء ينامون نهارًا.

- أيًّا ما يكونه «ستراكر»، فهو ليس مصاص دماء. إلا إذا كانت الأساطير القديمة كلها مُخطئة. لقد شوهد مرارًا في النهار، وكل ما سنفعله إن صعدنا إلى منزل «مارستِن» أننا سنثبت كوننا مُتطفلين لا أكثر. ثمة احتمالية أن يحبسنا هناك حتى حلول الظلام، ونصبح وجبة إفطار للسيد «دراكيولا».

سألته «سوزان»:

- أتقصد «بارلو»؟

- لِمَ لا؟ قصة رحلة عمل نيويورك هذه تبدو مُلفَّقة.

ظل العِند ظاهرًا في عينيها، لكنها لم تُقل شيئًا. سأله «مات»:

- ماذا ستفعل لو سخر «كودي» منكما؟ هذا إن لم يتصل بمستشفى المجانين فورًا.

- سنذهب إلى المقابر عند الغروب، ونراقب قبر «داني جليك». عُدَّه اختبارًا عمليًّا.

اعتدل «مات» منتصبًا على فراشه وقال بجدية:

- عِدني أنك ستكون حريصًا. «بِن»، عِدني!

قالت «سوزان» في محاولة لتهدئة روعه:

- سنكون حريصَين، وسنتسلح بالصلبان.

غمغم «مات»:

- لا تمزحي. لو أنكِ رأيتِ ما رأيتُ...

التفت نحو النافذة ناظرًا نحو سماء الخريف الصافية وأوراق الشجر اللامعة في ضوء الشمس. قال «بِن»:

- لو أنها تمزح، فأنا جاد. سنتخذ كل احتياطاتنا.

أضاف «مات»:

- قابِلا الأب «كالاهان»، واطلبا منه بعض الماء المُقدَّس. وإن كان من الممكن، خذا منه بعض الخبز المقدس كذلك.

سأله «بِن»:

- أي نوعٍ من الرجال هو؟

- غريب إلى حدٍّ ما. سكِّير. لكنه رجل مُتعلم مُثقف مُؤدَّب. ربما غاضبٌ كذلك من عبودية البابوية المُتنورة.

- هل أنت واثق من أن الأب «كالاهان»... يشرب؟

سألته «سوزان» وعيناها مُتسعتان، فأجابها «مات»:

- لست مُتأكدًا، لكن تلميذًا لدي يعمل في محل بيع الخمور في «يارموث» قال لي إن «كالاهان» زبون دائم لديهم، يحب خمر «جيم بيم». ذوقه عالٍ.

سأله «بِن»:

- وهل سيمكننا محادثته؟

- لا أعرف. لكن أظن أن عليكما المُحاولة.

- إذًا، أنت لا تعرفه مُطلقًا؟

- كلا، ليست معرفة شخصية. هو يكتب كتابًا عن تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في «نيو إنجلند»، ويعرف الكثير عن شعراء ما يُعرف بالعصر الذهبي.. «وَيتِّير»[33]، «راسِل»[34]، «لونجفيلو»[35]، «هولمز»[36].. إلخ. دعوته لمحاضرة طلبة الأدب الأمريكي العام الماضي. يتمتع بسرعة بَداهة وذهن حاضر... طلبتي أحبوه.

- سأذهب لمقابلته، وأتبع حدسي.

أطلَّت ممرضة عليهم، ثم بعد لحظة دخل «جيمي كودي» مُعلِّقًا مسماعًا طبيًّا حول رقبته. سأل بشكلٍ ودي:

- هل تقلِقون راحة مريضي؟

أجاب «مات»:

- ليس كما تُقلِق أنت راحتي. أريد غليوني.

قال «كودي» شاردًا وهو يقرأ تقرير حالة «مات»:

- لا يمكنك هذا.

غمغم «مات»:

- سُحقًا. يا لك من دجال!

أعاد «كودي» التقرير إلى مكانه، ثم جذب ستارًا أخضر أحاط بالفراش، وأردف مُخاطبًا زائريه:

- أخشى أنني سأطلب منكما أن تخرجا للحظات. كيف حال رأسك يا سيد «ميرز»؟

- بخير، ولا يبدو أن شيئًا يتسرب منه.

- هل سمعت عما حدث لـ «فلويد تِبتس»؟

- أخبرتني «سوزان». أود الحديث معك لو أن لديك وقتًا بعد المرور على مرضاك.

- يمكن أن أضعك في نهاية فحوصاتي لو أن هذا مناسب لك. سأمر عليك في الحادية عشرة.

- ممتاز.

حرَّك «كودي» الستار مرة أخرى وهو يقول:

- الآن، لو سمحتما...

قال «مات»:

- ها أنا أُعزَل.

حال الستار بينه وبين «بِن» و«سوزان»، ومن خلفه سمعا «كودي» يقول:

- في المرة القادمة التي تفقد فيها وعيك، سأستأصل فيها لسانك ونصف فص دماغك الأمامي.

ابتسما لبعضهما، كما يبتسم الزوجان تحت أشعة الشمس بينما لا شيء يؤرقهما، لكن الابتسامات خفتت سريعًا، وللحظة فكرا إن كانا حقًّا قد جُنًّا.

***

حين دخل «جيم جودي» أخيرًا حجرة «بِن»، كانت الساعة الحادية عشرة والُثلث. قال «بِن»:

- ما وددتُ إخبارك به هو أن...

- أولًا الرأس، ثم الحديث.

فَرَق الطبيب شعر «بِن»، ونظر إلى شيء، ثم قال:

- سيؤلمك هذا.

نزع الضمادة اللاصقة، فقفز «بِن» ألمًا. أردف «كودي»:

- يا لها من إصابة!

ثم ضمَّد الجرح بغطاء أخَف. أضاء كشافه في عيني «بِن»، ثم ضرب ركبته اليسرى بخفة بمطرقة مطاطية، وتساءل «بِن» في هلع إن كانت نفس المطرقة التي استخدمها مع «مايك ريرسون». قال الطبيب وهو يبعِد أدواته:

- حالتك مُطمْئنة. ما اسم عائلة والدتك؟

- «آشفورد».

كانوا قد سألوا «بِن» أسئلة مماثلة حين أفاق من ارتجاج المُخ الذي أصيب به بعد حادث الدراجة البخارية.

- ما اسم مُعلمك في المدرسة الابتدائية؟

- السيدة «بِركنز».

- الاسم الأوسط لوالدك؟

- «ميرتون»

- هل تشعر بدوار أو غثيان؟

- كلا.

- تشم أو تسمع أو ترى...

- لا، لا... لا شيء غريب مُطلقًا. أنا بخير.

- أنا من يُقرر هذا. هل تعاني رؤية مزدوجة؟

- كلا، منذ آخر مرة جرعت فيها جالونًا من البيرة.

- حسنًا. الآن أعلنك متعافيًا، بقوة عجائب العلم الحديث، وبفضل رأسك الصلب. والآن فيمَ تفكر؟ «تِبتس» والطفل ابن «مَكدوجال»، أليس كذلك؟ كل ما أستطيع إخبارك به أنني أخبرت «بارِكنز جيلسبي» أنني أولًا سعيد أنهم أبقوا الأمر خارج السجلات الرسمية، ففضيحة واحدة كل قرن كفاية بالنسبة إلى بلدة صغيرة. ثانيًا، لا أعرف من قد يفعل بهما هذا. لا يمكن أن يكون أحد المحليين. لقد مررتم بأمور غريبة لكن...

صمَت مُتفحصًا تعبير وجهيهما المذهول، ثم سألهما:

- أنتما لا تعرفان... ألم تسمعا الخبر؟

سأله «بِن»:

- ماذا حدث؟!

- ما حدث أشبه بفيلم لـ «بوريس كارلوف»[37] مستوحى من قصة لـ «ماري شيلي»[38]. أحدهم سرق الجثتين من مشرحة مقاطعة «كمبرلاند» ليلة أمس.

صاحت «سوزان» بصوت جعلته شفتاها متصلِّبًا:

- أيا يسوع المسيح!

سألها «كودي» وقد أثارت اهتمامه:

- ماذا بك؟ هل تعرفين شيئًا عن هذا؟

أجابه «بِن» بدلًا عنها:

- بدأت أعتقد أننا قد نعرف شيئًا.

***

كان الوقت تجاوز الظهيرة حين انتهيا من إخباره بكل شيء. جاءت الممرضة بصحفة عليها غداء «بِن»، لكنه لم يمس الطعام.

تلاشت آخر كلماتٍ قيلت، ولم يكن من صوت سوى حركة الملاعق والأكواب الصادرة من المرضى الجوعى في حجراتهم على طول الممر. سأل «كودي»:

- مصاصو دماء؟ «مات بُرك» من بين كل الناس يزعم هذا، مما يجعل السخرية عسيرة حقًّا.

ظل «بِن» و«سوزان» صامتَين. أردف الطبيب:

- وأنتما تطلبان مني إعادة تشريح الطفل ابن «جليك»؟ إلهي!

أخرج «كودي» عبوة من حقيبته وطوَّحها لـ «بِن» الذي التقطها. سأله:

- هذا «أسبرين»، هل سبق واستخدمته؟

- مِرارًا.

- اعتاد أبي أن يقول إنه أفضل مُساعد للطبيب. هل تعرف كيف يعمل؟

- كلا.

أدار «بِن» عبوة الـ «أسبرين» بين كفيه، وراح ينظر إليها. هو لا يعرف «كودي» جيدًا، ولا يعرف إن كان يُبدي ما في نفسه أم يفضِّل الكتمان، لكنه يعرف أن أغلب مرضاه يرونه (صبيانيًّا)، ولم يُرِد أن يغيِّر مزاج «كودي».

- وأنا أيضًا لا أعرف، ولا أحد يعرف. لكن ما نعرفه أنه ممتاز للصداع وآلام المفاصل والروماتيزم. نحن لا نعرف أيضًا كُنه هذه الأمراض بدقة. لماذا يصيبك الصداع؟ لا توجد أعصاب في مخك، ونعرف أن تركيب الـ «أسبرين» الكيميائي أقرب إلى عقاقير الهلوسة، لكن لماذا أحد المُركَّبَين يشفي الصداع، بينما يتسبب الآخر في هلاوس؟ جزء من جهلنا هو عدم معرفتنا بكُنه المخ ذاته. أفضل طبيب في العالم يقف في جزيرة منخفضة وسط بحر الجهل. نحرك عصا سحرنا الطبية فنقتل بها الدجاج ونقرأ الرسائل في دمها. كل هذا الجهد لا يتعدى كونه سحرًا أبيض. طلاسم وتعاويذ. لو أن أساتذتي في الجامعة سمعوا ما أقول سيمزقون شعورهم، بل إن أحدهم فعلها حين

أخبرته بقراري بالعمل كممارس عام في بلدة صغيرة في «مَين». ستثور ثائرتهم ويتقلبون على الأرض يركلون ويطوِّحون قبضاتهم لو علموا أنني سأطلب إعادة تشريح الطفل ابن «جليك».

سألته «سوزان» مدهوشة:

- وأنت ستفعل هذا؟

- وفيمَ قد يؤذي هذا؟ لو أنه مات فهو ميت. لو لم يكن فسأجد ما أحكيه في اجتماع الأطباء القادم. سأخبر الطبيب الشرعي الخاص بالمُقاطعة أنني أريد أن أبحث عن علامات عدوى التهاب الدماغ لديه. هذا هو التبرير العقلاني الوحيد.

سألته «سوزان» في أمل:

- قد يكون هذا هو سبب الوفاة فعلًا؟

- احتمال بعيد للغاية.

سأله «بِن»:

- هل يمكنك فعل هذا في أقرب وقت؟

- غدًا على الأكثر. لو حدث تأجيل أو اضطررت إلى المناورة، فسيكون هذا يوم الثلاثاء أو الأربعاء.

- كيف سيبدو؟ أعني...

- أجل، أفهم مقصدك. آل «جليك» لن يقبلوا بهذا، أليس كذلك؟

- بلى.

- مر على دفنه أسبوع؟

- أجل.

- عندما يُفتح التابوت، ستخرج كمية من الغازات والرائحة السيئة، ربما يكون الجثمان مُنتفخًا، وسيكون شعره قد نما حتى كتفيه، فالشعر يستمر في النمو لوقت طويل، وكذا الأظفار. العينان على الأغلب ستكونان قد غاصتا إلى الداخل.

كانت «سوزان» تُجاهد للحفاظ على تعبير وجه علمي محايد، لكنها لم تُوفَّق. أما «بِن» فكان مسرورًا أنه لم يتناول غداءه.

- لن تبدأ الجثة في التعفن بعد وقتٍ كهذا، لكننا قد نجد بعض الفطريات قد نمت على المناطق الرطبة المكشوفة مثل الخدين والكفين، ستغطيهم مادة تُسمى...

صمت فجأة، ثم قال في حرج:

- أنا آسف. لقد تسببتُ في إثارة اشمئزازكما.

قال «بِن» محاولًا الحفاظ على صوته محايدًا:

- ثمة أمور أسوأ من التعفن. فرضًا أنك لم تجد أيًّا من هذه العلامات؟ فرضًا أن الولد كان في نفس الحالة التي دُفن بها؟ ماذا سيكون الحل؟ نغرس وتدًا في صدره؟

- صعب. في المقام الأول، يجب ألا يحضر الطبيب الشرعي أو مساعده إخراج الجثة، حتى مساعده لن يجد غرس وتد في صدر جثة أمرًا احترافيًّا.

سأل «بِن» بفضول:

- ماذا ستفعل؟

- حسنًا، مع الاعتذار للسيد «مات بُرك»، لا أظن أن هذا سيحدث. لو وجدنا الجثة سليمة سنضطر إلى نقلها إلى المركز الطبي في «مَين» لإجراء فحوص شاملة. بمجرد وصولها إلى هناك، سأماطل في فحصي لها حتى حلول الظلام، ثم أراقب أي ظاهرة غريبة قد تحدث.

- وإذا قام؟

- أنا مثلك، لا يمكنني تخيل هذا.

- بل أنا أجد الأمر قابلًا للحدوث أكثر فأكثر مع الوقت. هل يمكنني الحضور عندما يحدث هذا؟ لو أنه حدث؟

- يمكن تدبير الأمر.

قام «بِن» من الفراش متجهًا نحو الخزانة حيث ملابسه، وهو يقول:

- حسنًا. سأذهب إلى...

قاطعته قهقهة «سوزان» فالتفت نحوها مُتسائلًا، فأجاب «كودي»:

- ملابس المُستشفى مفتوحة من الخلف، وتكشف أسفل الظهر في أثناء السير يا سيد «ميرز».

- أوه، يا للجحيم!

قالها «بِن» ومد يديه إلى الخلف يغلق الفتحة، ثم أردف:

- نادني «بِن».

قال «كودي» وهو ينهض:

- على اتفاقنا. أظنني و«سوزان» سننتظرك في المقهى بالأسفل حتى ترتدي ثيابك. سيكون لدينا -أنا وأنت- مهام اليوم.

- حقًّا؟

- أجل. يجب إعلام آل «جليك» بقصة عدوى التهاب المخ. يمكنك أن تقوم بدور زميلي لو أردت. لا تقُل شيئًا، فقط حُك ذقنك واظهر بمظهر الحكيم.

- لن يحبوا هذا الاقتراح، أليس كذلك؟

- هل ستفعل لو كنت مكانهما؟

- كلا. بالطبع.

سألت «سوزان»:

- هل تحتاج إلى إذنهم كي تحصل على تصريح بإخراج الجثة؟

- عمليًّا، لا. واقعيًّا، ربما. خبرتي الوحيدة مع إخراج الجثث هي معرفتي بالقانون الطبي. لكن إن عارض آل «جليك» بقوة، قد يجبروننا على جلسة استماع لدى القاضي، مما سيضيع منا من أسبوعين إلى شهر. بالإضافة إلى أن حجة التهاب المخ لن تصمد أمام القاضي، وإن صمدت، فالتشريح وقتها لن يكون مُجديًا.

صمت قليلًا، ناظرًا إليهما ثم أردف:

- مما يقودنا إلى أكثر ما يقلقني، لو تغاضينا عن قصة السيد «بُرك» طبعًا، فجثة «داني جليك» هي الجثة الوحيدة التي نعرف مكانها بعد اختفاء الجثتين الأخريين.

***

وصل «بِن» و«جيمي كودي» إلى منزل آل «جليك» في الواحدة والنصف بعد الظهر. كانت سيارة «توني جليك» واقفة أمام المنزل، لكن كل شيء كان هادئًا. حين لم يُجِب أحد، عبرا الشارع إلى المنزل المقابل على الجهة الأخرى، منزل على طراز المزارع، حزين، جاهز الصنع، من مُخلَّفات عام 1950، مرفوع من جهة واحدة على رافعتي منازل صدئتين. يحمل صندوق بريده اسم «ديكنز». عند مدخل المنزل تمثال طائر فلامنكو وردي للزينة، وكلب من نوع «كوكر سبانيِّل» يتقافز مُحرِّكًا ذيله عند مرآهما.

فتحت «بولين ديكنز» -نادلة وشريكة في مقهى «إكسلنت»- الباب بعد دقيقة أو اثنتين من ضغط «كودي» على زر الجرس، وكانت ترتدي زي عملها الموحَّد. قال «جيمي»:

- مرحبًا يا «بولين». هل تعرفين أين آل «جليك»؟

- أتقصد أنك لا تعرف؟!

- ماذا أعرف؟

- تُوفيت السيدة «جليك» هذا الصباح، ونقلوا «توني جليك» إلى مستشفى «مَين» المركزي في حالة صدمة.

نظر «بِن» إلى «كودي» فبدا وكأن أحدهم ركله في معدته. التقط «بِن» الخيط بسرعة وسألها:

- إلى أين نقلوا جثمانها؟

مررت «بولين» يدها على ملابسها لتتأكد أنها مُهندمة وأجابت:

- لقد تحدثتُ إلى «مَيبل وُرتس» عبر الهاتف منذ ساعة، وأخبرتني أن «باركِنز جيلسبي» سينقل جثمانها إلى دار جنازات الرجل اليهودي في «كَمبرلاند»، فلا أحد يعرف أين ذهب «كارل فورمان».

قال «كودي» ببطء:

- أشكرك.

- شيء مُريع.

قالتها وهي تنظر إلى المنزل الخالي عبر الشارع، تقف أمامه سيارة «توني جليك» ككلب ضخم مُترب، رُبِط ثم هُجِر. أضافت:

- لو أنني شخص يتطيَّر، لخُفت.

سألها «كودي»:

- ممَ تخافين يا «بولين»؟

ابتسمت في شرود وأجابت:

- أوه... من أشياء...

ولمست بأصابعها سلسلة قصيرة تتدلى من رقبتها، مُعلق فيها أيقونة القديس «كريستوفر».[39]

***

كانا يجلسان في السيارة مرة أخرى، يشاهدان «بولين» تخرج بسيارتها إلى عملها دون حديث أكثر.

في النهاية سأل «بِن»:

- والآن ماذا سنفعل؟

- هذا أمر عسير. اليهودي الذي ذكرته هو «موري جرين». أعتقد أن علينا التوجه إلى «كَمبرلاند». منذ تسعة أعوام، غرق ابن «موري» في بحيرة «سيباجو»، وصادف أن كنت هناك مع صديقة، وحاولت إنقاذ ابنه عن طريق التنفس الصناعي، وقد نجحت في تشغيل مُحركه مرة أخرى. ربما هذه هي المرة الوحيدة التي أضطر فيها إلى الرهان على نية أحدهم الطيبة.

- بماذا ستفيد النيات الطيبة؟ الطبيب الشرعي سيأخذ جثتها للتشريح أو التحنيط أو أيًّا ما يريدون فعله.

- أشُك. اليوم الأحد، أتذكُر؟ سيكون الطبيب الشرعي في رحلة إلى الغابات، فهو جيولوجي هاوٍ. «نوربرت»... هل تذكره؟

أومأ «بِن»، فأردف الطبيب:

- «نوربرت» سيكون مُستعدًّا بدلًا منه، لكنه شخص كسول، غالبًا سيخلع وصلة الهاتف ليشاهد مباراة كرة القدم بين «بيكرز» و«باتريوتس». لو أننا هرعنا إلى بيت جنازات «موري جرين» الآن، فهناك فرصة ممتازة أن يكون الجثمان هناك، ولن يطالب به أحد قبل الليل.

- حسنًا، لننطلق.

تذكَّر المكالمة التي كان عليه إجراؤها مع الأب «كالاهان»، لكن لا مفر من إرجائها. الأمور تجري بسرعة الآن، أسرع مما يستطيع مجاراتها، وقد اندمج فيها الواقع والخيال.

***

تحركا في صمت حتى وصلا المفترق، كل منهما غارق في أفكاره. «بِن» يفكر فيما قاله «كودي» في المستشفى. اختفى «كارل فورمان»... واختفى جثمانا «فلويد تِبتس» والطفل ابن «مَكدوجال»... اختفيا من تحت أعين عاملي مشرحة. كذلك اختفى «مايك ريرسون»، والله أعلم بمن اختفى أيضًا. كم من سكان بلدة «سالم» قد يختفي عن الأنظار ولا يلحظ أحد اختفاءه قبل أسبوع، أو اثنين... أو شهر؟! مائتا شخص؟ ثلاثمائة؟ الفكرة أغرقت كفيه في عرق الخوف.

قال «جيمي كودي»:

- الأحداث بدأت تتخذ سمت أحلام المصابين بجنون الارتياب، أو أفلام كارتون «جاهان ويلسون»[40]. من وجهة نظر أكاديمية، فأكثر ما يرعبني هو السهولة النسبية التي قد تنشأ بها مُستعمرة مصاصي دماء. بمجرد إنشاء واحدة، فالمرض سينتشر في «بورتلاند»، و«لويستون»،

و«جيتس فولز». لا يُلاحظ المختفون في بلدات تعتمد على العُمال. المدارس نفسها تخدم ثلاث بلدات، فلو طالت قائمة المُختفين، من سيلاحظ؟ العديد من الناس يذهبون إلى الكنيسة في «كمبرلاند»، والعديد أيضًا لا يرتادون أي كنائس. التلفاز قضى على تجمعات العجائز، فيما عدا أولئك المُجتمعين في متجر «ميلت». كل هذا قد يجري خلف أحداث الأيام العادية دون أن يلاحظه أحد.

- أجل. «داني جليك» نقل العدوى إلى «مايك»، و«مايك» نقلها لـ... أوه، لا أعرف. ربما إلى «فلويد». طفل «مكدوجال» نقل العدوى إلى من؟ أبيه؟ أمه؟ كيف حالهما؟ هل سأل أحد عنهما؟

- هما ليسا من مرضاي. أعتقد أنهم قد اتصلوا بالطبيب «بلومان» صباحًا وأخبروه عن اختفاء الطفل، ولا سبيل لمعرفة هذا دون الاتصال بالوالدين أو الطبيب.

قال «بِن» مُتعجلًا:

- يجب أن نطمئن عليهما. أترى كيف يمكن أن ينتهي بنا الأمر نطارد ذيولنا؟ ربما يأتي أحدهم من خارج البلدة غير عالم أن هناك خطبًا ما، فبلدتنا تخلو من المارة في التاسعة، لكن من يعلم ماذا يحدث في البيوت، خلف الستائر المُسدلة؟ ربما ينام الناس في فُرُشهم، أو ينتصبون داخل الخزانات كالمكانس، أو يرقدون في الأقبية في انتظار غروب الشمس. وفي كل صباح، يقل عدد السكان.

ازدرد ريقه، فسمع صوتًا جافًّا في حلقه. قال «جيمي كودي»:

- هوِّن على نفسك، فلم نثبِت أيًّا من هذا بعد.

- الأدلة تتكوَّم. لو أننا نتعامل مع الأمر كوباء حقيقي، فلا بد أن تُعزَل البلدة.

- أشك في هذا. لا تغفل أن لدينا شاهد عيان واحدًا فقط.

- لكنه شخص يُعتمَد على شهادته.

- سيُصلَب لو أن قصة كهذه شاعت.

- من سيصلبه؟ ليست «بولين ديكنز» بالتأكيد، فهي مُستعدة تمامًا لتعليق تعاويذ على بابها.

- في عصر فضيحة «ووترجيت»[41] ونضوب البترول، هي استثناء.

لم يتحدثا باقي الطريق. بيت جنازات «جرين» يقع في النهاية الشمالية لـ «كمبرلاند». ثمة عربتا نقل موتى واقفتان عند الباب الخلفي بين المعبد غير الطائفي، والسور الخشبي العالي. أغلق «جيمي» المحرك ونظر إلى «بِن» وسأله:

- مستعد؟

- أعتقد.

ثم خرجا من السيارة.

***

ظل التمرد ينمو بداخلها طيلة ما بعد الظهيرة، وبحلول الساعة الثانية، انفلت من عقاله. كانت تراهما يتخذان طريقًا طويلًا مُلتفًّا ليثبتا شيئًا (معذرة يا سيد «بُرك») هو على الأغلب هراء. قررت «سوزان» أن تصعد إلى منزل «مارستِن» بعد ظهيرة اليوم على أي حال.

نزلت إلى الطابق السفلي، وأخذت محفظتها. كانت أمها تخبز الكعك، وأبوها في حجرة المعيشة يشاهد مباراة كرة القدم الأمريكية بين فريقي «باكرز» و«باتريوتس».

سألتها أمها:

- إلى أين تذهبين؟
- سأجوّل بالسيارة قليلًا.
- العشاء في السادسة، حاولي أن تعودي قبلها.
- سأعود في الخامسة على الأكثر.

خرجت وركبت سيارتها، أكثر شيء تفخر به من ممتلكاتها، ليس لكونها أول سيارة لها، لكن لأنها دفعت أقساط ثمنها من عملها، من موهبتها. كانت سيارة «فيجا» ذات بابٍ خلفي عمرها عامان. أخرجتها على مهل من المرأب ولوَّحت لوالدتها التي كانت تُطل عليها من نافذة المطبخ، وكانت القطيعة ما تزال بينهما، لكنهما لا تتحدثان عنها، ولا تحاولان مُداواتها. الشجارات الأخرى الماضية كانت جروحها تلتئم مع الوقت، أو تُدفَن تحت مرور الأيام، ولا ينبشها أحد حتى الشجار التالي حين تخرج الضغائن القديمة وتتكوَّم كنتيجة مباراة تراكمية. لكن هذا الشجار الأخير كان نهائيًّا، حربًا أخيرة جراحها تفوق القدرة على التشافي. كانت قد حزمت كل أمتعتها وشعرت أنها تفعل الصواب بعد وقتٍ طال.

قادت سيارتها عبر شارع «بروك»، وقد نما في نفسها شعور بالسعادة والإنجاز (بلا أثر للشعور بالسخافة) وقد بعد منزلها عنها. كانت في طريقها لاتخاذ خطوة إيجابية، وكان هذا الشعور ترياقًا لها. كانت فتاة صريحة، وقد أذهلتها أحداث الأسبوع الماضي، وتركتها تنجرف إلى بحر، وهي الآن تستطيع التجديف.

أوقفت سيارتها عند المُنعطف خارج حدود البلدة، ونزلت عند مرعى «كارل سميث» الغربي، حيث كان يضع سورًا من الأوتاد المطلية بالأحمر مُضادًا للثلوج في انتظار الشتاء. شعور الذهول كان مُضخَّمًا الآن، وهي تُمسك بأحد الأوتاد وتحركه أمامًا وخلفًا حتى انقطع السلك الذي يربطه إلى الأوتاد الأخرى. الوتد كان ممتازًا، طوله ثلاثة أقدام، مُدبب الطرف. حملته إلى السيارة ووضعته على المقعد الخلفي وهي تعلم فيمَ قد تستخدمه (فقد شاهدت الكثير من أفلام شركة «هامر» كي تعرف أن قتل مصاص الدماء يكون عن طريق غرس وتد في صدره)، لكنها لم تتوقف لحظة لتُفكر إن كانت قادرة بالفعل على غرس وتد في صدر رجل إن استدعى الأمر ذلك.

عبرت حدود البلدة إلى «كَمبرلاند»، على يسارها متجر ريفي يظل مفتوحًا في أيام الأحد، وكان أبوها يبتاع منه إصدار جريدة «تايمز» ليوم الأحد. تذكر «سوزان» نافذة عرض جوار آلة الدفع، يُعرض بها مشغولات ذهبية وفضية مستعمَلة.

اشترت الجريدة، وانتقت صليبًا ذهبيًّا وسلسلة، وكان حسابها أربعة دولارات ونصف، حاسبها عليهم البائع وهو شارد في المباراة على شاشة التلفاز.

قادت سيارتها شمالًا إلى طريق المقاطعة الجديد ذي الحارتين المُعبَّدتين. كل شيء بدا لها طازجًا حيًّا تحت شمس ما بعد الظهيرة، حتى إن الحياة بدت غالية للغاية. انتقلت أفكارها إلى «بِن»، وكانت نقلة قصيرة. خرجت الشمس ببطء من تحت سحابة رُكامية، تغمر الطريق وتفرش الأشجار ببقع من النور والظلام. في يوم كهذا، من السهل التصديق أن هناك نهايات سعيدة في آخر القصص.

بعد خوضها خمسة أميال في الطريق، انعطفت إلى طريق «بروك» غير المُمهد في نصفه القريب من بلدة «سالم». ظل الطريق يعلو ويهبط بها خلال الغابات الكثيفة التي حجبت عنها أغلب ضوء الشمس. لم تكن هناك منازل أو عربات مقطورة، فمعظم الأراضي ملك شركة تصنيع ورق معروفة بمنتجاتها الرديئة. جانب الطريق عليه لافتات (ممنوع الصيد) و(ممنوع الدخول) كل مائة قدم.

شمت رائحة خبيثة حين عبرت مستودع النفايات، وصارت الاحتمالات الغامضة أكثر واقعية عند هذا الجزء من الطريق. وجدت نفسها تتساءل -ولم تكن المرة الأولى- عن السبب الذي يجعل رجلًا عاقلًا يشتري منزلًا متهالكًا كان مملوكًا لمُنتحر، بل ويغلق النوافذ ويحجب عنه ضوء الشمس!

انحدر الطريق بحدة إلى الأسفل، ثم صعد بشكلٍ حاد عند جانب تل «مارستِن» الغربي. استطاعت أن تبصر قمة منزل «مارستِن» من بين الأشجار.

أوقفت سيارتها عند بداية طريق غير مُستخدَم عند المُنخفض، ثم نزلت منها. بعد لحظات من التردُّد، أخرجت الوتد ثم علَّقت الصليب حول رقبتها. ما زالت تشعر بالذهول، لكنه لا يقارَن بالذهول الذي قد يصيب أي شخص يراها تسير في هذا الطريق وفي يدها وتد.

مرحبًا «سوزي»، إلى أين تذهبين؟

أوه، أنا فقط ذاهبة إلى منزل «مارستِن» العتيق لأقتل مصاص دماء، لكن عليَّ أن أُسرِع، فالعشاء في السادسة.

قررت أن تختصر الطريق عبر الغابة. اضطرت إلى القفز من فوق سور مهدَّم، وكانت مسرورة أنها ارتدت سروالًا. بدَت أنيقة للغاية بالنسبة إلى قاتلة مصاصي دماء شجاعة. عبرت الكثير من الوهاد والنفايات حتى بدأت الغابة في الظهور فعليًّا.

وسط الأشجار، تنخفض الحرارة على الأقل عشر درجات، وتقل الإضاءة. الأرض مفروشة بالعشب الجاف والأشواك، تفُحُّ الرياح كثعبان عابرةً من بين الأغصان. من مكان ما، سمعت صوت حيوانات صغيرة تتقافز على الأوراق الجافة تحت الأشجار. اكتشفت فجأة أنها إن استدارت إلى يسارها، فستجد ممرًّا قصيرًا يقود إلى مقابر «هارموني هيل»، لو أنها بالطبع تنتوي القفز من فوق السور الخلفي.

صعدت بخطى ثابتة إلى الأعلى، محاولة ألا تثير أي ضوضاء. بدأت ترى لمحات من المنزل من خلف الأغصان التي تكشف الجانب الذي لا تراه البلدة. شرع الخوف يتسلل إليها دون سبب تستطيع أن تضع يدها عليه. يشبه هذا الخوف ذاك الذي شعرت به في منزل «بُرك»، والذي قد نسيته إلى حد بعيد. كانت واثقة أن أحدًا لن يسمعها، وأن النهار جلي، لكن هذا لم يمنع خوفها الثقيل، النابع من مكان في عقلها، خامل غير مُستخدَم، مثله مثل زائدتها الدودية.

زال سرور بداية اليوم، وزال إحساسها أنها تلعب فقط، وزال خداعها لنفسها. تذكرت أفلام الرعب القديمة التي كانت تشاهدها في سينما السيارات، حيث البطلة تنزل وحدها إلى القبو المهجور كي ترى ما الذي يُزعج السيدة «كوبهام» أو شيء مثل هذا، أو البطلة التي تقتحم مخزنًا مليئًا بشباك العناكب وحوائطه من الحجر الرطب كأنه رحم رمزي. يلتف حول كتفها ذراع حبيبها يُطمئنها. كانت تظن أن تلك البطلات سخيفات، وأنها لن تفعل مثلهن أبدًا، لكن ها هي تفعلها! بدأت تضع يديها على الفارق العميق الذي صار بين المُخ والدماغ الأوسط، وكيف أن الأول يدفع الإنسان إلى

الاستمرار مهما كانت الإنذارات النابعة من الجانب الغريزي للإنسان، والمشابه في البنية لذلك الذي لدى التماسيح. سيظل المخ يدفع ويدفع حتى ينفتح باب العليَّة كاشفًا عن وجه الرعب المُكشر، و...

كفى!

أبعدت الأفكار عنها، ووجدت نفسها تتعرق بشدة. فكَّرت في أن عليها أن تكف عن الحمق، فما تراه ليس إلا منزلًا مُغلق النوافذ. يجب أن تصعد وتتلصص على المكان، هذا كل ما في الأمر. من عند مدخل المنزل يمكنها أن ترى بيتها نفسه، والآن، ماذا يمكن -بحق الله- أن يحدث لها وهي على مرأى من بيتها؟

ومع ذلك، مالت أمامًا وقبضت على الوتد بقوة أكبر، وحين صارت الأشجار التي تحجبها عن المنزل أقل قدرة على حمايتها، نزلت على يديها وركبتيها وبدأت تزحف. بعد ثلاث أو أربع دقائق، صارت على أقرب مسافة ممكنة دون أن ينكشف أمرها. من مكانها جوار آخر صف من أشجار الصنوبر والعرعر، استطاعت أن ترى الناحية الغربية من المنزل والنباتات المُتسلقة الجافة بفعل الخريف. حشائش الصيف كانت الآن صفراء، لكن طولها يصل إلى الركبتين، ولم يبذل أحدهم مجهودًا لقصها.

سمعت صوت محرك يهدر وسط الصمت، فقفز قلبها إلى حنجرتها. حاولت السيطرة على نفسها عن طريق غرس أصابعها في الأرض وعض شفتيها. بعد لحظات ظهرت سيارة سوداء وتوقفت أمام المنزل، ثم استدارت نحو الطريق المؤدي إلى البلدة. قبل أن تختفي عن الأنظار رأت الرجل الذي يقودها بوضوح، برأسه الضخم الأصلع، وعينيه الغائرتين بحيث لا يمكنك أن ترى منهما إلا المِحجرين، وسُترته الحالكة. كان هو «ستراكر» في طريقه إلى متجر «كروسِن» على الأرجح.

لاحظت أن أغلب قوائم المصاريع مكسورة. حسنًا إذًا، ستتسلل وتنظر عبر أحدها لترى ما عليها رؤيته. غالبًا ما ستراه لن يكون أكثر من منزل قديم في بداية فترة تجديده، دهانات جديدة، أدوات، دلاء، سلالم. مخيف وما ورائي مثل مباراة كرة قدم.

لكن الخوف بعد ما يزال موجودًا.

بزغ فجأة، ساكبًا منطق وتعقل المُخ، مالئًا فمها بطعم كطعم النحاس الأسود.

وكانت تعرف أن هناك أحدًا خلفها، قبل أن تشعر بكفٍّ توضَع على كتفها.

***

كاد الظلام يحل.

قام «بِن» عن الكرسي الخشبي القابل للطي، وسار نحو النافذة المُطلة على الحديقة الخلفية لبيت الجنازات، ولم يرَ شيئًا مُحددًا. كانت الساعة السابعة إلا ربع وقد استطالت ظلال المساء، لكن العشب ظل مُخضرًّا على الرغم من الوقت المُتأخر من العام، وقد أدرك أن الحانوتي الذكي قرر الحفاظ عليه على هذا النحو حتى يكسوه جليد الشتاء، كان هذا كرَمز على استمرار الحياة على الرغم من موت السَّنة. وجد هذه الخاطرة كئيبة للغاية، فابتعد عن المنظر، ثم قال:

- ليت معي سيجارة.

قال «جيمي كودي» دون أن يلتفت:

- هم مُجرد قتلَة.

كان يشاهد برنامج الحياة البرية -الذي يُعرض يوم الأحد- على تلفاز «موري جرين» الصغير. أردف:

- في الحقيقة، أنا أيضًا أشتاق إلى سيجارة، لكنني أقلعت منذ مرض زميل جراح بسببها منذ عشرة أعوام. دائمًا ما أستيقظ من النوم مادًّا يدي باحثًا عن العلبة على الكومود جواري.

- ظننتك أقلعت.

- أحتفظ بعلبة سجائر كما يحتفظ أحيانًا المُقلِعون عن الكحول بزجاجة خمر على رف المطبخ. اختبار قوة الإرادة يا بُني.

نظر «بِن» إلى الساعة، فوجدها السادسة وسبعًا وأربعين دقيقة. مكتوب في الصحيفة أن الغروب سيكون في الساعة السابعة ودقيقتين.

استطاع «جيمي» أن يُرتب كل شيء ببراعة. «موري جرين» رجل ضئيل، فتح لهم الباب مُرتديًا صدرية غير مُزرَّرة تحتها قميص أبيض مفتوح الياقة. تحوَّل تعبير وجهه المُستفسِر إلى ابتسامة ترحيب واسعة وصاح:

- (شالوم)[(42)] «جيمي»! من الرائع أن أراك! أين كنت مختفيًا طيلة هذه المدة؟

- أُنقذ العالم من الإنفلونزا والبرد.

ابتسم الطبيب، بينما يعتصر «موري» كفه بقوة، وأردف:

- أريدك أن تتعرف إلى صديق رائع يا «بِن ميرز»، هذا هو «موري جرين».

أحاطت كفا «موري» بكفَّي «بِن»، ولمعت عيناه من خلف نظارته ذات الإطار الأسود.

- (شالوم)، أي صديق لـ «جيمي» هو صديقي. تفضَّلا، سأتصل بـ «ريتشل»...

قاطعه «جيمي»:

- لا داعي. لقد جئنا نسألك معروفًا. معروفًا كبيرًا في الواقع.

حدَّق «جرين» أكثر إلى وجه «جيمي» وقال برفق:

- معروفًا كبيرًا؟ ولماذا؟ ما فعلته لابني لا يُقارن بأي معروف. سَل أي شيء.

احمر وجه «جيمي» خجلًا وقال:

- لقد فعلت ما سيفعله أي شخص مكاني يا «موري».

قال «جرين»:

- لن أجادلك. تحدث، ما الذي يقلقك أنت والسيد «ميرز»؟ هل وقع لكما حادث؟

- كلا، لا شيء من هذا.

قادهما إلى مطبخ صغير خلف المعبد، وبينما يتحدثون، وضع القهوة لتغلي على الموقد في وعاء قديم.

سأله «جيمي»:

- هل جاء مساعد الطبيب الشرعي «نوربرت» ليُطالب بجثمان السيدة «جليك» بعد؟

أجاب «موري» وهو يضع السكر والقشدة على المنضدة:

- كلا، ولم يظهر في الصورة. غالبًا سيظهر غدًا في الحادية عشرة صباحًا يتساءل لماذا لست في انتظاره لأدخله.

تنهَّد ثم أردف:

- سيدة مسكينة، ويا لها من مأساة تلك التي مرت بها هذه العائلة. تبدو لطيفة للغاية يا «جيمي»، جاء بها العجوز «ريردون» إلى هنا. هل كانت مريضتك؟

- كلا، لكنني و«بِن»... نريد أن نظل معها هذه الليلة يا «موري» نريد أن نمكث معها بالأسفل.

توقفت يد «موري» في رحلتها إلى وعاء القهوة، وتساءل:

- تمكثان معها؟ هل تعني أنك تريد فحصها طبيًّا؟

أجاب «جيمي» في ثبات:

- كلا. فقط نريد أن نمكث معها.

نظر إليهما وقال:

- أنت تمزح. كلا، لا تبدُ مازحًا. لمَ قد تريد شيئًا كهذا؟

- لا أستطيع إخبارك يا «موري».

- أوه!

صبَّ القهوة، ثم جلس معهما إلى المنضدة، ورشف رشفة قبل أن يقول:

- القهوة ليست قوية زيادة عن اللازم. رائعة. هل أصيبت السيدة بمرض؟ عدوى؟

- ليس بالمعنى المتعارف عليه للكلمة.

- أنت تريدني أن أكتم هذا الأمر، أليس كذلك؟

- بلى.

- وإن جاء «نوربرت»؟

قال «جيمي»:

- أستطيع التصرف معه. سأخبره أن «ريردون» طلب مني فحصها بحثًا عن عدوى التهاب المخ. لن يُفتش ورائي.

أومأ «جرين» وهو يقول:

- بالتأكيد، بالتأكيد. ظننتك قلت إنك ستطلب معروفًا كبيرًا.

- هذا أكبر مما تظن.

- بعد أن أنهي قهوتي، سأعود إلى المنزل لأرى أي رعبٍ طهته لي «ريتشيل» على العشاء. هذا هو المفتاح، أغلِقا المكان بعد رحيلكما.

وضع «جيمي» المفتاح في جيبه وقال:

- سأفعل. أشكرك مرة أخرى يا «موري».

- لا داعي. فقط أسدِ لي معروفًا بالمقابل.

- بالتأكيد، ما هو؟

- لو أنها قالت أي شيء، دوِّنه لأجل الأجيال القادمة.

بدأ يضحك، ثم رأى النظرتين المُتطابقتين في أعينهما، فتوقف عن الضحك.

***

الساعة السابعة إلا خمس دقائق، وقد شعر «بِن» بالتوتر يتسلل إلى جسده. قال «جيمي»:

- توقف عن التحديق إلى الساعة. لن تتحرك أسرع بمجرد تسديد النظرات إليها.

نظر إليه «بِن» شاعرًا بالذنب. أردف الطبيب:

- أشك كثيرًا في أن مصاصي الدماء ينهضون حسب وقت الغروب المُدوَّن في التقويمات، هذا إن وُجدوا أصلًا. الظلام لم يحل بعد.

وعلى الرغم من ذلك، نهض وأغلق التلفاز في منتصف مشهد لبطة تنعق.

هبط الصمت على الغرفة كغطاء. كانا في حجرة عمل «جرين»، وجثمان «مارجوري جليك» مُمد على سرير معدني مُجهَّز ببدالات في الأسفل لسهولة رفعه وخفضه وإمالته. ذكَّر «بِن» بالمناضد في غرف الولادة في المستشفيات.

التفت «جيمي» إلى الملاءة التي كانت تغطي جسدها منذ دخلا، فرفعها متفحصًا الجثة. كانت السيدة «جليك» ترتدي معطفًا منزليًّا أرجوانيًّا، وخُفين قماشيين، وثمة ضمادة على قصبة ساقها اليسرى، ربما تخفي إصابة حلاقة. أبعد «بِن» نظره عنها، لكن عينيه ظلتا تعودان إليها مرة تلو الأخرى، فسأل:

- ما رأيك؟

- لن أُتعب نفسي في شيء قد يُثبَت أو يُنفَى خلال ثلاث ساعات، لكن حالتها مشابهة بشكل عجيب لحالة «مايك ريرسون». لا أثر لتغير لون سطح الجلد، ولا للتيبس.

جذب الملاءة مُغطيًا الجثة، ولم يُضف شيئًا آخر.

الساعة السابعة ودقيقتان.

فجأة سأل «جيمي»:

- أين الصليب؟!

صاح «بِن»:

- الصليب؟ إلهي! ليس معي واحد.

قال «جيمي» وهو يفتح حقيبته:

- ألم تنضم قط لفريق الكشافة في المدرسة؟ أنا دائمًا مُستعد.

أخرج خافضي لسان خشبيين، وأزال عنهما غلافيهما الشفاف، ثم ربطهما إلى بعضهما على شكل مُتصالب بشريط لاصق طبي، ثم قال لـ «بِن»:

- بارِكه.

- ماذا؟ لا أستطيع... لا أعرف كيف أباركه.

قال «جيمي» وقد تعكَّر صفاء وجهه فجأة:

- إذًا ارتجل. أنت كاتب، ولا بد أن تكون ضليعًا في الماورائيات. لأجل المسيح أسرِع. أشعر أن شيئًا على وشك الحدوث، ألا تشعر به؟

كان «بِن» بالفعل يشعر بما يشعر به رفيقه، بشيء يتجمع ببطء في الشفق البنفسجي، شيء غير مرئي بعد، لكنه ثقيل مزعج. جفَّ ريقه، وكان عليه أن يُبلل شفتيه قبل أن يستطيع الحديث.

- بسم الآب والابن والروح القدس...

بعد تفكير أردف:

- بسم مريم العذراء كذلك... بارك هذا الصليب و... و...

تدافعت الكلمات على شفتيه بسلاسة غريبة، فأكمل:

- الرب راعيَّ...

تحدث، فوقعت الكلمات كالأحجار في الحجرة كما تقع في بحيرة عميقة، غائصة بلا تموُّجات على السطح.

- في مراعٍ خضر يربضني، إلى مياه الراحة يوردني، يرد نفسي...

رافقه صوت «جيمي»:

- يهديني إلى سبل البر من أجل اسمه. أيضًا إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرًّا، لأنك أنت معي...

بدا أن التنفس قد صار صعبًا، وقد شعر «بِن» أن بشرته بالكامل قد تحولت إلى جلد إوزة، وانتصبت الشعيرات في مؤخرة عنقه.

- ... عصاك وعكازك هما يعزياني، تُرَتِّب قدماي مائدة تجاه مُضايقيَّ. مسحت بالدهن رأسي. كأسي ريًّا. إنما خير ورحمة يتبعاني كل أيام حياتي...

بدأت الملاءة التي تغطي السيدة «جليك» تتحرك، ونزلت ذراع من تحت الملاءة، فانكشفت أصابع تتحرك في الهواء، تنثني وتُفرَد.

همس «جيمي» وقد شحب وجهه فظهر النمش على بشرته كبُقع على زجاج نافذة:

- أيا يسوع! هل ترى ما أراه؟

أنهى «بِن» الآية، ثم قال:

- «جيمي»، انظر إلى الصليب!

كان الصليب يضيء، الضوء يغطي كفه كأنه السحر.

تحدث صوت بطيء مخنوق وسط الصمت، صوت مزعج حاد كشظايا فخار مكسور:

- «داني؟»

شعر «بِن» بلسانه يلتصق بسقف حلقه، فقد كان الجسد تحت الملاءة يقوم ويُحرك الظلال في الحجرة.

- «داني»؟ أين أنت يا حبيبي؟

سقطت الملاءة كاشفة وجهها، مُتكومةً على فخذيها. كان وجهها مُنيرًا كالقمر وسط الظلام، لا يشوبه سوى عينيها الغائرتين كحفرتين. رأتهما فانفتح فمها في زمجرة رهيبة، وانعكس آخر ضوء النهار على أسنانها اللامعة.

أنزلت ساقيها عن المنضدة، فسقط واحد من خُفَّيها، ورقد على الأرض غير مُبالٍ.

صاح بها «جيمي»:

- اجلسي مكانك. لا تتحركي.

كانت إجابتها عبارة عن زمجرة حالكة كلبية. نزلت عن المنضدة، ترنحت، ثم سارت نحوهما. وجد «بِن» نفسه يحدق إلى تلك العينين الغائرتين، فأبعد نظره. كان قد أبصر فيهما مجرَّات، تراها فتغرق فيها، فيعجبك غرقك.

قال لـ «جيمي»:

- لا تنظر إليها.

كانا يتراجعان بعيدًا عنها دون تفكير، تدفعهما نحو الردهة الضيقة المؤدية إلى الدَّرج.

- جرِّب الصليب يا «بِن».

كان قد نسي أن معه واحدًا. رفعه، فبدا الصليب كأنما يتألق مُشرقًا، فضيق عينيه. أطلقت السيدة «جليك» فحيحًا فزِعًا، ورفعت يديها لتحجب وجهها. تحرَّكت ملامحها وانتفضت، تلوَّت كعُش أفاعٍ. تراجعت خطوة إلى الخلف.

- لقد أثَّر فيها!

تقدَّم «بِن» منها رافعًا الصليب أمامه. قلَّصت كفها كمخلب وحاولت ضرب الصليب، فأنزله «بِن» بعيدًا عن متناول يدها، ثم رفعه مرة أخرى، فصدرت من حنجرتها صرخة مولولة.

كانت الأحداث لها صبغة الكوابيس البُنية القاتمة، إلا أن المزيد من الرعب كان في انتظار «بِن»؛ كوابيس الأسابيع التالية التي سيرى فيها مطاردته للسيدة «جليك» في حجرة التحنيط، ودفعها إلى المنضدة التي ترقد جوارها الملاءة وفردة الخُف.

تراجعت رغمًا عنها، عيناها تتحركان بين الصليب، وبين منطقة تحت فك «بِن» جوار حنجرته. الأصوات الصادرة منها لم تكن أصواتًا بشرية، بل كانت خليطًا من الفحيح والعواء والصفير. ثم أن هناك شيئًا بغيضًا في تراجعها هذا، فقد كانت تبدو كحشرة عملاقة.

قال «بِن» لنفسه: لو لم أتمسك بهذا الصليب وأرفعه أمامي، ستنقض على رقبتي، وتمزقها بأسنانها، ثم تجرع الدماء المنهمرة من شُريانَيَّ الودجي والسباتي كرجل ينهل من ماء بعد طول تيه في الصحراء. ستستحم بدمي.

بدأ «جيمي» يدور حولها من جهة اليسار، فلم تكن تراه وعيناها مُثبتتان إلى «بِن»، مليئتان بالكراهية... والخوف.

دار «جيمي» حول منضدة التحنيط، وحين تراجعت بالقرب منها، لفَّ ذراعيه حول رقبتها وهو يصيح مُتشنجًا. صرخت صرخة عالية وراحت تتملص من قبضته. رأى «بِن» أظفار «جيمي» تنزع رقعة من جلد كتفها، ولم يرَ أي دماء تنزف منها... الجرح كان كفم بلا شفاه. ثم وبشكل لا يُصدَّق، أطاحت به عبر الغرفة، فتهاوى «جيمي» عند الركن مُسقطًا تلفاز «موري» الصغير عن حامله.

في لحظة، هرعت إليه مُنحنية مُترنحة كعنكبوت، ثم جثمت فوقه. لمحها «بِن» تقطع ياقة قميصه، ثم تفتح فمها عن آخره وتكشف عن أنيابها.

صرخ «جيمي كودي»، الصرخة اليائسة للمحكوم عليه بالموت. ألقى «بِن» بنفسه فوقها، فتعثر وكاد يسقط فوق التلفاز المُهشَّم. سمع صوت أنفاسها الخشن كالقش، ومن تحته الصوت المُقزز للقضم والتلمُّظ.

جذبها من ياقة ملابسها، ورماها بعيدًا، ناسيًا الصليب للحظة. لفَّت رأسها بسلاسة مُرعبة، عيناها تلمعان مُتسعتَي الحدقة، فمها وذقنها ملوثان بالدماء المُسودة تحت الضوء الباهت.

حاولت أن تجذبه إلى أحضانها، فرفع الصليب. قوتها كانت تُشعره أنه مصنوع من خرقة قماشية. انغرس طرف خافض اللسان المُستدير تحت ذقنها، ثم غاص إلى الداخل دون أي مقاومة من اللحم.

تفاجأ «بِن» بما يشبه الضوء الذي لم يبزغ أمام عينيه، بل خلفهما، ثم شمَّ «بِن» رائحة اللحم المحترق الحارة. صرختها هذه المرة جاءت مُعذَّبة، تملأ حنجرتها. شعر بها تلقي نفسها خلفًا، تتعثر في التلفاز، وتسقط على الأرض مُستندة إلى ذراعها الشاحب.

قامت مرةً أخرى برشاقة الذئاب، وعيناها تنضحان بالألم، والجوع المجنون. لحم فكها كان مُسودًّا يتصاعد منه الدخان، وكانت تُكشر عن أسنانها.

لهث:

- تعالي أيتها العاهرة... تعالي!

رفع الصليب مُجددًا أمامه، وحاصرها في الركن الأيسر البعيد. حين توقفت هناك، انتوى أن يضغط الصليب على جبينها.

لكن حتى وظهرها إلى الحائط، كانت تضحك ضحكة مُدوية جعلته يجفُل. كان صوتها كصوت جر شوكة طعام عبر حوض خزفي.

«حتى الآن واحد فقط يضحك، حتى الآن دائرتك أصغر!»

أمام عينيه بدأ جسدها يستطيل، ويصير شفافًا. للحظة ظن أنها هنا، تضحك عليه، ثم في اللحظة التالية، صار مصباح الشارع يضيء رُكن الحجرة الخالي، ولم يبقَ شيء إلا شعور عابر في أطراف أعصابه يُبلِغ أنها قد تسربت من مسام الحائط نفسه، كالدخان.

لقد اختفت.

وكان «جيمي» يصرخ.

***

نقر بإصبعه مصباح الفلورسنت المُعلَّق، ثم استدار لينظر إلى «جيمي» الذي كان قد قام واقفًا مُمسكًا جانب رقبته بكلتا كفيه، وأصابعه مُلوثة بالأحمر. صاح:

- لقد عضَّتني! إلهي، لقد عضَّتني!

هرع «بِن» إليه محاولًا احتواءه بين ذراعيه، لكن «جيمي» دفعه وعيناه تدوران بجنون في مِحجريهما.

- لا تلمسني! أنا غير طاهر.

- «جيمي»...

- ناولني حقيبتي... أيا يسوع! «بِن»، أنا أشعر به بالداخل... أشعر به يُصيبني. لأجل يسوع أعطني حقيبتي!

كانت عند الرُّكن، أحضرها «بِن» فاختطفها منه «جيمي»، ووضعها على منضدة التحنيط. كان وجهه شاحبًا يلمع بالعرق، يتدفق الدم من جرح رقبته الممزق مع كلِّ نبضة. جلس إلى المنضدة وفتح الحقيبة ثم راح يبحث فيها، يشهق ويُعافر كي يتنفس.

ظل يغمغم وهو ينظر داخل الحقيبة:

- لقد عضَّتني... فمها... إلهي... فمها العفن القذر...

أخرج زجاجة مُطهر من الحقيبة، وفتحها فطار الغطاء وراح يدور حول نفسه على الأرض. مال إلى الخلف مُستندًا إلى ذراعه، ثم صب المطهر فوق الجرح، فأغرق رقبته وملابسه والمنضدة. انجرف الدم مع السائل. أغلق عينيه وصرخ مرة تلو الأخرى، لكن الزجاجة لم تهتز قط.

- «جيمي»، ماذا أستطيع أن...

غمغم «جيمي»:

- أمهلني دقيقة... انتظر، هذا أفضل، أعتقد... انتظر، فقط انتظر...

ألقى بالزجاجة بعيدًا فتهشمت على الأرض. ظهر الجرح بعد أن أُزيلت عنه الدماء، ورأى «بِن» أثر ثُقبين لا ثقبًا واحدًا بالقرب من الشريان السباتي، واحدة من الفتحتين مُشوَّهة للغاية.

أخرج «جيمي» أمبولًا من حقيبته ومحقنًا، أزال غلاف الإبرة ودسَّها داخل الأمبول، يداه ترتجفان بعنف حتى إنه اضطر إلى محاولة إدخال السِّن مرتين. ملأ المحقن ومد يده به نحو «بِن» وهو يقول:

- مصل الكزاز (تيتانوس)، احقني به هنا.

مد ذراعه ولفَّها كاشفًا عن عضلته الدالية.

- ربما سيُفقدك هذا وعيك يا «جيمي».

- كلا، كلا... لن يحدث شيء. احقنِّي.

أخذ «بِن» المحقن ونظر نظرة متسائلة إلى عيني «جيمي» الذي أومأ مُشجِّعًا. حقنه «بِن»، فتصلب جسد «جيمي» وللحظة بدا عليه الألم الشديد، ثم بدأ جسده يسترخي شيئًا فشيئًا وينتفض، ورأى «بِن» الدموع تختلط بالعرق على وجهه.

قال أخيرًا:

- ضع الصليب فوقي. لو أنني ما زلت ملوَّثًا بها، فسيؤثر بي.

- حقًّا؟

- أنا واثق. عندما كنت تطاردها، رفعت رأسي وشعرت برغبة في مطاردتك أنت. ليسامحني الرب... ثم نظرت إلى هذا الصليب... وشعرت بغثيان شديد.

وضع «بِن» الصليب على رقبته، ولم يحدث شيء. زال بريقه نهائيًّا، هذا إن كان له بريق من الأساس، فأبعده عنه. قال «جيمي»:

- حسنًا. أعتقد أن هذا كل ما في وسعنا فعله.

قلَّب في حقيبته مرة أخرى، فوجد مظروفًا به قُرصان، فدسَّهما في فمه وهو يقول:

- مُخدر... حمدًا لله على هذا الاختراع. لو أنني لم أذهب إلى دورة المياه منذ قليل لكنت قد بللت ثيابي. هل يمكنك أن تُضمد رقبتي؟

- أظن هذا.

ناوله «جيمي» قطنًا طبيًّا ولاصقًا ومقصًّا جراحيًّا. مال «بِن» أمامًا نحو رقبته فرأى الجلد حول الجرح قد التهب للغاية. أجفل «جيمي» حين ضغط الضمادة برفق، ثم قال:

- لدقيقتين، ظننتني سوف أجَن. حقًّا، أُجن حرفيًّا. شفتاها على رقبتي... تعضني...

تحرَّكت تفاحة آدم داخل عنقه وهو يبلع لُعابه، ثم أردف:

- وعندما كانت تفعل ذلك، كان فعلها يروق لي يا «بِن». هذا هو الجانب المُرعب، بل إنني شعرت بإثارة جنسية. هل تصدق هذا؟ لو لم تكن هنا لتبعدها عني، لكنت... لكنت تركتها...

- لا عليك.

- هناك شيء آخر يجب أن أفعله، على الرغم من أنه لا يعجبني.

- ما هو؟

- انظر إليَّ لحظة.

أنهى «بِن» تضميد الجرح، وتراجع خطوة لينظر إلى «جيمي»

- ماذا...

فجأة، لَكَمه «جيمي»، فتألقت النجوم في مُخه وتراجع مُترنحًا ثلاث خطوات، ثم هوى جالسًا. هز رأسه وهو يرى «جيمي» ينزل عن المنضدة بحرص ويسير نحوه. مد يده سريعًا نحو الصليب وهو يفكر: هذه نهاية من نهايات «أوهنري»[(43)] أيها الأحمق... أيها الأحمق... أيها الأحمق...

سأله «جيمي»:

- هل أنت بخير؟ آسف، لكنني ظننت أن الأمر سيكون أسهل إن لم تتوقعه.

- ماذا بحق المسيح...

جلس «جيمي» جواره على الأرض وقال:

- سأحكي لك قصتنا. قصة ركيكة لعينة، لكنني واثق أن «موري جرين» سيؤازرها. هي قصة ستحفظ لي عملي، وتبعدنا عن السجن أو المصحة العقلية. وفي هذه اللحظة لا أشغل بالي بتلك الأشياء التي عليَّ مواجهتها مع نفسي في الأيام التالية، هل تفهم هذا؟

تحسس «بِن» فكه، فأجفل. كان هناك جزءٌ متورم على يسار ذقنه. أكمل «جيمي»:

- أحدهم اقتحم علينا الحجرة وأنا أفحص السيدة «جليك». ضربك هذا الشخص ثم استخدمني ككيس مُلاكمة، وخلال شجارنا عضَّني هذا الشخص ليجبرني على تركه، وهذا هو كل ما نتذكره أنا وأنت... هذا هو كل ما نتذكره، مفهوم؟

أومأ «بِن»، فأردف الطبيب:

- كان الرجل يرتدي سُترة خفيفة، زرقاء على الأرجح، أو سوداء، ويعتمر قبعة خضراء أو رمادية. هذا هو كل ما رأيناه، مفهوم؟

- هل فكَّرت أن تترك الطب وتتجه للكتابة الإبداعية؟

ابتسم «جيمي» وقال:
- أنا فقط أبدع في اللحظات الحرجة التي تُهدد مستقبلي. هل تستطيع أن تتذكر القصة؟
- بالتأكيد، ولا أراها ركيكة كما تظن. فقبل كل شيء، ليست هذه هي أول جثة تختفي مؤخرًا.
- أتمنى أن يلاحظوا هذا، لكن شريف المقاطعة رجل أخبث من «باركِنز جيلسبي» وعلينا أن نحاذر من مواطئ قدمينا. لا تُزخرف القصة أو تُزِد عليها شيئًا.
- هل تظن أن أحد العاملين في الشرطة سيلاحظ النَّسق خلف هذه الاختفاءات؟
هزَّ «جيمي» رأسه وأجاب:
- لا توجد فرصة كهذه، وعلينا أن نخوض وسط كل هذا وحدنا. تذكَّر، من الآن فصاعدًا نحن مُجرمان.
بعد قليل، ذهب إلى الهاتف واتصل بـ «موري جرين»، ثم بشريف المقاطعة «هومَر مَكَّاسلين».

***

عاد «بِن» إلى بيت ضيافة «إيفا» في الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل. صنع لنفسه كوبًا من القهوة في المطبخ المهجور بالأسفل. شربها ببطء وراح يستعيد أحداث الأمسية بحِدَّة رجل يسترجع أحداث نجاته من السقوط من حالق.

شريف المقاطعة رجل طويل، في طريقه للصلع، يحب مضغ التبغ لا تدخينه. كان بطيء الحركة، لكن عينيه تُشعان بقوة الملاحظة. أخرج مُفكرة عملاقة مربوطة بسلسلة إلى جيب بنطاله، وقلم حبر عتيق، سميك كالبرميل، كان في جيب قميصه تحت صدريته الصوفية الخضراء. استجوب «بِن» و«جيمي» بينما شرطيان آخران يجمعان البصمات ويصوِّران المكان. «موري جرين» ظل واقفًا في خلفية المشهد، صامتًا، يسدد نظرات حيرة إلى «جيمي» من وقتٍ لآخر.

لماذا جاءا لدار جنازات «موري جرين»؟

أجاب «جيمي عن هذا السؤال، مُكررًا حجة عدوى التهاب المخ.

هل يعرف «ريردون» عن هذا؟

حسنًا، كلا. ظن «جيمي» أنه من الأفضل أن يفحص هو الجثة قبل أن يذكر الأمر لأي شخص. «دوك ريردون» معروف أنه ثرثار للغاية.

وماذا عن عدوى (التهاب الأشياء) هذه؟ هل كانت المرأة مُصابة بها؟

بالتأكيد لم تكن مصابة بها. كان قد أنهى فحصه لها قبل أن يقتحم الرجل ذو السترة المكان ويهاجمهما. لكنه -«جيمي»- لم يستطع تحديد سبب وفاة المرأة، إلا أنه لم يكن التهاب المخ.

هل يمكنهما وصف الرجل الذي هاجمهما؟

أجابا بما ورد في القصة، لكن «بِن» أضاف حذائَي عمل بُنيين كي لا يظهرا كأنهما «تويدل دي» و«تويدل دَم».[44]

«هومَر مَكَّاسلين» سألهما بضعة أسئلة أخرى، حين ظن «بِن» أنهما يكادان أن يخرجا من هذه الورطة بلا خدش، لكن «هومَر مَكَّاسلين» استدار إليه وسأله:

- ماذا تفعل هنا يا «ميرز»؟ أنت لست طبيبًا.
برقت عيناه المُدققتان، فتح «جيمي» فمه ليُجيب، لكن الشريف أخرسه برفعة كفٍّ في وجهه. لو أن الغرض من سؤال «هومَر مَكَّاسلين» المفاجئ هذا هو مُفاجأة «بِن» أو إرباكه، فقد فشل في إصابة هدفه. كان «بِن» مُستنزَفًا للغاية، حتى إنه لم يكن بوسعه أن يقوم بأي رد فعل، فالتحقيقات لن تُقارن أبدًا بالهول الذي واجهه منذ قليل.
- أنا كاتب، ولستُ طبيبًا. أكتب الروايات، وما أكتبه الآن يدور عن شخصية ابن حانوتي، دور ثانوي مهم. كنت أريد أن أعايش الأجواء، فركبت مع «جيمي» إلى هنا، وأخبرني أنه لا يحب الكشف عن تفاصيل عمله، وأنا لم أسأله.
حكَّ التورُّم في فكه وأضاف:
- أظنني حصلت على أكثر مما راهنت عليه.
لم يبدُ «هومَر مَكَّاسلين» راضيًا أو مُحبَطًا تجاه إجابة «بِن»، لكنه سأله:
- أعتقد أنك نلت أكثر مما راهنت عليه بالفعل كما أرى. أنت الأخ الذي كتب (ابنة كونواي)، أليس كذلك؟
- بلى.
- قرأت زوجتي جزءًا منها في مجلة نسوية، مجلة «كوزموبوليتان» على ما أتذكر. كانت تضحك كالمجانين، ألقيتُ نظرة فلم أجد ما يُضحِك في شابة تتعاطى المخدرات.
نظر «بِن» إلى عيني «مَكَّاسلين» وقال:
- كلا. أنا أيضًا لم أرَ في هذا ما يُضحك.
- روايتك الجديدة كما يقولون تدور حول البلدة، أليس كذلك؟
- بلى.
- ربما تحب أن يراجعها لك «مو جرين» الواقف هناك، ليرى إن كنت كتبت التفاصيل (الحانوتية) بشكل دقيق.
- هذا الجزء لم يُكتَب بعد. أنا دائمًا ما أنهي بحثي قبل أن أبدأ الكتابة؛ هذا أسهل.
هزَّ «مَكَّاسلين» رأسه مُتعجبًا وقال:
- أتعلم؟ قصتك تبدو كإحدى قصص «فو مانشو»[45]. رجل اقتحم المكان وتغلَّب على رجلين، ويهرب بجثة امرأة مسكينة ماتت بمرض غير معروف.
قال «جيمي»:
- اسمع يا «هومَر»...
- لا تدعُني «هومَر»؛ لا أحب هذا الاسم وسيرته. هذا المرض المُخي، هل هو مُعدٍ؟
أجاب «جيمي» بحذر:
- أجل، مُعدٍ.
- وقد وافقت على أن يصحبك هذا الكاتب إلى هنا، وأنت تعلم أنه ربما يلتقط العدوى من المرأة؟
بدا «جيمي» غاضبًا وهو يقول:

- أنا لا أتدخل في عملك يا سيدي، ولا تتدخل أنت في عملي. عدوى التهاب المُخ ضعيفة، تسري في دماء المُصاب الحي. وجدت أنه لا خطر على كلينا. والآن، هلا بحثت عمن اقتحم المكان وسرق جثة السيدة «جليك»، سواء كان «فو مانشو» أو غيره، أم أنك مُستمتع باستجوابنا؟

زفر «هومَر مَكَّاسلين» زفرة عميقة من بطنه المُنتفخة، وأغلق دفتره، ثم دسَّه في أعماق جيب بنطاله مرة أخرى.

- حسنًا، سنبدأ العمل يا «جيمي»، ولا تتصور أننا سنصل إلى شيء قبل أن يخرج المجنون مرة أخرى من مكمنه، وأشك أن هناك مجنونًا من الأساس.

رفع «جيمي» حاجبيه، فقال «هومَر مَكَّاسلين» في صبر:

- أنت تكذب عليَّ. أنا أعرف، وهذان الشرطيان يعرفان، وربما أن العجوز «مو» يعرف هو الآخر. لا أعرف مدى كذبكما، لكنني أدرك أنني لا أستطيع إثبات كذبكما ما دمتما تمسكتما بنفس القصة. يمكنني أن آخذكما إلى المخفر، لكنني أعرف أن من حقكما مكالمة واحدة، وأي خريج مدرسة حقوق جديد يستطيع أن يخرجكما من هذه الورطة كونكما مشتبهًا بكما في قصة خائبة. أراهن كذلك على أن محاميكما ليس خريجًا جديدًا، أليس كذلك؟

أجاب «جيمي»:

- بلى، هو كذلك.

- يمكنني أيضًا أن أزعجكما للغاية، إلا أنني موقن أنكما لا تكذبان كي تُغطيا على شيء ضد القانون.

ضغط البدال تحت علبة القمامة المعدنية أسفل منضدة التحنيط. انفتح غطاؤها، فبصق فيها «هومَر مَكَّاسلين» بصقة بُنية مخلوطة بعصارة التبغ، وأجفل «موري جرين». سأل الشريف بهدوء وقد اختفت الخِنَّة الريفية من كلامه:

- هل يود أحدكما أن يُعدِّل في قصته؟ هذا أمر خطير. لدينا أربعة موتى في البلدة، والأربعة قد اختفوا. أريد أن أعرف ماذا يجري.

قال «جيمي» في حزم وهو ينظر إلى عيني «هومَر مَكَّاسلين»:

- لقد أخبرناك كل شيء نعرفه. لو أن لدينا المزيد لأخبرناك.

بادله «هومَر مَكَّاسلين» النظرات بنفس الحزم وقال:

- أنتما مرتعبان. أنت وهذا الكاتب، كلاكما. تُذكرانني بمنظر العائدين من الصفوف الأمامية في الحرب الكوريَّة.

كان الشرطيان ينظران إليهما، لكن «بِن» و«جيمي» لم يُعلِّقا. زفر «مَكَّاسلين» أخيرًا وقال:

- هيا، اذهبا من هنا. أريدكما في مكتبي في العاشرة صباحًا للإدلاء بشهادتيكما. لو لم تصلا في الموعد، سأرسل سيارة شرطة لإحضاركما.

قال «بِن»:

- لا داعي لهذا.

نظر إليه «مَكَّاسلين» وهزَّ رأسه وهو يقول:

- عليك أن تكتب قصصًا أفضل، كذلك الذي يكتب قصص «ترافيز مَكجي»[46]. يمكن للمرء أن يستطعم قصصًا كهذه.

***

قام «بِن» من أمام المنضدة وغسل كوبه عند الحوض، ثم توقَّف يرمق ظلام الليل بالخارج. تُرى ما الذي يجري الليلة، ومن يجول في الظلام؟ هل التقت «مارجوري جليك» بابنها أخيرًا؟ «مايك ريرسون»؟ «فلويد تِبتس»؟ «كارل فورمان»؟

ابتعد عن النافذة وصعد إلى غرفته.

نام بقية الليلة ومصباح مكتبه مُضاء، وإلى جوار يده اليمنى الصليب المُرتجل الذي انغرس طرفه من قبل تحت ذقن «مارجوري جليك». آخر ما جال بذهنه قبل النوم هو تساؤل إن كانت «سوزان» بخير وأمان.

جون جرينليف وَيتِّر شاعر أمريكي تميز في الكتابة المناهضة للعبودية.

جورج ويليام راسل، شاعر وكاتب آيرلندي يكتب في الثيوصوفية والغنوصية.

هنري ويدزوُرث لونجفيلو شاعر أمريكي، كان أول من ترجم «الكوميديا الإلهية» للشاعر دانتي اليجري إلى الإنجليزية.

أوليفر ويندل هولمز طبيب وشاعر أمريكي وكتب الكثير من القصائد والكتب العلمية والسير الذاتية.

ويليام هنري برات الشهير ببوريس كارلوف، ممثل إنجليزي اشتهر بأدائه لدور المسخ في فيلم فرانكنشتاين.

ماري ويلستون شيلي كاتبة إنجليزية صاحبة الرواية الشهيرة «فرانكنشتاين» والتي تعَد رواية رائدة في أدب الخيال العلمي.

القديس كريستوفر واحد من الأربعة عشر قديسًا الذين يساعدون الناس ويحمونهم، وتستخدم أيقونته لحماية المسافرين من الموت في أثناء السفر.

جاهان آلن ويسلون، كاتب ومُحرك رسوم كرتونية تميزت أعماله بمناقشة المواقف المرعبة الخيالية.

فضيحة ووترجيت هي فضيحة سياسية تورط فيها الرئيس الأمريكي ريتشارد نكسون.

كلمة عبرية بمعنى (سلام) يستخدمها اليهود بمعنى مرحبًا وإلى اللقاء.

أوهنري هو كاتب القصص القصيرة، الأمريكي ويليام سيدني بورتر، والمعروف بنهايات قصصه المُفاجئة التي لا يتوقعها أحد.

تويدل دي وتويدل دم هما شخصيتان في قصص مغامرات آليس في بلاد العجائب، التي كتبها لويس كارول. وهما توأمان يُكرران نفس الكلام حرفيًا.

فو مانشو طبيب شرير قاتل هو شخصية خيالية شريرة كتبها البريطاني ساكس رومر.

ترافيز مكجي هو شخصية خيالية روائية، يعمل في وظيفة هي خليط من المحقق الخاص والشرطي، وقد كتب سلسلة رواياته الكاتب جون د. مكدونالد.

الفصل الثاني عشر

«مارك»

عندما سمع أول صوت أغصانٍ تُكسَر، اختبأ خلف جذع شجرة ضخمة وظل ساكنًا في انتظار أن يرى من يسير هناك. هم لا يستطيعون السير في الصباح، لكنهم قطعًا قادرون على أن يجدوا من يصطاد بدلًا عنهم ويمنحوهم المال، لكن المال قد لا يكون كافيًا.

رأى «مارك» هذا الرجل: «ستراكر» في البلدة، عيناه مثل عيني الضفدع إذ يجلس على صخرة يستمتع بالشمس. بدا كأن في استطاعته كسر ذراع طفل بينما يبتسم وهو يفعلها.

لمس انبعاج مُسدس أبيه في جيب سُترته. الرصاصات لا تؤثر فيهم، إلا إن كانت مصنوعة من الفضة ربما، لكن رصاصة بين العينين قد تُعطل «ستراكر» كثيرًا.

انتقلت عيناه للحظة إلى الجسم الأقرب للشكل الأسطواني، المُستنَد إلى الشجرة ملفوفًا في قطعة من منشفة قديمة. هناك كومة أخشاب خلف منزله قد قطعها مع أبيه خلال شهري يوليو وأغسطس مُستخدمَين منشارًا كهربيًّا. «هنري بِتري» مُنظم، وحافظ على طول كل قطعة خشب بحيث لا تتعدى الثلاث بوصات. على أي حال، أبوه يعرف الطول المناسب كما يعرف أن الخريف سيتبعه شتاء، وأن النوعية التي اختارها من الأخشاب ستحترق بشكلٍ مثالي في مدفأة حجرة المعيشة.

ابنه، الذي يعرف أمورًا مُختلفة، يعرف أن تلك الأخشاب مثالية لرجال/كيانات مثله. في هذا الصباح، بينما كان أبوه وأمه في رحلة يوم الأحد لاستكشاف الطيور البرية، أخذ واحدة من الأخشاب، وراح يقطع لها طرفًا مُدببًا باستخدام بلطة الكشافة. كان الطرف خشنًا، لكنه سيؤدي الغرض.

رأى ومضة ألوان، فاختبأ خلف الشجرة، ينظر من وراء الجذع الخشن بعينٍ واحدة. بعد لحظات، استطاع أن يلمح بوضوح كُنه الشخص الذي يصعد التل. كانت فتاة. شعر براحة مخلوطة بخيبة أمل. لا وجود لمساعدي الأشرار هنا، فالفتاة هي ابنة السيد «نورتون».

لفت نظره شيء أهم، كانت تحمل وتدًا هي الأخرى! كلما اقتربت أكثر، شعر برغبة في الضحك المرير... قطعة من خشب سور، هذا هو ما تحمله. ضربتان بمطرقة صغيرة ستفلقه.

كانت ستعبر جوار شجرته على اليمين، كلما اقتربت دار ببطء إلى اليسار حول الجذع كي لا تبصره، متحاشيًا أن تطأ قدمه أي فروع جافة تكشف مكانه. أخيرًا، انتهت حركته المنظمة، وصار ظهرها تجاهه إذ تصعد إلى التل نحو الفرجة بين الأشجار.

لاحظ في إعجاب أنها تتحرك بحرص شديد. كان هذا جيدًا، فيما عدا قطعة الخشب الهزيلة من السور. يبدو أن لديها فكرة ما عما ستتورط فيه. مع ذلك، لو أنها اقتربت أكثر، فستقع في مشكلات.

«مارك» هنا منذ الثانية عشرة والنصف، وقد رأى «ستراكر» يخرج بسيارته، ثم يعود إلى المنزل. راح «مارك» يفكر فيما عساه يحدث إن أخلَّت الفتاة بالتوازن الحالي بتدخلها.

ربما ستكون بخير. توقفت خلف حاجز من الأجمة، وجلست القرفصاء تنظر إلى المنزل. أدار «مارك» الأمر في عقله، وخَلُص إلى أنها تعرف. كان هذا واضحًا بغض النظر عن الكيفية التي تعرف بها. هي لن تجلب ذلك الوتد البائس معها لو كانت تجهل ما هي مقبلة عليه.

فكَّر في وجوب أن يُنبهها إلى أن «ستراكر» ما يزال هنا، ويراقب المكان جيدًا، وهي غالبًا لا تملك مُسدسًا، ولا حتى واحدًا صغيرًا كالذي معه.

حين سمع صوت صوت مُحرك سيارة «ستراكر» يقترب، كان يُفكر في طريقةٍ يُنبهها بها دون أن يُفزعها فتصرخ. إلا أنها قفزت فزعًا بسبب صوت المُحرك، وخاف أن تهلع فتهرب مُترنحة بين أشجار الغابة وتفضح وجودها على مسافة مائة ميل، لكنها جلست مكانها مرة أخرى، تقبض على الأرض كأنها تخشى أن تطير من فوقها. على الرغم من أنها حمقاء فإنها شجاعة.

توقفت سيارة «ستراكر» أمام المنزل... من حيث تقف، لم يكن المشهد واضحًا بالنسبة إليها، كانت فقط ترى سقف السيارة الـ «باكار». بعد توقف لحظات، أكملت السيارة طريقها إلى البلدة.

قرر أن عليهما التحالف، أي شيء سيكون أفضل من أن يصعد إلى المنزل وحده، فقد استشعر الجو السام المُحيط به من على مسافة نصف ميل، وتأكد أنه يزيد كلما اقترب.

صعد الآن المُرتفع خلفها، ووضع يده على كتفها. شعر بجسدها يتصلَّب وعرف أنها ستصرخ، فقال:

- لا تصرخي. هذا أنا فقط.

لم تصرخ، وما صدر منها لم يكن أكثر من زفير مرتعب. استدارت إليه بوجه شاحب وسألته:

- ومَن (أنا)؟

جلس القرفصاء جوارها وأجاب:

- اسمي «مارك بِتري». أنا أعرفك، أنت «سو نورتون». أبي يعرف أباكِ.

- «بِتري»؟ «هنري بِتري»؟

- أجل. هذا هو أبي.

راحت تتفحصه بنظراتها وكأنها لا تصدق وجوده بعد، وسألته:

- ماذا تفعل هنا؟

- مثل ما تفعلينه تمامًا، إلا أن وتدك لن ينفع، فهو...

فكَّر في كلمة مناسبة لما يراه ولا يستطيع التعبير عنه، ثم قال أخيرًا:

- مُرتجل أكثر من اللازم.

نظرت إلى قطعة الخشب في يدها واحمر وجهها وهي تقول:

- أوه، هذه... أنا فقط وجدتها في الغابة، وأخذتها خشية أن يتعثر أحدهم فيها و...

قاطع كلام البالغين الذي راحت تُبرر به موقفها وقال:

- أنتِ أتيتِ لتقتلي مصاص الدماء، أليس كذلك؟

- من أين لك بتلك الفكرة؟ مصاصو الدماء والأمور المُشابهة؟

أجاب بحزن:

- حاول مصاص دماء أن ينال مني ليلة أمس، وقد كدت أنال منه أنا أيضًا.
- هذا سخيف. ولد في سنك لا بد ألا يختلق قصصًا...
- كان «داني جليك».
صمتت مُجفلةً وهي تُغمض عينيها كأنما تلقَّت فيهما ضربة لا كلامًا. مدَّت يدها بحثًا عن ذراعه، وجدتها فقبضت عليها والتقت أعينهما.
- هل تختلق كل هذا يا «مارك»؟
- كلا.
أخبرها بما حدث معه بكلمات سريعة بسيطة. سألته عندما انتهى:
- وقد أتيت هنا وحدك؟ أنت تصدق هذا، وعلى الرغم من ذلك أتيت وحدك؟
نظر إليها في حيرة حقيقية وأجاب:
- أصدق هذا؟ بالطبع أصدقه، فقد رأيته.
لم يكن لديها رد على ما قال، وفجأة شعرت بالخزي تجاه شكها (والشك كلمة رئيفة) في قصة «مات»، وفي قبول «بِن» التجريبي لها. سألها «مارك»:
- ولماذا أنتِ هنا؟
ترددت لحظة، ثم أجابت:
- ثمة رجال في البلدة يعتقدون أن هناك رجلًا في المنزل لم يره أحد، وأنه ربما يكون...
على الرغم من ذلك، لم تستطع أن تتفوه بالكلمة، فأومأ «مارك» مُتفهمًا. على الرغم من لقائهما القريب، فإنه بدا لها صبيًّا غير عادي.
اختصرت كل ما كانت تود قوله في إضافتها البسيطة:
- لذا جئت أتبيَّن الأمر.
أومأ تجاه الوتد وقال:
- وأحضرتِ هذا لتغرسيه في جسده؟
- لا أعرف إن كنت أستطيع فعلها.
قال بهدوء:
- أنا أستطيع. بعد ما رأيته ليلة أمس، و«داني» خارج نافذتي، يتمسَّك بها كذبابة عملاقة... وأسنانه...
هزَّ رأسه مُبعدًا الكابوس كما يبعد رجل الأعمال عميلًا مُفلسًا.
- هل يعرف والداك أنك هنا؟
سألَته وهي تعرف أنهما يجهلان هذا. أجابها كأنه يخبرها بأمرٍ واقع:
- كلا. يوم الأحد هو يوم جولتهما في الطبيعة. يذهبان في جولة المراقبة للطيور في الصباح، ويفعلان أمورًا أخرى في الظهيرة. أحيانًا أرافقهما وأحيانًا لا أفعل. اليوم ذهبا إلى الساحل.
- يا لك من فتى!
قال وقد توتَّر جرَّاء الإطراء:

- لستُ بهذا التميز، لكنني سأتخلص منه.
ثم نظر نحو المنزل. سألته:
- هل أنت واثق...
- بالتأكيد، وأنت كذلك. ألا تشعرين كم هو خبيث؟ ألا يخيفك هذا المنزل بمجرد النظر إليه؟
استسلمت له وقالت ببساطة:
- أجل.
كان مَنطقه مُثيرًا للأعصاب، وعلى عكس منطق «مات» و«بِن»، فهو لا يُقاوم. سألته وقد أعطته تلقائيًّا مهمة القيادة:
- كيف ستتخلص منه؟
- سنصعد إلى هناك ونقتحم المكان، ثم نبحث عنه ونغرس الوتد -وتدي- في قلبه، ثم نخرج ثانيةً. هو على الأغلب في قبو ما، فهم يحبون الأماكن المُظلمة. هل أحضرتِ كشافًا؟
- كلا.
- سُحقًا. ولا أنا.
راح يحرك قدميه في توتر فوق أوراق الشجر الجافة بلا هدف، ثم قال:
- وأنتِ أيضًا لم تُحضري صليبًا؟
- معي صليب.
وأخرجت الصليب الذهبي المُتدلي داخل قميصها، فأومأ وجذب سلسلة صليبه من قميصه هو الآخر.
- أتمنى أن أعيد هذا إلى البيت قبل أن يرجع والداي. أخذتُه من صندوق جواهر أمي. ستُذيقني الأمرَّين إن اكتشفت هذا.
نظر حوله، وكانت الظلال قد استطالت قليلًا في أثناء حديثهما. شعرا فجأة برغبة في التأجيل والتسويف. قال «مارك»:
- عندما نجده، لا تنظري إلى عينيه. هو لا يستطيع الخروج من تابوته قبل الظلام، لكنه قادر على أن يصطادك بعينيه. هل تحفظين أي نصوص دينية؟
كانا يحدقان إلى الأرض غير المُعتنى بها بينهما وبين منزل «مارستِن».
- حسنًا... صلاة الرب...
- جيد، أنا أيضًا أحفظها. سنرددها معًا ونحن نغرس الوتد.
رأى تعبير وجهها المتقزز الواهن، فأخذ يدها بين قبضتيه وقد اهتزَّت ثقته بنفسه، لكنه قال:
- اسمعي، علينا أن نتخلص منه. أراهن على أنه قد استحوذ على نصف البلدة بعد ليلة أمس، ولو انتظرنا أكثر من هذا، سيستولي عليها كلها. الأمور ستتسارع الآن.
- بعد ليلة أمس؟
قال «مارك» بصوته الهادئ:

- حلمت بهم يدورون على المنازل ويتصلون بالهواتف ويتوسلون كي يأذن لهم الناس بالدخول. بعض الناس يعرفون، في أعماقهم يعرفون، لكنهم يسمحون لهم بالدخول إلى بيوتهم، لأنه من الأسهل فعل ذلك بدلًا من التفكير في شيء مرعب قد يكون حقيقيًّا.

قالت في قلق:

- مجرد حلم.

- أراهن أن هناك الكثير راقدين في حجراتهم اليوم، مغلِقين الستائر، يتساءلون إن كان ما ألمَّ بهم هو برد أو إنفلونزا أو مرَض ما. يشعرون بالضعف والتشوش، ليس لديهم شهية للطعام، وفكرة الأكل تجعلهم يقيئون.

- كيف تعرف كل هذا؟

- أقرأ مجلات المسوخ، وأذهب لمشاهدة الأفلام حين أستطيع. غالبًا ما أقول لأمي إنني ذاهب لمشاهدة أفلام الرسوم المتحركة. لا يمكنك الوثوق بالتفاصيل، فأحيانًا ما يختلقون أحداثًا ليجعلوا الأفلام أكثر دموية.

كانا جوار المنزل، وفكرت «سوزان» في أنهما فريق مذهل من المؤمنين بمصاصي الدماء؛ مدرس عجوز يحب الكتب، كاتب مهووس بكوابيس طفولته، طفل حضر فصلًا تعليميًّا عن تراث مصاصي الدماء مكونًا من الأفلام ومجلات الرعب. وأنا؟ هل أنا حقًّا مؤمنة؟ هل الأوهام الارتيابية مُعدية؟

لكنها كانت تؤمن...

كما قال «مارك»، لا يمكن الاستهزاء بالفكرة وهما على هذا القرب من المنزل. على الرغم من كل الأفكار والحديث بينهما يغشاهما صوت يصرخ: خطر! خطر! بكلمات لم تكن كلمات مُطلقًا.

قلبها ينبض وأنفاسها تتسارع، جسدها بارد بفعل الـ (أدرينالين) الذي يُبقي الدماء في أغوار الجسد في أثناء الضغط العصبي. تشعر بكليتيها ثقيلتَين، نظرها حاد يلتقط كل تفصيلة على جانب المنزل. كل هذا لم يُثَر بأي مثير خارجي؛ لم يكن هناك رجال مسلحون، ولا كلاب شرسة، ولا رائحة حريق. ثمة حارس أعمق من إدراك الحواس الخمس قد استيقظ بعد طول سبات، ولا يمكن تجاهله.

نظرت خلال فتحة صغيرة في المصراع السفلي وقالت بغضب:

- لماذا لم يُصلحا أي شيء في المنزل؟ المكان تضربه الفوضى!

- دعيني أنظر. ارفعيني.

شبكت أصابعها ليستطيع أن يصعد فوقهما وينظر خلال الفتحة إلى حجرة معيشة منزل «مارستِن» المُتداعية. رأى حجرة مهجورة شبيهة بالصندوق، تغطي أرضيتها طبقة كثيفة من الغبار منقوشة بالعديد من آثار الأحذية. ورق الحائط مُقشر، وثمة كرسيان أو ثلاثة وطاولة سطحها مليء بالخدوش. أعشاش العناكب تُزين أركان السقف الأربعة.

قبل أن تحتَج، رفع المزلاج الذي يغلق المصراعين بطرف وتده المُدبب، فسقط المزلاج الصدئ على الأرض، وانفتح المصراعان إلى الخارج مُصدرَين صريرًا.

قالت مُحتجَّة:

- مهلًا! يجب ألا...

- ماذا تتوقعين أن نفعل؟ نقرع الجرس؟

فتح المصراع الأيمن أكثر، ثم ضرب لوح زجاج النافذة، فتهشم إلى الداخل. تعالى إحساس الخوف بداخلها، حادًّا قويًّا، مُشيعًا طعمًا نحاسيًّا في فمها.

قالت وكأنها تُحدِّث نفسها لا الصبي:

- ما زال بوسعنا الهرب.

نظر إليها، ولم يكن في نظرته أي تحقير، بل خوف حقيقي مثل خوفها، ثم قال:

- اذهبي أنتِ إن أردتِ.

- كلا، لا أريد.

حاولت أن تبتلع ما يسد حنجرتها، لكنها لم تنجح. أردفت:

- أسرِع. لا أستطيع أن أحملك أكثر من هذا.

أزال شظايا الزجاج من الضلفة، ونقل الوتد إلى كفه الأخرى، ثم مد يده إلى الداخل فاتحًا النافذة. صرَّت قليلًا وهو يدفعها، ثم صار الطريق مفتوحًا.

أنزلته، ونظرا إلى النافذة بلا كلمة واحدة. ثم تقدَّمت «سوزان» وفتحت المصراع الآخر واستندت إلى مسند النافذة كي ترفع نفسها إلى أعلى. الخوف داخلها مُمرِض، يقبع في بطنها كحَملٍ بشع. على الأقل تعرف الآن شعور «مات بُرك» حين كان يصعد الدرج ليرى ما الذي ينتظره في حجرة الضيوف.

بوعي منها، أو بلا وعي، كانت تُصيغ الخوف في معادلة بسيطة: المخاوف= المجهول. ولحل هذه المعادلة، على المرء أن يختصر المعادلة إلى مقادير جبريَّة بسيطة، وبهذا يكون: المجهول= صرير أرضيات خشبية (أو أيًّا كان)، صرير أرضيات خشبية= لا شيء يثير الخوف.

في العالم الحديث، كل المخاوف يمكن استئصالها ببداهة التساوي. بالطبع بعض المخاوف لها ما يبررها، فأنت مثلًا لا تقود سيارتك وأنت ثمل، ولا تمد يدك إلى كلب مسعور... إلخ. لكنها حتى الآن لم تفهم أن هناك مخاوف تفوق القدرة على الفهم. مخاوف كارثية تشل التفكير. هذه المعادلة غير قابلة للحل، والتقدم إلى الأمام صار عملًا بطوليًّا.

رفعت نفسها بعضلاتها اللينة، ووضعت قدمها فوق الحافة، ثم قفزت فوق الأرض المُتربة ونظرت حولها. كانت هناك رائحة، تكاد تنز من الحوائط كأبخرة المُستنقعات. حاولت أن تقنع نفسها أنها رائحة فطرية، أو رائحة تعفن كائنات صغيرة كانت تعيش داخل الحوائط المُتهدمة. لكن الرائحة كانت أخبث من رائحة أي عفن أو تفسُّخ، رائحة تجبرها على البكاء والقيء وفقدان الوعي.

راح «مارك» يلوِّح لها من خلف النافذة وهو ينادي بصوت هامس:

- هلا ساعدتني!

مالت خارجًا، وأمسكته من تحت إبطيه، ثم جرَّته إلى أعلى حتى استطاع أن يمسك بحافة النافذة، ثم رفع نفسه ودخل، قدماه تهبطان على البساط. ثم ساد المنزل الصمت بعدها.

وجدا نفسيهما يُنصتان إلى السكون، مبهوران. لم يبدُ أن هناك أي صوت أو حتى همهمة من تلك التي ترافق الهدوء، صوت نهايات الأعصاب إذ تتسكع في الفراغ.

لم يكن هنا سوى الصمت المطبق وصوت اندفاع الدماء في عروقهما يتردد في آذانهما.

ومع ذلك، كلاهما كان يعرف أنهما ليسا وحدهما.

***

- تعالَي، لنُلقِ نظرة.

قالها وهو يقبض على الوتد بقوة، للحظة نظر باشتياق عبر النافذة. تحركت ببطء نحو الصالة وتبعها. خارج الباب مباشرة طاولة صغيرة عليها كتاب، التقطه «مارك».

- هل تعرفين اللاتينية؟

- أتذكَّر القليل مما درسته في المدرسة الثانوية.

- ما معنى هذا؟

أراها الغلاف، فقرأت الكلمات بصوت مسموع، ثم هزت رأسها وقالت:

- لا أعرف.

فتح الكتاب عشوائيًّا، ثم أجفل عند مرأى صورة رجل عار يحمل جسد طفل منزوع الأحشاء نحو شيء لا يظهر في الرسم. وضع الكتاب مكانه، مسرورًا بالخلاص منه. الغلاف المشدود ملمسه مألوف إلى درجة غير مريحة بالنسبة إليه.

عبرا الصالة متجهَين إلى المطبخ معًا. الظلال أكثر شذوذًا هنا، إذ إن الشمس تنير الجهة الأخرى من المنزل.

سألها:

- هل تشمين هذا؟

- أجل.

- الرائحة تزداد سوءًا هنا، أليس كذلك؟

- بلى.

تذكَّر حجرة المؤن الباردة التي كانت لدى أمه في المنزل القديم، وكيف فاحت رائحة صندوق الطماطم المنسي منذ عام بداخلها. الرائحة تشبه رائحة الطماطم المُتعفنة.

همست «سوزان»:

- إلهي! أنا خائفة للغاية.

شبك أصابع كفه بأصابع كفها بقوة.

أرضية المطبخ المصنوعة من الـ «لينوليوم» ذات ملمس رملي مُثقَّب، لونها أسود كالح أمام الحوض الخزفي القديم. وسط المطبخ طاولة خشبية مُشققة، فوقها طبق أصفر وشوكة وسكين، وبقايا أقراص (برجر) نيء.

وكان باب القبو مُواربًا. قال الفتى:

- يجب أن ننزل إلى القبو.

قالت في ضعف:

- أوه!

كان القدر المفتوح من الباب قليلًا، لا يخترقه الضوء على الإطلاق. لسان الظلام يلعق أرضية المطبخ في جوع، في انتظار حلول الليل كي يبتلعه بالكامل.

هذه المساحة الصغيرة من الظل كانت مشؤومة، لا يمكن وصف احتمالات ما قد يقبع خلفها. وقفت جوار «مارك» بلا حيلة ولا حركة.

ثم خطا أمامًا وجذب الباب ليفتحه، ووقف أمامه برهة، ينظر إلى ما خلفه، لمحت عضلات فكيه تتقلص.

- أعتقد...

قالها، لكنها سمعت صوتًا خلفها فالتفتت، فجأة شعرت أنها بطيئة أكثر من اللازم، مُتأخرة أكثر من اللازم.

كان هذا هو «ستراكر» وكان مُبتسمًا.

التفت «مارك» فرآه، حاول أن يناوره ويلف من حوله، لكن قبضة «ستراكر» هوت على فكه، ولم يدرِ بشيء بعدها.

***

عندما أفاق «مارك» وجد نفسه محمولًا فوق درجات سُلم. لم يكن سُلم القبو كذلك، فهو لا يشعر أنه وسط حوائط حجرية، والهواء ليس راكدًا. سمح لجفنيه أن ينفتحا قليلًا، تاركًا رأسه يتأرجح بلا حيلة. كانا قد وصلا إلى نهاية الدرجات المؤدية إلى الطابق الثاني. هو يستطيع أن يرى بوضوح، فالشمس لم تغرب بعد. ثمة أمل إذًا.

فجأة اختفت الذراعان اللتان كانتا تحملانه، ووجد نفسه يهوي ويصطدم رأسه بالأرض.

- أتظن أنني أجهل إن قرر أحدهم أن يمثل دور فاقد الوعي أيها السيد الصغير؟

من مكانه على الأرض، رأى «ستراكر» وقد بدا طوله عشرة أقدام على الأقل، رأسه الأصلع يلمع بأناقة وسط الظلام المُتسلل إلى العالم، ولمح «مارك» في جزَع الحبلَ الذي يلفه حول كتفه.

راح يبحث في جيبه عن المسدس، فطوَّح «ستراكر» رأسه خلفًا وانخرط في الضحك ثم قال:

- لقد سمحت لنفسي أن آخذ مُسدسك، أيها السيد الصغير. يجب ألا يُسمح للأطفال أن يحملوا أسلحة لا يفهمونها، كما لا يُسمح لهم بقيادة السيدات الصغيرات إلى منزل لم يُدعوا إليه.

- ماذا فعلت بالآنسة «سوزان نورتون»؟

ابتسم «ستراكر» وأجاب:

- أخذتها إلى حيث أرادت الذهاب يا ولدي؛ إلى القبو. ولاحقًا، عندما تغرب الشمس، ستقابل الرجل الذي أتت لمقابلته. أنت أيضًا ستقابله بنفسك، لكن ربما في وقت متأخر من الليل، أو ربما ليلة غد. ربما يمنحك للفتاة بالطبع، لكنني أظنه سيرغب في التعامل معك بنفسه. للفتاة أصدقاؤها، وبعضهم من المُتطفلين أمثالك.

ركله «مارك» بكلتا ساقيه في مُنفرجه، لكن «ستراكر» خطا جانبًا ببراعة راقص، وفي نفس اللحظة ركل كلية «مارك» بقدمه. عضَّ «مارك» شفتيه وتكوَّر حول نفسه على الأرض.

- تعال أيها السيد الصغير. قف على قدميك.
- أنا... لا أستطيع.
- إذًا ازحف.

قالها «ستراكر» في ازدراء، وهو يركله هذه المرة في عضلة فخذه. كان الألم عظيمًا، لكن «مارك» صرَّ على أسنانه، ووقف على ركبتيه، ثم على قدميه.

سارا حتى الحجرة عند نهاية الرواق البعيدة، وقد قلَّ ألم كليته إلى حد كبير.

- ماذا ستفعل بي؟
- سأقيدك كالديك الرومي أيها السيد الصغير، ثم لاحقًا، بعد أن ينتهي سيدي منك، سأطلق سراحك.
- مثل الآخرين؟

ابتسم «ستراكر». بينما يفتح «مارك» باب الحجرة التي انتحر فيها «هَبي مارستِن» ويدخل، بدا كأن شيئًا غريبًا يحدث في عقله. لم يزُل الخوف نهائيًّا، لكنه كف عن أن يعمل كالمكابح لأفكاره، مانعًا أي إشارات مُثمرة. راح تفكيره يتسارع، لم يكن يفكر بالكلمات أو بالصور بالضبط، بل بشكل رمزي. شعر كأن عقله مصباح وصلته شحنة كهربية من مكان مجهول.

الحجرة نفسها كانت مبتذلة، وورق الحائط ممزق متدلٍّ على هيئة شرائط، الأرضية مُتربة بفعل الزمن وتساقط الجَص، لكن لم تكن هناك سوى آثار أقدام شخص واحد فقط، وكأن أحدهم قد صعد إلى هنا مرة واحدة، وألقى نظرة، ثم غادر مرة أخرى. هناك أيضًا كومتان من المجلات، وفراش من الحديد دون حشية أو يايات، ولوح من الصفيح عليه رسم من رسومات بداية القرن التاسع عشر، يسد فتحة المدفأة. النافذة مغلقة، لكن ضوءًا كافيًا يتسلل من فتحات الخصاص المكسورة جعل «مارك» يدرك أن الوقت المُتبقي حتى الليل نحو ساعة.

لم يحتَج دخولُ الحجرة والتفكيرُ في كل هذه الأمور إلى أكثر من خمس ثوانٍ، ثم عبر الحجرة حتى أمره «ستراكر» بالتوقف. خلال هذه الفترة، رأى ثلاثة احتمالات لما قد يحدث في هذا الموقف الذي وجد نفسه فيه.

الاحتمال الأول أنه يجري فجأة عبر الحجرة نحو النافذة الموصدة، محاولًا اختراق الخصاص والزجاج معًا كما يفعلون في أفلام الغرب الأمريكي، ساقطًا إلى حيث أي أمل أعمى بالخارج. لكنه يسقط فوق بعض الآلات الزراعية القديمة، ليقضي آخر لحظات حياته مُخوزَقًا فوق السلاح الحاد لمِسلفة، مثل حشرة مُثبتة إلى طرف دبوس.

أو أن يصطدم بالخصاص الذي ارتج ولم ينكسر، فيعيده «ستراكر» مرة أخرى ممزق الثياب، جسده ينزف في أكثر من موضع.

في الاحتمال الثاني، رأى «ستراكر» يربطه ثم يتركه على الأرض، والضوء يخفت تدريجيًّا، فيجن جنونه وهو يحاول التملص دون جدوى، ثم يسمع صوت أقدام شخص يصعد الدرج، شخص أسوأ مليون مرة من «ستراكر».

أما الاحتمال الثالث فرأى نفسه فيه يستخدم الخدعة التي قرأ عنها في كتاب عن الساحر «هوديني» [(47)]أعرف؟، الذي برع في الهرب من الزنازين، والصناديق المُغلَقة بالسلاسل، وخزانات البنوك والحاويات التي تُلقى في الأنهار وهو بداخلها. استطاع كذلك التملُّص من الحبال وأصفاد الشرطة.

ذكر الكتاب أنه كان يقوم ببعض هذه الحيل عن طريق حبس نَفَسه وشد عضلاته عندما يبدأ أحد المُتطوعين في ربطه. كان يشد عضلات فخذيه وصدره ورقبته كذلك لتكون حجم عضلاته أكبر، وحين يسترخي، يتيح لنفسه مساحة يستطيع من خلالها التخلص من قيودٍ لم تعد ضيقة مُحكَمة حول جسده. لكن الأهم هو ألا يدع الذعر يتملَّك منه. مع الوقت سيتعرق جسدك ويسهِّل انزلاق القيود أيضًا. الكتاب جعل الأمر يبدو سهلًا للغاية.

قال «ستراكر»:

- استدر. سأربطك، وأنا أربطك لا تتحرك، وإن تحركت...

مدَّ إبهامه أمام عيني «مارك» وأضاف:

- سأخترق عينك بهذا الإبهام. مفهوم؟

أومأ «مارك»، ثم أخذ شهيقًا عميقًا وكتمه، وقلَّص جميع عضلاته. أمره «ستراكر» أن يرقد على الأرض ففعل، وطوَّح طرف الحبل إلى حامل الثريا في السقف. ربط يديه جيدًا بطرف الحبل الآخر من خلفه، ثم صنع أنشوطة وربطها حول رقبة «مارك» كالمشنقة.

- ستصبح مثل ثُريا تتدلى من نفس الحامل الذي تدلى منه صديق سيدي وراعيه في هذه البلدة. هل أنت مسرور لذلك؟

ضحك «ستراكر» وهو يمرر الحبل بين فخذي «مارك»، فصرخ الأخير عندما جذب «ستراكر» الحبل بقوة. قهقه بخفة دم المسوخ وقال:

- خصيتاك تؤلمانك؟ لن يستمر هذا طويلًا يا فتى، فستحيا حياة النُّسَّاك... حياة طويلة، طويلة...

شدَّ الحبل حول فخذي «مارك» بقوة، ثم ربطه مرة أخرى عند ركبتيه، ثم عند كاحليه. أراد «مارك» أن يتنفس، لكنه ظل كاتمًا أنفاسه بعناد.

قال «ستراكر» مُستهزئًا:

- أنت ترتعد يا سيدي الصغير، لحمك شاحب... لكه سيشحب أكثر! ومع ذلك، لا داعي للخوف، فسيدي طيب، وهو محبوب للغاية في بلدتكم. كل ما ستشعر به هو وخزة بسيطة كإبرة محقن الطبيب، ثم ستشعر بعذوبة التجربة. في النهاية سنطلق سراحك. ستذهب لترى أمك وأباك. سوف تذهب لتراهما وهما نائمان.

قام ونظر إلى «مارك» في نهم وقال:

- سأقول لك إلى اللقاء مؤقتًا يا سيدي الصغير، أتمنى أن تكون إقامتك هنا مريحة، وحين نتقابل مرة أخرى، ستحبني أكثر.

غادر مُغلِقًا الحجرة من خلفه بالمفتاح، ثم راحت خطواته تنزل الدَّرج. أطلق «مارك» زفيرًا وأرخى عضلاته، فارتخت الحبال التي تربطه قليلًا.

ظل راقدًا مكانه بلا حركة، يستجمع شتات نفسه، بينما عقله يعمل بنفس السرعة المُدهشة. من مكانه نظر عبر الأرضية غير المُستوية إلى هيكل الفراش المعدني الذي يتمدد تحته كجلد ثعبان قطعه من ورق الحائط المُقشر. أبعد كل شيء آخر عن ذهنه، فقد ذكر كتاب «هوديني» أن التركيز هو كل شيء، ويجب ألا يسمح لخوف أو جزع أن يتسلل إلى عقله، وعليه أن يسترخي تمامًا. الهرب يبدأ من العقل قبل أن يُحرك أي إصبعٍ حتى. كل خطوة يجب أن تنبع بتركيز من العقل.

ظل يحدق إلى الحائط، والدقائق تمر.

كان الحائط أبيض غير مُستوٍ كشاشة عرض أفلام السيارات. ومع ارتخاء جسده، تخيل صورته تُعرَض على هذا الحائط، ولد صغير يرتدي قميصًا أزرق قصير الكُمين وسروالًا من الجينز، راقدًا على جانبه ويداه مربوطتان خلف ظهره، أنشوطة ملفوفة حول رقبته مما يجعل أي حركة زائدة تُمثل تهديدًا بتضييق الأنشوطة وانقطاع الهواء عن مخه.

حدق إلى الحائط.

وجد أنه بدأ يتحرك ببطء، على الرغم من أنه كان ساكنًا. شاهد كل عملية التملص أمامه، وكان قد وصل إلى مرحلة التركيز التي وصل إليها ممارسو اليوجا الذين في استطاعتهم تأمل أصابع أقدامهم أو أطراف أنوفهم لأيام، أو المرحلة التي يصل إليها الوسطاء الروحانيون كي يُحركوا المناضد في أثناء حالة السِّنة، أو يصدروا من أنوفهم أو أفواههم أو أطراف أظفارهم خيوطًا طويلة من الـ «تيليبلازم»[(48)]

لم يعد يفكر في «ستراكر» أو في النهار الذي شارف على الانتهاء. لم يعد يرى الأرضية ولا الفراش ولا حتى الحائط، لم يعد يرى سوى الولد الذي يتحرك حركات صغيرة ثابتة ويسيطر على كل عضلاته.

حدق إلى الحائط.

أخيرًا بدأ يُدير رُسغيه في نصف دائرة، وعند نهاية كل حركة، يتماس إبهاماه، ولا شيء يتحرك فيه إلا عضلات عضُديه.

تمهَّل...

حدق إلى الحائط.

نضح العرق من مسامه وبدأ مرفقاه يدوران بحرية أكبر. الحركة نصف الدائرية صارت ثلاث أرباع دائرية، وفي نهاية كل منها يتماس ظهرا كفيه وقد ارتخى الحبل من حولهما أكثر.

توقَّف.

بعد لحظات، بدأ يضغط إبهاميه تجاه كفيه، ثم يضغطهما إلى بعضهما في حركة تملُّصٍ. خلا وجهه من أي تعبير، كوجه بائع مُستجد في متجر مُتعدد الطوابق.

بعد خمس دقائق، تعرقت كفاه وقد وضعته حالة التركيز العظمى في تحكم بجهازه العصبي الـ «سمبثاوي»[(49)]

دون أن يعرف استطاع أن يتحكم في جسده، فنضح المزيد من العرق من مسامه وتساقطت قطراته من جبهته إلى الأرض المُتربة، وصارت كفاه زلقتين.

راح يحرك ذراعيه إلى أعلى وأسفل باستخدام عضلات ظهره وكتفيه. شعر بالرباط يضيق قليلًا عندما انزلقت الأنشوطة إلى جزء عريض من كفيه. غشيته الحماسة، فتوقف عن الحركة حتى تزول ويعود إليه هدوؤه.

حينها، بدأ يُحرك ذراعيه مُجددًا إلى الأعلى والأسفل مسافة بوصة واحدة، وفجأة تحررت يده اليمنى!

تركها حيث هي، وراح يحركها قليلًا ليُعيد إليها تدفق الدم، ثم بدأ يُحرر بها الكف الأخرى. كفاه الآن أمامه على الأرض. أغلق عينيه لوهلة، فالحيل لم تتم بعد، والهدف هو أن يتحرك بحرية.

استند إلى يُسراه، وراح يحاول فك العُقدة حول عنقه بيمناه، لكنه وجد أنه قد يخنق نفسه أو يصل إلى حد ألمٍ لا تتحمله خصيتاه.

أخذ شهيقًا عميقًا وبدأ يحاول فك العقدة مرة أخرى. بدأ الحبل يضيق من حول رقبته وخصيتيه، وانغرست خيوط الحبل الخشنة في جلد رقبته كإبر الوشم. ظلت العُقدة تُعانده لما بدا له كالأبد، وبدأ مجال إبصاره يقل وتغطيه أزهار سوداء. رفض أن يتعجل. راح يحركها بثبات حتى شعر أنها ستنفرج. للحظة كان الضغط على خصيتيه غير مُحتمَل، لكنه فجأة خلع الأنشوطة من فوق رأسه وخفَّ الألم.

جلس يشهق بعنف، يمسك خصيتيه المُتألمتين بكفيه. مع الوقت خفَّ الألم الذي كاد يصيبه بالغثيان.

نظر نحو النافذة المُغلَقة، الضوء العابر من الخصاص المكسور تحول إلى شعاع خافت. لقد حل الغروب تقريبًا، والباب موصد.

جذب طرف الحبل الملفوف حول حامل الثريا وراح يفك العُقد التي تربط ساقيه. كانت ضيقة للغاية، وتركيزه بدأ يتشتت.

بعد معاناة لا نهائية، حرر فخذيه ثم ساقيه وكاحليه. وقف وسط كومة الحبال في ضعف، يحُك ساقيه ليعيد لهما تدفق الدماء.

ثم سمع صوتًا بالأسفل؛ صوت خطوات.

الخطوات تصعد السُّلم.

مسح فمه بكفه وراح ينظر حوله إلى أركان الحجرة. كومتان من المجلات، لوح صفيحي ذو رسومات قديمة، هيكل السرير المعدني.

توجَّه إلى الأخير وراح يجذبه، بينما آلهة في مكان قصي رأت أنه قد استنفد حظه كله، فقررت مساعدته.

سمع صوت الخطوات تقترب من الباب، حين انخلع واحد من قوائم الفراش الحديدية.

***

عندما انفتح الباب، كان «مارك» واقفًا خلفه، رافعًا قائم الفراش مثل هندي أحمر يرفع بلطته.

- سيدي الصغير، جئت كي...

ورأى «ستراكر» كومة الحبال على الأرض، فتجمد لثانية كاملة من أثر المفاجأة.

بالنسبة إلى «مارك» فالزمن كان مُمتدًّا أمامه لدقائق بدلًا من ثوانٍ كي يُهاجم الرجل، كأنه يرى إعادة بطيئة لمُناورة مباراة كرة قدم في التلفاز. كان يرى ثلاثة أرباع جمجمته تطل من خلف الباب. هوى بالقائم قابضًا عليه بكلتا يديه بقدر قوته، مُضحيًا ببعض القوة من أجل تصويبٍ أدق. ضرب القائم صدغ الرجل فاستدار ليرى ما خلف الباب، عيناه مُغلقتان بعنف إذ يتدفق الدم من الجرح.

تمايل جسد «ستراكر» وتعثر إلى الخلف، وجهه ملتوٍ في ألمٍ رهيب. حاول أن يمد يده نحوه، لكن «مارك» ضربه مرة أخرى على جبينه، وتدفقت الدماء مُجددًا.

هوى أرضًا كأنما خلا من العظام، عيناه تدوران في محجريهما. فحص «مارك» الجسد بعينيه الجاحظتين المُتسعتين. طرفُ قائم الفراش مُلطخ بالدماء، وكانت الدماء قانية أكثر مما تظهر في الأفلام المُلوَّنة. النظر إليها أصابه بالغثيان، لكنه لم يشعر بشيء وهو ينظر إلى «ستراكر».

لقد قتلته!

إلهي! إلهي!

قبضت يد «ستراكر» على كاحله، فشهق «مارك» وحاول أن ينتزعها من قبضته الفولاذية. راح «ستراكر» ينظر إليه من أسفل بعينين مُضيئتين تشعان من خلف ستارٍ من الدماء. حاول «مارك» التملُّص، وحين فشل، راح يهوي بطرف القائم على يد «ستراكر»... مرة... مرتان... ثلاث مرات... صوت تكسُّر الأصابع البغيض، ثم ارتخت القبضة. جذب ساقه بقوة كادت تُسقطه أرضًا، ثم ترنح خارجًا عبر الباب إلى الرواق.

هوى رأس «ستراكر» إلى الأرض مُجددًا، لكن يده المُشوَّهة راحت تنقبض وتنبسط في الهواء كمخلبي كلب يحلم أنه يطارد قطًّا.

سقط قائم الفراش من يديه المُرتجفتين، وتراجع مأخوذًا بالذعر. نزل الدرجات سريعًا، درجتان فدرجتان أو أكثر ويده تمر على الدرابزين الخشن سريعًا.

الردهة الأمامية كانت غارقة في الظلال، مُعتمة للغاية. هرع إلى المطبخ وراح ينظر بجنون وخجل إلى باب القبو المُوارب. الشمس تغيب وسط شعلات الأصفر والأحمر والأرجواني. وفي قاعة جنازات على بُعد ستة عشر ميلًا، كان «بِن ميرز» يراقب الساعة وهي تنتقل من السابعة ودقيقة، إلى السابعة ودقيقتين.

لم يعرف «مارك» شيئًا من هذا، لكنه كان يعرف أن وقت مصاصي الدماء قد حان. البقاء أطول يعني حتمية المواجهة، والنزول إلى القبو لمحاولة إنقاذ «سوزان» يعني الخوض في مملكة اللاموتى.

مع ذلك، عبر باب القبو ونزل ثلاث درجات قبل أن يُقيده الخوف بقيد شبه مُتجسد، ويمنعه من النزول أكثر. كان يبكي وجسده يرتجف كأنه مصاب بالملاريا. صرخ:

- «سوزان»... اهربي!

سمع صوتها ضعيفًا حائرًا:

- «م... مارك»؟ أنا لا أرى شيئًا... الظلام...

صدح صوت انفجار مفاجئ، كصوت طلقة رصاص، تبعها صوت قهقهة بلا روح. صرخت «سوزان» وتحولت صرختها إلى تأوه ثم صمت. ظل «مارك» واقفًا على قدمين من ريش قد تطيران في أي وقت.

من الأسفل، جاء صوت حميم يشبه صوت أبيه إلى حد مُدهش.

- انزل يا فتى، فأنا معجب بك.

قوة الصوت وسلطته كانتا هائلتين، وشعر أن الخوف ينحسر عنه، وتحول ريش ساقيه إلى رصاص. في الواقع، كان قد بدأ بالفعل ينزل خطوة قبل أن يتمالك نفسه، مما أفقده أي تعقُّل كان لديه من قبل.

اقترب الصوت أكثر...

- انزل.

تحت نبرة الأبوَّة الحميمة، كانت نبرة آمرة باردة. صاح «مارك»:

- أعرف اسمك. «بارلو».

ثم هرب.

بمجرد وصوله إلى الردهة الأمامية، تمكَّن منه الخوف مرة أخرى، ولو لم يكن الباب غير موصدٍ لعبر من خلاله وهو مغلق تاركًا فجوة على شكل جسده مثلما يحدث في الرسوم المتحركة.

راح يعدو عابرًا الفناء أمام المنزل (مثلما فعل «بِن ميرز» الطفل يومًا) متجهًا مباشرة إلى طريق «بروك» ومنه إلى البلدة حيث الأمان المحاط بالشك. ألا يمكن أن يتبعه مصاص الدماء السيد إلى هنا؟

حاد عن الطريق وسلك طريق الغابة، مُتخبطًا في مياه جدول «تاجرت»، ساقطًا وسط كومة من نبات الأريقطون على الجهة الأخرى، ثم أخيرًا وصل إلى فناء منزله الخلفي.

دخل من باب المطبخ باحثًا عن أمه في حجرة المعيشة، فوجد القلق مكتوبًا على وجهها بحروف كبيرة، وكانت تتحدث في الهاتف ودفتر الأرقام فوق حِجرها.

رأته، فارتاحت قسماتها.

- ... ها هو.

أغلقت سماعة الهاتف دون أن تنتظر ردًّا وسارت نحوه، شعر بحزن شديد عندما وجد أنها كانت تبكي.

- أوه، «مارك»... أين كنت؟

هدر صوت أبيه من مكان ما:

- هل وصل؟

أمسكت بكتفيه وراحت تهزه وهي تسأل:

- أين كنت؟!

- بالخارج. سقطت وأنا في طريقي للعودة.

لم يكن هناك شيء آخر يُقال. خلط الواقع بالخيال ليس أهم ما يميز فترة الطفولة، بل الانعزال. لا يوجد ما يصف مخاوف الأطفال وتساؤلاتهم، والطفل الحكيم هو من يدرك ذلك ويحاذر العواقب، لكن الطفل الذي يحسب حسابات المكسب والخسارة لا يعود طفلًا. أضاف «مارك»:

- مر الوقت دون أن أدري...

ثم جاء أبوه.

***

في وقت ما قبل شروق يوم الاثنين.

صوت خدش على النافذة.

قام من نومه فورًا دون أثر للنعاس أو التشتت، وقد تشابهت لديه حالتا النوم واليقظة.

الوجه الشاحب خارج النافذة كان وجه «سوزان».

- «مارك»، دعني أدخل.

قام من فراشه، الأرض باردة تحت قدميه، وكان يرتعد.

قال بنبرةٍ ثابتة:

- ارحلي.

كان يرى أنها ما زالت ترتدي نفس القميص ونفس السروال. تساءل إن كان أهلها قلقين عليها، تُرى هل اتصلوا بالشرطة؟

قالت وهي تنظر إليه نظرة مُسطحة زُجاجية:

- ليس الأمر بهذا السوء يا «مارك».

ابتسمت مُظهِرة أسنانها البراقة تحت لثتها الشاحبة وأردفت:

- شعور رائع للغاية. اسمح لي بالدخول وسأثبت لك. سأقبّلك يا «مارك»، سأقبِلك كما لم تقبلك أمك من قبل.

كرر «مارك»:

- ارحلي.

- سيأتي واحد منا ليحصل عليك، عاجلًا أو آجلًا. هناك الكثيرون منا الآن. دعني أنا أحصل عليك يا «مارك»... أنا... جائعة للغاية.

رفع صليبه وألصقه بالزجاج. فحَّت كأنما تُكوى، وتخلَّت عن إطار النافذة. للحظة ظلت مُعلَّقة في الهواء، يتحول جسدها إلى ما يشبه الضباب. في النهاية اختفت، لكن ليس قبل أن يرى غضبًا يائسًا في عينيها.

وعاد لليل سكونه وهدوؤه مرة أخرى.

هناك الكثيرون منا الآن...

تحوَّلت أفكاره إلى والديه النائمين في سلام بالأسفل، وقبض الذعر على خصيتيه.

هناك رجال آخرون يشكُّون في أمر الرَّجُلين، تُرى مَن هم؟

بالطبع، الكاتب واحد منهم، ذلك الذي تواعده؛ «بِن ميرز». هو يقيم في بيت ضيافة «إيفا». الكُتَّاب يعرفون الكثير، وعليه أن يصل إلى «ميرز» قبل أن تصل هي إليه.

توقَّف في طريق عودته إلى الفراش.

هذا إن لم تكن قد وصلت إليه بالفعل.

هاري هوديني ساحر مسرحي من المجر، برع في حيل الفرار من القيود.

حسب علم ما وراء علم النفس (باراسيكولوجي) فالتيليبلازم هو مادة شبيهة بالقماش المُشبع بالنشا يزعمون أنها تخرج من الوسطاء الروحانيين كدليل على تواصلهم مع الأرواح.

الجهاز العصبي السمبثاوي أو الودي، هو أحد أجزاء الجهاز العصبي وهو يتحكم في عدد من أعضاء الجسم مثل القلب وحركة المعدة وإفراز العرق والعصارة الهضمية وغيرها.

الفصل الثالث عشر

الأب «كالاهان»

في نفس مساء الأحد، دخل الأب «كالاهان» حجرة «مات بُرك» في المستشفى في الساعة السابعة إلا ربع حسب ساعة «مات». المنضدة الجانبية وطاولة الطعام مُتخمة بالكتب، التي كان بعضها عتيقًا مُتربًا. كان «مات» قد اتصل بـ «لوريتا ستارشر» ولم يرغمها فقط على فتح المكتبة يوم الأحد، بل وجعلها تحضِر إليه الكتب بنفسها. جاءت في موكب مكون من ثلاثة من العُمال في المستشفى، كلهم مُحمَّلون بحمولة ضخمة، ورحلت غاضبة لرفضه أن يُفسر لها سر طلبه لهذا الخليط الغريب من الكتب.

راح الأب «كالاهان» يرمق المُدرس في فضول، فقد بدا مُتعَبًا، لكنه لم يكن مُتعَبًا أو ضَجِرًا مثل باقي مرضى الإبرشية الذين يزورهم في ظروف مُشابهة.

لاحظ «كالاهان» أن رد فعل الناس عند اكتشاف الإصابة بنوبة قلبية أو سرطان أو جلطات أو فشل في أي عضو حيوي هو الشعور بالخيانة. يُفاجأ المرء أن رفيقه المُقرَّب -جسده- الذي يظن أنه يفهمه جيدًا قد خانه وتقاعس فجأة عن عمله. ثم يأتي في عَقِب الشعور الأول، ظنًّا أن الصديق الذي يتخلى عن صاحبه بهذه القسوة لا يستحق الحفاظ عليه. الاستنتاج الذي يتبع هذين الشعورين هو أن الحفاظ على هذا الصديق أو فقده سيَّان. آخر خاطرة قد تخطر بشخص على فراش المُستشفى، أن الجسد قد لا يكون صديقًا من الأساس، بل عدوًّا مُصمِّمًا على أن يدمِّر القوى الأعلى التي تستخدمه، ويسيء معاملتها.

في مرة، في أثناء نوبة سُكر، جلس «كالاهان» يكتب دراسة للدورية الكاثوليكية، حتى إنه قد زيَّن الدراسة برسومات كرتونية رديئة، تُمثل مُخًّا يجلس فوق ناطحة سحاب تحمل لافتة مكتوب عليها (الجسد البشري)، وقد اشتعلت بالنيران التي كتب عليها (السرطان) على الرغم من أنه قد يكون أي مرض آخر. عنوان الرسم الهزلي كان (أعلى من أن أقفز). بعد أن أفاق في اليوم التالي، مزَّق الدراسة إربًا وأحرق الرسم الهزلي... لا مكان في الكاثوليكية لكليهما، إلا إذا كنت تنتوي أن تضيف رسمًا لطائرة مروحية وتكتب عليها (المسيح) يتدلى منها سُلم من الحبال.

على الرغم من كل هذا، فقد شعر أن ما رسمه كان هو الحقيقة، ونتاج كل ما يدور في عقل المريض هو الاكتئاب. الأعراض تشمل إعتام العينين، وبطء الاستجابة، زفرات من أعماق الصدر، وأحيانًا البكاء عند مرأى رجل دين؛ ذلك الغراب الأسود الذي ينبئ أن الخلود مجرد وهم.

لم يبدُ على «مات بُرك» هذا الاكتئاب. مدَّ يده، وعندما صافحها «كالاهان» شعر بمدى قوتها المُدهشة.

- الأب «كالاهان»... لطيف منك أن تأتي.

- أنا سعيد للقائك. فالمُدرس الطيب مثل الزوجة الصالحة، لآلئ لا تُقدَّر بثمن.

- حتى اللاأدريون[50] العجائز مثلي؟

ردَّ «كالاهان» في رضا:
- بالذات هؤلاء. ربما جئتك في لحظة ضعف. لا وجود لملحدين داخل الخنادق كما قيل لي، لكن هذا لا يمنع وجود القليل من اللاأدريين العزيزين في وحدة العناية الفائقة.
- يا للخسارة، سأخرج من هنا قريبًا.
قال «كالاهان»:
- هراء... أنت لم تبدأ بعد في الابتهال.
- هذا أبعد مما تتصور.
جلس الأب «كالاهان» فاصطدمت ركبتاه بجانب الفراش عندما قرَّب كرسيه منه، فهوت بعض الكتب على حِجره. بدأ يقرأ العناوين بصوتٍ عالٍ وهو يعيدها إلى مكانها:
- «دراكيولا»، ضيف «دراكيولا»، البحث عن «دراكيولا»، الغُصن الذهبي، تاريخ مصاصي الدماء الطبيعي، طبيعي؟ الأساطير المجرية، وحوش الظلام، المسوخ الحقيقية، «بيتر كورتِن»[(51)]، و...
ثم مسح طبقة غبار كثيفة عن غلاف الكتاب التالي، فظهر رسم لطَيْفٍ يقبع فوق فتاة نائمة وقرأ:
- مصاص الدماء «فارني»، أو عيد الدم. قراءات مناسبة لمرضى النوبات القلبية؟
ابتسم «مات» وقال:
- يا لـ «فارني» البائس! قرأت هذه الرواية من قبل أيام الجامعة وكتبت عنها بحثًا. تعَد ضمن الأدب الرومانسي. أستاذنا وقتها، والذي كانت ذائقته الأدبية تبدأ برواية «بيوُّلف»[(52)] وتنتهي برسائل «سكروتيب»[(53)] أُصيب بصدمة. حصلت على تقييم منخفض مع توصية بتحسين ذائقتي.
- قضية «بيتر كورتن» شائقة كفاية، شائقة بشكل مُنفِّر.
- أتعرف تاريخه؟
- أعرف أغلبه، فقد كنت أهتم بهذه الأمور كجزء من تعليمي اللاهوتي. لأجل أن تكون رجل دين قويًّا، عليك أن تغوص في أغوار النفس البشرية كما تطمح لعليائها. ربما كان هذا كلامًا فارغًا. المهم، قتل «كورتن» اثنين من رفاق اللعب وهو صغير. أغرقهما. سرق طوقًا صغيرًا كان مربوطًا في منتصف نهر، وربطهما إليه، وظل يبتعد بهما حتى نال التعب منهما فغرقا.
- أجل. كمراهق، حاول والدي مرتين قتل فتاة قد رفضت أن تخرج معه. لاحقًا أحرق منزلهم. لكن هذا ليس الجزء الذي أهتم به في... مسيرته المهنية.
- أعتقد هذا، حسب اختيارات الكتب.
أمسك بمجلة على غلافها صورة امرأة في ملابس ضيقة للغاية تمتص دماء شاب، على وجهه خليط من الذعر الشديد والشهوة الجارفة. اسم المجلة -واسم مصاصة الدماء كذلك- هو: «فامبايريلَّا». أعاد «كالاهان» المجلة مكانها، مفتونًا أكثر من أي وقت مضى. قال:
- «كورتِن» هاجم وقتل أكثر من دُرزينة من النساء، كما شوَّه أخريات بالمطرقة، وإن كانت واحدة منهن في فترة دورتها الشهرية، كان يشرب دماء حيضها.
أومأ «مات بُرك» مُجددًا وقال:

- الشيء الذي لا يعرفه الكثير هو أنه كان يُعذب الحيوانات كذلك ويشوهها. في ذروة نشاطه، انتزع رأسي بجعتين في حديقة مدينة «داسلدرف»، وشرب الدماء المُتدفقة من رقبتيهما.

- هل لكل هذا علاقة برغبتك في مقابلتي؟ السيدة «كُرلس» أخبرتني أنك تريدني في أمر مهم.

- أجل، له علاقة، والأمر حقًّا مهم.

- تُرى ما هو؟ لو أردت أن تثير فضولي، فقد نجحت.

نظر إليه «مات» بهدوء وقال:

- صديق مُقرب، «بِن ميرز»، كان سيتصل بك اليوم، لكن مُدبرة منزلك قالت إنه لم يتصل.

- هذا صحيح. لم يتصل بي أو يزورني أحد منذ الساعة الثانية من ظهر اليوم.

- لا أستطيع الوصول إليه الآن، فقد غادر المستشفى مع طبيبي «جيمس كودي» الذي -كذلك- لا أستطيع الوصول إليه هو أو «سوزان نورتون» صديقة «بِن». لقد خرجت مبكرًا اليوم ووعدت والديها أن تعود قبل الخامسة. هما قلقان.

بدأ القلق يتسرب إلى قلب «كالاهان». كان قد التقى سريعًا بـ «بيل نورتون» حين جاءه يستشيره في أمر يخص زملاء عملٍ كاثوليكيين.

- هل تشُك في شيء؟

- دعني أسألك سؤالًا. رجاء، خذه على محمل الجد وفكر جيدًا قبل أن تُجيب. هل لاحظت مؤخرًا أي شيءٍ خارج عن المُعتاد في البلدة؟

تحوَّل تعبير وجه «كالاهان» المُعتاد إلى تعبير رجلٍ حذِر يحاول ألا يفزع الآخرين بما يدور في عقله. رجل الكتب هذا يقترح وجود أمر شنيع. سأله:

- مصاصو دماء في بلدة «سالم»؟

كان دائمًا ما يؤمن أن الاكتئاب الذي يلي الإصابة بالأمراض الخطيرة، ربما يُمكن تفاديه إن كان للمريض ولع بالاستثمار في الحياة، مثل الفنانين والموسيقيين والنجارين الذين يصبُّون تفكيرهم على الأعمال التي لم يُنهوها بعد. هذا الولع قد يكون ذا صلة بذهان غير مؤذٍ (أو غير مؤذٍ للغاية) ربما كان موجودًا بشكل أولي قبل المرض.

كان قد تحدث طويلًا مع رجل يُدعى «هوريس» كان في مستشفى «مَين» المركزي يعاني سرطان الأمعاء، وقد انخرط مع «كالاهان» في الحديث عن مخلوقات كوكب أورانوس الذين يتسللون إلى جوانب الحياة الأمريكية كافة. قال له:

- في يوم تجد أن الشاب الذي يملأ لك خزان الوقود اسمه «جو بلو» من «فالموث»، وفي اليوم التالي يحل محله كائن (أورانوسي) يبدو كـ «جو بلو» ولديه ذكريات «جو بلو» وطريقة كلامه. هل ترى؟ (الأورانوسيون) يأكلون موجات «ألفا»... هَم... هَم... هَم!

بحسب كلام «هوريس»، فهو لم يكن يعاني السرطان مُطلقًا، بل حالة متقدمة من التسمم بالليزر. علم (الأورانوسيون) بأنه يعرف نياتهم ومَيكَنتهم، قرروا الخلاص منه. قبِل «هوريس» واستعد للموت وهو يقاتلهم. لم يبذل «كالاهان» أي جهد في إبعاده عن هذا التفكير، وترك هذا لأقاربه ذوي البال الطويل. خبرة «كالاهان» تقول إن الذهان قد يكون مُفيدًا للغاية.

لذا، فقد وضع كفًّا فوق الأخرى ببساطة، وانتظر أن يكمل «مات» حديثه.

- من الصعب أن أحكي لك ما حدث كما هو، وسيكون الوضع أصعب إن كنت تعتقد أنني مُصاب بخَرَف فراش المرض.

ذُهِل حين سمع ما كان يجول في عقله على لسان «مات». احتفظ «كالاهان» بحيادية تعبيرات وجهه بصعوبة، إلا أن التعبير الذي كان يحاول كبحه لم يكن القلق، بل الإعجاب.

- على العكس، فأنت تبدو واعيًا للغاية.

زفر «مات» وقال:

- كوني واعيًا لا يعني قطعًا أنني عاقل، لا بد وأنك تعرف هذا جيدًا.

عدَّل جلسته في فراشه، وأقلق استقرار الكتب حوله. أردف:

- لو أن هناك إلهًا، فلا بد وأنه يجعلني الآن أكفِّر عن عمرٍ قضيته في البحث الأكاديمي، عن رفضي أن أخطو بقدم العقل في أي أرض بلا مراجع علمية. والآن، ولثاني مرة في يومٍ واحد، أنا مرغَم على الإدلاء بتصريح عجيب دون أي إثبات يُعززه. كل ما أستطيع قوله دفاعًا عن عقلي، هو إن شهادتي قابلة للإثبات أو النفي دون صعوبة كبرى، وأتمنى أن تأخذ كلامي على محمل الجد وتُجري هذا الاختبار قبل فوات الأوان.

ضحك وأضاف:

- (قبل فوات الأوان) هذه تبدو عبارة من مجلة شعبية من حقبة الثلاثينيات، أليس كذلك؟

- الحياة مليئة بـ (الميلودراما)[54].

تعكس ملاحظة «كالاهان» الأخيرة أن الحياة إن كانت ملأى بـ (الميلودراما)، فقد شهد منها مؤخرًا الكثير.

- دعني أسألك مرة أخرى، هل لاحظت أي شيء، أي شيء، خارج طبيعته المألوفة مؤخرًا؟

- شيء له علاقة بمصاصي الدماء، أم...

- له علاقة بأي شيء.

فكَّر «كالاهان» حينًا ثم قال:

- المُستودع مُغلق، لكن البوابة كانت مكسورة، فدخلت... أنا أفضِّل أن أنقل قمامتي بنفسي إلى المستودع؛ هذا عمل بسيط متواضع أغمس فيه خيالاتي النخبوية عن الفقير السعيد من الطبقة العاملة. لم يكن «دَد روجرز» هناك.

- هل هناك شيء آخر؟

- حسنًا، آل «كروكيت» لم يحضروا القداس اليوم، والسيدة «كروكيت» لا تفوِّته أبدًا.

- هل هناك المزيد؟

- ما حدث بالطبع للسيدة «جليك»...

قام «مات» مُستندًا إلى ذراع واحدة وصاح:

- السيدة «جليك»؟ ماذا عنها؟

- تُوفيت.

- كيف؟!

أجاب «كالاهان» في تردد:

- تظن «بولين ديكنز» أنها أزمة قلبية.

- هل مات أحد غيرها مؤخرًا في البلدة؟

في الأيام العادية، سيكون هذا سؤالًا سخيفًا. فأخبار الوفاة في بلدة صغيرة كهذه تشيع بسرعة على الرغم من العدد الكبير للعجائز من السكان. أجاب «كالاهان» ببطء:

- كلا. لكن مُعدل الوفيات مؤخرًا قد ازداد، أليس كذلك؟ «مايك ريرسون»، «فلويد تِبتس»، طفل «مَكدوجال»...

أومأ «مات» وقد بدا عليه الإرهاق. قال:

- وكلهم ماتوا ميتة غريبة. لكن الأمور قد تصل إلى مرحلة يستحيل بعدها التغاضي عما يحدث. بعد عدة ليالٍ أخرى، أخشى...

- كفانا مُراوغة.

- لديك حق. لقد راوغنا كثيرًا مؤخرًا، أليس كذلك؟

بدأ يحكي القصة من أولها إلى آخرها، مُزيدًا التفاصيل التي مر بها «بِن»، و«جيمي»، و«سوزان»، ولم يخفِ شيئًا. وفي الوقت الذي أنهى فيه حكايته، انتهى رعب الليلة بالنسبة إلى «بِن» و«جيمي»، وبدأ رعب «سوزان نورتون».

***

عندما انتهى، سمح «مات» للصمت بدقيقة، ثم سأل:

- هل أنا مجنون؟

- محتوم عليك أن يظنك الناس كذلك على الرغم من أنك نجحت في إقناع السيد «ميرز» وطبيبك. لكن لا، لا أظنك مجنونًا، فالغرائبيات صميم عملي. لو أنني سمحت لنفسي بتوريةٍ فيمكن أن أقول إنها خَبزي وخمري.

- لكن...

- دعني أخبرك بقصة لا أجادل في كونها حقيقة أم خيال، لكن قناعتي الشخصية أنها حقيقة. القصة حدثت لصديق عزيز لي؛ الأب «رَيموند بيزونيت» وهو يخدم في إبرشية في «كورنوُل» منذ أعوام الآن. هل تسمع عما يسمونه خليج الصفيح؟

- من خلال بعض ما قرأت.

- منذ خمسة أعوام، كتب لي أنهم استدعوه لإقامة جنازة لفتاة توفيت. كان تابوت الفتاة مليئًا بالورود البرية، مما أثار تعجُّب «راي»، أما ما أدهشه هو أن فمها كان مفتوحًا بخشبة صغيرة ومحشوًّا بالثوم والزعتر البري.

- لكن هذا...

- حماية تقليدية من قيام اللاموتى. أجل. حين سأل «راي» عن السبب، قال له والدها إن الجاثوم قد قتلها. أتعرف معنى هذا؟

- مصاص دماء ذو أغراض جنسية.

- كانت الفتاة مخطوبة لشاب يُدعى «بانوك»، لديه وحمة كبيرة على شكل ثمرة فراولة على جانب عُنقه. قُتل في حادث سيارة في أثناء عودته من العمل قبل موعد زفافه بأسبوعين. بعد عامين، خُطِبت الفتاة لشاب آخر، لكنها انفصلت عنه فجأة قبل أسبوع من الزفاف. قالت لوالديها إن «جون بانوك» خطيبها الأسبق كان يأتيها ليلًا، وقد خانته مع خطيبها الحالي. بحسب كلام «راي»، فخطيبها كان قلقًا بشأن خلل عقلي أكثر مما كان قلقًا بشأن زيارات شيطانية ليلية. على الرغم من كل شيء، فقد ذوَت وماتت، ودُفنت على الطريقة القديمة في الكنيسة.

كل هذا لم يجعل خطاب «راي» مهمًّا، بل ما حدث بعد شهرين من دفنها. في أثناء جولته الصباحية، وجد «راي» شابًّا جوار قبر الفتاة، شابًّا ذا وحمة على جانب عنقه على شكل ثمرة فراولة. ليست هذه هي نهاية القصة. كان قد حصل على كاميرا تصوير فوري أهداها له والداه في عيد الميلاد المجيد، وكان يتسلى بالتقاط صور للريف، لدي بعض منها. المهم أنه التقط بعض الصور للشاب، وحين عرضها على بعض أهالي القرية، كانت ردود الأفعال مذهلة؛ سيدة عجوز فقدت الوعي، وراحت والدة الفتاة تصلي في الشارع. إلا أن الشاب قد زال تمامًا من الصورة في الصباح التالي، ولم يتبق إلا مشاهد للمقابر المحلية.

سأله «مات»:

- وأنت صدَّقت ذلك؟

- أجل، وأشك أن أغلب الناس ستصدق. الرجل العادي أقل حذرًا في التعامل مع الماورائيات، على عكس ما يتصور كُتاب الروايات. بل إن معظم الكُتاب الذين يكتبون في هذه الأمور، أقل إيمانًا بالعفاريت والأشباح والشياطين مقارنة برجل الشارع العادي. الكاتب «لافكرافت»[55] كان مُتشككًا. «إدجار آلان بو»[56] كان مُتفلسفًا مُتعاليًا. «هوثورن»[57] مُتدين تقليدي لا أكثر.

- أنت خبير في هذا الموضوع.

ضحك الأب وقال:

- لدي اهتمام صبياني بالسحر والغوامض، وعملي الكهنوتي عزَّز هذا الاهتمام بدلًا من أن يُضعفه.

زفر بعمق وأردف بابتسامة مريرة:

- لكنني مؤخرًا صرت أسأل نفسي عن طبيعة الشر في العالم، مما أفسد عليَّ أغلب المُتعة.

- إذًا، هل ستتقصى بعض الأمور نيابة عني؟ وهل ستنفر من فكرة أن تأخذ معك بعض الخبز والماء المُقدس؟

قال «كالاهان» في وقار:

- أنت الآن تخطو فوق أرضٍ لاهوتية غير مُمهَّدة.

- لماذا؟

- لن أرفض الآن، ليس في هذه المرحلة. وأوقن أنك لو طلبت هذا من رجل دين أصغر سنًّا لرفض الأمر فورًا دون أي تبكيتٍ من ضمير.

ابتسم «كالاهان» في مرارة وأردف:

- هم يرون أن حصر الكنيسة في منظور عملي لا رمزي يشبِّهها بالمُعالجين السحرة. رجل الدين هذا قد يقرر أنك مجنون، لكن إن كان رش بعض الماء المُقدس حولك سيهدئك، فلا بأس. لا أستطيع أن أفعل هذا. لو أنني سأتقصى بعض الأمور نيابة عنك بلا شيء معي سوى نسخة من كتاب طارد الأرواح الشريرة أو أيًّا كان، فيجب أن يكون هذا بيني وبينك. لكن إن ذهبت ومعي خبز وماء مقدس، فأنا سأذهب بصفتي مندوبًا عن الكنيسة الكاثوليكية المُقدسة، مُستعد لإقامة أكثر الطقوس روحانية. سأذهب كممثل ليسوع على الأرض.

هو الآن ينظر إلى «مات» في جدية ووجوم. أكمل:

- ربما لا أكون رجل دين قويًّا، فأحيانًا ما يراودني هذا الشك، ربما كنت أعاني أزمة... إيمان؟ هوية؟ لكنني ما زلت أؤمن بشكل كاف بالمعجزات والغوامض، والقوة الإلهية للكنيسة التي تؤازرني، فأفكر ألف مرة قبل أن أقبل طلبك بسهولة. ما الكنيسة إلا مجموعة أفكار، ويبدو أن رجال الدين الأصغر يؤمنون بها بالفعل. الأمر أكبر من كتيبة أشبال كشافة دينية. الكنيسة هي القوة، والمرء لا يستغل قوة كهذه بسهولة واستخفاف.

عقد حاجبيه وسأل:

- هل تفهم؟ فهمك لما قلت مهم بشكل حيوي.

- أفهم.

- كما ترى، فمفهوم الشر في الكنيسة الكاثوليكية قد خضع لتغييرات عُظمى خلال هذا القرن. هل تعرف ما السبب؟

- أعتقد أنه «فرويد»[58]؟

- ممتاز. الكنيسة بدأت تعتمد مفهومًا جديدًا مع دخولها القرن العشرين، وتحول «الشيطان» إلى «الشر»، ومع مفهوم الشر غير المُرتبط بصورة الشيطان المسخ أحمر القرنين ذي الذيل والحوافر، أو حتى كحية تسعى وسط الجنان –على الرغم من أنها صورة نفسية واضحة- صار الشيطان بحسب «فرويد» هو مجرد «هو»[59] مُتضخم موجود في لا وعي كل منا.

- هذا بالتأكيد لا يقل عجبًا عن مفهوم الشياطين ذات الأنوف الحساسة التي تصرفها غازات بطن رجل دين متحمس.

- هي مفاهيم عجيبة بالفعل، لكنها كذلك مبنية للمجهول. صارمة. لا يمكن المساس بها. إبعاد شيطان «فرويد» مستحيل مثل صفقة «شيلوك»[60]؛ أن تقطع رطلًا من لحمٍ حي دون أن تُسقط قطرة دمٍ واحدة. أُجبِرَت الكنيسة الكاثوليكية على إعادة تفسير فكرة الشر كاملة على أنها أعمال الشر البشرية كالحروب، وملايين من الخطايا الصغيرة التي تملأ العالم. كانت عملية انسلاخ من جلد المُعالج الروحاني القديم، وارتداء زي الناشط الاجتماعي والسياسي. الكنيسة في طريقها لغرس كلتا قدميها في العالم المادي.

- حيث لا سحرة ولا جواثيم، ولا مصاصو دماء، فقط عالم يعُج بالإساءة للأطفال واغتصاب البيئة والحروب.

- أجل.

قال «مات» مُتعمِّدًا:

- وأنت تكره ذلك؟

أجاب «كالاهان» بهدوء:

- أجل. أراها مفاهيم ممسوخة. هذه هي طريقة الكنيسة الكاثوليكية في إعلان أن الرب لم يمُت، بل أصابه فقط بعض الخرف. أعتقد أنني أجبتك بوضوح. والآن، ماذا تريد مني أن أفعل؟

أخبره «مات». فكَّر «كالاهان» حينًا ثم قال:

- أتعلم أن ما تطلبه مني يتعارض مع كل ما قلته لك؟

- بالعكس. أراها فرصة لوضع كنيستك كما تؤمن بها أمام الاختبار.

أخذ «كالاهان» نَفَسًا عميقًا ثم قال:

- جيد جدًا. موافق، على شرط.

- ما هو؟

- أن كل من سيذهب في هذه الحملة الاستكشافية، يذهب إلى هذا المتجر الذي يديره «ستراكر» هذا أولًا. سيتحدث معه السيد «ميرز» -كمُتحدثنا الرسمي- بصراحة عن كل هذا، فيتسنى لنا مراقبة ردود أفعاله، ونعطيه فرصته في السخرية منا.

عقد «مات» حاجبيه وقال:

- لكن هذا سيُنبهه فيأخذ حذره.

هزَّ «كالاهان» رأسه وقال:

- أعتقد أن الحذر لن ينفع إن اتفق ثلاثتنا -أنا و«ميرز» والطبيب- أن نستمر في خطتنا مهما كانت الظروف.

- حسنًا، أنا موافق وفي انتظار موافقة «بِن» و«جيم كودي».

تنهَّد «كالاهان» وقال:

- حسنًا. هل سيُسيئك إن أخبرتك أنني أتمنى أن تكون كل شكوكك وهمًا؟ أنني أتمنى أن يسخر منا هذا الرجل «ستراكر» ويعطينا تفسيرات وجيهة؟

- على العكس.

- أتمنى هذا حقًّا. الأمر يُثير رعبي.

- ويثير رعبي.

***

لم يشعر بأي خوف وهو يسير عائدًا إلى كنيسة القديس «آندرو»، بل شعر ببهجة وتجدُّدٍ. لأول مرة منذ أعوام لم يشتهِ الشُّرب.

عاد إلى مسكن القساوسة، واتصل ببيت ضيافة «إيفا ميلَّر».

- مرحبًا. هل يمكن أن أتحدث إلى السيد «بِن ميرز»؟ ... كلا. حسنًا، أفهم هذا... لا توجد رسائل أتركها له، سأتصل به غدًا. أجل.

أغلق الخط واتجه نحو النافذة.

هل «ميرز» بالخارج في مكان ما يشرب البيرة على طريق ريفي، أم أن كل ما أخبره به المُدرس العجوز حقيقي؟

لو أن هذا حقيقي...

لم يستطع المكوث في المنزل، خرج إلى الشرفة الخلفية يتنفس هواء أكتوبر البارد القارص، وينظر إلى الظلام. ربما لم يكن «فرويد» هو السبب الوحيد. ربما كان اختراع الضوء الكهربي سببًا، فقد قتل الظلال في عقول البشر بفعَالية أكثر مما قد يقتل وتدٌ مصاصَ دماء، وبفوضى أقل طبعًا.

ما زال الشر موجودًا، لكنه الآن يجول تحت أضواء مصابيح الفلورسنت والنيون ومصابيح الإنارة. أجيال قد خططت لهجوم قوات جوية تحت قوة التيار الكهربي، وقد خرج كل شيء خارج سيطرتهم كما تخرج سيارة سباق أطفال عن مسارها بلا كوابح. كلنا جنود ننفذ ما كتبته علينا التعليمات، لكن من أين تأتي التعليمات؟ خذني إلى قائدك... لكن أين مكتبه؟ أنا فقط كنت أتبع التعليمات، الناس انتخبتني. لكن من انتخب الناس؟

شيء ما كان يطير بالأعلى، فالتفت إليه «كالاهان»، مأخوذًا. أهو طائر؟ وطواط؟ لقد اختفى. لا يهم.

راح ينصت إلى أصوات البلدة، فلم يسمع صوت همهمات خطوط الهاتف.

الليلة التي يغزو فيها الكودزو(61) حقلك، تنام فيها كالموتى...

من كتب هذه العبارة؟ «ديكي»(62)؟

لا يوجد أي صوت، والضوء الوحيد هو ضوء مصباح أمام الكنيسة، والذي لا يرقص تحته «فريد أستير» أبدًا، وضوء السيارات على الطُّرُق.

ولم يكن هناك أي صوتٍ آخر، ولو حتى بكاء طفل.

الليلة التي يغزو فيها الكودزو حقلك، تنام...

خفَت الاقتباس من ذهنه كصدى صوت، وتمكَّن الرعب من قلبه. كان يظن أنه لا خوف يفوق خوفه من انكشاف أمر شُربه أمام مُدبِّرة منزله، لكنه الآن خائف كما لم يخف من قبل، حتى في أيام مراهقته التعسة.

كان هذا خوفًا على روحه الفانية.

اللاأدري هو شخص ليس لديه أي محدد فيما يخص وجود الله من عدمه، ويؤمن أنه لا يمكن التأكد من وجوده أو عدم وجوده.

بيتر كورتن هو سفاح ألماني كان مُلقبًا بمصاص الدماء ديسيلدورف.

ملحمة إنجليزية قديمة عن البطل الجيرماني بيولف.

رسائل سكروتيب رواية ذات طابع مسيحي كتبها ك. س. لويس، وأهداها إلى ج. ر. ر. تولكن.

الميلودراما هو عمل درامي حبكته المثيرة للغاية لها الأسبقية على التوصيف التفصيلي.

هيوارد فيليبس لافكرافت، كاتب أمريكي يكتب في مجال الرعب والخيال والغرائب.

إدجار آلان بو كاتب وشاعر وناقد أمريكي، لكتاباته طابع من الرعب والفلسفة.

ناثانيال هوثورن كاتب أمريكي تتمحور كتاباته حول التاريخ، والخلود، والدين.

سيجموند فرويد طبيب أعصاب نمساوي ومؤسس علم التحليل النفسي.

الهو والأنا والأنا العليا مصطلحات قدمها سيجموند فرويد في النظرية البنيوية عن تقسيم العقل الواعي واللاواعي. الهو هو القسم المندفع في شخصية الفرد والمسؤول عن الرغبات الجنسية والاندفاعات العدوانية.. إلخ.

شيلوك هو شخصية خيالية كتبها شيكسبير في مسرحية تاجر البندقية، وهو مرابٍ يهودي، وقد أقرض أحد شخصيات المسرحية مالًا مقابل رطل من لحمِهِ يُقطع دون نقطة دم واحدة كشرط تعجيزي بغرض الانتقام.

الكودزو نبات مُدمر للمحاصيل يفترش الأراضي ويحجب عنها الشمس.

جيمس ديكي شاعر وروائي أمريكي.

الجزء الثالث

القرية المهجورة

أسمع صوتًا يصرخ من الأعماق
تعال وانضم إليَّ يا صغيري في نومي الأبدي.
من أغنية «روك آند رول قديمة».

والمسافرون الآن عبر الوادي..
يرون خلال النوافذ المُضاءة بالأحمر..
أجسادًا ضخمة تتمايل بشكل خيالي..
على خلفية من أنغام مُتضاربة..
عبر الباب الضعيف -كنهرٍ مُتسارع مروع-
يتدفق حشد شنيع أبدي..
يضحكون، لكنهم أبدًا لا يبتسمون.
«إدجار آلان بو»
القصر المسكون

أقول لك الآن إن البلدة بالكامل، خاوية.
«بوب ديلَن.»(63)

من أغنية «أحزان البلدة الشمالية» غناء بوب ديلان، مغنٍّ أمريكي.

الفصل الرابع عشر

البلدة

من التقويم الزراعي:

غروب يوم الأحد، الخامس من أكتوبر عام 1975 في الساعة السابعة ودقيقتين.

شروق يوم الاثنين السادس من أكتوبر عام 1975 في الساعة السادسة وتسع وأربعين دقيقة.

فترة الإظلام في بلدة «سالم» خلال دورة الأرض الحالية، بعد ثلاثة عشر يومًا من الانقلاب الشتوي، هي إحدى عشرة ساعة وسبع وأربعون دقيقة.

مقولة اليوم: (شمس أقل، تعني حصادًا قريبًا).

من محطة أرصاد «بورتلاند»:

درجة الحرارة العظمى 16 درجة، سُجِّلت في الساعة السابعة وخمس دقائق. درجة الحرارة الصغرى 8 درجات سُجلت في الساعة الرابعة وست دقائق. سُحُب متفرقة، والرياح شمالية غربية تبلغ سرعتها عشرة أميال في الساعة.

من دفتر سجلات شرطة المقاطعة في «كمبرلاند»:

لا شيء.

***

لم يُعلن أحد عن وفاة بلدة «أورسالم» في صباح يوم السادس من أكتوبر، ولم يعرف أحد بوفاتها. فهي كموتى الأيام السابقة؛ ظلت مُحتفظة بكل مظاهر الحياة.

«رَثي كروكيت» التي ظلت راقدة في فراش المرض طيلة الأسبوع، اختفت في الصباح ولم يُبلغ عنها أحد. أمها كانت ترقد في القبو خلف خزانة الأطعمة المحفوظة، تغطي وجهها بقطعة قماش سميكة. أما «لاري كروكيت» الذي كان يستيقظ مُتأخرًا كعادته، ظن أن ابنته قد ذهبت إلى المدرسة. قرر ألا يتوجه إلى مكتبه اليوم، فقد كان متوعِّكًا. يبدو أنها الإنفلونزا أو شيء من هذا. الضوء يؤلم عينيه، فقام وأغلق الستائر، وقد أجفل عندما وقعت أشعة الشمس المباشرة على ذراعه. عليه أن يستبدل النافذة حين يتحسن ويشتري بدلًا منها نافذة ذات زجاج واقٍ من الشمس. فكَّر في أن يشرب كوب قهوة، لكن الفكرة أثارت معدته. تساءل بعقل ضبابي عن مكان زوجته، ثم نسي الأمر سريعًا. عاد إلى فراشه وهو يمس بإصبعه جرحًا كجرح الحلاقة أسفل ذقنه. جذب الأغطية فوقه وغط في النوم.

في أثناء ذلك، كانت ابنته تنام داخل مُجمِّدٍ قديم في مستودع النفايات، وقد وجدته خلال جولاتها الليلية وأحبت الظلام الدامس داخله.

«لوريتا ستارتشر» أمينة المكتبة، اختفت كذلك، لكن لم يكن في حياتها الوحيدة من يلحظ اختفاءها. هي الآن راقدة في الطابق الثالث من مكتبة البلدة العامة، فقد كان الطابق الثالث موصدًا دائمًا (ترتدي المفتاح الوحيد في سلسلة حول رقبتها)، ولم تكن تفتحه إلا إن أقنعها أحدهم أنه مُثقف خلوق بشكل كافٍ كي يتلقى هذا الفيض العلمي.

والآن، هي ترقد هناك شخصيًّا كطبعة أولى من كتاب فريد من نوعه. جديدة كيوم وُلِدت.

اختفاء «فيرجيل رَثبورن» كذلك لم يُلاحَظ. استيقظ «فرانك بودِن» في التاسعة صباحًا، ولاحظ أن فراش رفيقه في الكوخ خالٍ. لم يعبأ، وقام ليبحث عن علبة بيرة، لكنه تهاوى مكانه على ساقين من مطاط ورأس مُترنح.

فكَّر وهو ينزلق إلى النوم مُجددًا: إلهي... ماذا شربنا أمس؟ «ستيرنو»؟[(64)]

وأسفل الكوخ، وسط أوراق الخريف الجافة المُتراكمة منذ عشرين عامًا، ووسط علب البيرة الفارغة، وتحت ألواح الأرضية الخشبية المُشققة، يرقد «فيريجل» في انتظار الليل. في داخل عقله المُظلم حُلم غامض عن خمور لا مثيل لها، تجري في العروق.

لم تعبأ «إيفا ميلَّر» كثيرًا عندما لم ينزل «ويزل كريج» لتناول إفطاره، فقد كانت منشغلة بطهي الأطعمة على الموقد كي تُسعف سكانها المُتعجلين للحاق بأشغالهم. ثم انشغلت بعد ذلك بتنظيف المطبخ وجلي الصحون التي تركها خلفهما الأحمقان «جروفر فيريل» و«ميكي سيلفستر» واللذان يتجاهلان دومًا اللافتة المُعلقة فوق الحوض (رجاء اغسل أطباقك).

لكن بعد أن هدأ اليوم وانتهت من أعمال الصباح، وعاد إلى اليوم روتينه المعتاد، افتقدت وجوده مرة أخرى. يوم الاثنين هو يوم جمع القمامة من الشوارع، وقد اعتاد «ويزل كريج» أن يجمع الأكياس الخضراء من أمام المنازل ليحملها «رويال سنو» في شاحنة قديمة. لكن الأكياس الخضراء في مكانها حتى الآن ولا أثر لـ «ويزل».

صعدت إلى حجرته وطرقت الباب بخفة وهي تُردد:

- «إد»؟

لم تجد ردًّا. في يوم آخر، كانت ستفترض أنه ثمل، وتُخرج قمامتها بنفسها في ضيق. لكن ثمة قلقًا ما ينهش في نفسها، فأدارت مقبض الباب ودسَّت رأسها في الفرجة وهي تنادي برفق:

- «إد»؟

كانت الحجرة خالية، والنافذة فوق الفراش مفتوحة، تُرفرف ستائرها إلى الداخل والخارج مع هبَّات النسيم. الفراش غير مُرتب، فأعادت ترتيبه بنفسها دون تفكير. كانت تفعل ما تفعل بشكل تلقائي. دارت حول الفراش إلى الجهة الأخرى فاصطدم خُفها بشيء. انحنت فوجدت مرآة ويزل مكسورة على الأرض. التقطتها وأدارتها بين كفيها عاقدة حاجبيها. كانت مرآة والدته، وقد رفض عرض تاجر مُقتنيات قديمة لشرائها منه بعشرة دولارات، وكان هذا بعد أن بدأ في إدمانه للكحول.

أحضرت الجاروف من خزانة المطبخ وبدأت تكنس الشظايا ببطء وهي تفكر. كانت تعرف أن «ويزل» كان واعيًا حين خلد إلى النوم ليلة أمس، ولم يكن هناك مكان يشتري منه البيرة بعد الساعة التاسعة مساءً، إلا إذا تطفل على أحدهم وركب معه إلى حانة «ديل»، أو إلى «كمبرلاند».

ألقت شظايا المرآة في سلة مهملات «ويزل»، ورأت انعكاس صورتها مرات ومرات لثوانٍ. فتشت السلة ولم تجد زجاجات فارغة فيها، ولم يكن الشرب في السر من عادات «إد كريج».

حسنًا، سيظهر.

لكن القلق ظل في نفسها حتى بعد أن نزلت، ودون أن تعترف لنفسها بشكل مباشر، كانت تعرف أن مشاعرها تجاه ويزل أعمق من مشاعر الصداقة.

- سيدتي؟

أفاقت من خواطرها ونظرت إلى الغريب في مطبخها. كان صبيًّا يرتدي ملابس مُهندمة؛ بنطالًا واسع الساقين وقميصًا نظيفًا أزرق اللون. بدا لها مألوفًا لكنها لم تستطع أن تُحدد من يكون، لكنه غالبًا من عائلة من العائلات الجديدة التي سكنت مؤخرًا شارع «جوينتر».

- هل يسكن السيد «بِن ميرز» هنا؟

كادت «إيفا» أن تسأله لماذا لم يذهب إلى المدرسة، لكنها توقَّفت حين رأت تعبير وجهه الجاد الذي يصل إلى حد الخطورة، والهالتين الزرقاوين أسفل عينيه.

- هو نائم.

- هل يمكنني انتظاره؟

ذهب «هومر مَكَّاسلِن» إلى منزل آل «نورتون» مباشرة بعد مغادرته دار جنازات «جرين». كانت الساعة الحادية عشرة حين وصل إلى هناك، فوجد السيدة «نورتون» تبكي، بينما كان السيد «نورتون» متماسكًا إلى حد ما، يُدخن السيجارة تلو الأخرى ووجهه مُمتقع.

وافق «هومر مَكَّاسلِن» على نشر أوصاف الفتاة، ووعدهما بالاتصال بهما إن عرف أي شيء عنها. قرر كذلك أن يتحقق من المُستشفيات القريبة (وكذا المشارح)، فقد كان هذا جزءًا اعتياديًّا من عملية البحث عن المفقودين. رأيه الخاص أن الفتاة قد رحلت من منزلها بعد شجار مع أهلها، وبخاصة بعد أن اعترفت أمها أنهما تشاجرتا وتحدثت ابنتها عن الانتقال من المنزل.

على الرغم من ذلك، فقد فتَّش الطرق الخلفية، وهو منتبه إلى أي رسالة قد تصله عبر اللاسلكي. بعد دقائق من انتصاف الليل، وفي طريقه إلى البلدة عبر طريق «بروك»، وجد سيارة واقفة عند الغابة.

توقَّف، وتسلَّح، ثم نزل من سيارته. كانت السيارة واقفة عند مدخل طريق مهجور. سيارة «شيفروليه- فيجا»، لونها بني فاتح، عمرها عامان. أخرج دفتره من جيبه الخلفي، وبحث في الصفحات التي تلت استجوابه لـ «بِن» و«جيمي» عن مواصفات سيارة الآنسة «نورتون» ورقم لوحتها كما أمدَّه بهما والداها، فوجدهما مُتطابقين مع السيارة أمامه.

هذه هي سيارة الفتاة، وهذا يدفع التحقيق إلى مسارات أكثر خطورة. وضع يده على غطاء المُحرك فوجده باردًا. لا بد وأن السيارة واقفة هنا منذ فترة.

- أيها الشريف؟

جاءه الصوت الرقيق اللامبالي كصوت الأجراس، لكن لماذا تحركت يده تجاه مسدسه هكذا؟

استدار فوجد الفتاة «نورتون»، تبدو في غاية الجمال، تسير نحوه وهي تُمسك بيد غريب؛ شاب شعره أسود مُمشط إلى الخلف بطريقة غير مُسايرة للموضة.

أضاء «هومر مَكَّاسلِن» كشافه في وجهه، وراوده انطباع أن الضوء لا يسقط عليه، بل يتخلل جسده دون أن ينيره على الإطلاق. وعلى الرغم من أنهما كانا يسيران، فإنهما لم يُخلِّفا أي أثر على التراب الناعم أسفلهما. شعر بخوف وإشارات إنذار تسري في أعصابه، فقبضت يده أكثر على المُسدس... ثم ارتخت. أغلق كشافه وانتظر في استسلام.

- أيها الشريف...

صوتها الآن خفيض لطيف مُداعِب. قال الغريب:

- كم هو لطيف أن تأتي...

وتكالبا عليه.

الآن سيارة الدورية التي كان يركبها تقف بعيدًا في عمق طريق «ديب كات» غير المطروق، ولا شيء منها يظهر من خلف النباتات والتعريشات. أما «هومر مَكَّاسلِن» نفسه فقد كان مُتقوقعًا في صندوق السيارة، يناديه زملاؤه عبر اللاسلكي بلا مُجيب.

لاحقًا، وفي نفس الليلة، زارت «سوزان» أمها لكنها لم تؤذِها كثيرًا، كانت كعَلَقة تتغذى جيدًا على سبَّاح بطيء، كانت مُشبَعَة. لكنها قد سُمِح لها بالدخول، الآن هي حرة تدخل وتخرج من المنزل كما تشاء، تروي عطشها كل ليلة بصيدٍ جديد.

أيقظ «تشارلز جريفِن» زوجته بعد الخامسة بقليل من صباح الاثنين، بوجه مُريع غاضب؛ في الخارج، كانت الأبقار تعوي ألمًا بأثدائها المُمتلئة التي لم تُحلَب. لخَّص الموقف في خمس كلمات وقال:

- هؤلاء الصبية الملاعين قد هربوا!

لكنهم لم يهربوا. وجد «داني جليك» «جاك جريفِن» وتغذى عليه، ثم ذهب «جاك» إلى حجرة أخيه «هال» وأنهى مخاوفه من الدراسة ومن الكتب ومن أبيه القاسي إلى الأبد. والآن هما يرقدان داخل كومة عملاقة من القش في الحقل القبلي، يعلق القش في شعريهما، وتتراقص حبوب اللقاح في فتحات أنفيهما، بينما يعدو فأر ويتعثر فوق وجهيهما.

الآن، يفترش الضوء الأرض، وتنام كل قوى الشر.

كان يومًا خريفيًّا جميلًا مُشمسًا. بشكل عام، فقد ذهب كلٌّ إلى عمله، غير عالم بموت البلدة، لكن استنادًا إلى التقويم، فغروب يوم الاثنين سيحل في تمام السابعة.

النهار يقصُر إذ تتجه الأيام نحو عيد (الهالوين)، وما بعده؛ الشتاء.

***

حين نزل «بِن» إلى الطابق السفلي في التاسعة والربع، نادته «إيفا ميلَّر» من عند الحوض:

- هناك من يريد مقابلتك، وهو يجلس في الشرفة الخلفية.

أومأ، واتجه إلى باب المطبخ الخلفي وهو يرتدي خُفيه، مُتوقعًا أن يجد «سوزان» أو الشريف «هومر مَكَّاسلِن». لكن الزائر كان صبيًّا يجلس على الدرجة الأولى من السلم ناظرًا نحو البلدة التي تبدأ يومها على مهل.

- مرحبًا؟

قالها «بِن» فالتفت الصبي سريعًا. نظرا إلى بعضهما لحظات، لكن بالنسبة إلى «بِن» فقد امتد الوقت وأحسَّ بشعور انفصالٍ عن الواقع. ذكَّره هذا الصبي بنفسه وهو في سنه، لكن هذا لم يكن كل شيء، فقد شعر بثقَل المُصادفة وما قد تحمله معها، وتذكَّر المصادفة التي جمعته بـ «سوزان» في المتنزه، وكيف تنبأ حديثهما الوُدي التلقائي بحميمية مُستقبلهما معًا.

ربما شعر الصبي بشعور مماثل، فقد اتسعت عيناه، وراحت يده تُفتش عن درابزين الدرج كأنما يبحث عن شيء يدعمه.

قال الصبي، ولم يكن يسأل:

- أنت السيد «ميرز».

- أجل. لديك مزية المُبادرة كما أخشى.

- اسمي «مارك بِتري» ولدي أخبار سيئة لك.

كان «بِن» يشعر بذلك منذ رآه، لكنه حاول تضييق نطاق تفكيره ليستنتج... لكن حين وصل إلى استنتاجه، كان كصدمة عنيفة مُفاجئة. قال الصبي:

- «سوزان نورتون» صارت واحدة منهم. «بارلو» حصل عليَّ في المنزل، لكنني قتلت «ستراكر»، أو على الأقل أظنني قتلته.

حاول «بِن» أن يتحدث، لكنه لم يستطع. انغلقت حنجرته. أومأ الصبي وأكمل:

- هل يمكن أن نخرج في جولة بسيارتك ونكمل حديثنا؟ لا أريد أن يراني أحد هنا. أنا في مشكلة مع والديَّ.

قال «بِن» شيئًا لم يتبينه. بعد حادث الدراجة البخارية الذي أودى بحياة «ميراندا»، جمع شتات نفسه من فوق الرصيف وهو يرتجف، لكنه لم يكن مصابًا إلا ببعض الخدوش الطفيفة. سار سائق الشاحنة نحوه، ظله مُزدوج من أثر إضاءة مصابيح الشارع. كان رجلًا ضخمًا أصلع الرأس، يضع قلمًا في جيب قميصه، مكتوب عليه بحروف ذهبية (محطة وقود فرا...) وكان باقي العبارة مخفيًا داخل الجيب، لكن «بِن» خمَّن أن باقي العبارة: (فرانك). قال سائق الشاحنة شيئًا لم يتذكره، ثم أخذ بذراعه ليُبعده. رأى فردة حذاء «ميراندا» على الأرض جوار عجلة الشاحنة الأمامية الكبيرة. حاول التملص من السائق قاصدًا الشاحنة، لكن السائق جرى خلفه وهتف: «ما كُنت لأنظر لو أنني مكانك». نظر إليه «بِن» غير فاهم، كان يحاول أن يخبر السائق أن كل هذا لم يحدث، وأنه في عالمٍ موازٍ كانا سينجوان، ويكملان طريقهما إلى مستقبلٍ مختلف.

راح الجمع يتحلَّق حولهما، يفِدون من الحانة والمطعم المجاورَين، وبدأ يشعر بما يشعر به الآن: بداية التفاعل الشنيع بين العقل والجسد تمهيدًا لقبول الأمر الواقع، وأقرب تشبيه لهذا التفاعل هو الاغتصاب.

تجمعت رغوة خفيفة على سقف حلقه، وصدح صوت طنين في أذنيه، وانكمش جلد خصيتيه. يجري عقله في اتجاه مُعاكس، يُخفي وجهه عن النور الساطع غير المُحتمَل. حاول التملص من سائق الشاحنة مرة أخرى وسار نحو فردة الحذاء. التقطها وقلبها، ثم أدخل يده فيها. ما زال قلبه عامرًا بدفء القدم التي كانت تنتعله. حمله وتقدَّم خطوتين، فرأى ساقيها تبرزان من تحت عجلات

الشاحنة الضخمة، يغطيهما السروال الأصفر الذي اختارته وهي تضحك. من الصعب تصديق أن الفتاة التي ارتدت هذا السروال قد ماتت، لكن قبول الأمر الواقع كان هناك، في جوفه، في فمه، في عينيه.

صرخ بصوت عالٍ، وكان هذا حين التقط له الصحفي الصورة التي نشرتها جرائد الفضائح. ثم راح يصور ساقيها، وقدمها العارية، والأخرى في فردة الحذاء. الناس تنظر إلى قدمها الحافية كأنهم لم يروا واحدةً من قبل. ابتعد خطوتين، وانحنى، ثم...

قال «بِن»:

- سأتقيأ...

- لا عليك.

دار «بِن» خلف سيارته وأفرغ معدته وهو يتشبث بمقبض بابها. أغلق عينيه وترك الظلام يغشاه، وفي الظلام ظهر وجه «سوزان»، تبتسم وتنظر إليه بعينيها الجميلتين العميقتين. فتح عينيه مُجددًا وخطر له أن الصبي قد يكون كاذبًا، أو اختلط عليه الأمر. لكن هذا الخاطر لم يجلب أي أمل. الصبي لم يبدُ من هذا النوع.

عاد وتطلَّع إلى وجه الصبي، فوجد فيه اهتمامًا ولا شيء غير ذلك.

- تعال.

ركب الصبي السيارة، وانطلقا، بينما «إيفا» تراقبهما من نافذة المطبخ، عاقدة حاجبيها. ثمة شيء سيئ يجري. كانت تشعر به ويملأ نفسها كما ملأ نفسها الرعب قبل يوم وفاة زوجها.

قامت لتتصل بـ «لوريتا ستارشر». ظل الجرس يرن مرارًا قبل أن تعيد السماعة إلى مكانها. تُرى أين ذهبت؟ بالتأكيد ليست في المكتبة، فهي تُغلق يوم الاثنين.

جلست ترمق الهاتف وتُفكر. شعرت أن هناك كارثة في الأجواء، ربما شيء مروع مثل حريق 1951.

أخيرًا، رفعت سماعة الهاتف مرة أخرى واتصلت بـ «مَيبل وُرتس» المُفعمة بالنميمة وآخر الأخبار، والتي تتوق دومًا إلى المزيد. لم تعرف البلدة يومًا كهذا منذ سنوات.

***

ظل «بِن» يقود بلا هدف أو وِجهة بينما «مارك» يحكي قصته. حكاها بشكل جيد، بدءًا من الليلة التي زاره فيها «داني جليك»، نهاية بما حدث مع زائرة الليلة الماضية.

- هل أنت واثق أنها «سوزان»؟

أومأ «مارك بِتري». دار «بِن» للخلف، ثم قاد عائدًا إلى شارع «جوينتر».

- إلى أين أنت ذاهب؟ إلى...

- كلا، ليس بعد.

***

- انتظر، توقف!

توقف «بِن» وترجَّلا معًا. كانا في طريق «بروك» أسفل تل «مارستِن»، تحديدًا عند الطريق الفرعي المهجور الذي وجد «هومر مَكَّاسلن» سيارة «سوزان» في بدايته. كان «مارك» قد لمح انعكاس ضوء الشمس على شيء معدني في الغابة.

لم يتحدثا وهما يدخلان الطريق الجانبي معًا، يسيران فوق أثر العجلات القديم المحفور في الأرض، والذي تنمو الأعشاب بينهما.

ثم وجدا السيارة على الفور.

تردد «بِن»، ثم وقف شاعرًا بغثيان وبالعرق البارد يغطي ذراعيه. قال:

- اذهب وألقِ نظره.

اتجه «مارك» إلى السيارة وانحنى على النافذة الجانبية، ثم صاح:

- المفاتيح بالداخل.

سار «بِن» نحو السيارة، لكن قدمه تعثرت في شيء. نظر إلى الأسفل فوجد مُسدسًا مُلقى وسط التراب. التقطه وأداره بين يديه. كان يشبه أسلحة الشرطة. سأله «مارك» وهو يقترب منه ومفتاح سيارة «سوزان» في يده:

- لمن هذا المُسدس؟

- لا أعرف.

تحقق من تأمين المُسدس قبل أن يضعه في جيبه. ناوله «مارك» المفاتيح فأخذها منه واتجه نحو السيارة شاعرًا كأنما في حلم. يداه ترتجفان، وقد حاول عدة مرات قبل أن يستطيع إدخال المفتاح في قفل صندوق السيارة. أداره ورفع الغطاء دون أن يسمح لنفسه بالتفكير.

نظرا معًا إلى المحتويات بداخله؛ عجلة احتياطية، ومفتاح تغيير العجلات، ولا شيء آخر. شعر «بِن» بزفيره يخرج بقوة لاهبة. سأله «مارك»:

- ماذا بعد؟

لم يُجب «بِن» للحظة حتى استعاد سيطرته على صوته، ثم قال:

- سنذهب للقاء صديق لي يُدعى «مات بُرك». هو في المستشفى الآن، يُجري بحثًا عن مصاصي الدماء.

ظهرت اللهفة في صوت الصبي إذ سأله:

- هل تصدقني؟!

- أجل. أصدقك.

سماعه الكلمة تُطلَق في الهواء أكسبها وزنًا ومصداقية. لم يعد هناك مجال للتراجع.

- أنت تقصد السيد «بُرك» المُدرس، أليس كذلك؟ هل يعرف شيئًا عما نواجه؟

- أجل، وكذلك طبيبه.

- الطبيب «كودي»؟

- نعم.

كانا ينظران إلى السيارة وهما يتحدثان، كأنما هي أثر من حضارة غابرة اكتشفاها في هذه الغابة المشمسة غرب البلدة. صندوق السيارة مفتوح كفمٍ فاغر، وحين أغلقه «بِن»، تردد صوت القفل في قلبه. أكمل حديثه:

- وبعد أن نقابله، سنذهب إلى منزل «مارستِن» وننتقم من هذا الوغد الذي فعل ذلك.

نظر إليه «مارك» دون حركة وقال:

- ربما لا يكون أمر الخلاص منه بهذه السهولة التي تتصورها. ستكون هي هناك أيضًا، هي ملكه الآن.

قال «بِن» بثبات:

- سيتمنى لو أنه لم يرَ بلدة «سالم» من الأساس. تعالَ.

***

وصلا المستشفى في التاسعة والنصف، وكان «جيمي كودي» في حجرة «مات». نظر إلى «بِن» واجمًا، ثم انتقلت عيناه إلى «مارك بِتري» مُتسائلًا.

- لدي خبر سيئ يا «بِن». «سوزان نورتون» اختفت.

- لقد تحولت إلى مصاص دماء.

قالها «بِن» بصوت مُسطح، فشهق «مات» في فراشه. سأل «جيمي» بحدة:

- هل أنت واثق من هذا؟

أشار «بِن» بإبهامه نحو «مارك بِتري» وقدَّمه إليهما، ثم أردف:

- تلقى «مارك» زيارة ليلية من «داني جليك» مساء السبت. سوف يحكي لكما ما حدث.

حكى «مارك» كل شيء من البداية حتى النهاية كما فعل مع «بِن». كان «مات» أول من تحدث.

- لا يوجد ما يُقال ليعبِّر عن حزني لما حدث يا «بِن».

قال «جيمي»:

- يمكنني أن أصف لك دواءً مهدئًا إن كنت تحتاج...

- أنا أعرف إلى أي دواءٍ أحتاج. أحتاج إلى أن أواجه هذا الـ «بارلو» الليلة، الآن، وقبل الظلام.

قال «جيمي»:

- حسنًا. لقد ألغيت كل مواعيدي، واتصلت بمكتب شريف المقاطعة. «هومر مَكَّاسِلن» مُختفٍ هو الآخر.

قال «بِن» وهو يُخرِج المسدس من جيبه:

- ربما يفسر هذا اختفاءه.

وضعه على فراش «مات». بدا غريبًا خارجًا عن مألوفات حجرة في مستشفى. أمسكه «جيمي» وسأل:

- من أين أتيت به؟

- كان بجوار سيارة «سوزان».

- يمكننا أن نُخمن إذًا أن «هومر مَكَّاسِلن» زار منزل آل «نورتون» بعد أن تركنا، ثم انطلق يبحث عن سيارتها بعدما عرف رقم لوحتها وطرازها. وحين وجدها في طريق مهجور ما...

اخترق الصمت الحجرة، ولم يحتج أحد إلى مواجهته. أردف «جيمي»:

- ما زالت دار جنازات «فورمان» مُغلقةً. العديد من العجائز المجتمعين دومًا عند متجر «كروسِن» يشكون من تراكم القمامة، ولم يرَ أحد «دَد» منذ أسبوع.

نظر كلٌّ منهم إلى الآخَر في قلق. قال «مات»:

- تحدثت إلى الأب «كالاهان» ليلة أمس. وافقني وأراد أن يبلغكما، و«مارك» كذلك، أن تقابلوه في المتجر الجديد وتتحدثوا إلى «ستراكر» أولًا.

قال «مارك» بهدوء:

- لا أظنه سيتحدث إلى أي أحد اليوم.

سأل «جيمي» «مات»:

- ماذا عرفت عنهم من معلومات؟ هل عرفت شيئًا مفيدًا؟

- أعتقد أنني أكملت الصورة. أرى أن «ستراكر» هو الكلب الحارس لسيده. يبدو أنه مكث في البلدة فترة طويلة قبل وصول «بارلو»، وقد أقام طقوسًا معينة لتهيئة المكان لوصول سيد الظلام. كما ترون، فإن لـ «بارلو» سيدًا هو الآخر. أشك أن أحدًا سيجد جثة «رالفي جليك»، أعتقد أنه كان تذكرة عبور «بارلو». أخذه «ستراكر» وقدمه كتضحية بشرية.

هتف «جيمي» في شرود:

- ابن الحرام...

سأل «بِن»:

- ماذا عن «داني جليك»؟

- حصل عليه «ستراكر» أولًا واستنزف دمه، كهدية من سيده. الدم الأول للخادم الوفي. لاحقًا تولى «بارلو» استنزاف دماء الآخرين بنفسه. «ستراكر» قام بخدمة أخرى لسيده قبل وصوله. هل تعرفون هذا؟

ساد الصمت برهة، فأكمل «مات» بوضوح:

- الكلب الذي وجده هذا الرجل مُعلَّقًا عند بوابة المقابر.

صاح «جيمي»:

- ماذا؟ ولماذا قد يفعل ذلك؟

- الأعين البيضاء.

قالها «مارك»، ثم نظر مُتسائلًا إلى «مات»، الذي كان يومئ نحوه في دهشة:

- ظللت أقرأ في هذه الكتب طيلة الليل، غير عالم أن معنا مُتخصصًا في هذا المجال.

احمر خدا الصبي، أكمل «مات»:

- ما قاله «مارك» صحيح. بناءً على عدة مراجع في التراث والماورائيات، فمن طرق إخافة مصاصي الدماء، رسم عينين بيضاوين (عيني ملاك) فوق عيني كلب أسود. كلب «وِن» كان أسود

بالكامل باستثناء رقعتين بيضاوين فوق عينيه، يشبِّههما «وِن» بمصابيح السيارة الأمامية. كان الكلب يجول ليلًا فوجده «ستراكر» وقتله ثم علقه على سور المقابر.

سأل «جيمي»:

- وماذا عن «بارلو»؟ كيف جاء إلى البلدة؟

- لا يوجد طريقة أعرف بها على وجه اليقين. ربما كان علينا افتراض -في سياق الأسطورة- أنه عجوز... عجوز للغاية. ربما غيَّر اسمه عشرات، أو آلاف المرات حتى. ربما عاش في كل بلد من بلدان العالم مرة أو اثنتين، لكنني أشك أن أصوله رومانية أو مجرية أو بلغارية. لا يهمك كيف جاء إلى البلدة على أي حال... لكنني لن أندهش لو عرفت أن لـ «لاري كروكيت» يدًا في هذا. المسخ هنا، ولا شيء آخر يهم. إليكم ما علينا فعله: خذوا معكم أوتادًا، وأسلحة في حال كان «ستراكر» ما يزال حيًّا. سيفي مسدس الشريف بالغرض. يجب أن يخترق الوتد القلب، وإلا قام مصاص الدماء مرة أخرى. «جيمي»، عليك أن تتأكد من هذا. بعدما تغرسون الوتد في قلبه، يجب أن تقطعوا رأسه وتدسُّوا الثوم في فمه، ثم تقلبوا وجهه إلى الأسفل في التابوت. في أغلب ما كُتب عن مصاصي الدماء -في هوليوود وغيرها- فمصاص الدماء يتحول إلى غبار بعدما يخترق الوتد قلبه. لكن ربما يختلف الوضع في الحقيقة، وإن لم يحدث هذا فعليكم ملء التابوت بالأثقال ورميه في ماءٍ جار، أقترح نهر «رويال». هل لديكم أسئلة؟

لم يسأل أحد. أكمل «مات»:

- جيد. يجب أن يحمل كلٌّ منكم قارورة ماء مُقدس، ويجب أن تعترفوا اعترافًا كنسيًّا أمام الأب «كالاهان» قبل أن تنطلقوا في مهمتكم.

قال «بِن»:

- لا أظن أن أحدًا منا كاثوليكي.

قال «جيمي»:

- أنا كاثوليكي، غير مُتدين.

- لا يهم. ستعترفون جميعًا على سبيل الاحتياط، وتذهبون طاهرين من الذنوب مُغتسلين بدم المسيح... دم نظيف غير ملوَّث.

قال «بِن»:

- حسنًا.

- «بِن»، هل نمت مع «سوزان»؟ اعذرني، لكن...

- أجل.

- إذًا عليكَ أنت أن تغرس الوتد في قلب «بارلو» ثم في قلبها. أنت الوحيد في مجموعتنا هذه الذي أوذي بشكل شخصي. ستتصرف بعدِّك زوجها، ويجب ألا تتردد. ستُحررها.

- حسنًا.

جال بنظره في وجوههم جميعًا وهو يقول:

- وأهم شيء؛ لا تنظروا إلى عينيه أبدًا. لو فعلتهم، سيستحوذ عليكم ويُقلِّبكم على بعضكم ولو على حساب حياتكم نفسها. تذكروا «فلويد تِبتس». مما سيجعل حملكم للسلاح خطرًا عليكم حتى وإن كان

ضروريًّا. «جيمي»، السلاح سيكون معك، وتأخر عنهما قليلًا. أعط السلاح لـ «مارك» إن أردت أن تفحص جثتَي «بارلو» و«سوزان».

قال «جيمي»:

- مفهوم.

- تذكروا أن تشتروا ثومًا. وزهورًا إن استطعتم. هل متجر الأزهار في «كمبرلاند» ما زال مفتوحًا يا «جيمي»؟

- أعتقد.

- زهرة بيضاء لكل منكم. اربطوها إلى أعناقكم أو ثبتوها في شعوركم. سأكرر نفسي وأقول: لا تنظروا إلى عينيه. يمكن أن أعطلكم وأخبركم بمئات التفاصيل، لكن من الأفضل أن تنطلقوا. الساعة العاشرة بالفعل، وربما يغير الأب «كالاهان» رأيه. أتمنى لكم كل الحظ، وسأصلي من أجلكم. الصلاة غريبة على شخص لا أدريٍّ مثلي، لكنني لا أظنني لا أدريًّا كما كنت في السابق. من قال عبارة «إذا المرء أنزل الرب عن عرش قلبه، فسيعتلي الشيطان مكانه»؟

حين لم يُجب أحد، تنهَّد «مات» وأكمل:

- «جيمي»، أريد أن أنظر إلى جرح رقبتك عن قُرب.

اقترب «جيمي» من الفراش، ورفع رأسه. كان الجرح عبارة عن ثُقبين واضحين، يلتئمان بشكل جيد. سأله «مات»:

- هل يؤلمك أو تشعر بحكَّة؟

- كلا.

- أنت محظوظ للغاية.

- بدأت أؤمن أنني أكثر حظًّا مما كنت أظن طيلة حياتي.

اتكأ «مات» مُستندًا إلى ظهر فراشه، وقد ظهر على ملامحه القلق، وغاصت عيناه في محجريهما.

- أعتقد أنني سأتناول المُهدئ الذي رفضه «بِن».

- سأخبر واحدة من الممرضات.

- سأنام ريثما تعودون، فبعد ذلك هناك ما نتحدث بشأنه. يكفي الآن هذا.

انتقلت عيناه إلى «مارك» وقال:

- لقد أدَّيت عملًا مُذهلًا أمس أيها الصبي... طائش وأحمق، لكنه كذلك مُذهل.

- لكنها دفعت ثمن ما فعلت.

شبك «مارك» يديه أمامه ليمنعهما من الارتجاف.

- هذا صحيح، وربما ستدفعه أنت أيضًا، أو أي أحد منكم. لا تستهينوا به! والآن، بعد إذنكم، أنا مُتعب للغاية. عكفت على القراءة طيلة الليل. اتصلوا بي بمجرد أن تنتهوا من مهمتكم.

خرجوا من الحجرة. في الرواق نظر «بِن» إلى «جيمي» وقال:

- ألا يُذكِّرك بشخص ما؟

- أجل. «فان هيلسينج».[(65)]

***

في العاشرة والربع، نزلت «إيفا ميلَّر» إلى القبو لتُحضِر برطمانين من الذرة المُعلبة للسيدة «نورتون» التي -بحسب كلام «مَيبل ويرتس»- أقعدتها الصدمة في الفراش.

تقضي «إيفا» أغلب شهر سبتمبر في المطبخ المُعبق بالبخار، تقطِّع الخضروات وتُعلِّبها، وتضع سدادات الـ «بارافين» على برطمانات المربى منزلية الصنع. لديها ما يقارب المائتي برطمان في قبوها، مُنظمين على الأرفف فوق الأرض المُتربة. التعليب والحفظ هوايتاها، ومع حلول الشتاء، تُضيف إلى محتويات قبوها اللحم المُقدد.

أجفلت عندما شمَّت الرائحة التي باغتتها حين فتحت باب القبو. غمغمت بسُبة، ونزلت بحذر كأنها تخوض في حوض سباحة مُلوَّث.

كان زوجها قد بنى القبو بنفسه، وبطَّنه بالحجارة كي تحفظ برودته. لكن من وقت لآخر، يتسلل سنجاب أو قارض صغير إلى الأسفل ويموت هناك. لا بد وأن هذا هو تفسير الرائحة الآن، إلا أنها لا تذكُر أنها قد شمَّت رائحة تحلل عضوي بهذه البشاعة.

وصلت إلى الأسفل، واتجهت إلى الحائط لتُنير اللمبات، ثم ضيَّقت عينيها لترى أفضل. لا بد أن تستبدل بتلك اللمبات أخريات أكبر. تناولت البرطمانين المكتوب عليهما بخطها النضيد بالقلم الأزرق (ذُرة)، ثم أكملت تفتيش القبو، لكنها لم تجد شيئًا.

وصلت إلى الدرجات المؤدية إلى الأعلى، ثم نظرت خلفها مُحدقة واضعة قبضتها عند خصرها. القبو الكبير صار أكثر نظافة وترتيبًا منذ استأجرت رجلين من عُمال «لاري كروكيت» كي يبنوا لها مخزنًا خلف بيتها منذ عامين.

لم يكن هناك في القبو إلا المدفأة المركزية، التي تقف كتمثال تجريدي للربَّة «كالي»[66] يخرج منها الأنابيب الملتوية في كل اتجاه. لكن عليها تركيب نوافذ جديدة للحجرات كي تحفظ الحرارة وتساعد المدفأة العتيقة.

كذلك في القبو منضدة لعب البلياردو المُغطاة بالقماش المشمع. كانت تحرص على تنظيف سطحها بالمكنسة في شهر مايو من كل عام، على الرغم من أن أحدًا لم يستخدمها منذ رحيل «رالف» عام 1959.

لم يكن هناك غيرهما والبرطمانات في القبو، ومع بعض صناديق تحوي مجلات، ومجرفة ثلج مكسورة، ولوحة أدوات «رالف» للنجارة والتصليح، وصندوق ضخم يحوي ستائر لا بد وأن العث قد أكلها منذ زمن.

مع ذلك، كانت الرائحة لا تُطاق.

ثبَّتت عينيها على الباب الصغير المؤدي إلى المخزن الفرعي تحت الأرض، لكن لا يمكن أن يتسلل حيوان إلى هناك، فهو مبني بالكامل من الأسمنت. لكن...

- «إد»؟

نادته فجأة بلا أي سبب على الإطلاق، وأفزعها رنين صوتها.

ماتت الكلمة في هواء القبو سيئ الإضاءة. لماذا تناديه الآن؟ وماذا قد يفعل «إد كريج» هنا بحق الله؟ أيبحث عن مخبأ؟ لأي غرض؟ للشرب؟

لن يجد مكانًا أكثر كآبة في البلدة من هذا القبو كي يكون ملجأ شُربه؟

غالبًا هو في الغابة مع صديقه قليل النفع «فيرجيل رَثبون»، يقتسمان الخمر بينهما.

مع ذلك، فقد وقفت حينًا تمسح بعينيها المكان. الرائحة لا تُطاق. هي فقط لا تُطاق. أمِلَت أنها لن تضطر لتطهير القبو بالكامل.

بعد آخر نظرة لباب المخزن الفرعي، صعدت الدرجات.

***

حين وصلوا، جلسوا في الحجرة الفسيحة الباردة في مسكن القساوسة، وضوء الشمس يدخل من النافذة على هيئة قضبان سميكة قابلة للتقطيع إلى شرائح.

سمع الأب «كالاهان» اعترافاتهم، وحين انتهى، كانت الساعة قد تعدَّت الحادية عشرة والنصف.

تذكَّر «كالاهان» مشهدًا من فيلم رسوم متحركة وهو ينظر إلى العوالق التي تتحرك ببطء في الضوء. كان المشهد فيه سيدة تُنظف بمكنسة، وترمق الأرض في تعجُّب؛ كانت قد كنست جزءًا من ظلها. هو الآن يشعر شعورًا مماثلًا.

للمرة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة، يُواجه بأمر مُستحيل. لكن هذه المرة يؤكده كاتب روائي، وصبي راجح العقل، وطبيب تشهد له البلدة بالكفاءة والاحترام. لكن المستحيل هو المستحيل، لا يمكن أن تكنس ظِلَّك، لكن يبدو أن هذا ممكن الحدوث فعلًا.

قال الأب «كالاهان»:

- يمكن أن أقبل الاستعداد لعاصفة رعدية وانقطاع الكهرباء، عن قبول الاستعداد لمواجهة كهذه.

قال «جيمي»:

- هذا صحيح. أؤكد لك.

مسَّ بيده عُنُقه. قام الأب «كالاهان» وجذب شيئًا من حقيبة «جيمي» السوداء؛ مضربي كرة قاعدة طرفاهما مُشذب مُدبب. أدارهما بين يديه وقال:

- اعذروني، فهذا لن يؤذي على الإطلاق.

لم يضحك أحد. أعاد «كالاهان» المضربين إلى الحقيبة، نظر نحو شارع «جوينتر» وهو يُردف:

- أنتم مُقتنِعون للغاية، لكنني مُضطر إلى إضافة تفصيلة ليست لديكم.

والتفت إليهم مُضيفًا:

- ثمة لافتة مُعلَّقة على متجر «بارلو» و«ستراكر» للأثاث، مكتوب عليها (مُغلق حتى إشعار آخر). لقد مررت عليه اليوم بعد أن جلست مع السيد «بُرك» وحكى لي شكوكه، لكنني وجدت المتجر مغلق البابين الأمامي والخلفي.

قال «بِن»:

- لا تُنكر أن هذا يتسق مع ما ذكره «مارك».

- ربما، وربما هذه مجرد مُصادفة. دعوني أسألكم مرة أخرى، هل أنتم مُصممون على إقحام الكنيسة الكاثوليكية في هذا الأمر؟

أجاب «بِن»:

- أجل. لكننا سُنكمل دونك لو رفضت. حتى إن وصل الأمر أن أذهب وحدي تمامًا.

قال الأب «كالاهان» وهو يقوم:

- لا داعي. اتبعوني إلى الكنيسة أيها السادة، وسأسمع اعترافاتكم.

***

ركع «بِن» في ارتباك داخل حُجيرة الاعتراف الرطبة، يدور عقله، أفكاره غير مُكتملة، يضرب في أرجائها فلا يرى إلا صورًا سيريالية: «سوزان» في المُتنزه، السيدة «جليك» تتراجع خوفًا من الصليب المُرتجل المصنوع من خافضي لسان، «فلويد تِبتس» يخرج من سيارته مُندفعًا نحوه، مُرتديًا زي خيال مآتة، «مارك بِتري» ينحني على نافذة سيارة «سوزان» للمرة الأولى والأخيرة. ثمة احتمال أن يكون كل هذا حُلمًا، وقد تمسَّك عقله بهذا الاحتمال.

وقعت عيناه على شيء في ركن حُجيرة الاعتراف، فالتقطه في فضول. كانت عُلبة أقراص نعناع، لا بد وأنها سقطت من جيب طفل. لمسة من الواقعية لا شك فيها.

العلبة كانت حقيقية، تنبعج تحت ضغط إصبعيه... إذًا فالكابوس حقيقة.

انفتحت النافذة الصغيرة ذات الباب الجرار، والتي لا يمكنك رؤية ما خلفها بسبب الحاجب السلكي السميك المُثبت إليها. سأل «بِن» من خلف الحاجب:

- ماذا أقول؟

- قُل: باركني يا أبتاه، فقد أخطأت.

- باركني يا أبتاه فقد أخطأت.

بدا له صوته غريبًا، ثقيلًا وسط الحوائط التي تحويه من كل جانب.

- والآن، أخبرني بخطاياك.

- كلها؟!

قال الأب «كالاهان»:

- حاوِل أن تكون مُختصرًا، فأنا أعرف أن لديكم مهمة تنجزونها قبل الظلام.

فكَّر «بِن» بجد، وقد وضع أمامه الوصايا العشر كنوع من ترتيب الأفكار. بدأ في الحكي، ولم يكن الاستمرار سهلًا. لا يوجد منطق وراء عملية التطهر، هي فقط حرج عظيم وإجبار على إفشاء أسرار حياتك لغريب.

لكنه كان يُدرك أن هذا الطقس لا يُقاوَم، مُغوٍ مثل زجاجة كحول بالنسبة إلى سكِّير، أو صورة فاضحة خلف ستار بالنسبة إلى مُراهق. طقس له طابع العصور الوسطى البغيض، طقس ارتجاع كريه. وجد نفسه يستعيد مشهدًا في فيلم «الختم السابع»[67] فيه حشد من التائبين مهلهَلي الثياب يسيرون عبر مدينة ضربها الطاعون، يجلدون أنفسهم بأغصان شجر البتولا حتى ينزفوا.

يبغض تعرية نفسه بهذه الطريقة. اضطراره إلى هذا، أضفى واقعية شديدة على هدفهم، حتى كان يرى عبارة (مصاص دماء) مكتوبة أمامه، بخط عادي صغير لا كخط إعلانات الأفلام. شعر بقلة حيلة وسط هذا الطقس الغريب، وبانفصال عن زمنه.

ربما كانت حُجيرة الاعتراف تنتمي إلى العصر الذي كان فيه المذؤوبون والسحرة والمسوخ جزءًا من الظلام الخارجي الذي كانت الكنيسة المنارة الوحيدة وسط عتمته. لم يُخبرهم «مات» باقتناع «كالاهان» أن كنيسته تُشكل (قوة) ما، لكن «بِن» أدركه الآن وهو يشعر بالقوة داخل هذا الصندوق الصغير المُحيط به، القوة التي تُعريه وتُهينه. شعر بكل هذا كونه ليس كاثوليكيًّا تربى على قبول هذا الطقس منذ طفولته.

حين خرج، ضربه الهواء النقي فأنعشه. مسح رقبته بكفه، فتلطخت بالعرق.

خرج «كالاهان» وهو يقول:

- لم ننته بعد.

بلا جدال، عاد «بِن» مرة أخرى إلى الداخل، لكنه لم يركع. أمره «كالاهان» بترديد الصلاة الربانية عشر مرات، والسلام لك يا مريم عشرًا. قال «بِن»:

- لا أحفظهما.

قال الصوت من الجهة الأخرى من الحاجب:

- سأعطيك بطاقة مكتوب عليها الصلوات، يمكنك أن تقرأها ونحن في طريقنا إلى «كمبرلاند».

تردد «بِن» لحظة قبل أن يقول:

- «مات» كان على حق، حين قال إن الأمر سيكون أصعب مما نظن. سنعرق دماءً قبل أن ننتهي من كل هذا.

- نعم.

قالها «كالاهان» ولم يظهر إن كان يؤكد كلام «بِن» أو يشُك فيه. نظر إلى الأسفل فوجد نفسه ما يزال قابضًا على علبة أقراص النعناع، وكان قد سحقها بين كفيه دون أن يشعر.

***

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرًا عندما ركبوا جميعًا في سيارة «جيمي كودي» الكبيرة من طراز «بويك». لم يتحدث أحد طيلة الرحلة.

كان الأب «كالاهان» يرتدي زيه الكهنوتي الكامل، ودثارًا أبيض مزخرفًا بالبنفسجي. أعطى كلًّا منهم قنينة ماء مقدس، وباركهم بعلامة الصليب. على فخذيه علبة صغيرة فضية تحوي الخبز المُقدس.

توقفوا عند عيادة «جيمي» في «كمبرلاند» أولًا، وترك «جيمي» محرك السيارة يعمل بينما دخل سريعًا، ثم خرج مُرتديًا سُترة رياضية مُنتفخة تُغطي وجود المُسدس، وكان يحمل مطرقة عادية في يده ذات طرف حديدي ويدٍ مُغلَّفة بالمطاط. قال «جيمي»:

- قبيحة الشكل، أليس كذلك؟

فكَّر «بِن» في اضطراره إلى استخدام هذه المطرقة مع «سوزان»، كي يغرس الوتد وسط صدرها، فشعر بغثيان ودوار. قال وهو يُبلل شفتيه:

- بلى. هي قبيحة.

توجهوا إلى متجر البقالة والخضراوات في «كمبرلاند»، فاشتروا كل الثوم الذي وجدوه معروضًا... اثنا عشر صندوقًا من الكُريات البيضاء الضاربة للرمادي. رفعت الفتاة التي تأخذ منهم الحساب حاجبيها وقالت:

- أنا سعيدة أنني لن أركب معكم في طريقٍ طويل أيها الشباب.

قال «بِن» بلا اكتراث وهو يخرج من المتجر:

- لا أعرف ما القاعدة التي بُني عليها تأثير الثوم على مصاصي الدماء. أهو شيء ذُكِر في الإنجيل، أم لعنة قديمة...

قال «جيمي»:

- أعتقد أنها حساسية.

- حساسية؟

التقط «كالاهان» آخر أطراف المُحادثة، فطلب منهم التوضيح بينما يتجهون إلى متجر الأزهار. أخيرًا قال:

- أنا أتفق مع الطبيب «كودي». ربما هي حساسية حقًّا، هذا لو أنه يردَعُهم من الأساس. هذه نظرية تحتاج إلى إثبات.

قال «مارك»:

- تفكير غريب من رجل دين.

- لماذا؟ لو أن عليَّ أن أقبل بوجود مصاصي الدماء (ويبدو أن القبول ضرورة على الأقل في الوقت الحالي) فهل عليَّ أيضًا أن أقبل كونهم كائنات خارج أي حدود لقوانين الطبيعة؟ ربما لا يخضعون لبعض القوانين، فكما ذكرت الأساطير، فصورتهم لا تنعكس في المرآة، ويمكنهم التحول إلى ذئاب أو طيور، مثل طائر الـ «سايكوبومبوس» الأسطوري.[68] يُقال كذلك إن في إمكانهم ضغط أجسادهم ليعبروا من أضيق الشقوق. لكننا نعرف أنهم يسمعون ويرون ويتكلمون، وغالبًا يتذوقون. ربما أيضًا يتألمون و...

سأل «بِن» وهو ينظر أمامه:

- ويحبون؟

أجاب «جيمي»:

- كلا يا «بِن»، أظنهم قد تخلوا عن كل مشاعر المحبة.

توقف عند ساحة الانتظار أمام متجر الأزهار المُرفَق به صوبة نباتات. كان هناك جرس صغير مُعلق، تأرجح حين انفتح الباب. شعر «بِن» بثقل شديد جراء اختلاط كل تلك الروائح الزهرية معًا. كانت تُذكِّره برائحة قاعات الجنازات.

تقدم منه رجل طويل يرتدي مئزرًا قماشيًّا، ويحمل إصيص نباتات صغير في يده.

بدأ «بِن» في شرح طَلَبه، لكن الرجل ذا المئزر قاطعه وقال:

- أخشى أنك جئت مُتأخرًا. جاء رجل يوم الجمعة الماضية واشترى كل الأزهار من كل لون. لن تأتيني أزهار أخرى قبل الأربعاء. يمكنك أن تحجز مُقدمًا...

- ما شكل هذا الرجل؟

- لافت للنظر. طويل، أصلع، ذو عينين ثاقبتين، يُدخن سجائر أجنبية، عرفت ذلك من رائحتها. اضطر إلى نقل الأزهار على ثلاث حمولات بين ذراعيه. وضعهم في صندوق سيارة قديمة للغاية. سيارة «دودج» على ما أعتقد.

- «دودج-باكار» سوداء.

- أنت تعرفه إذًا.

- معرفة بعيدة.

- دفع نقدًا، وهذا غريب نظرًا للكمية التي اشتراها. ربما لو تواصلت معه، يمكنك شراء...

- ربما.

بدأ الحديث مرة أخرى في السيارة. قال «كالاهان» في شك:

- هناك متجر آخر في «فالموث».

- كلا! كلا!

أخرست الهيستريا في صوت «بِن» الجميع، وأجبرتهم على النظر إليه. أكمل حانقًا:

- وحين نصل إلى «فالموث» لنجده قد سبقنا. ماذا سنفعل؟ نذهب إلى «بورتلاند»؟ «كيتري»؟ «بوسطون»؟! لا تُدركون ما يحدث؟ لقد تنبَّأ بما ننتويه!

قال «جيمي»:

- «بِن»، تعقَّل. ألا تظن أنه يجب علينا على الأقل...

- ألا تذكر ما قاله «مات»؟ لا تظن أنه غير قادر على إيذائك إن باغتَّه في النهار. انظر إلى ساعتك يا «جيمي».

نظر إلى ساعته وقال:

- الثانية والربع.

نظر إلى السماء كأنما لا يصدق الساعة. لكنها كانت صادقة، والظلال بدأت تتجه إلى الناحية المُعاكسة.

- هو يسبقنا بأربع خطوات دومًا. كيف تصورنا أنه لن يعي مُخططنا؟ كيف صدَّقنا أنه لم يحتَط لانكشافه ولم يُخطط لحلول؟ علينا أن نذهب الآن قبل أن نُبدِّد باقي اليوم في مناقشات فارغة.

قال «كالاهان» بهدوء:

- هو مُحق. أعتقد أن علينا لزوم الصمت والفعل.

- إذًا انطلق!

غادر «جيمي» ساحة انتظار متجر الأزهار سريعًا، فاحتكَّت العجلات بالرصيف. نظر البائع إليهم مُتعجبًا؛ ثلاثة رجال، واحد منهم رجل دين، وصبي صغير في سيارة تحمل لوحة أرقام مخصصة للعاملين في مجال الطب، يتصايحون كالمجانين.

***

قاد «جيمي» سيارته إلى منزل «مارستِن» مُتخذًا طريق «بروك» من الجهة العمياء من البلدة. نظر «كالاهان» إلى المنزل مُتسائلًا: لماذا يُطل بهذا الشكل الغريب على البلدة من علٍ؟ غريب أنه لم يرَ هذه الإطلالة من قبل. لا بد وأن المنظر من فوق فريد، يمكنه النظر إلى كامل البلدة. كان منزلًا ضخمًا غير مُتناسق، له تأثير غير مريح على العقل، كتابوت حجري يُنذر بالهلاك.

كذلك، فهو شاهد على الانتحار والقتل، أي أنه منتصب فوق أرضٍ غير طاهرة.

فتح فمه ليقول لهم ما يجول بذهنه، ثم فكَّر أن الصمت أسلم. خرج «كودي» من طريق «بروك»، وللحظات حجبت الأشجار المنزل عنهم، ثم ظهر أمامهم الطريق الخاص. كانت السيارة الـ «باكار» واقفة خارج المرأب. أوقف «جيمي كودي» المُحرك وأخرج مُسدس «مَكَّاسلِن».

شعر «كالاهان» على الفور أن أجواء المكان تستولي عليه. أخرج الصليب -صليب أمه- من جيبه وعلَّقه حول عنقه مع صليبه. لم يسمع صوت أي طيور على الرغم من كل الأشجار المُحيطة، والأعشاب أكثر جفافًا من المتوقَّع، حتى التربة نفسها كانت رمادية مُستَهلَكَة.

الدرجات المؤدية إلى الشرفة الخارجية الأمامية مشوهة بجنون، وثمة بقعة عند الدرابزين أكثر نظافة حيث كانت لافتة (ممنوع التطفل) مُعلقة من قبل. يبرق تحت أشعة الشمس قفل «يِل» جديد مُثبت على الباب الأمامي تحت المقبض الصدئ.

قال «جيمي» مُترددًا:

- ندخل عبر نافذة؟ مثلما فعل «مارك»؟

قال «بِن»:

- لا. سندخل من الباب الأمامي حتى لو اضطررنا إلى اقتحامه.

قال «كالاهان»:

- لا أظن ذلك ضروريًّا.

لم يبدُ أن صوته هو صوته. عندما ترجلوا من السيارة، تقدَّمهم دون أن يُفكر في السبب. الحماس -الذي ظن أنه فارقه منذ زمن- تملَّكه وهو يتقدم من الباب. المنزل كأنما يميل نحوهم، كأنما ينز الشر من مسام طلائه المُتشقق، ومع ذلك لم يتردد أو يُماطل. في آخر لحظات، لم يكن يقودهم، بل كان مدفوعًا.

- بسم الآب...

صاح بها بصوت جَهْوَرِيٍّ، بلهجة آمرة جعلتهم جميعًا يقتربون منه.

- آمر الشيطان أن يرحل عن هذا المنزل. ارحل!

ودون أي مقدمات، ضرب الباب بالصليب في يده. وَمَض ضوء -لاحقًا أجمعوا أنه كانت هناك ومضة- وعبق الجو برائحة غاز «الأوزون»، وصدح صوت تشقُّق كأنما الألواح الخشبية تصرخ، ثم انفجر الزجاج على شكل مروحة أعلى الباب، وتهاوت النافذة الكبيرة على يساره في نفس اللحظة. سقط القفل الجديد عند أقدامهم مُنبعجًا إلى حد جعل التعرف عليه عسيرًا.

- ساخن.

ابتعد «كالاهان» عن الباب مُرتعدًا. نظر إلى الصليب في يده وأردف:

- هذا بلا شك هو أغرب شيء حدث لي في حياتي كلها.

نظر إلى السماء، كأنما يتوقع أن يرى وجه الرب نفسه، لكن السماء لم تكن تُبالي.

دفع «بِن» الباب، فانفتح فورًا، لكنه انتظر أن يدخل «كالاهان» أولًا.

في الردهة، نظر «كالاهان» إلى «مارك» مُتسائلًا، فقال الأخير:

- باب القبو في المطبخ. لا بد أن «ستراكر» بالأعلى. لكن... هناك شيء مختلف لا أدري ما هو. ثمة تغيير ما.

صعدوا إلى الطابق العلوي أولًا، وعلى الرغم من أن «بِن» لم يكن قائدهم، شعر بذعر قديم كلما اقتربوا من الحجرة في آخر الرواق. للمرة الأولى منذ وصل بلدة «سالم» من شهر مضى، تسنى له إلقاء نظرة ثانية على الغرفة.

حين دفع «كالاهان» الباب، نظر نحو السقف، وشعر بالصرخة تحتشد في حنجرته قبل أن يمنعها. كانت صرخة عالية هيسترية كصرخات النساء.

لكن المُعلَّق من السقف لم يكن «هَبي مارستِن» أو شبحه. كان «ستراكر»، مُتدليًا في وضع مقلوب كأنه خنزير في مذبح. رقبته منحورة، عيناه تحدقان إليهما، خلالهما.

وكان قد نزف دمه بالكامل.

***

همس «كالاهان»:

- إلهي... إلهي...

تقدموا إلى داخل الغرفة ببطء، يتقدمهم «كالاهان» و«كودي»، بينما «بِن» و«مارك» في الخلف، ملتصقان ببعضهما.

كانت قدما «ستراكر» مربوطتين إلى بعضهما، ثم رُفِع منهما وعُلِّق في السقف. خطر ببال «بِن» أن الأمر يحتاج إلى شخص ذي قوة هائلة كي يرفع رجُلًا في حجم «ستراكر»، بارتخاء جسده الميت، إلى هذا الارتفاع الذي يسمح لذراعيه أن تتدليا دون أن تمسا الأرض.

لمس «جيمي» جبين «ستراكر» برسغه، ثم أمسك واحدة من يديه في يده وقال:

- هو ميت منذ قرابة ثماني عشرة ساعة.

ترك الذراع تهوي وهو يرتعد ويكمل:

- إلهي... يا لها من طريقة بشعة كي... لماذا...؟ مَن...؟

قال «مارك» وهو ينظر إلى جثة «ستراكر» دون أن يرمش:

- «بارلو» هو مَن قتله.

قال «جيمي»:

- لقد أخفق «ستراكر» فحرمه الحياة الأبدية. لكن لماذا قتله بهذه الطريقة؟ مقلوبًا؟

أجاب الأب «كالاهان»:

- هو تقليد قديم للغاية؛ شنق الأعداء أو الخونة مقلوبين، كي تواجه وجوههم الأرض بدلًا من السماء. صُلِب القديس «بول» بعد أن كسروا ساقيه بهذه الطريقة على صليب على شكل حرف إكس اللاتيني.

تحدَّث «بِن» بصوت مُجهد:

- ما زال يحاول تشتيتنا. لديه مئات الحيل. هيا بنا.

تبعوه عائدين عبر الرواق، ونزلوا الدرج متجهين نحو المطبخ وقد ولُّوا الأب «كالاهان» قيادتهم مرة أخرى. بمجرد وصولهم نظروا بعضهم إلى بعض، ثم إلى باب القبو المؤدي إلى الأسفل.

منذ خمسة وعشرين عامًا، صعد «بِن» إلى الأعلى ليواجه تساؤلًا أفعم روحه.

***

عندما فتح الأب الباب، شم «مارك» الرائحة النتنة القوية مرة أخرى، لكنها كانت كذلك مُختلفة... أقل حدة.

على الرغم من أن «كالاهان» قد تقدمهم في الهبوط، فقد احتاج «بِن» إلى كل إرادته كي يُجبر نفسه على النزول خلفه في جُحر الموتى هذا.

أخرج «جيمي» كشافًا من حقيبته، وأضاءه. أنار الضوء الحوائط والأرضية وارتد عنهما ساقطًا على صندوق كبير، وطاولة. همس:

- هناك... انظروا.

على الطاولة مظروف نظيف براق وسط كل هذا الظلام والعفن. قال الأب «كالاهان»:

- هذه خدعة. من الأفضل ألا نمسه.

قال «مارك» وقد شعر براحة وإحباط في نفس الوقت:

- كلا. هو ليس هنا. لقد رحل. هذا خطاب لنا، مليء بالدناءة على الأرجح.

تقدَّم «بِن» والتقط المظروف، ثم فحصه مرتين. استطاع «مارك» أن يرى يديه ترتعدان. تجمعوا حوله، وسلَّط «جيمي» ضوء الكشاف على الصفحة التي كانت مصفوفة بكلمات أنيقة بخط رفيع. قرؤوه معًا، لكن «مارك» كان مُتأخرًا عنهم قليلًا.

((أصدقائي الأعزاء الصغار...

كم هو لطيف أن تزوروني!

أنا لا أرفض الصحبة أبدًا، فقد كانت مُتعتي العظمى طيلة حياتي الطويلة الوحيدة. لو أنكم جئتم بالليل، لرحبت بكم بنفسي بكل سرور.

عمومًا، وبما أنني قد شككت أنكم ستأتون في أثناء ساعات النهار، فرأيت أنه من الأفضل ألا أكون هنا.

لقد تركت لكم تذكارًا عزيزًا للغاية. شخص حبيب وقريب للغاية من أحدكم، هو الآن في المكان الذي كنت أشغله حتى أجد مكانًا آخر أكثر ملاءمة. هي لطيفة للغاية يا سيد «ميرز»، شهية للغاية،

إن كان مسموح لي بهذه التورية. ليس لي بها حاجة، فتركتها لك. كيف تقولونها؟ كي تستعد للحفل الكبير. كي تشحذ شهياتكم بتعبير أدق.

لنرَ ماذا سيكون رأيكم في مُشهِّيات المأدبة التي تتوقعونها. لنرَ؟

سيد «بِتري»، لقد حرمتني من أكثر خُدامي ولاءً، وتسببت لي -بشكل ما- في أن أشارك في تدميره، تسببت في أن تخونني غريزتي. لقد تسللت من خلف ظهره ولا ريب، لذا سأستمتع بالتعامل معك بطريقتي. لكنني سأحصل على والديك أولًا، ربما الليلة، أو... ليلة غد. ثم يأتي دورك. لكنك ستدخل كنيستي كصبي جوقة، «كاستراتوم».(69)

وأنت أيها الأب «كالاهان»، هل أقنعوك أن تأتي؟ أعتقد هذا، فقد كنت أراقبك منذ أتيت إلى بلدة «أورسالم»، كما يراقب لاعب الشطرنج طريقة لعب خصمه. هل أنا على صواب؟ الكنيسة الكاثوليكية ليست أقدم أعدائي على الرغم من ذلك، فقد كنت عتيقًا حين كانت هي جديدة، حين كان أعضاؤها يختبئون في دهاليز روما، ويرسمون الأسماك على صدورهم ليعرفوا بعضهم البعض. كنت قويًّا حين كان نادي آكلي الخبز وشاربي الخمر الذين يقدسون مُنقذ الخِراف ضعيفًا. شعائري قديمة، وشعائر كنيستك في طور التكوين. ومع ذلك فأنا لا أستهين بقدرتكم، أنا أحوز حكمتَي الرب والشيطان، ولا أسأم.

وسأتفوق عليكم. كيف؟ أجِب أنت. ألا يحمل «كالاهان» مشعل الخير؟ ألا يتحرك «كالاهان» في النور كما في الظلام؟ صديقي العزيز «ماثيو بُرك» علَّمَ أبناء بلدتي هذه أنه لا وجود للسحر ولا للسيمياء، لا وجود للمسيحية ولا الوثنية، أليس كذلك؟ أنا أوافقه لكنني عشت أكثر منكم... أنا ماكر. لست الأفعى، بل سيد الأفاعي.

على الرغم من ذلك، تقول إن كل هذا ليس كافيًا. لكن في النهاية أيها الأب «كالاهان» أنت لا تناقض إلا نفسك. إيمانك بالخير ضعيف هش. حديثك عن المحبة مجرد افتراضات. فقط، عند الحديث عن الخمر، فأنت العالِم المُوقِن.

أصدقائي الأعزاء للغاية... -سيد «ميرز»، سيد «كودي»، سيد «بِتري»، الأب «كالاهان»- استمتعوا بإقامتكم، فخمر الـ «ميدوك» ممتاز، جلبه لي خصيصى صاحب البيت السابق، والذي لم أستمتع قط بصحبته.

خذوا راحتكم، إن كانت شهيتكم للخمر ستصمد بعد أن تُتِموا عملكم هنا. سنتقابل وجهًا لوجه قريبًا، ووقتها سأبلغ تهانئي لكل واحد منكم بطريقتي الشخصية.

حتى وقتها، إلى اللقاء.

«بارلو»)).

ترك «بِن» الخطاب يسقط على الطاولة، ونظر إلى الآخرين. كان «مارك» قابضًا كفيه، وفمه مُلتوٍ كفم شخص قضم شيئًا مُتعفنًا. وجه «جيمي» الطفولي شاحب مُمتقِع. الأب «كالاهان» عيناه مُشتعلتان، ورُكنا فمه مُقوسان إلى الأسفل كالقوس.

ونظر كل منهم إليه. قال:

- هيا.

ومعًا، انطلقوا.

***

كان «باركِنز جيلسبي» يقف عند عتبة مبنى البلدية، ينظر عبر منظاره المُقرِّب، حين وصل «نولي جاردنر» في سيارة الدورية، ونزل منها يرفع حزامه ويُخرج ما التصق بين رُدفيه من قماش السروال في نفس الوقت.

قال وهو يصعد الدرجات:

- ما الجديد يا «بارك»؟

أعطاه «باركِنز» المنظار المُقرب، وأشار بإبهامه نحو منزل «مارستِن».

نظر «نولي» فرأى السيارة الـ «باكار» السوداء عند المدخل، جوارها سيارة «بويك» جديدة، لكن درجة وضوح الرؤية عبر المنظار لم تُتِح له فرصة قراءة أرقام لوحة السيارة.

أنزل المنظار عن عينيه وسأل:

- هذه هي سيارة الطبيب «كودي»، أليس كذلك؟

- أعتقد هذا.

دسَّ سيجارة «بول مول» بين شفتيه، وحكَّ عود ثقاب في الحائط الخشن جواره. قال «نولي»:

- لم أرَ من قبل سيارة تقف هناك إلا السيارة الـ «باكار».

قال «باركِنز» مُتأملًا:

- هذا صحيح.

- أعتقد أن علينا الصعود إلى هناك وإلقاء نظرة؟

كان «نولي» يعمل في الشرطة منذ خمس سنوات، لكنه ما زال مبهورًا بمنصبه ويريد ممارسة سلطاته طيلة الوقت.

- كلا. سنترك كل شيء كما هو.

أخرج ساعة جيبه وفتح غطاءها الفضي. كانت الساعة الرابعة إلا ثلث. قارن قراءة ساعته، بساعة البلدة العمومية، ثم أعادها إلى جيبه مرة أخرى.

سأل «نولي»:

- ألا يوجد جديد بشأن جثتَي «فلويد تِبتس» والطفل ابن «مَكدوجال»؟

- لا أعرف.

- أوه.

للحظات بدا «نولي» غير مُرتبك كعادته. «باركِنز» رجل صموت، لكن ما يحدث كان فوق قدرته على الكتمان. نظر عبر المنظار مرة أخرى: لا تغيير.

تطوَّع «نولي» بكسر الصمت فقال:

- البلدة هادئة اليوم.

- أجل.

نظر نحو المُتنزه وشارع «جوينتر» بعينيه الزرقاوين الباهتتين، وكان كلاهما مهجورًا على عكس الشائع من وجود العديد من الأمهات يُنزِّهون أطفالهن، أو المُتسكعين خلف النصب التذكاري للحرب.

غامر «نولي» بقول:

- أمور غريبة تحدث مؤخرًا.

- أجل.

قالها «باركِنز» وهو يفكر. لم يجد «نولي» سوى الحديث عن الشيء الوحيد الذي يستجيب له «باركِنز»: الطقس.

- السُّحُب تتجمع. ربما تُمطر الليلة.

نظر «باركِنز» إلى السماء. ثمة سُحُب فوق رؤوسهم بتشكيل قشور الأسماك المُميز، أما عند الجنوب الغربي، فكانت السُّحُب تُشكِّل خطًّا سميكًا.

- أجل.

قالها وألقى بعُقب سيجارته بعيدًا.

- «بارك»، هل أنت بخير؟

فكَّر حينًا ثم أجاب:

- لا.

- ما بك بحق الجحيم؟

- أخشى أنني مُرتعب للغاية.

- ماذا؟! ممَ؟

- لا أعرف.

رفع منظاره مرة أخرى تجاه منزل «مارستِن»، بينما وقف «نولي» جواره لا يجد ما يُقال.

***

خلف الطاولة التي كان عليها الخطاب، ثمة منعطف في نهاية القبو. هم الآن فيما كان يُستخدَم كمخزن خمور. لا بد وأن «هَبي مارستِن» كان سِكِّيرًا حقيقيًّا.

هناك براميل صغيرة ومتوسطة الحجم مُغطاة بغطاء الخمور. بعضها قد انفجر وراح يُسرِّب خمر الـ «برجندي»، وبعضها قد تحول قطعًا إلى خل. الرائحتان عبقتا المكان واختلطتا برائحة التحلل العضوي.

قال «بِن» هامسًا وهو يقول مؤكدًا:

- كلا. لا أستطيع.

قال الأب «كالاهان»:

- هذا واجبك. لا أقول إن المهمة ستكون سهلة، أو في الصالح العام، لكنني أُقِر بوجوبها.

صرخ «بِن» وتردد صدى كلمته في القبو:

- لا أستطيع!

في المنتصف، جسد «سوزان نورتون» مغطى بملاءة بيضاء من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها. عندما وصلوا إليها، عجز الجميع عن الحديث، فقط ابتلعوا كلماتهم.

لقد كانت فتاة مرحة جميلة، ضلت طريقها إلى الحُسن بعدة بوصات فقط. ليس بسبب عيب في ملامحها، بل بسبب خلو حياتها من أي إنجاز. هي الآن قد وصلت لبارع الحُسن، الحُسن الحالك.

لم يطبع الموت بصمته عليها؛ وجهها مُحمَر، وكذا شفتاها، فبدت بريئة فاتنة. جبهتها بيضاء من غير سوء، بشرتها كالقشدة. عيناها مُغلقتان، ترقد أهدابها الكثيفة برقة على خديها. كف من كفيها مضمومة إلى صدرها، والأخرى متقاطعة وخصرها.

الانطباع العام لم يكن انطباعًا ملائكيًا، بل جمالًا باردًا غير أرضي. رأى «جيمي» أن شيئًا في وجهها يُشبه -من بعيد- الفتيات الفيتناميات اللاتي لم تبلغن سن الثالثة عشرة، واللاتي كُن يركعن أمام الجنود في الحواري الخلفية للحانات. بالنسبة إلى هاته الفتيات، لم يكن فسادهن عن شرٍّ في أنفسهن، بل عن فهم لمُتغيرات العالم من حولهن.

التغير في ملامح وجه «سوزان» كان مُشابهًا، لكنه لم يعلن رأيه هذا.

تقدَّم الأب «كالاهان» وضغط إصبعه عند الجزء الغائر تحت ثديها الأيسر وقال:

- القلب هنا.

كرر «بِن»:

- كلا.

قال الأب «كالاهان» برفق:

- كُن حبيبها، بل الأفضل، كُن زوجها. لن تؤذيها يا «بِن»، بل ستحررها. لا أحد سيؤذَى سواك.

نظر إليه «بِن» في غباء. أخذ «مارك» الوتد من حقيبة «جيمي» ومد به يده إليه في صمت. تناوله «بِن» بيدٍ امتدت أميالًا حتى تصله.

لو لم أفكر وأنا أفعلها، فربما...

لكن من المستحيل ألا يفكر. ثم فجأة، خطر على باله اقتباس من رواية «دراكيولا»، تلك الرواية المُسلية التي ما عادت تسليه مُطلقًا مؤخرًا. (علينا الخوض في المياه المُرَّة قبل أن نصل إلى العذبة).

هل ثمة عذوبة لأي منهم في النهاية؟

صرخ:

- أبعدها! لا تُجبرني على...

لم يتجاوب معه أحد.

شعر بالعرق البارد يحتشد فوق جبينه وعلى ذراعيه. الوتد الذي كان منذ سويعات مجرد عصا كرة قاعدة قد اكتسب الآن ثقلًا غريبًا، كأن قوى جذب ضخمة تملَّكته.

رفع الوتد وضغطه حيث أشار «كالاهان». انحنى الجلد تحت الوتد، فشعر بجانب وجهه يرتعش لا إراديًا. قال بصوت جهوري غليظ:

- هي ليست ميتة.

كان هذا آخر خط دفاع لديه. قال «جيمي»:

- كلا، بل هي (لا ميّتة) يا «بِن».
أكد له بأن لفَّ إسورة جهاز الضغط على ذراعها، وبدأ ينفخه. كانت القراءة 00/00. وضع مِسماعه على صدرها ودعا الجميع كي ينصتوا إلى الصمت في صدرها.
أحدهم وضع المطرقة في يد «بِن»، وبعد أعوام ظل لا يذكر مَن منهم ناوله إياها. قال «كالاهان»:
- افعلها بسرعة، ثم اخرج إلى نور الشمس، سنُكمل نحن الباقي.
علينا الخوض في المياه المُرَّة قبل أن نصل إلى العذبة.
همس «بِن»:
- ليغفر الله لي.
رفع المطرقة، ثم هوى بها. ضربت المطرقة طرف الوتد بقوة. سيظل ملمس اللحم الذي سرى على طول العصا يؤرق أحلامه طيلة حياته.
انفتحت عيناها، مُتسعتان زرقاوان، كأنما من شدة الضربة تدفقت الدماء من المكان الذي اخترقه الوتد، كانت كطوفان أحمر أغرق يديه وقميصه وخديه، وملأ القبو كله برائحته الصدئة.
تلوَّت فوق المنضدة، وراحت يداها تضربان كجناحي عصفور، وقدماها تحفران الخشب من تحتهما. انفتح فمها كاشفًا عن أسنان كأنياب الذئاب، وظلت تصرخ صرخة تلو الأخرى كأنما تعذَّب في الجحيم، والدماء تنهمر من جانبي فمها كأنهار.
ارتفعت المطرقة ثم هوت مرة أخرى... وأخرى، وأخرى.
امتلأ عقل «بِن» بصرخات غربان ضخمة، وازدحم بصور لا يذكر مصدرها. يداه اصطبغتا بالأحمر، الوتد اصطبغ بالأحمر، المطرقة اصطبغت بالأحمر.
الكشاف المُرتجف في يد «جيمي» تحول إلى مِصطربة [70] تُضيء وجه سوزان بشكل مُضطرب مُتقطع. أسنانها تنغرس في شفتيها وتُمزقها إلى شرائط. الدماء تتناثر على الملاءة البيضاء في أشكال تشبه الحروف الصينية.
ثم فجأة تقوَّس ظهرها وانفتح فمها كأنما انفصل فكاها عن بعضهما، ثم انبثقت من تحت الوتد دفقات رهيبة من دماء داكنة، أقرب للسواد. الصوت المُنبعث من هذا الفم العميق جاء من أعمق خلايا ذاكرة جنسها، ومن ظلمة الروح البشرية. ارتفعت الدماء من أنفها وفمها كالمَدِّ، ومعها شيء ظهر للمحات في الظلام، ظل يتقافز، يتسلل، ثم يندمج في الظلمة ويختفي.
هدأت أخيرًا وارتخت عضلاتها. انفرجت شفتاها الممزقتان وخرج منها آخر زفير. للحظة رأى «بِن» في عينيها -أو ظن أنه رأى- «سوزان» التي التقاها في المُتنزه تقرأ روايته.
لقد انتهى الأمر.
تراجع مُتخليًا عن المطرقة. مدَّ يديه أمامه، مُرتعبتين مُرتجفتين. وضع «كالاهان» يده على كتفه، لكنه تملَّص منه وراح يعدو.
تعثر وهو يصعد الدرجات نحو الضوء بالأعلى، واندمج رعب الأطفال ورعب البالغين في نفسه. لو أنه نظر خلفه لرأى «هَبي مارستِن» أو «ستراكر»، يمد يده نحوه، يُكشر ووجهه مُخضر مُنتفخ، الحبل ملفوف حول عنقه... التكشيرة تكشف عن أنياب بدلًا من الأسنان.
صرخ مرة واحدة بائسة.

سمع عن بُعد صوت «كالاهان» يهتف:

- كلا، دعوه يخرج...

اندفع إلى المطبخ ومنه إلى الباب الخلفي. تكسَّرت ألواح الأرضية الخشبية تحت ثقل خطواته فهوى في التراب تحتها. قام، زحف، ونظر سريعًا خلفه.

لا شيء.

ظل المنزل يُطل عليه بلا هدف. لقد سرقوا منه آخر شروره، وعاد منزلًا عاديًّا مرةً أخرى.

وقف «بِن» وسط صمت الباحة الخلفية المفروشة بالعشب الجاف، رافعًا رأسه، يشهق طالبًا المزيد من الهواء الأبيض النقي.

***

ليالي الخريف في البلدة تكون كالتالي:

تُرخي الشمس قبضتها على الهواء أولًا، فيبرَد، ويتذكر أن الشتاء قريب، طويل. تتكون السُّحُب الخفيفة، وتستطيل الظلال بلا عرَضٍ على عكس ظلال الصيف؛ الأشجار عارية من الأوراق، والسُّحُب تحجب الشمس. ظلال حادة هي، تعُض الأرض كأنياب.

عندما تخترق الشمس الأفق، يصير لونها أكثر عمقًا، تشحُب، ثم تُشع فجأة بلهب يجمع أطيافًا من الأحمر والأصفر والأرجواني والأصفر. أحيانًا ما تنفتق السحب، فتسمح بمرور أشعة بريئة صفراء بينها، تثير حنينًا شجيًّا إلى الماضي، وإلى الصيف المُنصرم.

ساعة العَشاء، السادسة مساءً؛ في البلدة وجبة الغداء عند الظهيرة، يحملها الرجال إلى أشغالهم في دلاء مُخصصة للطعام يطلقون عليها (أعمدة الطعام).

«مَيبل ويتس» السمينة، ذات اللحم المُكدَّس فوق عظامها، تجلس إلى طاولة العشاء، أمامها صدر دجاجة وكوب من شاي «ليبتون»، بينما الهاتف عند كوعها.

عند «إيفا»، الرجال يجتمعون على ما يودون الاجتماع حوله؛ التلفاز، عشاء من المعلبات، الفول الذي لا يشبه فول أمهاتهم المطهو على مهل، وجبات «مكدونالدز» التي يجلبونها في طريق عودتهم من العمل.

تجلس «إيفا» تلعب ببطاقات اللعب مع «جروفر فيريل»، وتصرخ في الآخرين أن ينظفوا بعد الأكل وأن يتوقفوا عن التجوال في كل مكان. لا يذكرون أنهم رأوها بهذه العصبية من قبل، لكنهم يعرفون ما بها، حتى لو لم تعرف هي.

يأكل السيد والسيدة «بتري» شطائرهما في المطبخ، محاولين ألا يفكرا كثيرًا في المكالمة التي وردتهما منذ قليل من رجل دين كاثوليكي يُدعى «كالاهان» وقد أخبرهما بأن ابنهما معه، وأنه بخير، وسيعيده لهما قريبًا.

فكرا في أن يتصلا بـ «باركِنز جيلسبي» شرطي البلدة، لكنهما أرجآ هذا حتى يريا ما ستتكشف عنه الأمور. لقد لاحظا تغيرًا على تصرفات ابنهما مؤخرًا، وقد ظل شبحا «رالفي» و«داني جليك» مُعلقَين فوق رأسيهما.

يجلس «ميلت كروسِن» في مؤخرة متجره يتناول الحليب والخبز، فقد قلّت شهيته منذ وفاة زوجته عام 1968. أما صاحب حانة «ديل»؛ «ديلبرت ماركي»، يشُق طريقه المُعتاد وسط خمس قطع من الـ «هامبرجر» والتي قد طهاها بنفسه على مُسطح الشواء. يحب أن يتناولها مع صلصة الخردل وأكوام من حلقات البصل النيء، ثم يظل يشكو لأي شخص يقابله عن مشكلات سوء الهضم، وارتجاع العصارة المعدية التي تقتله.

مُدبرة مسكن القساوسة، «رودا كُرليس»، لم تأكل شيئًا، فقد كانت قلقة على الأب «كالاهان» الذي خرج إلى مكان لا تعرفه.

«هاريِّت دُرهام» وعائلتها يتناولون على العشاء أضلع الخنزير. «كارل سميث»، الأرمل منذ عام 1957، لديه حبة بطاطس مسلوقة وزجاجة بيرة.

آل «بودين» يتناولون اللحم وبراعم الكرنب الصغير. يتقزز منها «ريتشي» المُتنمر السابق. ينهره أبوه ويهيب به أن يأكلها وإلا أدار مؤخرته لتصبح أمامه، في حين هو نفسه يكره براعم الكرنب.

«ريجي» و«بوني سوير»، يتناولان لحمًا مشويًّا على العشاء، مع الذرة المُجمدة، والبطاطس المقلية. أما بالنسبة إلى الحلوى، فسيتناولان بودينج الشوكولاتة. هذه هي الأطعمة المُفضلة لدى «ريجي». بدأت كدمات «بوني» تزول تدريجيًّا. يأكل «ريجي» بجدية وحماس، بينما تأكل «بوني» واقفةً، لا تستطيع الجلوس من الألم. لم يكن لديها شهية للطعام، لكنها تأكل كي لا يلاحظ «ريجي».

بعد أن ضربها في تلك الليلة، تخلص من كل أقراص منع الحمل، والمُسكنات، واغتصبها، وظل يغتصبها كل ليلة من وقتها.

بحلول السابعة إلا ربع، ينتهي الأغلبية من عشائهم، ويبدأ وقت تدخين السجائر والغلايين. تُنظَّف الموائد وتُجلى الأطباق وتُرص في خزاناتها. يُودع الأطفال في حجراتهم ليشاهدوا برامج المسابقات حتى يحل موعد النوم.

«روي مَكدوجال» الذي قد أحرق مقلاة كاملة من شرائح اللحم، سبَّ ورمى المقلاة بمحتوياتها في القمامة، ثم ارتدى سُترته الجينز قاصدًا حانة «ديل»، تاركًا زوجته الخنزيرة عديمة الفائدة تنام. الطفل قد مات، وجُنَّت الزوجة، واحترق العشاء. وقت السُّكر قد حان، أو وقت الرحيل عن هذه البلدة للأبد.

في شقة صغيرة في شارع «تاجرت»، غير بعيدة عن شارع «جوينتر»، وخلف مبنى البلدية، مُنح «جو كرين» هدية من الآلهة. كان قد انتهى من عشائه وجلس يشاهد التلفاز، حين شعر بألم رهيب في جانب صدره الأيسر وذراعه اليسرى. تساءل عن كُنه ما يعاني، أتراها ذبحة؟ وكانت بالفعل كذلك. قام يستغيث عبر الهاتف، لكن الألم باغته فسقط في منتصف المسافة نحوه. ظل تلفازه يثرثر ويثرثر، ولن يجده أحد قبل أربع وعشرين ساعة. وفاته، التي وقعت في السادسة وواحد وخمسين دقيقة، كانت هي الوفاة الوحيدة الطبيعية في بلدة «سالم» يوم السادس من أكتوبر.

في تمام السابعة، تلاشت الألوان من السماء، تاركةً لونًا برتقاليًّا مريرًا في الأفق الغربي، كأنها مدفأة مُشتعلة عند حافة العالم. أشرقت النجوم من الشرق، كماسات مُتلألئة حادة، لا تواسي الأحبَّة ولا تُشفي جراحهم كعادتها في هذه الأيام من السنة.

كانت تلمع جميلة، مُختلفة...

بالنسبة إلى الصغار، فقد حان وقت النوم. يضع الآباء أطفالهم الصغار في فُرُشهم ومُهُودهم، تضيء ابتساماتهم وجوه أبنائهم الذين يُطالبون بالمكوث معهم أكثر، أو ترك الأنوار مُضاءة. يُسايرونهم ويفتحون الخزانات كي يُطمئنوهم أنه لا وحوش بداخلها.

من حول كل هؤلاء، يرتفع الليل البهيم عاليًا على جناحي الظُلمة، وتحين ساعة مصاصي الدماء.

***

كان «مات» يغفو بخفة، حين دخل «جيمي» و«بِن»، فاستيقظ فورًا، يده تقبض على الصليب بقوة. التقت عيناه بعيني «جيمي» ثم عيني «بِن» وثبتت عندهما. سأل:

- ماذا حدث؟

أخبره «جيمي» باختصار، ولم ينبس «بِن» ببنت شفة.

- وجثتها؟

- وضعناها في صندوق كان في القبو، ووجهها إلى أسفل. ربما كان هذا هو نفس الصندوق الذي جاء فيه «بارلو». ثم ألقيناها في نهر «رويال» منذ ساعة بعد أن ملأنا الصندوق بالأحجار. استخدمنا سيارة «ستراكر» في حال لاحظ أحد شيئًا، فسيظنونه هو الفاعل.

- لقد أبليتم بلاءً حسنًا. أين «كالاهان»؟ والصبي؟

- ذهبا إلى بيت «مارك». يجب أن يعرف أهله كل شيء، فقد هددهما «بارلو» بالاسم.

- هل سيصدقان؟

- لو لم يفعلا، سيطلب «مارك» من أبيه مهاتفتك.

أومأ «مات» وقد بدا مُتعَبًا للغاية. قال:

- «بِن»، تعال واجلس جواري على الفراش.

أطاع «بِن»، ووجهه جامد مُشوَّش. جلس ووضع كفيه على فخذيه، عيناه مُسودتان كأثر حرق سجائر. أخذ «مات» يد «بِن» بين يديه وقال:

- لا يوجد ما يُعزيك. لا يهم، فالوقت سيُعزيك. لقد ارتاحت.

قال «بِن» بصوت خاوٍ:

- هو يستغفلنا. سخر منا واحدًا تلو الآخر. «جيمي»، أعطِه الخطاب.

ناوله «جيمي» المظروف، فخلع «مات» الغلاف الورقي السميك عن الخطاب وبدأ يقرؤه بحرص، مُقرِّبًا الصفحة من وجهه، وشفتاه تتحركان مع الكلمات. في النهاية أخفض الخطاب وقال:

- أجل، هذا هو. غروره أكبر مما تخيلت. يثير الرجفة في أوصالي.

قال «بِن» ببطء:

- لقد تركها خلفه كمُزحة. محاربته كمحاربة الريح. يبدو أننا نبدو كحشرات بالنسبة إليه. حشرات صغيرة لا لزوم لها سوى تسليته.

فتح «جيمي» فمه ليتحدث، لكن «مات» هز رأسه بخفَّة وقال:

- هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. هو لن يتخلى عن واحدة من لا موتاه -وهم قِلة- من أجل مُزحة. لو أنه استطاع اصطحاب «سوزان» معه لفعلها. ارجع خطوة إلى الوراء يا «بِن» كي ترى ما تسببتم له فيه؛ قتلتم خادمه الأثير «ستراكر»، وأجبرتموه على الاشتراك في قتله بنفسه وبغريزته! لكم أفزعه حين استيقظ من نوم بلا أحلام، ليجد أن صبيًّا غير مُسلَّح قد هزم مخلوقًا مرعبًا كهذا.

اعتدل في فراشه بصعوبة، وكان «بِن» ينظر إليه باهتمام. هذه هي أول علامة تفاعل صدرت منه منذ خرج من المنزل. أردف «مات»:

- ولم يكن هذا هو نصركم الأكبر، بل أنتم أخرجتموه من بيته المُختار. قال «جيمي» إن الأب «كالاهان» طهَّر المنزل بالماء المُقدس وأوصد كل الأبواب. لو أنه عاد مرة أخرى، لمات... وهو يعرف هذا.

هتف «بِن»:

- لكنه فرَّ، فما أهمية ما فعلنا؟

ردد «مات» بهدوء:

- لكنه فرَّ... لكن أين ينام اليوم؟ في صندوق سيارة؟ في مخزن واحدٍ من ضحاياه؟ ربما في قبو الكنيسة المنهجية التي احترقت عام 1951؟ أيًّا كان المكان، هل تظنه يعجبه، أو يشعر فيه بأمان؟

لم يرد «بِن». أكمل «مات» وهو يقبض على كفه:

- غدًا تبدؤون الصيد. لن تبحثوا فقط عن «بارلو»، بل عن كل الأسماك الأصغر التي ستتكاثر الليلة أكثر وأكثر. لا يُشبَع جوعهم، وسيأكلون حتى يُتخَمون. الليل ملكه، لكن في النهار ستطاردونه حتى يولي الأدبار، أو تجدونه وتغرسون الوتد في قلبه وأنتم تصيحون صيحات النصر تحت الشمس!

رفع «بِن» رأسه تأثرًا بهذه الخطبة، وارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه. همس:

- أجل... هذا جيد، لكننا سنبدأ الليلة بدلًا من الغد. سنبدأ الصيد الآن.

أمسك «مات» كتف «بِن» بقوة مُفاجئة وقال:

- ليس الليلة. الليلة سنقضيها معًا، أنا وأنت و«جيمي» والأب «كالاهان» و«مارك» ووالداه... هو يعرف الآن، وهو غاضب. فقط مجنون أو قديس من يجرؤ على مواجهة «بارلو» حين يستيقظ في ليلِه، وليس منا مجنون أو قديس.

أغمض عينيه وأردف:

- بدأت أعرفه بشكل أدق. أرقد هنا على فراش المستشفى محاولًا أن أتقمص شخصيته مثلما يفعل «مايكرُفت هولمز»[71] لقد عاش «بارلو» قرونًا، وهو عبقري، متمحور حول ذاته كما بدا من الخطاب. ولمَ لا؟ لقد تضخَّم غروره كاللؤلؤ، طبقة فوق طبقة، حتى صار هائلًا سامًّا. روحه مليئة بالتفاخر، تطفح به، ورغبته في الانتقام تخرج عن السيطرة... شيء يثير الارتجاف، لكن أيضًا يمكن استغلاله.

فتح عينيه ونظر إليهما واجمًا. رفع الصليب أمامه وقال:

- هذا سيوقفه، لكنه لن يوقف من يستغلهم كما استغل «فلويد تِبتس». أرى أنه سيحاول التخلص من بعضنا الليلة... بعضنا أو كلنا.

نظر نحو «جيمي» وأكمل:

- أعتقد أن ذهاب «كالاهان» و«مارك» إلى منزل الوالدين كان قرارًا خاطئًا. لقد تفرَّقنا، وأنا قلق بشأن الصبي يا «جيمي». اتصل بهم الآن.

- حسنًا.

نظر «مات» إلى «بِن» وسأله:

- وأنت؟ هل ستبقى معنا؟ تُحارب معنا؟

قال «بِن» بصوت جهوري:

- أجل!

غادر «جيمي» الغرفة، واتجه إلى مكتب المُمرضات بحثًا عن رقم آل «بِتري» في سجل الهاتف. اتصل بالرقم سريعًا وانتظر. لكن الرعب سيطر عليه حين سمع نغمة الاتصال التي تدل على أن الهاتف مُعطل بدلًا من النغمة المُعتادة للاتصال.

- لقد حصل عليهم!

رفعت الممرضة عينيها عند سماعها ما قال، وارتعبت من مجرد النظرة التي بدت على عينيه.

***

«هنري بِتري» رجل مُتعلم، حاصل على شهادات عِدة تصل إلى شهادة الدكتوراه في الاقتصاد، لكنه ترك منصبًا مرموقًا في الجامعة لأجل العمل كمدير شركة تأمين، أملًا منه في تحسين أحواله المادية بالإضافة إلى دافع الفضول كي يعرف مدى فعالية النظريات الاقتصادية التي درسها على أرض الواقع. كانت النتيجة إيجابية، لكنه وجد نفسه مندفعًا نحو استكمال دراسات أخرى والحصول على المزيد من الشهادات. أما هدفه الآن، فهو بدء عِقد الثمانينيات بمنصب رفيع في مركز اقتصادي تابع للحكومة الفيدرالية.

لطالما كان رجلًا عقلانيًّا، والعالم بالنسبة إليه ساحة من الأرقام التي لا تُخطئ.

سمع الحكاية من ابنه ومن الأب «كالاهان» وهو يشرب كوبًا من القهوة، ويمطرهما بأسئلة استيضاحية كلما استغلق على فهمه شيء. ازداد هدوؤه كما يبدو كلما ازدادت غرابة القصة، وتزايدت إثارة زوجته «جون».

حين انتهيا من حكايتهما، كانت الساعة السابعة إلا خمس دقائق. تفوَّه «هنري بِتري» بحُكمه النهائي في كلمة واحدة:

- مستحيل.

تنهَّد «مارك» ونظر نحو «كالاهان» ثم قال:

- لقد قلتُ لك.

كان بالفعل قد قال له هذا في طريقهما إلى المنزل من مسكن القساوسة وهما يركبان سيارة «كالاهان». قالت زوجته:

- «هنري»، ألا تظن...

- انتظري.
رفع «هنري» كفه فصمتت، وجلست وقد لفَّت ذراعها حول كتفي «مارك» الذي كان مُستسلمًا. نظر «هنري بِتري» إلى الأب «كالاهان» وسأله بلطف:
- لنرَ إن كان من الممكن التخلص من هذا الوهم، أو أيًّا كان، كرجُلين عاقلين.
أجابه «كالاهان» بنفس القدر من اللطف:
- ربما يكون هذا مُستحيلًا، لكننا قطعًا سنحاول. نحن هنا يا سيد «بِتري» خصيصى لأن «بارلو» هددك وزوجتك.
- هل غرستم وتدًا في صدر جثة شابة عصر اليوم حقًّا؟
- لم أفعلها بنفسي، بل السيد «ميرز».
- وهل تلك الجثة ما زالت موجودة؟
- ألقيناها في النهر.
- لو أن هذا صحيح، فأنت ورَّطت ابني في جريمة. هل أنت واعٍ لذلك؟
- أنا واعٍ، وما حدث كان ضروريًّا يا سيد «بِتري». لو أنك ببساطة اتصلت برقم السيد «بُرك» في المستشفى...
قاطعَه «هنري» وهو مبتسم تلك الابتسامة الباهتة الغاضبة:
- أوه... أنا واثق أن شهودك سيتفقون مع مزاعمك. هذه من الأمور المذهلة في الجنون، هو مُعدٍ. هل يمكن أن أرى الخطاب الذي تركه لكم «بارلو» هذا؟
سبَّ «كالاهان» في سره، ثم قال:
- هو مع الطبيب «كودي». من الأفضل أن نذهب جميعًا إلى مستشفى «كمبرلاند». لو تحدثت مع...
هز «بِتري» رأسه وهو يقول:
- لنتكلم قليلًا أولًا. أنا واثق أن شهودك يُعتمَد عليهم كما لاحظت. الطبيب «كودي» هو طبيب عائلتنا، وكلنا نحترمه ونحبه. أفهم كذلك أن السيد «بُرك» قد يكون فوق مستوى الشبهات... كمُدرس على الأقل.
- وعلى الرغم من ذلك؟
- أيها الأب «كالاهان»، دعني أوضح لك. لو أن عشرات الشهود الموثوق بهم أخبروك بأن هناك خنفسة ضخمة هبطت على مُتنزه البلدة وتغني وهي تُلوح بعلمٍ كونفدرالي، هل ستصدقهم؟
- لو أنني واثق من الشهود، وواثق أنهم لا يمزحون، سأقطع مسافة معقولة في طريقي للتصديق. أجل.
بنفس الابتسامة الباهتة، قال «بِتري»:
- هنا نختلف.
قال «كالاهان»:
- عقلك مُنغلق.

- كلا... هو ببساطة قرَّر مُسبقًا ما يمكن تصديقه.

- هو نفس الشيء. أخبِرني؛ في الشركة التي تعمل بها، هل يؤمنون بالقرارات المُستندة إلى الإيمان الداخلي بدلًا من الحقائق الخارجية؟ هذا ليس منطقيًّا يا سيد «بِتري»، أليس كذلك؟

زالت ابتسامة عن وجه «بِتري» وقام واقفًا وهو يهتف:

- قصتك مُزعجة. أنتم ورطتم ابني في عمل خطر. ستكونون محظوظين لو لم أقاضيكم. سأتصل بكنيستك أولًا، ثم سأذهب إلى السيد «بُرك» في المستشفى لأناقش معه هذا الأمر.

قال «كالاهان» في جفاء:

- لطيف منك أن تخالف مبادئك من أجلنا.

ذهب «بِتري» إلى حجرة المعيشة ورفع سماعة الهاتف، لكن الخط كان ميتًا. عقد حاجبيه وراح يهز السلك ويضغط زر إنهاء الاتصال مرارًا. أخيرًا عاد إلى المطبخ.

- يبدو أن الهاتف خارج الخدمة.

رأى نظرة الفهم المُرتعبة التي سرت بين ابنه و«كالاهان»، ضايقه هذا. قال في حدة أزيد مما انتوى:

- أؤكد لك أن خدمة الهاتف في البلدة لا تحتاج إلى مصاصي دماء كي تتعطل.

ثم انقطع التيار الكهربي.

***

هرع «جيمي» عائدًا إلى حجرة «مات».

- خط الهاتف مقطوع في منزل آل «بِتري». أعتقد أنه هناك... كنا حمقى... اللعنة!

قام «بِن» من الفراش، وتقلص وجه «مات» وهو يقول:

- أترون كيف يعمل؟ لو كان لدينا ساعة زيادة من النهار، لأمكننا... لكننا لا نملكها. قُضي الأمر.

قال «جيمي»:

- يجب أن نذهب إليهم.

- كلا! يجب ألا تذهبوا. لأجل سلامتكم وسلامتي، لا تذهبوا.

- لكنهم...

- وحدهم! أيًّا كان ما سيحدث، أو يحدث، أو حدث، سيكون قد انتهى قبل أن تصلوا.

وقفوا جوار الباب حائرين. استجمع «مات» قوته وتحدث إليهم برفق وعنفوان:

- غروره وكبرياؤه عظيمان، وهذه عيوب نستطيع استغلالها. لكن عقله كذلك عظيم، وهو شيء يوجب الاحترام. أريتماني خطابه وقد تحدث عن الشطرنج. لا شك أنه لاعب ماهر، هل تعيان أنه يستطيع إنهاء عمله في منزل آل «بِتري» دون أن يقطع خط الهاتف؟ لقد فعلها كي يُعلمنا أن قِطَعَنا في خطر! هو يعرف القوة ويعرف أن انقسامها وبلبلتها يمُكِّن من الانتصار عليها. أنتم منحتم له مزية الخطوة الأولى بتقسيم المجموعة، ولو هرعتهم إلى منزل آل «بِتري»، فستنقسم المجموعة مرة أخرى إلى ثلاثة أقسام. أنا هنا في فراش المرض، أُعَدُّ صيدًا سهلًا على الرغم من كل الصلبان

والكتب والصلوات. كل ما عليه هو إرسال واحد مِمَّن في طور التحول إلى لا ميت ليقتلني بمسدس أو سكين، وبهذا لا يظل سواك و«بِن»، تهرعان ليلًا إلى مصرعكما. ثم... تصبح بلدة «سالم» ملكه. ألا ترون هذا؟

تحدَّث «بِن» أولًا:

- أجل.

أردف «مات»:

- أنا لا أتكلم من منطلق الخوف على حياتي يا «بِن». عليك أن تُصدِّق هذا. ولا حتى بدافع الخوف على حياتكم. أنا خائف على البلدة، ومهما كان ما سيحدث، يجب أن يظل أحد يدافع عنها ويُوقفه غدًا.

- لديك حق. وهو لن ينال مني قبل أن أنتقم لـ «سوزان» أولًا.

عمَّ صمت لحظات، ثم قطعه «جيمي»:

- ربما يهربون بطريقة أو بأخرى. أعتقد أنه يستخف بقدرات «كالاهان»، وهو قطعًا يستخف بـ «مارك». هذا الصبي رائع!

- نتمنى هذا...

ثم أغمض عينيه، وانتظَروا.

***

وقف الأب «دونالد كالاهان» في ركن المطبخ الفسيح، يرفع صليب أمه فوق رأسه، مُضيئًا بذلك الضوء الشبحي، بينما يقف «بارلو» على الجهة الأخرى من المطبخ، يُقيد ذراع «مارك» خلف ظهره، ويلُف الذراع الأخرى حول رقبة الصبي، بينما يرقد الأبوان على الأرض وسط الزجاج الذي حطَّمه مجيء «بارلو».

كان «كالاهان» ذاهلًا، فقد حدث كل شيء بسهولة وسرعة لم يستطع استيعابهما. في لحظة كان يناقش الأمر بعقلانية (أو جنون) مع السيد «بِتري» تحت ضوء المطبخ المُحايد، وفي اللحظة التالية انغمس فيما كان يعدُّه والد «مارك» -بكل حزمٍ وقوة- هراءً.

حاول أن يُعيد ترتيب ما حدث في ذهنه.

عاد الأب ليعلن أن الهاتف مُعطل، بعد لحظات قُطِع التيار الكهربي، ثم صرخت والدة «مارك» وسقط الكُرسي. لوهلة تخبَّط الجميع في الظلام الجديد، ينادون بعضهم بعضًا. انفجر زجاج النافذة فوق حوض المطبخ، ناثرًا الشظايا على المنضدة والأرضيات. كل هذا قد حدث خلال ثلاثين ثانية.

بدأ ظل في التحرُّك عبر الظلام. كسر «كالاهان» حالة التجمُّد التي أصابته، وأمسك بالصليب المُدلَّى على صدره. بمجرد أن لمسه، توهج بضوء غير أرضي أضاء الحجرة.

رأى «مارك» يحاول جر أمه إلى حجرة المعيشة، بينما والده جواره، وقد دار عقله، وتحول وجهه الهادئ إلى تعبير دهشة عظيمة إثر هذا الغزو اللامنطقي.

خلفه، يتسلل وجه أبيض مُبتسم كأنما هو خارج من إحدى لوحات «فرازيتَّا»[72]، انفرجت شفتاه لتكشف عن أنياب بيضاء طويلة. عيناه حمراوان كنافذتين تطلان على الجحيم. امتدت أصابع «بارلو» (لاحظ «كالاهان» كم هي طويلة وحساسة كأصابع عازف بيانو) وأمسكت رأس «هنري بِتري» بيدٍ واحدة، ورأس زوجته باليد الأخرى، ثم ضربهما إلى بعضهما فصدر صوت تهشُّمٍ مُريع، وتهاويا على الأرض كحجرين.

ها قد وقع تهديد «بارلو» الأول.

صرخ «مارك» صرخة مُدوية، وألقى بنفسه نحو «بارلو» بلا تفكير.

صاح «بارلو» بصوته الهادر الغني:

- وها أنت ذا!

هاجمه «مارك» بلا تخطيط، فأمسك به فورًا.

تحرَّك «كالاهن» إلى الأمام رافعًا الصليب فوقه. تحولت ابتسامة «بارلو» المنتصرة إلى تكشيرة ألم، وتراجع نحو الحوض وهو يجر الصبي أمامه، تطأ أقدامهم الشظايا على الأرض.

- بسم الرب...

عند ذكر الرب، صرخ «بارلو» كأنما ضُرِب بسوط. برزت أسنانه المُدببة كالإبر، وتقلَّصت أوتار رقبته فصارت كالحبال. صاح:

- لا تقترب... لا تقترب أكثر أيها الكاهن الساحر... لا تقترب وإلا مزقت شرايين رقبة الصبي قبل أن تتنفس.

تحدَّث وقد انحسرت شفته العُليا عن أنيابه، ثم انقضَّ كالأفعى نحو رقبة «مارك»، لكنه هجمته لم تُصِبه عمدًا. توقَّف «كالاهان». أمره «بارلو» وهو يبتسم مُجددًا:

- تراجع... قف عند جهتك من قطعة الشطرنج، وسأقف عند جهتي.

تراجع «كالاهان» وهو يرفع الصليب على امتداد ذراعه أمام عينيه، وكأن الصليب يُشع بقوة جبارة، راحت ذراعه تهتز وترتجف.

تواجه الرجلان. قال «بارلو»:

- أخيرًا اجتمعنا!

ابتسمَ، وجهه ذكي، قوي، وسيم إلى حدٍّ مؤلمٍ، مُحرَّم. ومع ذلك، كلما تحرَّك الضوء عنه، بدا ناعمًا أنثويًّا أكثر. أين رأى وجهًا كهذا من قبل؟ عرف في لحظة رعب قاسية أنه وجه (بُعبُع) طفولته السيد «فليب»، المخلوق الذي كان يختبئ في الخزانة ويخرج بعد رحيل أمه عن حجرته. كان والداه يؤمنان أن الحل الوحيد لإنهاء مخاوف الطفولة هي مواجهتها، لذا لم يكونا يسمحان بالنوم والنور مُضاء.

في كل ليلة، وبعد أن تغلق أمه باب حجرته، وتخفت صوت خطواتها إذ تبتعد، ينفتح باب الخزانة، ويظهر وجه السيد «فليب» الشاحب الطويل من خلفه. وها هو الآن يعود، يُحدق إليه من فوق كتف «مارك» بوجهه الأبيض كالمُهرجين، وعينيه المُضيئتين الحمراوين وشفتيه الشهوانيتين.

سأل «كالاهان» بصوت ليس كصوته مُطلقًا:

- والآن؟

كان ينظر إلى أصابع «بارلو» الطويلة المُلتفة حول حنجرة الصبي، ولاحظ بُقعًا زرقاء عليها.

- على حسب. ماذا ستمنحني مقابل هذا الحقير البائس؟

فجأة، رفع يدَي «مارك» من وراء ظهره، عازمًا على تذييل سؤاله بعلامة استفهام على هيئة صرخة، لكن «مارك» لم يصرخ، ولم تصدر عنه سوى زفرة من بين أسنانه.

همس «بارلو» وهو يبتسم ابتسامة حيوانية كريهة:

- ستصرخ... ستصرخ حتى تنفجر حنجرتك.

صرخ «كالاهان»:

- كفى!

انزاحت الكراهية عن ملامحه، ومكانها ظهرت ابتسامة ساحرة حالكة.

- حقًّا؟ هل أعتِق الصبي، وأتركه لليلة أخرى؟

- أجل!

قال «بارلو» برقة، يكاد يُخَرخِر كالقطط:

- إذًا، هلَّا تخلصت من صليبك، وواجهتني مواجهة الأبيض للأسود؟ مواجهة عادلة؛ إيمانك مُقابل إيماني؟

قال «كالاهان» بثقة أقل:

- أوافق.

- إذًا، افعلها!

زمَّ شفتيه، ولمَعَ جبينه وسط الضوء العجيب الذي يعم الحجرة.

- وكيف أثق بك؟ قد أثق في حية ذات جرس داخل قميصي، ولا أثق بك ألا تَعُضه.

- لكنني أثق بك... انظر!

ترك «مارك» يبتعد، وتراجع إلى الخلف رافعًا يديه الخاليتين في الهواء. ظل «مارك» ساكنًا، لا يصدق، ثم هرع نحو والديه دون أن ينظر نحو «بارلو» مرة أخرى. صرخ «كالاهان»:

- اهرب يا «مارك»! اهرب!

نظر إليه «مارك» بعينين مُتسعتين وقال:

- أعتقد أنهما ماتا...

- اهرب!

قام «مارك» واقفًا ببطء، ثم التفت ونظر نحو «بارلو»، الذي قال:

- قريبًا يا أخي الصغير... قريبًا جدًّا سنكون أنا وأنت...

بصق «مارك» في وجهه.

توقَّف «بارلو» عن التنفس، وأظلم وجهه بالغضب الذي جعل تعبيراته السابقة تبدو كتمثيل مُبتذل. للحظة رأى «كالاهان» في عينيه نظرة غضب أكثر حُلكة من نَفْس قاتل. همس «بارلو»:

- أنت تبصق عليَّ؟

كان جسده يرتجف، يرتج بالغضب. خطا أمامًا، خطوات مُرتعدة كخطوات رجل أعمى. صرخ «كالاهان» ودفع بالصليب في مواجهته:

- مكانك!

صرخ «بارلو» وغطى وجهه بكفيه. ضوء الصليب الماورائي يُعميه، وكانت هذه هي اللحظة التي كان «كالاهان» قادرًا على التخلص منه فيها لو أنه جرؤ وضغط الصليب إلى جسده. قال «مارك»:

- سأقتلك.

ثم رحل سريعًا كدوامة ماءٍ حالكة...

استطال «بارلو»، وبدا شعره الذي كان مُصففًا إلى الخلف كأنما يطفو حول جمجمته. كان يرتدي بذلة غامقة وربطة عنق بلون الخمر الأحمر مربوطة بعناية شديدة. بالنسبة إلى «كالاهان» صار «بارلو» جزءًا من الظلام الذي يحيط به. أضاءت عيناه في محجريهما كجمرتين مُلتهبتين.

- إذًا، أوفِ باتفاقك أيها الكاهن الساحر.

انفعل «كالاهان» صائحًا:

- أنا قس!

قال «بارلو» ساخرًا:

- قس.

صدرت من فمه الكلمة كسمكة نتنة. وقف «كالاهان» مُترددًا. لماذا تتحداه؟ اطرده من هنا، ثم ارتح الليلة، وغدًا...

لكن نقطة في أعماق عقله ظلت تُحذره؛ رفض تحدي مصاص دماء، يعني المُخاطرة باحتمالات أخطر مما يتصور. لو جرؤ وتمسَّك بصليبه، فسيكون هذا اعترافًا بـ... بماذا؟ لو أن الأمور لا تجري بهذه السرعة، لو أن هناك وقتًا للتفكير، للتعقُّل...

راح ضوء الصليب يخفُت.

نظر إليه بعينين مُتسعتين، وانعقد الرعب في معدته كبكرة خيط. رفع رأسه ونظر نحو «بارلو» الذي كان يتحدث إليه عبر عرض المطبخ بابتسامة مُتسعة تكاد تصل إلى حد الشهوانية. صاح «كالاهان» وهو يتراجع خطوة:

- قف مكانك. آمرك باسم الرب.

ضحك «بارلو». ضوء الصليب خفت حتى صار بالكاد يُرى، وغزت الظلال وجه مصاص الدماء مرة أخرى، مُغطية ملامحه خلف خيوط عشوائية ومُثلثات من الظُّلمة تحت ملامحه الحادة.

تراجع «كالاهان» أكثر، فاصطدم رُدفاه بطاولة المطبخ جوار الحائط.

غمغم «بارلو» بحزن، بينما عيناه تفضحان طربًا شيطانيًّا:

- لم يعد مكان تذهب إليه. من المؤسف أن ترى إيمان شخص يخذله. آه، حسنًا...

اهتز الصليب في يد «كالاهان» ثم مات آخر ضوئه. عاد قطعة من الجص اشترتها أمه من متجر هدايا في «دبلِن»، غالبًا بسعرٍ مُخفَّض. زالت القوة التي كان يبعثها في ذراعيه والقادرة على هدم الحوائط وفلق الأحجار. تذكُر عضلاته القوة اللحظية التي سرت فيها، لكنها لا تستطيع تكرارها.

مد «بارلو» يديه عبر الظلام وانتزع منه الصليب. صرخ مُبتئِسًا، تلك الصرخة التي تصدح من الروح لا الحنجرة، التي تصدح عن طفل كان يُترَك كل ليلة مع السيد «فليب» الذي يطل من الخزانة.

أما الصوت التالي فصوت ظل يُطارده طيلة حياته، صوت تهشم الصليب بين أصابع «بارلو»، ثم صوت ارتطام بقاياه بالأرض.

صرخ:

- فليلعنك الرب!

- الوقت تأخر للغاية على هذا الأداء المسرحي.

قالها عبر الظلام، بصوت حزين. أردف:

- لا داعي لهذا، فقد نسيتَ عقيدة كنيستك. أم أنا مُخطئ؟ الصليب... الماء والخبز المُقدسان... الاعتراف... كل هذا صار رموزًا بلا إيمان. ما الصليب إلا قطعة خشب، وما الخبز المقدس إلا قمح مخبوز، وما الخمر إلا عنب فاسد. لو أنك أبعدت الصليب، لكنت هزمتني ليلة أخرى. أو على الأقل كنت أتمنى ذلك. كنت أظن أنني قابلت خصمًا قويًّا، لكن الصبي أقوى من عشرة من أمثالك، أيها القس المُزيف.

فجأة، من وسط الظلام، أمسكت قبضتان هائلتان بكتفَي «كالاهان».

- عليك أن تُرحب بسلوان موتي الآن. لا ذاكرة لدى اللاموتى، لا يتبقى لهم سوى الجوع، والرغبة في خدمة سيدهم. يمكنني استغلالك، يمكنني أن أرسلك إلى أصدقائك، لكن، هل هناك ضرورة لذلك؟ دون قيادتك لهم سيضعفون. وسيخبرهم الصبي. ربما لدي عقاب أفضل لك، أيها القس المُزيف.

تذكَّر «كالاهان» قول «مات» إن هناك أمورًا أسوأ من الموت. حاول التملُّص، لكن القبضتين ثبتتاه إلى مكانه. صوت ملابسه تتحرك على الجلد العاري، ثم صوت تمزُّق.

واتجهت اليدان نحو عُنقه.

- تعالَ أيها القس المزيف، تعلم الدين الحق، انضم إلى طائفتي.

غرق «كالاهان» في طوفان الفهم المُفاجئ.

- كلا! لا تفعلها!

لكن اليدين قويتان فوق الوصف، تجذب رأسه للأمام أكثر وأكثر...

همس «بارلو»:

- الآن أيها القس...

فم «كالاهان» مُنضغط على لحم رقبة مصاص الدماء الكريه، حيث الشريان النابض المفتوح. كتم «كالاهان» أنفاسه لما بدا له كقرون وهو يهز رأسه بقوة بلا نتيجة سوى تلطيخ وجهه بالدماء كمُحاربٍ يُلطخ وجهه بالألوان قبل المعركة.

لكنه في النهاية، شَرِب...

***

نزلت «آن نورتون» من سيارتها، ولم تعبأ لأخذ مفتاحها معها، وبدأت السير عبر ساحة انتظار المستشفى نحو صالة الاستقبال المُضاءة. من فوقها، السُّحُب تحجب النجوم، وسرعان ما ستُمطر.

كانت الآن تبدو امرأة مختلفة تمامًا عن المرأة التي قابلها «بِن ميرز» ليلة دعته «سوزان» لتناول العشاء مع عائلتها. هذه السيدة كانت ترتدي يومها فستانًا أخضر متوسط الطول، لا ينُم عن الثراء، بل عن العملية والراحة. لم تكن السيدة جميلة قط، لكنها كانت مُهندَمة يسعد النظر إليها.

لكنها الآن تنتعل خُفين منزليين، وساقاها عاريتان بلا بنطال أو جوارب، تُظهِران دوالي الساقين المُنتفخة (والتي لم تعد مُنتفخة مثل السابق، فقد خفَّ تدفق الدم فيها). ترتدي كذلك معطفًا منزليًّا فوق عباءة نوم، وشعرها يتطاير في كل اتجاه مع هبوب الرياح. وجهها شاحب، تحيط بعينيها الهالات البُنية.

كانت قد حذَّرت «سوزان» مرارًا من هذا الرجل المدعو «ميرز» وأصدقائه، حذرتها من الرجل الذي قتلها، ومن «مات بُرك» الذي تزعَّم هذه العصابة. كانت تعرف أن بينهم تعاونًا وثيقًا، أجل، كانت تعرف وقد حذرتها.

كانت تشعر بالتوعُّك طيلة اليوم ولم تكن قادرة على مُغادرة الفراش. وعندما غاصت في نوم عميق عند الظهيرة، بينما زوجها يُجيب عن أسئلة الشرطة عن بعض المفقودين، جاءها في المنام بوجهه القسيم، الآمر، المُختال، المُقنِع. أنفه محدَّب، شعره مُصفف إلى الخلف، فمه المُذهل يُخفي أسنانًا حادة بيضاء غريبة، كشفت عنها ابتسامته. عندما ينظر إليك بهاتين العينين الحمراوين المُنوِّمتين، لا تستطيع الفكاك منهما... ولا تريد.

أخبرها بكل شيء، وبكل ما عليها فعله... وكيف أنها ستكون مع ابنتها لو نجحت في مهمتها. سترافقه، وترافق الآخرين. بصرف النظر عن «سوزان»، فقد كانت تريد إسعاده كي يرضى عنها ويمنحها ما تحتاج وتشتهي؛ اللمسة... الاختراق.

مُسدس زوجها في جيبها.

دخلت الاستقبال ونظرت نحو المكتب. لو حاول أحدهم إيقافها، فستتولى أمره. لن تطلق عليه الرصاص بالطبع، فيجب ألا تطلق النار قبل وصولها لحجرة «بُرك» كما أخبرها. لو أنهم أمسكوها قبل أن تؤدي مهمتها، فلن يزورها مرة أخرى، ولن يمنحها القبلات المُلتهبة في الليل.

ثمة فتاة خلف المكتب ترتدي الزي الموحد الأبيض، وتحل الكلمات المُتقاطعة تحت ضوء القاعة الهادئ، وممرض يسير عبر الرواق ظهره نحوهما.

نظرت الممرضة بابتسامة مُدرَّبة عندما سمعت صوت خطوات «آن»، لكن ابتسامتها اختفت عندما رأت المرأة التي تتقدم منها، بعينيها الغائرتين وملابسها المنزلية. كانت عيناها خاويتين براقتين كدُمية مُتحركة. ربما هي مريضة، خرجت تجوِّل في أرجاء المستشفى.

- سيدتي، لو أمكن...

أخرجت «آن» المُسدس من جيبها كرامٍ مُحترف من عصور قديمة. أشارت به نحو رأس الممرضة وقالت:

- استديري.

راحت الممرضة تشهق في توتر.

- لا تصرخي. سأقتلك لو صرختِ.
شحُبَت المُمرضة وراح الهواء يُصفر في رئتيها.
- استديري الآن.
قامت الممرضة ببطء واستدارت. أدارت «آن» المُسدس سريعًا وضربت بمؤخرته رأس الفتاة بكل قوتها، فسقطت الأخيرة من فورها أرضًا خلف المكتب.

***

لكن المُسدس طار من يدها.
لم تصرخ المرأة ذات اللباس المنزلي، لكنها أطلقت صوتَ أنين من حنجرتها، كأنما تندُب. اندفعت نحوه على أربع كالسلطعون، لكن الرجل خلفها، والذي بدا خائفًا مذهولًا، انطلق نحوه هو الآخر، وحين وجدها قد تصل إليه أولًا، ركله عبر بساط الاستقبال. صرخ:
- النجدة! النجدة!
نظرت «آن نورتون» من فوق كتفها نحوه، وأطلقت فحيحًا كارهًا نحوه، ثم عَدت نحو المُسدس. كان المُمرض قد عاد من الرواق وراح ينظر إلى ما يحدث في عدم فهم للحظة، ثم وجد المُسدس تحت قدميه، فالتقطه سريعًا.
- لأجل المسيح، هذا الشيء مُعبَّأ...
هاجمته، غارسة أظفارها في وجهه، وراحت تخمش جبهته وخديه. ظل رافعًا المُسدس بعيدًا عن طائلتها، لكنها ظلت تحاول الوصول إليه وهي تولول.
باغتها الرجل الآخر من خلفها وأمسك بها، وقد قال لاحقًا إن الأمر كان أشبه بالإمساك بكيس أفاعٍ. الجسد تحت الملابس كان ساخنًا، كل عضلة فيه تنقبض وتتلوى.
وهي تحاول التملص، ضربها الممرض ضربة واحدة على فكها، فانقلبت عيناها مُظهِرة بياضها، ثم هوت أرضًا.
نظر المُمرض والرجل الآخر إلى بعضهما. كانت الممرضة عند المكتب تصرخ وهي تضع كفيها على خديها، مما أعطى الصرخة سمت صفارة إنذار السفن في الضباب.
سأل الرجل:
- أي نوع من المستشفيات تديرونها هنا؟
- وكأنني أعرف! ماذا يجري هنا بحق الجحيم؟
- كنت آتيًا لزيارة أختي. جاء طفل يخبرني بأن هناك امرأة بالخارج تحمل مُسدسًا، و...
- أي طفل؟
نظر الرجل الذي أتى لزيارة أخته حوله، كان المكان يعج بالناس، لكن كلهم من الكبار.
- لا أراه الآن، لكنه كان هنا. هل هذا المُسدس مُعبأ؟
- بالتأكيد.
- أي نوع من المستشفيات تديرون هنا أيها الناس؟

ظل الرجل المذهول يسأل.

***

رأيا مُمرضتين تهرعان نحو المصعد، وسمعا صوت صرخات تأتي من بئر السلم. نظر «بِن» إلى «جيمي»، فهز الأخير كتفيه بشكل غير ملحوظ.

كان «مات» نائمًا بفم مفتوح.

أغلق «بِن» الباب والنور. جلس «جيمي» القرفصاء جوار فراش «مات»، وحين سمعا صوت خطوات تقترب من الباب في تردد، وقف «بِن» إلى جواره مُستعدًّا. حين انفتح ودخلت منه رأس، جذبها وغرس الصليب الذي كان يحمله في يده الأخرى على جبينها.

- اتركني!

امتدت يد تضربه في صدره، بعد لحظة، أضاء «مات» المصباح فوقه، وراح يرمش وهو ينظر نحو «مارك بِتري» الذي كان يحاول التملص من قبضة «بِن».

قام «جيمي» من مخبئه، وهرع عبر الحجرة مُستعدًّا لمعانقة الصبي، ثم تردد وقال:

- ارفع ذقنك.

رفع «مارك» ذقنه، مُبينًا لثلاثتهم رقبته السليمة. استرخى «جيمي» وقال:

- إلهي! أنا لم أسعد قط لرؤية شخص في حياتي مثلما سعدت لمرآك. أين الأب؟

أجاب «مارك» في وجوم:

- لا أعرف. أمسك بي «بارلو»، وقتل والديَّ. ماتا... والداي ماتا. ضرب رأسيهما إلى بعض. قتل والديَّ ثم أمسك بي وقال للأب «كالاهان» إنه سيتركني إذا ألقى الصليب بعيدًا. وعده... هربت... لكن قبل أن أهرب، بصقت عليه... وسأقتله.

تمايل عند الباب. كانت هناك سَحْجات على جبينه وخديه، فقد جاء إليهم عبر طريق الغابة الذي سلكه «داني جليك» وأخوه من قبل. سرواله مُبلل حتى الركبتين جراء عبوره جدول «تاجرت»، ثم أكمل الطريق ركوبًا مع أحدهم، لكنه لا يذكر من كان، فقط يذكر أن المذياع كان يعمل طيلة الطريق.

تجمَّد لسان «بِن»، ولم يجد ما يُقال. قال «مات» برفق:

- أيها الصبي المسكين... أيها الصبي المسكين الشجاع.

بدأ وجه «مارك» يتداعى، أغمض عينيه وراح يبكي ويردد:

- أمي... أمي... أمي...

تمايل، فعانقه «بِن» وراح يؤرجحه بينما تُبلل دموع الصبي قميصه وتخترقه إلى جسده.

***

لم يكن لدى الأب «كالاهان» أي فكرة عن المسافة التي مشاها في الظلام. ترنح نحو وسط البلدة وشارع «جوينتر»، ولم يهتم لسيارته التي تركها عند مدخل منزل آل «بِتري». كان يسير أحيانًا في

منتصف الطريق، وأحيانًا أخرى يمشي مُضطربًا على الرصيف.

في مرة باغته كشافا سيارة راح سائقها يطلق النفير بجنون، ونجح في النهاية في تفاديه بمعجزة. وفي مرة سقط في وهدة. بمجرد أن وصل إلى منتصف البلدة بدأت السماء تمطر.

لم يكن أحد في الشارع ليلحظ مروره، فقد نامت البلدة باكرًا، أبكر من المُعتاد. المطعم خالٍ، وفي متجر «سبنسر» تجلس السيدة «كوجَن» تطالع مجلة اعترافات خلف آلة الحسابات. في الخارج، وتحت اللافتة التي تُضيء برسم كلب يقفز، محطة الحافلات بعلامتها المُضيئة الحمراء.

كانوا خائفين كما افترض، ولهم كل الحق. شيء بداخلهم قد امتص الخطر، وأُوصِدَت أبواب في البلدة لم تكن قد أُوصِدَت من قبل... أبدًا.

كان في الشارع وحده، ولم يكن شيء يخيفه ما دام أنه وحيد. ضحك بصوت عالٍ، ضحكة وحشية مُختلة كأنها البكاء. لن يجرؤ مصاص دماء على لمسه. ربما يقتربون من الآخرين، لكن ليس هو. لقد وضع السيد علامته عليه، وهو حر حتى يطالب السيد به.

ظهرت كنيسة القديس «آندرو» أمامه.

تردد، ثم سار عبر الطريق. سيصلي. سيصلي... سيصلي طيلة الليل لو أن هذا ضروري. لن يصلي إلى الرب الجديد؛ رب الوعي الاجتماعي، والأقليات، والطعام المجاني، بل سيصلي إلى الرب القديم الذي أمر من خلال نبيه موسى ألا تُترك ساحرة لتعيش، والذي بعث ابنه من الموت. فرصة أخرى يا إلهي... سأهب كل حياتي لأجل استحقاق المغفرة. فقط... فرصة ثانية.

تعثر صاعدًا الدرجات العريضة، عباءته مُبللة مُلطخة بالطين، فمه ملوث بدماء «بارلو».

عند نهاية الدرجات، توقف قليلًا، ثم قصد مقبض الباب الأوسط. عندما لمسه، رأى ومضة من نور أزرق وارتد إلى الخلف ساقطًا. سرى الألم في ظهره ثم رأسه ثم صدره وساقيه، وظل يتدحرج فوق الدرجات الجرانيتية حتى ارتطم بالرصيف.

غمغم:

- أنا غير طاهر... غير طاهر... يا ربي، أنا غير طاهر!

بدأ يرتجف. ضم ذراعيه حول كتفيه وراح يرتجف تحت المطر، والكنيسة خلفه تغلق أبوابها أمامه.

***

جلس «مارك» على نفس الجانب من فراش «مات» الذي جلس عليه «بِن» بعد عودته و«جيمي».

كان «مارك» قد جفف دموعه بكُم قميصه، وعلى الرغم من أن عينيه ما زالتا مُحمرتين مُنتفختين، فقد بدا أفضل وأكثر تحكُّمًا في نفسه.

سأله «مات»:

- هل تعرف أن بلدة «سالم» في موقف حرج؟

أومأ «مارك» إيجابًا.

- حتى الآن، فخُدَّامه من اللاموتى يجوبون البلدة ويتغذون على دماء الآخرين. لم ينتهوا منهم كلهم الليلة على الأقل، لكن هناك مهامًا هائلة في انتظاركم غدًا.

قال «جيمي»:

- «مات»، أريدك أن تحصل على بعض النوم. لا تقلق، سنظل هنا. لا تبدو بخير، لا بد وأن الأحداث قد أثقلت عليك...

- بلدتي تزول أمام عينيَّ، وتريدني أن أنام؟

قال «جيمي» في عِند:

- لو أردت أن تظل حتى النهاية، فعليك أن تدخر قوتك. أنا آمرك بهذا كطبيبك. اللعنة!

نظر «مات» إليهم جميعًا ثم قال:

- حسنًا. سأنام، لكن أولًا، على ثلاثتكم التوجه إلى منزل «مارك» وصنع أكبر كمية من الأوتاد.

غاص المعنى في نفوسهم. سأل «بِن»:

- كم سنحتاج؟

- ثلاثمائة على الأقل. أنصحكم بصنع خمسمائة.

قال «جيمي» في يأس:

- هذا مستحيل. لا يمكن أن يكونوا بهذه الكثرة.

- اللاموتى جائعون، ومن الأفضل أن نُهيِّئ أنفسنا. ستذهبون معًا ولن تفترقوا أبدًا حتى في النهار. تبدؤون من طرف البلدة إلى طرفها الآخر، تُفتِّشون كما تُفتِّش القمامة بحثًا عن النفائس.

اعترض «بِن»:

- لن نستطيع العثور عليهم جميعًا. حتى لو بدأنا مع أول ضوء شمس حتى آخر النهار.

- عليكم أن تبذلوا قُصارى جهدكم يا «بِن». ربما بدأ الناس في تصديقكم لو أنكم أريتموهم الدلائل، وحين يحل الظلام مرة أخرى، سيكون بعض عمله قد فسد. يجب أيضًا أن نعدَّ الأب «كالاهان» مفقودًا بالنسبة إلينا. هذا مقيت، لكن عليكم أن تتحملوا الأمر وحدكم. عليكم بالحذر. تضطرون إلى الكذب أحيانًا. ضعوا في حسبانكم أن بعضنا على الأقل سينجو ليواجه تهمة القتل.

نظر إلى وجوههم، وما رآه أرضاه. عاد مُحدِّثًا «مارك»:

- أتعرف ما هي أهم مهمة؟

- أجل. يجب أن يُقتَل «بارلو».

ابتسم «مات» ابتسامة مريرة وقال:

- هذا يضع العربة أمام الحصان لا خلفه، كما أخشى. فالأهم أن نجده أولًا.

نظر إلى «مارك» في اهتمام وسأله:

- هل رأيت أي شيء الليلة؟ سمعت شيئًا أو شممت شيئًا؟ أي مما قد يساعدنا في العثور عليه؟ فكر جيدًا قبل أن تُجيب. أنت تعرف أكثر من أي واحد منا أهمية ذلك.

لم يرَ «بِن» شخصًا يطيع الأوامر حرفيًّا إلى هذا الحد؛ أخفض «مارك» ذقنه ووضع كفه عليها وأغلق عينيه، ثم بدا كأنما يحاول استرجاع كل لحظة من الليلة السابقة. في النهاية فتح عينيه ونظر

إليهم ثم قال:

- لا شيء.

ظهر الإحباط على وجه «مات» لكنه لم يستسلم.

- لم تلاحظ ورقة شجر مُعلَّقة على ملابسه مثلًا؟ نبتة ذيل قط ملتصقة بطرف بنطاله؟ أي خيط يقودنا إليه؟ إلهي... أكان بلا أي تفاصيل كبيضة؟!

اتسعت عينا «مارك» فجأة، سأله «مات» وهو يمسك كوعه:

- ماذا؟ فيمَ تُفكر؟

- طبشور أزرق. كان يلف ذراعه حول كتفي هكذا، واستطعت أن أرى يده، وكانت هناك لطخات من طبشور أزرق على إصبعين من أصابعه الطويلة.

ردَّد «مات» مُفكرًا:

- طبشور أزرق؟

قال «بِن»:

- لا بد وأنه كان في مدرسة.

أضاف «مات»:

- ليست المدرسة الثانوية. فهم يستخدمون هناك الطبشور الأبيض والأصفر فقط. ما زال تحت أظفاري آثاره، وظلت على معاطفي لأعوام.

تساءل «بِن»:

- فصول الفنون؟

- كلا. هم يستخدمون الحبر فقط في فصول الفنون في المدرسة الثانوية. «مارك»، هل أنت واثق أنها كانت...

قال «مارك» بحزم:

- آثار طبشور.

- أعتقد أن بعض مُدرسي العلوم يستخدمون الطبشور الأزرق، لكن أين قد يختبئ في المدرسة الثانوية؟ لقد رأيتموها... مكوَّنة من طابق واحد، مُغلَّفة بالنوافذ الزجاجية، والناس يدخلون ويخرجون من خزانات أدوات التنظيف طيلة اليوم، وهذا ما يحدث أيضًا في حجرة المدفأة المركزية.

- ماذا عن كواليس المسرح؟

هزَّ «مات» كتفيه وأجاب:

- المكان مُظلم كفاية. لكن لو أن السيدة «رودين» تولَّت أمر العرض المسرحي بدلًا عني، فسيكون هذا المكان مُزدحمًا طيلة الوقت، مما سيجعل الاختباء فيه مقامرةً حقيقية.

سأل «جيمي»:

- هل يمكن أن يكون في المدرسة الابتدائية؟ لا بُد أنهم يُدرِّسون الرسم للطلبة الصغار، وأراهن أن الطبشور المُلون من الخامات المُستخدَمة دومًا.

قال «مات»:

- مدرسة شارع «ستانلي» الابتدائية مبنية على نفس الطراز الحداثي المُستخدم في المدرسة الثانوية؛ طابق واحد مشغول بالكامل، نوافذه زجاجية عملاقة تُدخِل أشعة الشمس إلى كل متر من المدرسة. ليست من الطراز الذي يناسبه بالتأكيد. مصاصو الدماء يميلون إلى المباني العتيقة المُظلمة الـ...

قاطعه «مارك»:

- التي تشبه مدرسة شارع «بروك»!

نظر «مات» إلى «بِن»، وقال:

- أجل... مدرسة شارع «بروك» مبنى خشبي من ثلاثة طوابق وقبو، بُنيت في نفس زمن بناء منزل «مارستِن». كان هناك لغط كثير حين أُقيم تصويت بصدد ضرورة إخلاء المبنى كونه قابلًا

للاشتعال ويمثل خطرًا على الطلبة. ساعد هذا كثيرًا في منح الدعم المالي لبناء المدرسة الجديدة. كان هناك حريق في مبنى مدرسي في «نيو هامشاير» منذ ثلاث سنوات...

غمغم «جيمي»:

- أذكُر هذا. في بلدة «كوبز فيري»، أليس كذلك؟

- أجل. احترق ثلاثة تلاميذ وماتوا بعدها.

سأل «بِن»:

- هل مبنى مدرسة شارع «بروك» مُستخدَم؟

- الطابق الأول فقط، من الصف الأول حتى الرابع. باقي المبنى صار خاليًا بعد نقل الصفوف الأكبر إلى المدرسة الجديدة في شارع «ستانلي».

- وهل هناك مكان يسمح باختباء «بارلو» فيها؟

قال «مات» كارهًا الفكرة:

- أعتقد. الطابقان الثاني والثالث كلهم فصول خالية، وقد ثُبِّتت على النوافذ ألواحُ الخشب لأن الأطفال كانوا يلقون بالأحجار على الزجاج فيكسرونه.

قال «بِن»:

- حُسِم الأمر إذًا.

اتفق «مات» مع «بِن»، بدا التعب عليه بشدة وهو يقول:

- يبدو الأمر منطقيًّا، لكنه كذلك يبدو أبسط وأكثر وضوحًا من اللازم.

غمغم «جيمي» وهو شارد:

- طبشور أزرق...

قال «مات» مُشتَّتًا:

- لا أعرف. حقًّا لا أعرف.

أخرج «جيمي» زجاجة صغيرة تحوي أقراصًا من حقيبته وقال وهو يناولها لـ «مات»:

- خذ قرصين مع الماء.

- كلا، أمامنا الكثير من التفكير والبحث...

قال «بِن» في حزم:

- ولن نتحمل فقدك أبدًا. لو أننا فقدنا الأب «كالاهان»، فأنت أهم شخص فينا الآن. افعل ما طُلِب منك.

ملأ «مارك» كوب ماء من صنبور الحمام، وتناول «مات» دواءه شاكرًا. كانت الساعة العاشرة والربع.

خيَّم الصمت على الحجرة، فكَّر «بِن» كيف أن «مات» صار مُسنًّا بشكل مريع، مُستهلَكًا بشكلٍ مرعب. شعره أكثر وهنًا وجفافًا، وقد زالت كل سنين العناية عن وجهه وملامحه في أيام. بعد أعوام من الحياة العادية، هبطت عليه المشكلات غير العادية التي تليق به. حياته كلها أعدَّته لمواجهة الشرور الرمزية التي تهرب من الضوء وتختفي عند الفجر.

قال «جيمي» بصوت خفيض:
- أنا قلق عليه.
- ظننتُ أن الأزمة القلبية كانت بسيطة، بالكاد كانت أزمة قلبية.
- كانت بداية بسيطة، لكن الأزمة القلبية التالية لن تكون كذلك. لو لم ننتهِ من هذه المهمة سريعًا، قد يموت بين أيدينا.
أمسك يد «مات» وراح يقيس النبض بحبٍّ:
- ستكون هذه مأساة.
انتظَروا حول الفراش، يتبادلون نوبات الحراسة والنوم، كلٌّ في دوره. نام «مات» طيلة الليل، ولم يظهر «بارلو»؛ كانت لديه مُهمة في مكان آخر.

***

كانت السيدة «كوجن» تقرأ قصة بعنوان (حاولت خنق طفلنا) في مجلة (اعترافات حقيقية) حين انفتح باب المتجر ودخل أول زبائن الليلة. لم تعتد أن يكون المتجر خاويًا بهذا الشكل، فدائمًا ما كانت تأتي «رَثي كروكيت» وأصدقاؤها ليجلسوا حول نافورة الصودا. لم تكن تحب هذا الجَمع ولا صخبهم على أي حال. لم تأتِ «لوريتا ستارشر» لشراء جريدة «نيويورك تايمز»، وقد حجزتها لها. كانت الوحيدة في البلدة التي تتابع تلك الجريدة بانتظام. لو لم تظهر، ستضعها في غرفة القراءة ليقرأها من يريد.
لم يعُد السيد «لابري» كذلك من استراحة العشاء، لكنها عادته. السيد «لابري» أرمل يسكن منزلًا كبيرًا قرب مزرعة «جريفِن»، ولم يكن يتناول عشاءه في المنزل، بل يذهب إلى حانة «ديل» ويتناول بعض شطائر الـ (هامبرجر) ويشرب البيرة. كانت تعلم أنه لو لم يعد بحلول الحادية عشرة -وقد كانت الساعة الحادية عشرة إلا الربع- فعليها أن تُخرِج مفتاح المتجر من الخزينة وتُغلق أبوابه بنفسها. ليست هذه هي المرة الأولى، لكنها ستكون في ورطة لو دخل أحدهم طالبًا دواءً لأمر طارئ.
كانت قد افتقدت من قبل اندفاع الزبائن إلى المتجر بعد انتهاء عروض الأفلام، بعد أن أغلقوا دار سينما «نورديكا» على الجهة المُقابلة من الشارع. كانوا يطلبون المُثلجات بالصودا، والمخفوقات. يجلس المتحابون يدًا في يد يتحدثون عن الواجبات المدرسية. كانت أيام مُتخمة بالعمل، لكنها كانت مُشبعة. كان الصبية وقتها لا يشبهون جماعة «رَثي كروكيت» المُزعجة المُتحررة، التي يرتدي أفرادها الجينز الضيق إلى حد إظهار حدود ملابسهن الداخلية، لو أنهن يرتدونها من الأساس. حقيقة شعورها تجاه تلك الأيام (على الرغم من أن نسيان تفاصيلها يُزعجها للغاية) ناتج عن حنين إلى الماضي. نظرت مُتحمسة نحو الباب حين انفتح، وكأن الداخل قد يكون أحد صِبية الماضي مع صديقته، يتوقان إلى مُثلجات «صَنداي» فوق قطعة من كيك الشوكولاتة مع مكسرات زيادة.
لكن الداخل كان رجلًا بالغًا يحمل حقيبة، شخصًا تعرفه لكنها لا تستطيع تذكُّر من يكون. شيء غريب في حركته أو إيماءات رأسه غيَّبت عنها حقيقة أنه شخص معروف تمامًا لديها. صاحت وقد فشلت في إخفاء مُفاجأتها:
- الأب «كالاهان»!

لم تره من قبل دون بذلته الكنسية. كان يرتدي الآن بنطالًا داكنًا وقميصًا أزرق مثله مثل أي عامل في مصنع نسيج.

ثم فجأة باغتها الخوف. كانت ملابسه نظيفة وشعره مصفف بعناية، لكن مع ذلك... هناك شيء في وجهه، شيء...

فجأة تذكَّرت يومًا منذ عشرين عامًا، حينما كانت في طريق عودتها من المستشفى بعد أن توفيت والدتها بسكتة دماغية مُفاجئة، أو ما كان يسميها الناس قديمًا (الشُّوطة). حين أخبرت أخاها بالخبر، بدا وجهه كوجه «كالاهان» الآن؛ شاحب، هزيل، عيناه سوداوان مذهولتان، فيهما نظرة المحكوم عليه بالموت. شعرت بالقلق حين رأت نظرة مُحترِقة في عينيه، والجلد حول فمه مُلتهب كأنه ظلَّ يحكُّه لفترة طويلة بمنشفة، محاولًا إزالة بُقعة عنيدة.

قال لها:

- أريد شراء تذكرة حافلة.

هذا هو الأمر إذًا -هكذا استنتجت- يبدو أن شخصًا عزيزًا قد توفي وقد تلقى مكالمة تخبره بالأمر في بيت القساوسة أو أيًّا ما يسمون هذا المكان.

- بالتأكيد، إلى أين؟

- إلى أين تتوجه أقرب حافلة؟

- إلى أين؟

- إلى أي مكان.

هكذا مزَّق نظريتها إلى أشلاء.

- حسنًا... أنا لا... دعني أراجع...

ظلَّت تُقلب في جداول المواعيد حينًا، ثم قالت:

- هناك حافلة الحادية عشرة وعشر دقائق، تمر على «بورتلاند»، و«بوسطن»، و«هارتفورد»، و...

- أريد تذكرة فيها. كم ثمنها؟

- في أي محطة ستنزل؟

- في النهاية.

قالها شاردًا، وابتسم. لم ترَ من قبل تلك الابتسامة المُرعبة على وجه بشري من قبل، وقد أجفلت منها. لو أنه لمسها لظلت تصرخ وتصرخ دون توقُّف.

- النهاية في «نيويورك» ثمن التذكرة سيكون تسعة وعشرين دولارًا وخمسة وسبعين سنتًا.

أخرج محفظته من جيب بنطاله الخلفي بصعوبة، ورأت أن يده اليُمنى مُضمَّدة وهي تضع أمامها المبلغ المطلوب. سقطت منها كومة التذاكر وهي تأخذ منها واحدة وتكتب بياناتها بأسرع ما يمكن، ثم ختمتها، ودفعتها عبر المنضدة كي لا تضطر إلى لمس يده. قالت مُرتجفة:

- سيكون عليك أن تنتظر الحافلة بالخارج أيها الأب «كالاهان»، فأنا سأغلق المتجر بعد خمس دقائق.

وضعت المال في الخزانة دون أن تنظر إليه أو تعدُّه. وضع التذكرة في جيب قميصه، ثم قال دون أن ينظر إليها:

- لا بأس. (وجعل الرب لـ «قايين»[73] علامة لكيلا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدُن الرب وسكن في أرض «نود» شرقي عدن). هذه آية من الكتاب المقُدس، سيدة «كوجن». أقسى عقاب ذُكِر في الإنجيل.

- حقًّا؟ أخشى أن عليك أن تخرج أيها الأب «كالاهان». أنا... السيد «لابري» قد يعود في أي وقت وهو لن يحب... لا يُحبذ أن...

- بالطبع.

قالها واستدار ليغادر. توقَّف والتفت إليها، فأجفلت من نظرته. سألها:

- أنتِ تعيشين في «فالموث»، أليس كذلك؟

- بلى.

- لديك سيارة؟

- أجل، طبعًا. أخشى أنني مضطرة إلى أن أطلب منك أن تنتظر الحافلة بالخارج...

- عودي إلى منزلك سريعًا الليلة، ولا تتوقفي لمساعدة أي شخص. أوصدي كل أبواب سيارتك، ولا تتوقفي أبدًا حتى لشخص تعرفينه.

قالت السيدة «كوجن» في تأكيد:

- أنا لا أتوقف للغرباء.

قال «كالاهان» وهو ينظر إليها بثبات:

- وحين تعودين إلى منزلك، ابتعدي تمامًا عن بلدة «أورسالم». ساءت الأمور للغاية في البلدة الآن.

قالت بصوت خافت:

- لا أعرف عمَّ تتحدث، لكن عليك أن تنتظر الحافلة بالخارج.

- أجل، بالطبع.

خرج، وأدركت فجأة كم أن المكان هادئ، هادئ تمامًا. هل حقًّا لم يأتِ أحد قط منذ حلَّ الليل إلا الأب «كالاهان»؟ لم يأتِ أحد قَط!

ساءت الأمور للغاية في البلدة الآن.

بدأت تدور في المتجر وتطفئ الأنوار.

***

في البلدة، الظلام صلد.

في الثانية عشرة وعشر دقائق، استيقظ «تشارلي رودز» على نفير طويل مُستمر، فانتبه في فراشه وانتصب جالسًا في جزع.

حافلته!

وأرفقها بـ:

أبناء الحرام الصغار!

حاول الأطفال فعل أمور مماثلة من قبل. هو يعرفهم، المُتسللون الصغار اللُعناء. في مرة، أفرغوا الهواء من الإطارات عن طريق أعواد الثقاب، لم يَر مَن فعلها، لكنه يعرف. ذهب إلى مدير المدرسة المُخنث وأبلغ عن «مايك فيلبورك»، و«أودي جيمس». كان مُتأكدًا أنهما من فعلا ذلك، فمن يحتاج إلى الرؤية للإثبات؟

أأنت واثق أنهما هما يا «رودز»؟

قلتُ لك، أليس كذلك؟

لكن الأحمق الطري لم يفعل شيئًا، وقد كان عليه أن يرفدهما. ثم استدعاه ابن الحرام إلى المكتب مرة أخرى بعد أسبوع.

«رودز»، لقد رفدنا «آندي جارفي» اليوم.

حقًّا؟ لست مدهوشًا. ماذا فعل؟

أمسكه «بوب توماس» وهو يُفرغ إطارات حافلته من الهواء.

نظر إليه المُدير نظرة طويلة باردة. ماذا لو أنه كان «جارفي» بدلًا من «فيلبروك»؟ كلهم يتسكَّعون معًا، وكلهم مُنحرفون يستحقون فَرم أصابعهم في الخلاط.

والآن، يتكرر صوت نفير حافلته ويثير جنونه ويُفرغ البطَّارية. همس:

- يا أبناء العاهرة...

قام من فراشه وجذب بنطاله دون أن يُنير المصباح، فقد يخيفهم الضوء، وهو يريد الإمساك بهم مُتلبسين.

في مرة، ترك أحدهم فطيرة من روث البقر على مقعده، وبالطبع كان يعرف من فعلها. عليك أن تراقبهم وقد تعلَّم هذا من الحرب. تولَّى أمر فطيرة الروث بنفسه، ومنع الصغير ابن العاهرة من ركوب الحافلة ثلاثة أيام، يسير فيها أربعة أميال يوميًّا من وإلى المدرسة، وفي النهاية جاءه الصبي يبكي.

أنا لم أفعل أي شيء يا سيد «رودز»، لماذا تُصر على طردي من الحافلة؟

أنت تزعم أنه لا يد لك في وضع خراء بقرة على مقعدي؟

كلا، لم أكن أنا. قسمًا بالله لست أنا.

لا يمكن أن يثق المرء في أوغاد يكذبون على أمهاتهم بابتسامة صافية وأعين صادقة. طرد الصبي يومين آخرين، ثم جاءه يعترف في النهاية، بحق يسوع.

طرده «تشارلي» ليومٍ آخر -مرة أخيرة كي لا ينسى الدرس- ثم نصحه «ديف فالسن» صديقه من مَوقَف السيارات أن يهدأ قليلًا.

ارتدى قميصه وجذب مضرب التنس. بالله، سيصفع بعض المؤخرات الليلة!

خرج من الباب الخلفي للمنزل إلى الساحة حيث يوقف حافلته الصفراء الضخمة. شعر بالأهمية والقوة، كأنه ما يزال في الجيش. وقف خلف أجمة وراح ينظر نحو الحافلة. يستطيع أن يراهم، مجموعة ظلال لأوغاد خلف الزجاج المُعتم بظُلمة الليل. شعر بالغضب القديم المُلتهب، فقبض على

المضرب بقوة حتى راحت عضلاته ترتجف. لقد هشموا... ستًّا، سبعًا، ثماني. ثماني من نوافذ الحافلة!

تسلل من خلف الأجمة، ثم على طول جانب الحافلة حتى وصل إلى الباب المفتوح، فصعد الدرجات سريعًا.

- والآن! قفوا في أماكنكم! اتركوا هذا النفير اللعين وإلا...

التفت الولد الجالس على مقعد السائق، والذي يضغط بكلتا يديه على النفير، ونظر إليه مبتسمًا في جنون. شعر «تشارلي» بأمعائه تهبط في بطنه؛ كان الجالس هو «ريتشي بودين»، أبيض كورقة فيما عدا فجوتي عينيه السوداوين كالفحم، وشفتيه اللتين تحوَّلتا إلى ياقوتتين حمراوين.

وأسنانه...

نظر «تشارلي رودز» نحو الممر بين المقاعد. هل هذا «مايك فيلبروك»؟ «أودي جيمس»؟ إلهي! ابنا «جريفن» هنا أيضًا، «هال» و«جاك» يجلسان على الأريكة الخلفية والقش يتدلى من شعريهما. لكن... هما لا يركبان حافلتي! «ماري كيت جريجسون» و«برينت تيني» يجلسان جنبًا إلى جنب، ترتدي هي جلبابًا منزليًّا، ويرتدي هو سروالًا من الجينز، وقميصًا قطنيًّا مقلوبًا.

و «داني جليك» لكن، إلهي! هو ميت منذ أسابيع!

قال من بين شفتين مُخدَّرتين:

- أيها الأولاد...

مضرب التنس في يده. صوت انغلاق الباب بعد أن جذب «ريتشي» الرافعة وهو يبتسم ابتسامته المجنونة. الكل يغادر مقعده، مُتجهًا نحوه.

قال مُحاولًا الابتسام:

- كلا... أيها الأولاد، أنتم لا تفهمون. هذا أنا، «تشارلي رودز»... أنتم... أنتم...

ظل يبتسم دون معنى، ويهز رأسه ويمد يديه أمامه كي يروا أنهما مجرد يدي «تشارلي» العجوز. لن يلومه أحد إذا تراجع خلفًا حتى لم يجد مكانًا يتراجع إليه، فضغط ظهره إلى الواجهة الزجاجية الكبيرة.

همس:

- كلا...

اقتربوا منه، مُبتسمين...

- رجاء، لا تفعلوا...

وهجموا عليه.

***

ماتت «آن نورتون» خلال رحلة المصعد القصيرة من الطابق السفلي حتى الطابق الثاني. ارتجفت مرة، ثم سالت نقطة دماء من ركن فمها.

***

كانت «إيفا ميلَّر» تحلم.

حلم غريب، وليس بكابوسٍ.

كانت نيران حريق عام واحد وخمسين تستعر تحت السماء الغضبى، التي تتدرَّج بألوان الأزرق عند الأفق، وصولًا إلى الأبيض الجائر فوق الرؤوس، تطل الشمس من خلف تلك القبَّة كعملة نحاسية. رائحة الدخان الحادة في كل مكان. توقفت كل الأنشطة، وتجمَّع الناس في الشوارع ينظرون تجاه الشمال الغربي، تجاه الغابات. ظل الدخان مُعلَّقًا في الهواء منذ الصباح، لكن الآن بعد الظهيرة، تستطيع أن ترى ألسنة اللهب تتراقص وسط الأخضر خلف مزرعة «جريفن». الرياح التي سمحت بانتشار النيران، تُسقِط عليهم الآن زخات مستمرة من الرماد الأبيض كثلوجٍ صيفية.

كان «رالف» حيًّا، يحاول إنقاذ المصنع، لكن الأمور كانت مختلطة، فقد كان «ويزل كريج» معها، وهي لم تقابله قط قبل خريف 1954.

تشاهد الحريق من نافذة غرفتها، وهي عارية. ثمة يدان تتلمسان جسدها، يدان خشنتان بُنيتان، وكانت تعرف أنه «إد» على الرغم من أنها لا ترى ولو لمحة من انعكاس صورته على الزجاج أمامها.

حاولت أن تقول: «إد»، ليس الآن، الوقت مُبكر، ما زال يفصلنا عن موعد اللقاء تسع سنوات.

لكن يديه أصرتا على لمس بطنها. حاولت إخباره بأنهما يقفان أمام النافذة، وقد يراهما أي عابر في الطريق، لكن الكلمات لم تخرج منها. قبَّل شفتيها وذراعيها ثم ضغط وجهه بقوة إلى رقبتها، شعرت بأسنانه، وكان يعَضها. يعض ويرشُف الدماء، فحاولت الاعتراض مرة أخرى: لا تترك علامة على رقبتي؛ «رالف» سيراها.

لكن الاعتراض كان مُستحيلًا، ولم تكن راغبة في الاعتراض حقًّا. لم تعد تعبأ بمن يراهما عاريين وقحين.

انتقلت عيناها إلى النيران، بينما شفتاه تعملان على رقبتها، وكان الدخان حالكًا، في حُلكة المساء، يغطي السماء بلونٍ معدني، محيلًا النهار إلى ليل، والنيران تتحرك بين الألسنة الحمراء المُلتهبة كأزهار في غابات ليلية.

ثم حل المساء فعليًّا وخَلَت البلدة، لكن النيران ظلت تستعر وتتحرك حتى شكَّلت ألسنتها وجهًا معقوف الأنف، قوي القسمات، عيناه ناريتان، شفتاه مُمتلئتان يُغطي نصفها العلوي شارب كثيف، وشعره مُصفف إلى الخلف كموسيقي.

ثم سمعت صوتًا بعيدًا، وعرفت فورًا أنه صوته.

- خزانة المطبخ، الخزانة القديمة في القبو، ستناسبني جيدًا على ما أعتقد. ثم الدَّرجات... الدرجات... من الحكمة أن يكون المرء مُستعدًّا.

خفت الصوت وخَبَت النيران، ولم يبقَ سوى الظُّلمة وهي، تحلم أو في بداية حلمها. فكَّرت بشكل ضبابي كم أن الحلم حُلو طويل، لكن تحته غلالة من المرارة المُعتمة كماء «ليث».(74)

ثم جاءها صوتٌ آخر، صوت «إد»:

- تعالي يا حبيبتي، انهضي... لنفعل كما أمر.
- «إد»؟ «إد»؟
وجهه يُطل عليها، شاحب للغاية، خاوٍ. لكنها تحبه مرة أخرى، أكثر من أي وقت مضى. تتوق إلى قُبلة من شفتيه.
- هيا يا «إيفا».
- هل هذا حلم؟
- كلا، ليس حُلمًا.
للحظة ارتعبت، ثم لم يعد هناك رُعب. حلَّ مكانه اليقين، ومع اليقين جاء الجوع.
نظرت إلى المرآة، ولم تجد سوى انعكاس حجرة نومها الخالية الهادئة. باب القبو مُغلق والمفتاح في آخر أدراج خزانتها، لكن المفاتيح لا تهم الآن، ولا حاجة إليها.
انزلقا بين الباب وحَلقه كظلين.

***

في الثالثة صباحًا، جرت الدماء بطيئة ثخينة، والنعاس ثقيل.
تنعم الروح في هذه الساعة بالغفلة المُباركة، أو تُحدِّق إلى أغوار نفسها في يأس مجنون. لا توجد أرض وُسطى. في الثالثة صباحًا، تزول الزينة عن العاهرة العجوز؛ العالم. تصير المباهج جوفاء هشة، كما في قلعة «بو» المُحاطة بالموت الأحمر. يدمِّر الملل الخوف، ويصير الحب حُلمًا.
قام «باركِنز جيلسبي» مُترنحًا من مكتبه، قاصدًا وعاء القهوة، يبدو كقرد نحيل أذبله مرض عُضال. من خلفه ساعة مُعلقة على شكل بطاقات لعب. كان قد سمع عدة صرخات في الليل، وصوت نفير عاليًا، وفي مرة سمع خطوات تعدو. لكنه لم يخرج ليتحرى أيًّا من ذلك. وجهه الأجوف وعيناه الغائرتان لا ينفك يفكر فيما يظنه يحدث بالخارج. كان يعلِّق صليبيًا، وميدالية القديس «كريستوفر» وعلامة نصر حول رقبته. لا يعرف السبب الذي دفعه لتعليقهم، لكن وجودهم طمأنه. إن مَرَّت هذه الليلة عليه بسلام، ففي الصباح سيهرب إلى أبعد مكان، تاركًا شارة الشرطة على الرف جوار مفاتيح سيارة الدورية.
«مَيبل وُرتس» كانت تجلس إلى طاولة مطبخها، أمامها كوب قهوة باردة، ولأول مرة منذ أعوام تُسدل الستائر، وتغطي عدستي منظارها المقرِّب. لأول مرة منذ ستين عامًا لا ترغب في مراقبة شيء. الليل يعُج بنميمة قاتمة لا تريد سماعها.
«بيل نورتون» كان في طريقه إلى مستشفى «كمبرلاند» إثر تلقيه مكالمة هاتفية (أُجريت بينما كانت زوجته ما تزال حية). وجهه مُتصلب، مسَّاحات زجاج السيارة تتحرك في صمت، تُزيل الأمطار المُنهالة. كان يحاول ألا يفكر في أي شيء.
هناك آخرون نائمون، أو مستيقظون في سلام، أغلبهم أشخاص وحيدون بلا أصدقاء أو أقارب، لا يعلمون شيئًا عما يجري في البلدة.

هؤلاء المستيقظون أضاؤوا كل أنوار بيوتهم حتى إن أي من يعبر بالبلدة الآن سيُذهل من الأضواء المُنبعثة منها في هذه الساعة من الليل. سيتوقف العابر ليطمئن إن كانت هناك حوادث أو حرائق، فلا يجد أيًّا منها، وسيكمل طريقه ناسيًا كل شيء.

الشيء الأهم هو أن أيًّا من المُستيقظين يعرف شيئًا عما يدور في بلدة «أورسالم». قد يراود الشك بعضهم، لكن حتى شكوكهم كانت ضبابية لا هيئة لها، لكنهم -دون تردد- هرعوا إلى أدراج مكاتبهم، أو صناديق التخزين، أو عُلب الجواهر، بحثًا عن أي رمز ديني في حوزتهم.

فعلوا كل هذا بلا تفكير، كرجل يقود في الظلام، يُغنِّي ولا يدرك أنه يفعل ذلك. ظلوا يطوفون من حجرة إلى حجرة، بأجساد هشة مرتجفة، يضيئون الأنوار، لا يجرؤون على النظر عبر النوافذ.

أهم شيء أنهم لم ينظروا عبر نوافذهم على الرغم من كل تلك الضوضاء الغريبة، والاحتمالات المُريعة، على الرغم من بشاعة المجهول، فلا شيء يضاهي خطر النظر إلى وجه (جرجونة).(75)

***

اخترقت الضوضاء نومه كمسمار يخترق قطعة خشب بلوطٍ سميكة، يغوص فيها ببطء مُمزِّقًا الألياف تدريجيًّا.

في البداية ظن «ريجي سوير» أنه يحلم بورشة نجارة، وقد طاوعه عقله المشوَّش بين النوم واليقظة، وراح يرافق الصوت بذكرياته وأبيه حين كانا يُثبتان الأخشاب على جوانب المُخيم الذي بنياه بنفسيهما في «برواينت بوند» عام 1960.

ثم خَلُص إلى أنه لا يحلم من الأساس، ويسمع مطرقة تطرق بالفعل. باغته الارتباك لحظات، ثم استيقظ وأدرك أن هناك طرقات على باب المنزل الأمامي. شخص ما يطرق الخشب بقبضته باستمرار ورتابة غريبَين.

في البداية قفزت عيناه نحو «بوني» النائمة جواره، مُتكورة في وضع جنيني تحت الأغطية، ثم نظر نحو الساعة، فوجدها الرابعة والربع.

قام وخرج من حجرة النوم مُغلِقًا بابها خلفه. أضاء نور الصالة وسار نحو الباب، ثم توقَّف وقد انتصب الشعر عند مؤخرة عنقه فجأة.

ظل «سوير» ينظر إلى الباب صامتًا يفكر... لا يقرع أحد الأبواب بهذا الشكل حتى لو أن أحد أفراد عائلته قد مات، فالجميع يتصل هاتفيًّا ولا يأتون بأنفسهم.

كان قد مكث في فايتنام لمدة سبعة أشهر من عام 1968، وقد اعتاد الاستيقاظ السريع. في لحظة تكون نائمًا كصخرة، وفي اللحظة التالية تستيقظ في قمة وعيك ببساطةِ ضغطِ زر الإنارة. ماتت هذه العادة بمجرد عودته إلى الولايات المُتحدة وكان فخورًا بهذا على الرغم من أنه لم يتحدث عنها. هو ليس آلة، بحق المسيح، تضغط على زر فيستيقظ، وتضغط على زر آخر فيقتل الأعداء.

لكن الآن، بلا أي مقدمات، يسقط عنه أي أثر للنوم، كجلد ثعبان مُنسلِخ، ويقف مُتسائلًا.

هناك شخص يقف خلف بابه، غالبًا هو الفتى «برواينت» ثملًا، ينتوي النصر أو الموت من أجل الأميرة الحسناء.

اتجه إلى حجرة المعيشة وأخرج بندقيته من خلف المدفأة المزيفة. لم يُضئ أي أنوار أخرى، فقد كان يعرف طريقه جيدًا. ظلت الطرَقات على الباب مستمرة رتيبة بلا انقطاع. فتح قفل الباب ببطء ووقف بعيدًا عنه.

صاح «ريجي»:

- ادخل!

توقفت الطرقات.

ثم رأى المقبض يدور ببطء شديد، ثم تحرك الباب كاشفًا عن «كوري براينت» الواقف خلفه. شعرَ «ريجي» بقلبه يتداعى في صدره، فقد كان الشاب يرتدي ذات الملابس التي كان يرتديها في آخر مرة رآه، لكنها الآن صارت ممزقة ملوَّثة بالطين، تتعلق أوراق الشجر الجافة ببنطاله وقميصه، وثمة خيط من التراب بطول جبهته يُبرز شحوبه الاستثنائي.

رفع «ريجي» البندقية، وجهَّزها للإطلاق، ثم صاح:

- قف مكانك. هذه المرة البندقية مُعبَّأة.

لكن «كوري براينت» اندفع نحوه، عيناه الكئيبتان مُسلطتان على وجه «ريجي» بتعبير أسوأ من الكراهية. يلعق شفتيه بلسانه، كُتل الطين الجاف تتساقط على أرضية الصالة إذ يندفع بخطوات ثقيلة تلائم نظرة الانتقام في عينيه. لن ينفع أمر ولا رجاء معه.

- خطوة أخرى وسأفجر رأسك!

كلماته جاءت قوية جافة. الشاب في حالة أسوأ من حالات الثمالة، هو بالتأكيد جُن. عرف يقينًا أنه سيضطر إلى إطلاق النار عليه.

- توقف.

لم يتوقف «كوري براينت» ولم تتحرك عيناه عن «ريجي»، ولم تكُف قدماه عن قرع الأرضية بخطواتها الثقيلة. من خلفه صرخت «بوني».

- عودي إلى الحجرة!

ووقف بينها وبين «كوري» الذي كان على بعد خطوتين فقط، وقد مد يده الشاحبة ليمسك ماسورة البندقية.

جذب «ريجي» الزنادين.

دوى صوت الطلقة كرعدٍ في الصالة الصغيرة، واندفعت النيران لثانية من خلال الماسورتين، فملأت المكان رائحة البارود المحترق. ظلت «بوني» تصرخ صرخات تُصم الآذان، بينما قميص «كوري» تمزق واسوَدَّ، كأنما تحلل بدلًا من أن يُثقَب.

حين انفتح القميص مُتحررًا من أزراره، لم يبدُ على لحم صدره وبطنه الأبيض أي علامة. بدأ «ريجي» في الظن أن هذا اللحم ليس لحمًا على الإطلاق، بل خامة رديئة مثل خامة الستائر القطنية.

طار السلاح من بين يديه، كأنما كان بين يدي طفل. ثم ارتفع هو نفسه وضُرِب إلى الحائط بقوة رجَّت أسنانه في فكيه. رفضت ساقاه أن تدعماه، فهوى أرضًا. سار «براينت» نحو «بوني» التي كانت مُمسكة بالباب، عيناها مُثبتتان على وجهه. لاحظ «ريجي» حرارة الشوق في عينيها.

نظر «كوري» من فوق كتفه نحو «ريجي» وابتسم ابتسامة مُرعبة، كابتسامة جماجم الأبقار البرية التي يراها السائحون مُتناثرة في الصحراء. مدت «بوني» ذراعيها نحوه، تمايلا معًا، على وجهها الرعب والشبق يتبادلان الظهور كضوء الشمس والظل.

- حبيبي!

قالتها، فصرخ «ريجي».

***

قال سائق الحافلة:

- وصلنا «هارتفورد».

نظر «كالاهان» عبر النافذة العريضة المطلية نحو البلدة الغريبة، والتي ازدادت غرابتها مع تسلل ضوء الشمس الأول هذا الصباح. يبدو أنهم يعودون إلى جحورهم الآن في بلدة «سالم».

قال «كالاهان»:

- أعرف.

- سنتوقف للراحة لمدة عشرين دقيقة. ألا ترغب في النزول لتناول شطيرة أو شيء؟

أخرج «كالاهان» محفظته بيده المُضمَّدة، وكادت تسقط منه. الغريب أن يده المحترقة لم تعد تؤلمه، فقط هي خدِرة. كان من الأفضل لو تؤلمه، على الأقل فالألم حقيقي. طعم الموت في فمه، مُر لاذع كطعم تفاحة متعفنة.

مدَّ يده بعشرين دولارًا وقال:

- هلا اشتريت لي زجاجة خمر.

- سيدي، القوانين...

- واحتفظ بالباقي طبعًا.

- لا أريد أن يثمل أحد في حافلتي يا سيدي. سنصل «نيويورك» بعد ساعتين، ويمكنك أن تشتري ما تشاء من هناك.

قال «كالاهان» في نفسه: أظنك مُخطئًا يا صديقي. نظر إلى محفظته ليرى كم تبقى فيها؛ ورقة بنكنوت من فئة عشرة دولارات، وورقتان من فئة الخمسة دولارات، ودولار واحد. أضاف عشرة دولارات إلى المبلغ ومد بها يده المُضمدة وقال:

- نصف لتر سيكون كافيًا، واحتفظ بالباقي طبعًا.

نقل السائق عينيه من المال إلى العينين الغائرتين، وللحظة شعر أنه يُحادث جمجمة حية، جمجمة نسيت كيف تُكشر تكشيرتها المعتادة.

- ثلاثون دولارًا لأجل نصف لتر؟ أنت مجنون يا سيدي.

لكنه أخذ المال، وسار نحو مقدمة الحافلة الخالية. التفت خلفه مُحذِّرًا:

- لا تثمل؛ أنا لا أريد سكارى في حافلتي.

أومأ «كالاهان» كطفل صغير ينصاع لأمر الكبار. نظر إليه السائق، ثم نزل من الحافلة.

غالبًا سيشتري خمرًا رخيصًا. خمرًا يحرق اللسان ويُلهِب الحلق، خمرًا يُذهِب عنه هذا الطعم اللطيف الحُلو... أو على الأقل يُبعده حتى يجد مكانًا يشرب فيه على راحته... يشرب ويشرب ويشرب.

شعر أنه على حافة الانهيار والبكاء، لكنه لم يجد دموعًا. كان جافًّا خاويًا تمامًا... لم يكن هناك شيء سوى... هذا الطعم.

أسرع أيها السائق.

ظل ينظر عبر النافذة، ورأى صبيًّا يجلس على مقعد الانتظار، ورأسه يتوسَّد ذراعيه. ظل «كالاهان» يرمقه حتى غادرت الحافلة، ولم يتحرك الصبي.

***

شعر «بِن» بيد توضَع على ذراعه، فقام مستيقظًا، ليجد «مارك» قريبًا من أذنه، يهمس:

- صباح الخير.

فتح عينيه ورمش مرتين ليزيل النوم عنهما، ثم نظر عبر النافذة إلى العالم بالخارج.

جاء الفجر يتسلل من خلف أمطار الخريف التي لم تكن خفيفة أو ثقيلة، فقط منتظمة. الأشجار التي تحيط بالمدخل الجانبي للمستشفى تكاد تتعرى تمامًا من أوراقها، وقد تشابكت فروعها الجافة السوداء أمام خلفية سماء الفجر كأنها حروف عملاقة بلغة مجهولة. الطريق رقم 30، الخارج من البلدة نحو الشرق، كان زلقًا لامعًا كجلد عجل البحر. سيارة تمر عليه، فينعكس ضوؤها الخلفي الأحمر الشاحب على الأسفلت.

قام «بِن» ناظرًا حوله. ما يزال «مات» نائمًا، يرتفع صدره وينخفض في تنفُّس هادئ مُستقر. «جيمي» أيضًا كان نائمًا، مُمدَّدًا على كرسي كبير، وقد بدأت شعيرات ذقنه في الظهور. مسَّد «بِن» خديه فوجدهما خشنين هو الآخر.

سأل «مارك»:

- جاء وقت الخروج؟

أومأ «بِن»، وفكَّر في اليوم المُمتد أمامهم بكل احتمالاته الغامضة، ثم فضَّل ألا يفكر. الطريقة الوحيدة لقضاء هذا اليوم هو التفكير في كل عشر دقائق قادمة لا أكثر. نظر إلى وجه الصبي، وهالَه منظر التصميم على ملامحه. اتجه إلى «جيمي» ليوقظه، فغمغم الأخير:

- هه؟

حرَّك يديه وذراعيه كسبَّاح يخوض في مياه عميقة، وقد اتسعت عيناه وارتجف وجهه مُظهِرًا رعبًا حقيقيًّا. نظر إليهما غير فاهمٍ، وكأنه لا يعرفهما. ثم هدأ، وارتخى جسده فهمس:

- أوه، كان حُلمًا.

أومأ «مارك» في تفهُّمٍ شديد. نظر «جيمي» عبر النافذة وقال:

- الشروق...

قام مُتجهًا نحو «مات»، وأمسك بمعصمه يقيس نبضه. سأله «مارك»:

- أهو بخير؟

- أعتقد أنه أفضل من ليلة أمس. «بِن»، أريد أن ننزل في مصعد الخدمات، في حال لاحظ أحدهم وجود «مارك». كلما قلَّت المخاطرة كان أفضل. سأل «مارك» مرة أخرى:

- هل سيكون السيد «بُرك» بخير وحده؟

أجاب «بِن»:

- أعتقد هذا. يجب أن نثق في براعته. لن يرغب «بارلو» في شيء قدر رغبته في إعاقتنا ليوم آخر.

تسللوا على أطراف أصابع أقدامهم عبر الممر واستخدموا مصعد الخدمات. كان مطبخ المستشفى يعُج بالحركة في هذه الساعة (السابعة إلا ربع). رفع طبَّاخ رأسه وهتف:

- أهلًا أيها الطبيب.

لكن أحدًا لم يحاول الحديث معهم غيره. سأل «جيمي»:

- إلى أين سنتجه أولًا؟ مدرسة شارع «بروك»؟

قال «بِن»:

- كلا. سيكون هناك زحام قبل العصر. هل يخرج الصغار من المدرسة مبكرًا يا «مارك»؟

- لا يخرجون قبل الساعة الثانية.

- سيكون أمامنا وقت من ساعات النهار. لنذهب إلى منزل «مارك» أولًا ونُجهز الأوتاد.

***

كلما اقتربوا أكثر من البلدة، تزايد الرعب مُتجسدًا في سيارة «جيمي»، وقلَّ الحديث. حين أوقف الطبيب السيارة جوار لافتة طريق 12 المؤدي إلى «أورسالم»، تذكَّر «بِن» أنه وسوزان قد سارا على ذات الطريق في أثناء عودتهما من موعدهما الأول... كانت تريد مشاهدة فيلم فيه سباق سيارات. قال «جيمي» وقد ظهر الخوف على وجهه الطفولي:

- تدهورت الأمور. يمكنك أن تشم هذا عن بُعد.

على الرغم من أن الرائحة كانت رائحة عقلية لا فعلية، فإن «بِن» شمها، وكانت كنفحة من هواء المقابر.

الطريق رقم 12 كان شبه مهجور الآن، وفي طريقهم رأوا شاحنة «وِن بورينتون» لتوزيع منتجات المزارع واقفة على جانب الطريق، خالية، موتورها يعمل، فأوقفه «بِن» وهو يفتش السيارة، ثم أعلن:

- هو ليس هنا. السيارة كذلك فرغت من الوقود، فقد كان المحرك يعمل لساعات.

ضرب «جيمي» فخذه بقبضته، ومع دخولهما البلدة، قال بصوتٍ أكثر استرخاءً:

- انظر هناك، متجر «كروسِن» مفتوح.

كان كذلك، و«ميلت» جالس عند المدخل يفرد غطاءً بلاستيكيًّا شفافًا فوق جرائده، و«ليستر سيفيوس» واقف جواره مُرتديًا بنطاله الأصفر.

قال «بِن»:

- مع ذلك، لا أرى باقي العاملين في المتجر.

نظر «ميلت» إليهم، ولوَّح بيده، ولاحظ «بِن» أمارات التوتر والإجهاد على وجه الرجلين. ما زالت لافتة (مغلق) معلَّقة على دار «فورمان» للجنازات، كذلك متجر المُعدات مغلق هو ومتجر «سبنسر».

بعد مرورهم بالمطعم المفتوح، أوقف «جيمي» سيارته أمام المتجر الجديد الذي تحمل لافتته عبارة («بارلو» و«ستراكر» للأثاث الفاخر)، وكما قال الأب «كالاهان»، أسفلها على الباب لافتة «مغلق حتى إشعار آخر» مكتوبة بخط مزخرف نضيد يعرفونه جيدًا...

سأله «مارك»:

- لمَ توقفت هنا؟

- قد يكون مختبئًا بالداخل، لكنني أعتقد أنه سيتفادى المكوث هنا، لأنه أول مكان سيخطر ببالنا. لكن علينا استثناء المكان من قائمتنا.

داروا حول المتجر، وبينما كان «بِن» و«مارك» يقوِّسان ظهريهما اتقاءً للمطر، كسر «جيمي» زجاج الباب الخلفي بكوعه المُغطى بالمعطف، ومد يده يفتحه حتى يدخل رفيقاه.

لا يوجد ما يختبئ فيه أحد هنا، فقد كانت قاعة العرض خالية. صاح «جيمي» فقفز قلب «بِن» بين ضلوعه:

- تعال هنا...

كان «جيمي» و«مارك» يقفان جوار صندوق خشبي طويل، فتحه الأول بطرف مطرقتـه المُدبـب. وبالنظـر عبر الفرجة المفتوحـة رَأَيَا يدًا شاحبة تخرج من كُمٍّ أسود.

دون تفكير، هاجم «بِن» الصندوق، بينما حاول «جيمي» فتحه أكثر بطرقات من مطرقته وهو يقول:

- «بِن»، ستجرح يديك. أنت...

لم يرد، وظل يقتلع الألواح عن الصندوق دون أن يعبأ بالشظايا والمسامير. لقد وجدَاه، وجدَا المخلوق الليلي المراوغ، وسيغرس في صدره الوتد كما غرسه في صدر «سوزان»، سوف...

خلع قطعة أخرى من الخشب الرخيص، فوجد نفسه يحدق إلى وجه «مايك ريرسون» الشاحب الميت. للحظات ساد صمت مهيب، ثم زفروا فكانت أنفاسهم كريح رقيقة هبَّت داخل الحجرة. سأل «جيمي»:

- ماذا نفعل؟

قال «بِن» بصوت محبَط:

- لا بد أن نذهب إلى منزل «مارك» أولًا كي نصنع الأوتاد. لا يوجد لدينا مخزون منها.

أعادوا قِطع الخشب المكسور إلى مكانها كيفما اتُّفق. قال «جيمي»:

- دعني أفحص يديك، فقد جرحتهما.

- لاحقًا، هيا بنا.

خرجوا من المتجر شاعرين براحة الهواء النقي إذ يدخل صدورهم. عادوا بالسيارة إلى شارع «جوينتر» في المنطقة السكنية من البلدة، والبعيدة عن صخب المنطقة الصناعية. وصلوا إلى منزل «مارك» أسرع مما تصوروا. كانت سيارة الأب «كالاهان» واقفة خلف سيارة «هنري بِتري» أمام المنزل، وبمرآها، كتم «مارك» أنفاسه وأبعد عنها نظره وقد اختفى أي لون من وجهه. غمغم:

- لا أستطيع الدخول. آسف. لكنني سأنتظر في السيارة.

قال «جيمي»:

- لا يوجد ما يدعو للأسف يا «مارك».

أوقف السيارة وأغلق المحرك، ثم خرج هو و«بِن» بعد أن تردد لدقيقة، وضع يده على كتف «مارك» وسأله:

- هل أنت واثق أنك ستكون بخير؟

- بالتأكيد.

لكنه لم يبدُ بخير على الإطلاق، فقد كانت ذقنه ترتجف، وقد امتلأت عيناه بالألم بدلًا من الخواء، واغرورقتا بالدموع وهو يقول:

- غَطِّهما، لو أنهما ميتان، غَطِّهما.

قال «بِن»:

- بالتأكيد.

- هذا أفضل لهما. والدي كان سيصبح مصاص دماء خطرًا، ربما في خطورة «بارلو». لقد كان بارعًا في أي شيء يجربه. أكثر براعةً من اللازم.

قال «بِن» كارهًا الكلمات الكاذبة الخارجة من فمه:

- حاول ألا تُفكر كثيرًا.

نظر إليه «مارك» مبتسمًا ابتسامة أليمة وقال:

- كومة الخشب خلف المنزل. ستنجزان العمل سريعًا لو استخدمتما مِخرطة أبي في القبو.

- حسنًا هوِّن على نفسك يا «مارك» قدر استطاعتك.

لكن الصبي كان ينظر بعيدًا الآن، يمسح عينيه بذراعيه.

صعدا الدرجات، ودخل «بِن» و«جيمي» إلى المنزل.

***

قال «جيمي»:

- «كالاهان» ليس هنا.

كانوا قد فتشوا المنزل بأكمله. أجبر «بِن» نفسه على الحديث:

- لا بد أن «بارلو» قد أمسك به.

كان ينظر إلى الصليب المكسور بين يديه، والذي كان مُعلَّقًا حول رقبة القس أمس. هذا هو الأثر الوحيد المتبقي منه، وقد كان ملقى جوار جسدي والدَي «مارك»، اللذَين قد ضُرب رأساهما بقوة

هشمت جمجمتيهما. تذكَّر «بِن» قوة السيدة «جليك» الاستثنائية، وشعر بغثيان. قال لـ «جيمي»:

- هيا، علينا أن نغطيهما كما وعدنا.

***

غطَّيا الجثمانين بغطاء الأريكة، حاول «بِن» ألا ينظر إليهما أو يفكر فيما كانا يفعلانه، لكن كان هذا مستحيلًا.

حين انتهيا، ظلت يد صغيرة بارزة مطلية الأظفار، يد «جُون». دفعها بطرف إصبع قدمه إلى ما تحت الغطاء وهو يغالب القيء. منظر الجسدين تحت الغطاء مميز، لا يمكن إنكاره. تذكِّره صورتهما بصور ساحات حرب فايتنام، والجثث المُعبأة في أجولة من المطاط أشبه بحقائب مضارب الجولف.

نزلا إلى القبو، محمَّلان بالأخشاب ذات الأطوال المتقاربة.

يعكس القبو شخصية مالكه؛ يتدلى من سقفه ثلاثة مصابيح قوية تُضيء مساحة العمل، كل منها داخل دَرَقة من معدن لامع، يتيح للضوء أن يكون مُركَّزًا ساطعًا فوق المكان المطلوب، المرصوص فوقه المناشير والمبرد الكهربي. رأى «بِن» أن «هنري بِتري» كان يبني منزلًا للطيور من الخشب، ربما كان سيضعه في الحديقة الخلفية الربيع القادم. المُخطط الذي كان يعمل عليه مفرود فوق الطاولة ومُثبت عند كل ركن بثقَّالة أوراق معدنية. الآن، لن يُكمل مشروعَه أحدٌ.

كانت الأرض منظفة بعناية، لكن رائحة برادة الأخشاب تفوح مداعبة لديهما شعورًا بالحنين إلى الماضي. قال «جيمي»:

- لن يفلح هذا أبدًا.

- أعرف.

- كومة الأخشاب!

قالها ونَخَر، تاركًا كومة الأخشاب تسقط من بين ذراعيه، وتتدحرج في كل مكان. ضحك ضحكة هستيرية عالية، وقبل أن يُقاطعه «بِن» أردف:

- سوف نخرج وننهي المحرقة بكومة أخشاب من خلف منزل «هنري بِتري». ما رأيك أن نجمع بعض أرجل المقاعد ومضارب كرة القاعدة كذلك؟

- «جيمي»، ماذا في وسعنا أن نفعل غير ذلك؟

نظر «جيمي» إليه، وأعاد نفسه تحت السيطرة بجهد جهيد، ثم قال:

- ما نفعله مجرد لعب لا أكثر. إلهي... يمكننا الخروج من البلدة. هذا شيء في مقدورنا فعله.

- أنت تريد الاستسلام؟ أهذا ما تريد؟

- كلا، لكننا لن نقدر على تغيير كل شيء في يوم. سنحتاج إلى أسابيع يا «بِن» كي نتخلص منهم جميعًا، لو أننا استطعنا هذا من الأساس. هل ستتحمل هذا؟ هل ستتحمل فعل ما فعلته بـ «سوزان» آلاف المرات؟ تُخرجهم من جحورهم وخزاناتهم العفنة يركلون ويصرخون، وتغرس الأوتاد في قلوبهم وتسحقها؟ هل ستتحمل تكرار هذه العملية يوميًّا دون أن تُجَن؟

حاول «بِن» التفكير في كل هذا، ولم يصل إلا إلى حائط صلب من عدم الفهم.

- لا أدري.

- حسنًا. ماذا عن الصبي؟ هل سيتحمل؟ هل هو مستعد لصيد المجانين هذا؟ سيموت «مات»... أضمن لك ذلك. وماذا سنفعل حين تشم شرطة الولاية رائحة ما يحدث في بلدة «أورسالم»؟ بماذا سنخبرهم؟ اعذروني ريثما أضع وتدًا في قلب مصاص الدماء هذا؟ ماذا عن ذلك يا «بِن»؟

- وكيف أعرف بحق الجحيم؟ من لديه فرصة للتفكير؟

لاحظا فجأة أنهما كان يقفان مُتقاربَين حتى يكاد أنفاهما أن يتماسا وهم يصرخان في بعضهما.

- مهلًا يا «جيمي»... مهلًا... معذرة.

قالها «بِن» وأخفض عينيه. ردَّ «جيمي» وهو يمرر كفه خلال شعره بلون الجزر:

- كلا، هذا خطئي. نحن تحت ضغط رهيب، لكن «بارلو» سيطالب بمشهد النهاية.

لمح شيئًا جوار مُخطط «هنري بِتري»، كان قلمًا أسود من الشمع الدُّهني.

- ربما هذا هو الحل الوحيد.

- ماذا؟

- ابقَ هنا يا «بِن»، وابدأ في صنع الأوتاد. إن كنا سنفعلها، فيجب أن نراعي القواعد العلمية. أنت قسم الإنتاج، وسيكون «مارك» وأنا الباحثَين، سنجوب البلدة بحثًا عنهم، سنجدهم كما وجدنا «مايك»، ثم سأضع علامة على أماكنهم بهذا القلم، وغدًا، نغرس الأوتاد في قلوبهم.

- ألن يلاحظوا العلامات وينقلوا أماكنهم؟

- لا أظن. لم تبدُ السيدة «جليك» ذكية وواعية. أعتقد أنهم يتحركون بناء على غرائزهم لا على أفكارهم. ربما يتعقَّلون مع الوقت ويجيدون الاختباء، لكن على الأقل يسهل صيدهم الآن.

- ولمَ لا أذهب أنا؟

- لأنني أعرف البلدة والبلدة تعرفني. الأحياء يختبئون في بيوتهم اليوم، ولو أنكَ طرقت أبوابهم لن يجيبوك، بينما سيرحبون بي. أنا أعرف أماكن الاختباء وأعرف المستنقعات والطرق المهجورة وأنت لا تعرفها. هل يمكنك تشغيل هذه المِخرطة؟

- أجل.

كان «جيمي» مُحقًّا بالطبع، لكن الراحة التي شعر بها كونه غير مضطر إلى الخروج والمواجهة أصابته بتأنيب الضمير.

- هيا ابدأ، الوقت تجاوز الظهيرة.

التفت «بِن» إلى المخرطة، ثم توقف وقال:

- لو انتظرت نصف ساعة، يمكنني أن أزوِّدك بستة أوتاد تستخدمهم.

انتظر «جيمي» لحظات، ثم أخفض عينيه وقال:

- أعتقد غدًا. غدًا سيكون...

- حسنًا. لم لا تعود عند الثالثة؟ فتكون الأمور قد هدأت حول المدرسة فنستطيع تفتيشها.

- اتفقنا.

صعد «جيمي» الدرجات، ثم باغتته فكرة أو إلهام، فالتفت ناظرًا إلى «بِن» الذي يعمل تحت الأضواء المُصطفَّة. خطر بباله شيء، لكنه اختفى.

أغلق «بِن» المخرطة وسأله:

- هل هناك شيء؟

- كانت على طرف لساني، ولا أستطيع التفوه بها.

رفع «بِن» حاجبيه، فاستطرد الطبيب:

- حين التفتُّ ورأيتك تعمل، خطر ببالي شيء، لكنني نسيته.

- شيء مهم؟

- لا أعرف.

ظل يُحرك ساقيه وهو واقف في مكانه، ثمة شيء في وقوف «بِن» تحت الأضواء يعمل. شيء كلما فكَّر فيه ابتعد عنه. صعد الدرجات وعبَر المطبخ قاصدًا سيارته.

وبدأ المطر يقل حتى صار رذاذًا.

***

كانت سيارة «روي مَكدوجال» تقف في ساحة المقطورات في منطقة المنحنى، ورؤيتها هنا في يوم عملٍ أثار ريبة «جيمي».

نزل و«مارك» حاملًا حقيبته السوداء، وصعدا الدرجات. قرع جرس الباب فوجده مُعطلًا، فطرق، ولم تلفت الطرقات نظر أحد في مقطورة آل «مَكدوجال» ولا في المقطورات الأخرى. حاول فتح الباب فوجده مغلقًا.

- هات المطرقة من فوق مقعد السيارة.

فهم «مارك» على الفور. كسر «جيمي» بها زجاج الباب جوار المقبض، ثم مد يده وهشم القفل. كان الباب الداخلي غير موصد فدخلا.

صدمتهم الرائحة على الفور، وشعر جيمي بطاقتي أنفه تنكمشان في محاولة لصد الرائحة. لم تكن قوية كتلك التي كانت في قبو منزل «مارستِن»، لكنها كانت مُقرفة كفاية. رائحة عفن وموت.

تذكَّر «جيمي» حين كان طفلًا، وأصدقاؤه يركبون دراجاتهم خلال عطلة الربيع ويجمعون زجاجات البيرة والمياه الغازية التي كشف عنها ذوبان الجليد. في إحدى تلك الرحلات، وجد فأرًا متعفنًا قد جذبته المشروبات، لكنه دُفِن معها. شم هبَّة منها، فتقيأ على الفور. الرائحة الآن تشبهها، نتنة مثيرة للغثيان. قال «مارك»:

- هم هنا في مكانٍ ما.

فتشا المكان بعناية وفتحا الخزانات. ظن «جيمي» أنه وجد شيئًا في خزانة حجرة النوم الرئيسية، لكها كانت مجرد كومة ملابس.

سأل «مارك»:

- ألا توجد أقبية هنا؟

- كلا، لكن ربما هناك مخابئ.

دارا حول المقطورة، فوجدا بابًا ينفتح إلى الداخل عند أساس المقطورة الخرساني الرخيص. انهال «جيمي» بالمطرقة على قفله حتى خلعه، وهبَّت تجاههما رائحة خانقة.

- هم هنا.

مال «جيمي» مُلقيًا نظرة، فوجد ستة أزواج من الأقدام، كأنهم جثث مُتراصة في ساحة حرب. زوجان من الأقدام في حذائي عمل، وزوجان في خفين منزليين، وزوجان صغيران حافيان.

مشهد عائلي... خيَّم عليه إحساس بالغرابة. أي وحش قد يفعل هذا برضيع؟

وضع علامة بقلم الشمع الأسود، وأخذ القفل المكسور، ثم هتف:

- لنذهب للباب التالي.

قال «مارك»:

- انتظر. دعني أخرِج واحدًا منهم.

- تُخرجه؟ لماذا؟

- ربما يقتلهم ضوء النهار، ربما لن نضطر إلى قتلهم بالأوتاد.

شعر «جيمي» بأمل، فصاح:

- حسنًا. أيهم؟

قال «مارك» على الفور:

- ليس الطفل. امسك إحدى قدمي الرجل...

- حسنًا.

جفَّ ريق «جيمي» وتحوَّل فمه إلى قطن. زحف «مارك» على بطنه، وتكسَّرت أوراق الشجر الجافة تحت ثقله. أمسك بواحد من حذائَي «روي مَكدوجال»، وجذب، بينما جلس «جيمي» القرفصاء جواره، جاذبًا القدم الأخرى. وأخيرًا أخرجاه إلى الضوء الأبيض.

ما تلا ذلك كان غير مُحتمَل. بدأ «روي» يتلوى بمجرد أن لامسته أشعة الشمس، كأنه رجل قلق في منامه. تصاعد البخار والرطوبة من مسامه، وبدأ الجلد في الاصفرار والتجعُّد. تحرَّكت كُرتا عينيه تحت جفنيه المغلقين، وركلت قدماه ببطء التربة المبللة.

تراجعت شفته العليا كاشفة عن أنياب كأنياب كلب ضخم. يداه تنقبضان وتنبسطان، وحين لمست واحدة منهما قميص «مارك» تراجع صارخًا في اشمئزاز.

تدحرج «روي» على بطنه، وحاول الزحف نحو مخبئه، أصابعه وقدماه يحفران خنادق صغيرة في الأرض المُبللة. لاحظ «جيمي» أن البَخْر من جسد الرجل قد توقَّف بمجرد أن دخل إلى حيز الظل مرة أخرى. حين وصل المخبأ، نام على ظهره مرة أخرى وسكن.

صاح «مارك»:

- أغلقه، رجاءً، أغلقه!

أغلق «جيمي» الباب وأعاد القفل إلى مكانه قدر الإمكان. ظلت صورة «روي» يتلوى كالثعبان فوق الأرض المُبللة لا تغادر ذهنه. لا يظن أنه سيأتي وقت تغادر فيه هذه الصورة رف ذكرياته حتى لو عاش مائة عام.

***

وقفا يرتجفان تحت المطر. سأله «مارك»:

- الباب التالي؟

- منطقي أن يكونوا هم أول من هاجمهم آل «مكدوجال».

قادتهما أنفاهما إلى المكان الصحيح، حيث تحمل المقطورة اسم «إيفانز». يعرفه «جيمي» وهو يعمل في ورشة إصلاح سيارات في «جيتس فول». كان قد عالجه منذ عامين تقريبًا من كيس دهني.

هذه المرة، لم يكن الجرس معطلًا، لكن أحدًا لن يُجيبه.

وجدوا السيدة «إيفانز» على فراشها، والطفلين في منامتين متشابهتين منقوشتين بشخصيات الرسوم المتحركة، في فراش مزدوج في الحجرة الصغرى.

«ديف إيفانز» نفسه كان مختبئًا في مساحة التخزين فوق المرأب، والتي لم يكن قد انتهى من بنائها بعد.

وضع «جيمي» علامة على الباب الأمامي وباب المرأب.

- نحن نبلي بلاءً حسنًا.

قال «مارك» متململًا:

- هلا انتظرنا لحظات؟ أريد أن أغسل يديَّ.

- بالتأكيد. لا أظن آل «إيفانز» سيمانعون استخدامنا حمامهم.

جلس «جيمي» على مقعد في حجرة المعيشة، وأغلق عينيه.

على شاشة جفنيه السوداء، رأى منضدة التحنيط، وجسد «مارجوري جليك» مُغطى فوقها. ثم بدأ يتحرك، ورأى يدها تظهر من تحت الملاءة، و...

فتح عينيه.

المقطورة في حال أفضل من حال مقطورة آل «مكدوجال». كانت السيدة «إيفانز» تعتني بها. ثمة كومة من لعب الأطفال في حُجيرة تخزين صغيرة غالبًا كانت حجرة الغسيل كما يكتبون عنها في الإعلانات. يا لبؤس الأطفال! تمنى لو امتد بهم العمر واستمتعا بألعابهم تحت ضوء الشمس. من بين الألعاب دراجة ثلاثية العجلات، ونماذج من البلاستيك لشاحنات ومحطة تزويد وقود، ومنضدة بلياردو صغيرة.

كان قد بدأ في الابتعاد عن الخزانة، حين تذكَّر شيئًا، فالتفت جَزِعًا.

طبشور أزرق.

ثلاثة مصابيح إنارة في صف واحد.

الرجال يدورون حول منضدة خضراء، يمسحون أثر الطبشور الأزرق عن أصابعهم...

صاح:

- «مارك»!

خرج «مارك» من الحمام فزِعًا ليرى ماذا به.

***

مرَّ أحد طلبة «مات» القدامى عليه في المستشفى في الثانية والنصف. علَّق على أكوام الكتب حوله، وسأل «مات» إن كان يقوم بدراسة حول السحر. لم يستطع «مات» تذكُّر إن كان اسم الشاب «هربرت» أم «هارولد».

كان «مات» يقرأ كتاب (حوادث اختفاء غامضة) حين دخل «هربرت/هالرولد»، فرحَّب بهذه المقاطعة. كان ينتظر مكالمة طيلة الوقت على الرغم من أنه كان يعرف أن المجموعة لن تكون قادرة على دخول مدرسة شارع «بروك» قبل الثالثة. كان يتوق لمعرفة ما حدث مع الأب «كالاهان»، والوقت يمر ببطء شديد.

بدأ يخبر «هربرت/هالرولد» عن بلدة «مومسن» التي كان يقرأ عنها للتو. كانت القصة مثيرة بالنسبة إليه، وإن كانت حقيقةً، فهي تشبه كثيرًا مصير بلدة «سالم» في المستقبل القريب.

قال لـ «هربرت/هالرولد» الذي كان يسمع في أدب محاولًا إخفاء ملله:

- الجميع اختفى. بلدة صغيرة هي يمكنك الوصول إليها من طريق رقم2 أو طريق «فيرمونت» رقم 19. كان سكانها بحسب تعداد عام 1920 ثلاثمائة واثنتي عشرة نسمة. في أغسطس من عام 1923، قلقت سيدة في «نيويورك» بشأن أختها التي لم تكتب إليها منذ شهرين، وذهبت وزوجها إلى هناك، وكانوا أول من أبلغ الجرائد الخبر. لكنني أشك أن المحليين في البلدات المجاورة عرفوا بشأن الاختفاءات منذ فترة. كل مكان في البلدة خاوٍ، بل إنهم وجدوا عشاءً لم يُمَس على إحدى الطاولات. مؤلف الكتاب عن البلدة يزعم أن الناس في القرى المجاورة يحكون بعض القصص الغريبة عن العفاريت وكل تلك الأمور. الكثير من الحظائر كانت تحمل علامات سحرية لطرد الشر، وصلبان مرسومة بالدهان على أبوابها، وكل هذا ما زال موجودًا حتى اليوم. انظر، هذه صور للمتاجر ومحطة تزويد الوقود. ماذا تظنه قد حدث هناك؟

نظر «هربرت/هالرولد» إلى الصور في أدب، مجرد بلدة صغيرة قليلة المتاجر والمنازل، أغلبها مُثقل بثلوج الشتاء حتى كاد يتهدَّم. حالها كحال بلدات كثيرة. لو أنك خضت في واحدة منها بعد الثامنة مساءً، لن تعرف إن كانت مسكونة أم مهجورة. فكَّر «هربرت/هالرولد» أن الرجل قد جُن في آخر أيامه ليهتم بأمور كهذه. كانت له خالة زعمت في أواخر أيامها أن ابنتها قتلت قطها، وكانت تُطعمها إياه دون علمها. أحيانًا ما يصير العجائز على شيء من الغرابة.

قال لـ «مات»:

- أمر مثير حقًّا. لكنني لا أظن... سيد «بُرك»؟ سيد «بُرك»؟ ما بك؟ هل أنت... أيتها الممرضة! النجدة!

ثبتت عينا «مات»، وقبضت يده على الملاءة، والأخرى على صدره. شحب وجهه، وراح النبض يُحرك الشريان في منتصف جبهته.

هذا قريب للغاية...

تُغرقه موجات الألم، تجذبه نحو قاع الظلام...

انتبه من الدرجة الأخيرة كي لا تزلَّ قدمك...

هرع «هربرت/هالرولد» خارجًا من الحجرة، مصطدمًا بالمقعد، مُسقِطًا كومة كتب. كانت الممرضة آتية، تكاد تجري.

قال «هربرت/هالرولد»:

- إنه السيد «بُرك».

كان مُمسكًا بالكتاب، وسبابته بين دفتيه تُعلِّم مكان صور بلدة «مومسن». أومأت الممرضة ودلفت إلى الحجرة. كان «مات» مُستلقيًا مُغمض العينين، ونصف رأسه خارج الفراش. سألها «هربرت/هالرولد» في قلق:

- هل...

وكان هذا سؤالًا كاملًا.

- أجل، أعتقد هذا.

قالتها وهي تدفع زرًّا لتستدعي وحدة الإنعاش القلبي.

- يجب أن تخرج الآن.

صارت هادئة الآن وقد أبلغت كل من يجب إبلاغه، لاحقًا سيكون لديها وقت كي تحزن على غدائها الذي لم تُكمله.

***

قال «مارك»:

- لكن لا توجد صالات بلياردو في البلدة. أقرب واحد في «جيتس فول». هل يمكن أن يكون قد ذهب إلى هناك؟

- كلا. أنا متأكد أنه لم يفعل، لكن البعض لديه مناضد بلياردو في منازلهم.

- أجل. أعرف ذلك.

- هنا شيء آخر لا أفهمه بالكامل.

مال خلفًا وأغمض عينيه، ووضع يديه فوقهما. ثمة شيء آخر ذو صلة بالبلاستيك، لكن لماذا البلاستيك بالذات؟ هناك ألعاب من البلاستيك ومنضدة ومقاعد حدائق من البلاستيك، وأغطية بلاستيكية ترتديها فوق معطفك لتقيه من المطر...

ثم خطر بباله بغتة صورة منضدة بلياردو مُغطاة بغطاء بلاستيكي، مصحوبة بموسيقى تصويرية وحوار كامل.

كان عليَّ أن أبيعها قبل أن يتعفن طلاؤها... لكنها منضدة «رالف»...

فتح عينيه وهتف:

- أعرف مكانه! أعرف مكان «بارلو»! هو في قبو بيت ضيافة «إيفا ميلَّر».

كان يعرف أنه مُصيب، وكل شيء في مكانه المنطقي. أضاءت عينا «مارك» وهو يقول:

- لنذهب إليه!

- انتظر.

ذهب إلى الهاتف وبحث عن رقم «إيفا ميلّر» في الدفتر، وطلبه. لكن أحدًا لم يرُد. وضع السماعة مكانها في ذعر. يوجد على الأقل عشرة سُكان في بيت «إيفا»، وأغلبهم من العجائز المُتقاعدين. هناك دومًا شخص في المنزل.

نظر إلى ساعته، فوجدها الثالثة والربع. الوقت يجري... يجري...

- لننطلق.

- ماذا عن «بِن»؟

قال «جيمي» واجمًا:

- لا يمكننا الاتصال به، فالهاتف مُعطل في بيتك. لو ذهبنا رأسًا إلى «إيفا»، فسيكون أمامنا متسع من وقت النهار لو أننا مخطئون. أما لو كنا على حق، فسنعود غدًا مع «بِن».

- سأرتدي قميصي.

وعدا عبر الطُرقة إلى الحمام.

***

سيارة «بِن» ما زالت واقفة في ساحة انتظار، الأوراق الجافة الساقطة من الأشجار التي تُظلل الساحة مُلتصقة عليها بفعل الأمطار. تسارعت الرياح الآن، وتوقف المطر، وراحت اللافتة التي تحمل عبارة (حجرات «إيفا») تتمايل وتتأرجح. البيت نفسه صامت، كأنه ينتظر. ربط «جيمي» بين صورتين في ذهنه، وارتعب. كان في هذا يشبه منزل «مارستِن». تُرى هل انتحر أحدهم هنا؟ لن يعرف هذا سوى «إيفا»، و«إيفا» لن تتحدث... ليس بعد الآن.

قال بصوت عالٍ:

- اختيار ممتاز له. يختبئ في بيت ضيافة ويُحيط نفسه بأبنائه.

- هل أنت واثق أننا لا نحتاج إلى إخبار «بِن»؟

- لاحقًا. تعال.

ترجلا من السيارة واتجها نحو الشرفة الأمامية والمدخل. الرياح تدفعهما وتتلاعب بملابسهما وشعرهما. كل الستائر مُسدلة، والبيت يُطل عليهما. سأل «جيمي»:

- هل تشم هذا؟

- أجل. رائحة أكثر كثافة من أي مكان آخر.

- هل أنت مُستعد؟

- أجل، أنا لها. أنت؟

- أتمنى لو أكون مُستعدًّا حقًّا.

صعدا الدرجات، وجرَّب «جيمي» الباب، ليجده مفتوحًا. دخلا إلى مطبخ «إيفا» المُتسع المُنظم، فضربتهما الرائحة كقبضة، كأنما دخلا مُستودع قمامة جافًّا حلَّلَ مرور الأعوام محتوياته.

تذكَّر «جيمي» حديثه مع «إيفا» في بداية عمله كطبيب منذ أربعة أعوام. جاءته لفحصٍ دوري، وقد كان والده طبيبها لأعوام، وحين اتخذ «جيمي» مكانه في نفس عيادة «كمبرلاند»، جاءته «إيفا»

بلا حرج. تحدثا عن «رالف» الذي كان قد توفي منذ اثني عشر عامًا وقتها، وقد أخبرته أن شبح «رالف» ما يزال في البيت. وأخبرته أنها من وقت لآخر تكتشف شيئًا جديدًا من ممتلكاته، وبالطبع كانت هناك طاولة البلياردو في القبو. قالت له إن عليها التخلص منها، فهي تشغل مكانًا كبيرًا يمكن استغلاله في شيء آخر، لكنها طاولة «رالف»، ولا يمكنها ببساطة بيعها لأي تاجر يُعلن عن نفسه في جريدة.

يسيران الآن عبر المطبخ، نحو باب القبو. فتحه «جيمي». الرائحة النتنة كثيفة، تكاد تهزمهم وحدها. ضغط زر الإنارة، لكن لم يُضَأ أي مصباح. يبدو أنهم عطَّلوه.

قال لـ «مارك»:

- ابحث في المكان عن كشاف أو شمع.

راح «مارك» يبحث في الأدراج. لاحظ أن حامل السكاكين فوق الحوض خالٍ، ولم يعبأ بهذا وقتها. قلبه يدق ببطء في صدره، كطبول مكتومة. كان عند الحافة البعيدة لقدرته على الاحتمال. لم يعد عقله قادرًا على التفكير، هو فقط يُبدي ردود أفعال لا أكثر. ظل يرى ظلالًا تتحرك عند رُكني عينيه، فيتلفت سريعًا لكنه لا يجد شيئًا. أي محارب قديم قد يتعرف على هذه الأعراض؛ أعراض إنهاك المعركة.

خرج من المطبخ وراح يُفتش الخزانة في الردهة، وجد في درجها الثالث كشافًا ذا أربع بطاريات، فأعاده إلى المطبخ وهو يقول:

- وجدت كشافًا يا...

سمع صوت حركة، تبعها صوت اصطدام.

ظل باب القبو مفتوحًا، وبدأ الصراخ.

***

حين خرج «مارك» من القبو عائدًا إلى مطبخ «إيفا»، كانت الساعة الخامسة إلا ثلث. عيناه غائرتان زائغتان، قميصه ملوث بالدماء.

فجأة صرخ.

جاءت الصرخة هادرة من بطنه، خارجة من بين فكيه المفتوحين. ظل يصرخ حتى شعر أن بعض الجنون قد ترك عقله. ظل يصرخ حتى التهب حلقه، وتمزقت أحباله الصوتية. حتى بعد أن أخرج كل خوفه، ورعبه، وغضبه، وإحباطه، ظل الضغط المريح يجثم على صدره. كان يعرف أن «بارلو» في مكان ما بالأسفل، والظلام قادم.

خرج إلى الشرفة وراح يعُب الهواء البارد. عليه أن يستدعي «بِن»، لكن شيئًا غامضًا لفَّ ساقيه بالرصاص. ما الفائدة؟ سيفوز «بارلو» في النهاية، وها قد دفع «جيمي» الثمن كاملًا، مثله مثل «سوزان» والأب «كالاهان».

العزيمة بداخلة تصرخ: لا.. لا.. لا..

نزل الدرجات بساقين طريتين مرتجفتين، واتجه نحو سيارة «جيمي». كانت المفاتيح بها.

أحضر «بِن»، حاول مرة أخرى.

قدماه قصيرتان فلا تصلان إلى دوَّاسات السيارة. جذب الكرسي إلى الأمام، وأدار المفتاح. هدر المُحرك، فحرَّك عصا نقل الحركة إلى وضع التحرك وضغط دواسة الوقود. قفزت السيارة إلى الأمام. ضغط على المكابح فقُذف بعنف نحو عجلة القيادة، وصدح صوت النفير.

لا أستطيع القيادة!

تذكَّر صوت أبيه يقول بنبرته المنطقية الواثقة: عليك أن تكون حريصًا حين تقود يا «مارك». القيادة هي وسيلة التنقل الوحيدة التي لا تدخل بالكامل تحت تنظيم القانون الفيدرالي. نتيجة لذلك، فكل ممارسي القيادة هُواة، وبعض هؤلاء الهواة انتحاريون، لذا، يجب أن تكون حريصًا للغاية. استخدم دواسة الوقود كأن بين قدمك وبينها بيضة. حين تقود سيارة أوتوماتيكية كسيارتنا، فالقدم اليسرى لا تكون مستخدَمة على الإطلاق، فقط تستخدم اليمنى لضغط المكابح ثم دواسة الوقود.

رفع قدمه عن المكابح، فتحركت السيارة إلى الأمام ببطء، واصطدمت بالرصيف وتوقفت. تكاثف البخار على الزجاج الأمامي، فمسحه بذراعه، مما لطَّخ الزجاج أكثر.

- سُحقًا!

شغل السيارة مرة أخرى، ودار إلى الخلف في قوس واسع مُتجهًا إلى الرصيف المُقابل، ثم اتجه إلى منزله. كان عليه أن يمد رقبته كي يرى من فوق عجلة القيادة. شغَّل المذياع بصوتٍ عالٍ، فقد كان يبكي.

***

كان «بِن» يسير في شارع «جوينتر» مُتجهًا إلى قلب البلدة، حين ظهرت سيارة «جيمي» الـ«بويك» البنية عند أول الطريق، تتحرك حركة حادة، وتتمايل كأنها ثملة. لوَّح نحوها، فتوقفت وقد صعد إطارها الأيسر الأمامي فوق الرصيف.

كان قد فقد إحساسه بالزمن وهو يصنع الأوتاد، وحين نظر إلى الساعة، هاله أن وجدها الرابعة وعشر دقائق. دسَّ وتدين في حزامه، وصعد إلى الطابق العلوي كي يستخدم الهاتف، وما كاد يضع يده عليه حتى تذكر أنه مُعطَّل.

انتابه قلق شديد. خرج ونظر إلى سيارتَي السيد «بِتري» و«كالاهان» ولم يكن في أيهما مفتاحها. كان في إمكانه العودة وتفتيش جيوب جثة السيد «بِتري»، لكن هذا فوق قدرته على التحمُّل. لم يكن أمامه سوى السير السريع نحو البلدة والبحث عن سيارة «جيمي». كان مُتجهًا بالفعل نحو مدرسة شارع «بروك» حين ظهرت سيارة الطبيب.

هرع نحو مقعد السائق، ليجد «مارك» خلف المقود... وحده. نظر إلى «بِن» مُخدَّرًا، شفتاه تتحركان ولا يصدر عنهما أي صوت.

- ماذا حدث؟ أين «جيمي»؟

أجاب «مارك» مُتخشِّبًا:

- مات «جيمي». «بارلو» سبقنا بخطوة مرة أخرى. هو في قبو السيدة «ميلّر»، و«جيمي» بالأسفل. حاولت النزول إليه لمساعدته، ولم أجد طريقة أخرج بها، حتى وجدت لوحًا خشبيًّا تشبثت

به وخرجت... كنت... أخشى أن أظل بالأسفل حتى الغروب.

- ماذا حدث؟ لا أفهم!

- «جيمي» فهم أن الطبشور الأزرق له علاقة بطاولة البلياردو في قبو السيدة «ميلَّر»، طاولة زوجها هي... اتصل «جيمي» ببيت الضيافة فلم يرد أحد.

رفع وجهه نحو «بِن»، ثم أردف:

- طلب مني هناك أن أبحث عن كشاف لأن ضوء القبو مُعطَّل. بدأت في البحث في المكان، ولاحظت اختفاء كل السكاكين من المطبخ، لكنني لم أفكر في معنى هذا وقتها. بشكل ما أنا قتلته، قتلته. هذا خطئي، خطئي وحدي...

هزَّه «بِن» وهو يقول:

- كفى يا «مارك»! كفى!

وضع «مارك» يديه على فمه، كأنه يحاول الإمساك بالكلمات الهيسترية قبل أن تطير خارجةً. حدَّق إلى «بِن» من فوق كفيه بعينين مُتسعتين. ثم أخيرًا أكمل:

- وجدت كشافًا في خزانة الردهة، وهنا سقط «جيمي» وبدأ يصرخ، وكدت أسقط أنا الآخر لكنه حذرني. آخر ما قاله هو: خُذ حذرك يا «مارك».

- ماذا كان بالأسفل؟

- خلع «بارلو» والآخرون الدرجات. نشروها بعد ثاني درجة، وتركوا الدرابزين كي تبدو... تبدو...

هزَّ رأسه مُردفًا:

- في الظلام، ظن «جيمي» أن الدرجات موجودة. كانوا قد ثبَّتوا في مكان الدرجات الأخيرة السكاكين، نصالها مُتجهة إلى الأعلى...

قال «بِن» في قلة حيلة:

- أوه... إلهي!

أمسك بكتفي «مارك» وسأله:

- هل أنت واثق أنه مات؟

- أجل. هو... غُرسَت النصال في أكثر من عشرة مواضع في جسده. الدم...

نظر «بِن» إلى ساعته، الخامسة إلا عشر دقائق. باغته مرة أخرى الشعور أن الوقت يجري من بين يديه. سأله «مارك»:

- ماذا سنفعل؟

- سنذهب إلى البلدة، ونهاتف «مات»، ثم نتحدث إلى «باركِنز جيلسبي». علينا أن نُنهي وجود «بارلو» قبل الليل. يجب أن نفعلها اليوم.

ابتسم «مارك» ابتسامة كئيبة وقال:

- هكذا قال «جيمي» أيضًا. لكنه لا ينفك يهزمنا. ربما رجال أفضل منا حاولوا التخلص منه من قبلنا وفشلوا أيضًا.

نظر «بِن» إلى الصبي، وقد استعد لفعل متهور. سأله:

- تبدو خائفًا.

- أنا بالفعل خائف. ألستَ أنت كذلك؟

- أنا خائف، لكنني غاضب كذلك. خسرت فتاة أعجبتني، بل إنني أحببتها حقًّا. وفقد كلانا «جيمي»، وأنت فقدت والديك اللذين يرقدان الآن تحت غطاء الأريكة الواقي من التراب.

أجفل «مارك» وأشاح بوجهه المُرتعب المجروح. قال «بِن» برفق وقد شعر باشمئزاز مفاجئ، لكنه حاول أن يبدو كمُدرب مُتحمس قبل المباراة.

- أريدك معي. لا أعبأ بمن حاولوا قتله من قبل، حتى وإن كان عُطيلًا نفسه. يجب أن آخذ فرصتي وأريدك معي. أحتاج إليك.

وكانت هذه هي الحقيقة العارية، النقية.

نظر «مارك» إلى الأسفل، وجدت كفاه بعضهما، فتعانقتا مُضطربتين...

- هل غيرت رأيك بعد؟

نظر إليه «مارك» في انعدام حيلة وقال:

- أحاول...

***

كانت محطة تزويد الوقود عند نهاية شارع «جوينتر»، المملوكة لـ «سوني» مفتوحة. خرج في استقبالهم بنفسه. كان رجلًا ضئيلًا، يحلق شعره المُتراجع إلى الخلف مُصفف بحلاقة قصيرة للغاية تُبدي فروة رأسه الوردية.

- أهلًا يا سيد «ميرز»، كيف الأحوال؟ أين سيارتك الـ «سيتروان»؟

- في المرأب يا «سوني». أين «بيت»؟

«بيت كوك» هو مساعد «سوني» بدوامٍ جزئي، ويعيش في البلدة على عكس «سوني».

- لم يأتِ اليوم. لا يهم، فالعمل قليل اليوم كأن البلدة قد ماتت.

شعر «بِن» بضحكة سوداوية هيستيرية تحتشد في صدره، وتُهدد بالانسكاب من فمه في موجة عَفِنة.

- أريد أن أُكمل خزان وقود السيارة، وأريد استخدام هاتفك.

- بالتأكيد. مرحبًا أيها الصبي. ألا توجد دراسة اليوم؟

- أنا في رحلة ميدانية مع السيد «ميرز»، بالإضافة إلى أن أنفي ينزف.

- ظاهر عليك هذا! أخي كان ينزف من أنفه أيضًا، وكان هذا دليلًا على ارتفاع ضغط الدم. انتبه لنفسك أيها الصبي.

سار نحو سيارة «جيمي»، وفتح غطاء خزان الوقود. دخل «بِن» إلى حيث الهاتف المدفوع جوار أرفف خرائط «نيو إنجلند».

- هنا مستشفى «كمبرلاند». أي قسم تريد؟

- أريد التحدث إلى السيد «بُرك» لو سمحت. غرفة رقم 402.

ترددت الممرضة حينًا، وكان «بِن» موشكًا على سؤالها إن كانوا قد غيَّروا الغرفة، حين بادرته قائلة:

- من أنت؟

- «بنجامِن ميرز».

لاحت احتمالية وفاة «مات» فجأة أمام عينيه كظل طويل مرعب. أيمكن أن يكون...؟ كلا... سيكون هذا فوق الاحتمال.

- هل أنت من أقاربه؟

- كلا. أنا صديقه المُقرب. هل هو...

- السيد «بُرك» توفي اليوم في الساعة الثالثة وسبع دقائق يا سيد «ميرز». لو أنك انتظرت دقائق، سأرى إن كان الطبيب «كودي» قد جاء بعد. ربما سيستطيع...

ظل الصوت مُستمرًّا، لكن «بِن» لم يعد يسمعه على الرغم من السماعة الملتصقة بأذنه. لقد دُمِّر كل أمله في قدرة «مات» على إخراجهم من تلك الأزمة. توفي «مات»، فشل في عضلة القلب، وفاة طبيعية. يبدو أن الرب ذاته قد تخلى عنهم.

لم يتبق سواي و«مارك» الآن.

تملك منه الهلع، وحاول السيطرة عليه في صمت. أعاد السماعة إلى مكانها، كنصل مقصلة يقطع سؤالًا على الطرف الآخر. عاد إلى الخارج. كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق، وقد بدأت سُحُب الغرب تتفرق.

قال «سوني» مُشرقًا:

- هذه هي سيارة الطبيب «كودي»، أليس كذلك؟ لمحت لوحة أرقام العاملين في المجال الطبي عليها، وقد ذكَّرني هذا بفيلم شاهدته، يدور حول مجموعة من الخارجين عن القانون، واحد منهم يتعمد سرقة السيارات ذات الأرقام الخاصة بالأطباء، لأنها...

أعطاه «بِن» ثلاثة دولارات حساب الوقود، وقال:

- يجب أن أذهب الآن يا «سوني». آسف، لدي مشكلة.

تجعد وجه «سوني» وهو يهتف:

- إلهي. آسف لسماع ذلك. أخبار سيئة من جهة ناشرك؟

- يمكنك قول هذا.

ركب خلف المقود، وأغلق الباب، ثم انطلق بالسيارة تاركًا «سوني» يحدق إليه. سأله «مارك» وهو يراقب ملامح وجهه:

- توفي «مات»، أليس كذلك؟

- بلى. أزمة قلبية. كيف عرفت هذا؟

- رأيته على ملامحك.

وكانت الساعة الخامسة والربع.

***

كان «باركِنز جيلسبي» يقف في مدخل مبنى البلدية المُظلَّل، يُدخن وينظر نحو سماء الغرب. التفت نحو «بِن»، و«مارك» وبدا على وجهه الحزن والشيخوخة، كزجاجة الماء التي يقدمونها في المطاعم الرخيصة. سأله «بِن»:

- كيف حالك أيها الشرطي؟

- معقول.

قالها وهو يرمق ظفر إبهامه المكسور، المُتدلي من جانب الجلد السميك المُحيط به.

- أراكم تروحون وتجيئون كثيرًا. ورأيت الصبي يقود السيارة بمفرده من شارع «ريلرود». أليس كذلك؟

قال «مارك»:

- بلى.

- كدت تموت. رأيت سيارة تتفاداك بمسافة شعرة.

قال «بِن»:

- سيدي. نريد أن نخبرك بما يجري هنا.

بصق «جيلسبي» فلتر سيجارته، دون أن يرفع يديه عن درابزين المدخل المُظلل. قال بهدوء دون أن ينظر إلى أيهما:

- لا أريد أن أعرف.

نظرا إليه في ذهول. أكمل «باركِنز» بنفس صوته الهادئ الرتيب:

- لم يأتِ «نولي» اليوم، وبشكل ما لا أعتقد أنه سيأتي أبدًا. كان قد اتصل بي مساء أمس، وقال إنه وجد سيارة «هومر مَكَّاسلن» عند طريق «ديب كات»... أعتقد أنه قال طريق «ديب كات». ولم يتصل بي من وقتها.

ببطء وحزن رجل يتحرك تحت الماء، أخرج سيجارة أخرى من جيب قميصه، وراح يُديرها بين إبهامه وسبابته وهو يُكمل:

- ما يجري هنا سيتسبب في مقتلي.

حاول «بِن» مرة أخرى وقال:

- الرجل الذي اشترى منزل «مارستِن» يا «جيلسبي»، اسمه «بارلو»، موجود في قبو منزل «إيفا ميلّر» الآن.

قال دون دهشة:

- حقًّا؟ مصاص دماء هو، أليس كذلك؟ مثل هؤلاء في القصص المصوَّرة التي كانوا يصدرونها منذ عشرين عامًا.

لم يقل «بِن» شيئًا. شعر كأنما هو رجل حبيس كابوس طاحن، يدور فيه الزمن بسرعة ودون توقف، ولا يشعر به أحد. أضاف «باركِنز»:

- أنا راحل الآن. جمعت كل أغراضي في صندوق السيارة، وتركت مسدسي وشارتي على الرف بالداخل. سئمت القانون. سأذهب لرؤية أختي في «كيتري». أعتقد أنها في مكان بعيد كفاية وآمن.

سمع «بِن» صوته يقول من بعيد:

- أيها الجبان، يا قطعة الخراء الرخوة الدنيئة، البلدة ما زالت حية وأنت تتخلى عنها.

- ليست حية.

قالها وهو يشعل سيجارته بعود ثقاب. أردف:

- لهذا اختارها؛ لأنها ميتة. لقد ماتت منذ ما يزيد على عشرين عامًا. الولايات المتحدة نفسها تسير إلى مصير «سالم». كنت أنا و«نولي» في «فيلموث» منذ أسبوعين، نحضر عرض سيارات. رأيت هناك دموية ووحشية أكثر من التي رأيتها خلال عاميَّ في «كوريا» في أثناء الحرب. الأولاد يأكلون الفيشار ويشجعون الصراعات الدموية!

رمق البلدة، وشمس المغيب تنكسر عنها، فبدت كحُلم. أردف:

- ربما يروق لهم أن يتحولوا إلى مصاصي دماء، لكنني لست مثلهم. سيعود «نولي» ليظفر بي الليلة، لذا سأرحل.

نظر إليه «بِن» بلا حيلة.

- وأنتما... اركبا هذه السيارة واهربا. ستدور البلدة دوننا لفترة، ثم لن يعود أي شيء يهم.

فكر «بِن»: أجل، ولمَ لا نفعل هذا؟

تحدث «مارك» بالمنطق نيابة عنهما وقال:

- لأنه شرير يا سيدي، ولا يمكن تركه.

أومأ «باركِنز» ونفخ دخان سيجارته ثم قال:

- هكذا إذًا. البلدة خاوية، الأطفال مرضى، الحافلات لم تعد تمر، الهواتف لا ترد. على العموم، المدرسون يأتون من خارج البلدة، فليُدرِّسوا لأنفسهم...

فرد «بِن»:

- ليس جميعهم من خارج البلدة.

- لا يهم.

تحركت عيناه نحو الأوتاد المُعلَّقة في حزام «بِن» وسأله:

- هل تنوي التعامل مع الرفيق إياه بواحد من تلك الأوتاد؟

- أجل.

- خُذ مسدسي إن أردت. لطالما أحبَّه «نولي» كما أحب أن يظل مُسلَّحًا طيلة الوقت. لا يوجد مصرف في البلدة حتى كي يأمل في مكافحة سرقته. سيبلي بلاءً حسنًا في مستقبله كمصاص دماء لو حصل على هذا السلاح.

تعالى الرعب في نفس «مارك» وهو ينظر إليه، وعرف «بِن» أنه لا نفع في الجدال معه. قال الأول:

- هيا بنا؛ لا نفع منه.

مسحت عينا «باركِنز» البلدة للمرة الأخيرة وهو يقول:

- أجل، لا نفع مني. البلدة هادئة، وإن تلصَّصَت «مَيبل وُرتس» فلن تجد ما تتلصص عليه اليوم، لكن في الليل، سيختلف الوضع.

عادا إلى السيارة، وقد كانت الساعة الخامسة والنصف تقريبًا.

***

توقفا أمام كنيسة القديس «آندرو» في السادسة إلا ربع. امتدت الظلال من الكنيسة وصولًا إلى مسكن القساوسة، تغطيه كنبوءة. أخرج «بِن» حقيبة «جيمي» السوداء، ثم جمع ما فيها من زجاجات وأفرغها عبر النافذة من محتواها. سأله «مارك»:

- ماذا تفعل؟

- سنعبئها بالماء المقدس. هيا...

صعدا درجات الكنيسة، ومد «مارك» يده كي يفتح بابها الأوسط ثم توقف وهتف:

- انظر!

كان المقبض مُسودًّا مُنبعجًا، كأنما ضربه تيار كهربي قوي. سأله «بِن»:

- هل يعني لك هذا شيئًا؟

- كلا... لكن...

هزَّ رأسه مُبعدًا الفكرة المشوهة عن عقله. فتح الباب فدلفا. الكنيسة باردة، رمادية، حُبلى بالإيمان. صفا المقاعد بينهما ممر طويل، عند نهايته تمثالا ملاكين يحملان وعاءين من الماء المقدس، ينظران إليه بوجهيهما الجميل المُفكر، كأنما يشاهدان انعكاسه في الماء.

وضع «بِن» الزجاجات في جيبه وقال:

- اغسل يديك ووجهك.

نظر إليه «مارك» مُترددًا وقال:

- لكن هذا... تد... تدنيـ...

- تدنيس مقدسات؟ ليس هذه المرة. هيا.

غمرا أياديهما في الماء ثم غسلا وجهيهما، بنفس الطريقة التي يغسل بها المستيقظ من النوم وجهه كي يستعيد وعيه. كان «بِن» يملأ أول زجاجة حين سمع صيحة.

- أنتما! ماذا تفعلان؟!

التفت «بِن» فوجد «رودا كُرليس» مُدبِّرة مسكن القساوسة، وكانت جالسة عند الصف الأول تُسبِّح في قلة حيلة. كانت ترتدي فستانًا أسود يطل من تحته رداؤها المنزلي، وشعرها مشوش تحاول تمسيده بكفها.

- أين الأب؟ ماذا تفعلان؟

صوتها حاد أقرب للهيستريا. سألها «بِن»:

- من أنتِ؟

- السيدة «كُرليس» مُدبرة منزل الأب «كالاهان». أين هو؟ ماذا تفعلان؟

قال «بِن» برفق وقد رأى توترها:

- لقد رحل.

أغمضت عينيها وقالت ملتاعة:

- أوه! هل رحل وهو يحاول إنقاذ البلدة مما هي فيه؟

- أجل.

- كنت أعرف. ما كان عليَّ أن أسأل. هو رجل قوي، رجل الرب. كانوا يقولون إنه لن يملأ المكان الذي تركه الأب «بيرجيرون»، لكن يبدو أنه كان أكبر بكثير من هذا المكان.

فتحت عينيها على اتساعها ونظرت إليهما. انحدرت دمعة من عينها اليسرى وهي تسأل:

- لن يعود، أليس كذلك؟

- لا أعرف.

- تحدثوا عن شُربه... هل هناك قس آيرلندي يستطيع التركيز دون رشفة من آن إلى آخر؟ ليس من أولئك المُخنثين أتباع جداول العبادة جاهزة التحضير يستطيع الصمود أمامه. كان أعظم من كل هؤلاء.

صوتها ظل يعلو واصلًا إلى نهاية السقف الشاهق، مُتهدجًا صارخًا.

- لقد كان رجل دين حقيقيًّا، لا مُجرد عجوز في زي كهنوتي!

أنصت «بِن» و«مارك» دون دهشة، فقد استنفد اليوم دهشتهم، ولا سعة للمزيد. لم يعودا يريان نفسيهما كمنقذين أو مُنتقمين، فقد امتصهما اليوم وهما بالكاد حَيَّان. سألتهما، والدموع تعمل عمل العدسة المُكبرة فتُظهر عدم تقبُّلها لحلٍ وسط:

- هل كان قويًّا في مواجهته الأخيرة؟

- أجل.

قالها «مارك» مُتذكرًا صموده في مطبخ أمه، رافعًا الصليب عاليًا.

- وأنتما تُكملان عمله الآن؟

أجاب «مارك» مُجددًا:

- أجل.

فانفجرت فيهما صائحة:

- إذًا كونا على قدر عظمته! ماذا تنتظران؟

تركتهما وسارت على الممر في فستانها الأسود. المُعزِّية الوحيدة في جنازة لن تُقام.

***

بيت «إيفا» مرة أخرى.

والساعة قد تجاوزت السادسة. الشمس مُعلقة فوق أشجار الصنوبر الغربية، تُطل من خلف السحاب، حمراء كالدم.

قاد «بِن» إلى ساحة الانتظار، ونظر في فضول إلى غرفته بالأعلى. لم تكن ستائرها مُسدلة، فاستطاع أن يرى آلة الكتابة بجوارها كومة الأوراق ومن فوقها ثقالة الأوراق الزجاجية. غريب أن استطاع أن يرى كل هذا من حيث وقف بالأسفل، وأن يراها بوضوح كأن العالم ما يزال طبيعيًّا مُرتبًا.

سمح لعينيه أن ينزلقا إلى الشرفة الخلفية، والمقعدين اللذين شهدا أول قُبلة بينه وبين «سوزان». لم يتغير شيء. باب المطبخ ما يزال مفتوحًا كما تركه «مارك» حين غادر.

غمغم «مارك»:

- لا أستطيع.

عيناه بيضاوان مُتسعتان، مُطلتان من فوق رُكبتيه إذ جلس مُتكورًا على المقعد.

- يجب أن نذهب معًا.

مد «بِن» يده نحوه بزجاجتي ماء مُقدس، فأجفل مُبتعدًا عنهما كأن لمسهما سيُسري السُّم في عروقه. ألحَّ «بِن» ولم يعد في مقدوره النقاش أكثر:

- هيا... هيا.

- كلا!

- «مارك»؟

- كلا!

- «مارك»، أنا أحتاج إليك وأنت تحتاج إلي. هذا هو كل ما تبقى لدينا.

- لقد فعلت ما يكفي، ولا أستطيع فعل المزيد. ألا تفهم أنني لا أستطيع تحمُّل النظر إلى وجهه؟!

- «مارك»، يجب أن ندخل معًا، المُهمة تتطلب وجودنا نحن الاثنين. ألا تفهم ذلك؟

أخذ «مارك» الزجاجتين الصغيرتين وضمهما ببطء إلى صدره. نظر نحو «بِن» وأومأ إيماءة مُعذبة.

حين ترجَّلا سأله «بِن»:

- أين المطرقة؟

- مع «جيمي».

- لا بأس.

سارا إلى الدرجات عكس اتجاه الريح، والشمس تصبغ كل شيء بالأحمر. في الداخل، رائحة الموت لا تُخطئها الأنوف، تجثم على أنفاسهم كالأحجار. وكان باب القبو مفتوحًا. قال «مارك» مُرتجفًا:

- أنا خائف.

- يجب أن تخاف. أين الكشاف؟

- في القبو، سقط مني.

- حسنًا.

وقف «بِن» عند باب القبو المفتوح كالفم. كما أخبره «مارك»، فالدرجات في ضوء النهار تبدو كأنها موجودة حتى النهاية.

- اتبعني.

***

فكَّر «بِن» ببساطة في أنه يسير نحو حتفه.

جاءته الفكرة بشكل طبيعي، وبلا خوف أو ندم. المشاعر تتضاءل أمام الجو المسموم الخبيث. نزل «بِن» ببطء على اللوح الذي صعد فوقه «مارك» من قبل، وكل ما كان يشعر به هو الهدوء. يداه تُضيئان كأنما هما في قفازين شبحيِّين.

أضئ المصباح وسلِّط ضوءه...

فالإمبراطور الوحيد هو إمبراطور الآيس كريم...

من قالها؟ «مات»؟ لقد توفي «مات»، وتوفيت «سوزان»، وتوفيت «ميراندا»، و«والاس ستيفنز» كاتب القصيدة نفسها قد مات أيضًا.

ما كنت لأنظر لو أنني مكانك...

لكنه نَظَر. هكذا تبدو حين تموت؛ مكسورًا منسحقًا تنز منك سوائل من كل لون. لا بأس. لن يكون شيء في بشاعة موت المسخ اللعين. كان مع «جيمي» مُسدس «مكَّاسِلن»، وعلى الأرجح سيكون في جيب سُترته. سيأخذه منه... لو حلَّ الليل قبل أن ينالا من «بارلو»، سيقتل الصبي ثم سيقتل نفسه. ليست ميتة لطيفة، لكنها لن تُقارَن بما سيفعله بالمسخ اللعين لو وجده.

وصل إلى قاع القبو، ثم ساعد «مارك» على النزول. أبعد الصبي عينيه عن الكومة على الأرض وقال بصوت مبحوح:

- لا أستطيع النظر إليه.

- لا بأس.

أدار «مارك» ظهره لهما، وركع «بِن»، حاول إزالة ما استطاع من الأنصال المُنغرسة في جسد «جيمي»، ثم أداره برفق.

كنت سأبدو هكذا لو كنت مكانك.

احتبست كلمات الأسى في حنجرته. أراح جسد «جيمي» على ذراعه اليسرى وبدأ في نزع نصال «بارلو» عنه بيده اليُمنى. أزال ستة منها. لقد نزف «جيمي» كثيرًا.

كانت هناك ستائر مطوية على رفٍّ هناك، ففردها فوق جثمان «جيمي» بعد أن أخذ المسدس والمطرقة والكشاف.

غطاء المصباح البلاستيكي كان مُهشَّمًا، لكن المصباح نفسه كان سليمًا. على ضوئه لم يرَ شيئًا حوله. بحث تحت منضدة البلياردو وخلف المدفأة وفي كل ركن وزاوية. غمغم وهو ينظر إلى ساعته التي كانت عقاربها تشير إلى السادسة وثلاث وعشرين دقيقة:

- أين هو؟

متى الغروب؟ لم يستطع أن يتذكر بدقة، لكن ليس بعد السادسة وخمس وخمسين دقيقة. أمامه نصف ساعة على الأكثر. صاح:

- أين هو؟! أشعر به... لكن أين هو؟

- هناك!

أشار «مارك» بيده المُشعة وتساءل «بِن» عن كنه ما يشير إليه. أضاءه بكشافه؛ خزانة مطبخ. قال:

- ليست كبيرة بما يكفي لتحتويه. ثم إنها مستندة إلى الحائط بلا فراغ بينهما.

- لنفحصها.

هزَّ «بِن» كتفيه، واتجها إلى خزانة المطبخ. أمسك كل منهما طرفًا، فشعرا بالرائحة النتنة والتواجد المرعب أكثر كثافة هنا.

نظر «بِن» إلى باب المطبخ المفتوح. الضوء صار باهتًا، ولونه الذهبي يختفي تدريجيًّا. لهث «مارك» وهو يقول:

- الخزانة ثقيلة عليَّ.

- لا عليك. سندفعها قليلًا. أمسكها جيدًا.

دفعاها ووجهاهما يُشعان في الظلام. ضغطا بكامل وزنيهما عليها، فمالت حتى تهاوت فجأة، وتهشمت أطباق «إيفا» القديمة بداخلها، والتي لا بد وأنها كانت جزءًا من جهَاز زواجها. صرخ «مارك» في انتصار:

- كنت أعرف!

خلف الخزانة باب صغير، مُغلق بقفل «يِل». ضربتان هائلتان من المطرقة لم يُقنعا القفل بالكسر. غمغم «بِن» غاضبًا:

- إلهي!

أيُعقل أن يهزمه قفل بخمسة دولارات؟! كلا، لو اضطر إلى أن يحفر الخشب بأسنانه سيفعلها. أضاء بالكشاف ما حوله، حتى وصل إلى لوحة أدوات النجارة المُعلقة على الحائط. ثمة بلطة ذات مقبض وغلاف نصل مطاطي مُعلقة هناك.

انتزعها من مكانها وأزال غطاءها، فتح واحدة من قنينات الماء المُقدس، فسقطت منه وتهشمت على الأرض فأضاءتها. أمسك بأخرى وصب ما فيها على نصل البلطة، فأضاءت بدورها بضوء شبحي من عالم آخر. قبض عليها، وسرت في أوصاله قوتها. وقف للحظات ينظر إلى نصلها، شاعرًا أنه على الطريق، وأنه يستطيع فعل ما يريد لأنه على جانب الحق. لأول مرة منذ أسابيع لم يعد يشعر بالتخبط وسط ضباب الشك والإيمان. سرت الطاقة في ذراعه كالكهرباء، توهَّج النصل أكثر.

صاح «مارك» مُترجيًا:

- هيا بسرعة!

باعد «بِن» بين ساقيه، وأرجع البلطة إلى الخلف، ثم هوى بها بقوة وسرعة خلَّفت انطباعًا ضوئيًّا. انغرس النصل بقوة في الخشب، وتطايرت الشظايا. نزعها، فصرخ الخشب، ثم هوى مرة تلو

الأخرى بالنصل المعدني، عضلات ظهره وذراعيه تنقبض بقوة، تتحرك بيقين وتضخ حرارة لم يشعر بها من قبل. الضربة الخامسة وقعت على فراغ، فراح «بِن» يوسع الفتحة بسرعة جنونية.

نظر إليه «مارك» مدهوشًا، فقد كان الضوء يسري من البلطة إلى ذراعيه، يعمل بعين مفتوحة وأخرى مُغلقة أمام الضوء الباهر. تمزق قميصه من الخلف عند لوحي الكتف. كان رجلًا في قمة الاستحواذ، ولم ير «مارك» هذا الاستحواذ من منظور مسيحي، بل من منظور الخير الأساسي، كما خلقه الله. خير خام كمعدن يخرج من قلب الأرض. كان هو القوة التي تُحرك عجلة الكون العظيمة.

لم يستطع باب المخزن الفرعي أن يقف أمام كل هذه القوة، وضربات البلطة السريعة التي زادت عن سرعة الضوء، فتحولت إلى موجات، قوس قزح يمتد من خلف كتف «بِن» إلى الخشب المُهشم.

أنهى آخر ضربة، وأبعد البلطة، ثم نظر إلى يديه المتوهجتين، ومدَّ يديه نحو الصبي الذي أجفل. قال:

- أحبك.

وتشابكت أيديهما.

***

المخزن الفرعي كان صغيرًا كزنزانة، خاليًا إلا من بعض الزجاجات المُتربة والصناديق الخشبية، وسلة بطاطس قديمة للغاية ينمو منها براعم في كل اتجاه... والأجساد...

تابوت «بارلو» عند الركن القصي مُستندًا إلى الحائط كتابوت مومياء حجري، تُضيء حافته العليا بضوء غامض شاحب.

أمام التابوت، تراصَّت كقضبان قطار أجساد أشخاص عاش «بِن» بينهم وأكل معهم؛ «إيفا ميلّر»، و«ويزل كريج» جوارها. «ميب موليكن» من الحجرة في نهاية رواق الطابق الثاني. «جون سنو» الذي كان يتحرك بصعوبة شديدة بعد أن أكل التهاب المفاصل قوته. «فيني آبشو»، «جروفر فيريل»...

خطوا فوقهم جميعًا وصولًا للتابوت. نظر «بِن» إلى ساعته؛ السادسة وأربعون دقيقة.

- علينا أن نُخرجه إلى جوار «جيمي».

- لا بد أن وزنه طُن.

- سنفعلها.

قبض على الجانب الأيمن العلوي من التابوت، فتوهج كعين مُتحمسة. ملمس الخشب غير مُريح على الإطلاق، ناعم وقد تحول إلى ما يشبه الحجر بفعل الزمن. كان أملس بلا أثر لمسامات الخشب، أو لمسات صانعه، لكن مع ذلك، فقد تأرجح ببساطة بمجرد تحريك «بِن» له.

- الآن، احمله من عندك.

رفع «مارك» التابوت من ناحيته، فارتفع عن الأرض بسهولة. طغت الدهشة على ملامح الصبي وهو يقول:

- أظنني أستطيع حمله بإصبع واحدة.

- أخيرًا الأمور تجري في صالحنا. أسرِع.

حملا التابوت عبر الباب المُهشَّم، واستطاعا أن يُخرجاه بصعوبة حتى وصلا إلى حيث يرقد «جيمي» مُغطى بستائر «إيفا».

- ها هو يا «جيمي»... ها هو الوغد. أنزله يا «مارك».

الساعة السابعة إلا رُبع، والضوء القادم من باب المطبخ صار رماديًّا باهتًا.

سأل «مارك»:

- الآن؟

نظرا إلى بعضهما من فوق التابوت، وردد «بِن»:

- الآن.

انفتحت أقفال التابوت بمجرد لمسها، وارتفع الغطاء.

هو شاب الآن، شعره الأسود لامع بهي، يرقد فوق وسادة من المخمل عند رأس مستقرِّه الضيق. بشرته تضيء بالحياة، خداه أحمران كالنبيذ، شفتاه تكشفان عن أسنانه البيضاء الملوَّثة بلطخات صفراء داكنة مثل العاج.

- هو...

قالها «مارك»، ولم يكمل عبارته. دارت عينا «بارلو» في محجريهما، نظرة حيوية وسخرية مرعبة. التقتا بعيني «مارك»، فسقط الأخير في براثنهما وراحتا تتسعان. صرخ «بِن»:

- لا تنظر إلى عينيه!

لكن الأوان قد فات. قذف الصبي بعيدًا، فأنَّ الأخير من أعماق حنجرته، ثم باغت «بِن» بالهجوم. بعد لحظة كانت يدا الصبي تقبض على جيب «بِن»، تبحث عن مُسدس «مَكَّاسِلن».

- «مارك»! كلا!

لكن الصبي لم يسمع، وصار وجهه شاحبًا كسبورة مُستهلَكة. صوت الأنين يخرج منه كأنه صوت حيوان صغير محبوس، وظل قابضًا يديه حول المسدس، يجاهد من أجله، بينما «بِن» يحاول انتزاع الصبي عنه أو إبعاد ماسورته في اتجاه بعيد عنهما.

- «مارك»... أفِق! لأجل المسيح.

ارتفع المسدس نحو رأسه، وشعر بمقدمته تنضغط عليها، ثم انفلت وسقط أرضًا. لفَّ يديه حول يدي «مارك»، وركل السلاح. اندفع «مارك» أمامًا والمسدس بينهما. زحف الصبي نحوه، فلكمه «بِن» في فمه بكل قوته، وشعر بشفتي الصبي تندفع نحو أسنانه فتكسرها. صرخ كأن الضربة أصابته هو لا «مارك». ظل الصبي يزحف، فركل «بِن» السلاح بعيدًا واضطر إلى ضربِه مرة أخرى.

وبزفرة مُتعَبة، تهاوى الصبي.

غادرته قوته الآن، وعاد «بِن ميرز» العادي، الخائف.

تحول الضوء القادم من المطبخ إلى شعاع بنفسجي... الساعة السادسة وواحد وخمسون دقيقة.

قوى عُظمى تجذب عقله وتجبره أن ينظر إلى تلك العينين الحمراوين للطفل الراقد في التابوت.

انظر إليَّ أيها الرجل السقيم، انظر إلى «بارلو» الذي مرت عليه القرون كما تمر عليك ساعات وأنت تقرأ في كتاب أمام المدفأة. انظر إلى أكثر مخلوقات الليل مهابةً. ذلك الذي تظن نفسك قادرًا على إفنائه بعصا هزيلة. انظر إليَّ أيها الناسخ، أنا كتبت مصائر الناس، وكان الدم مِدادي. انظر إليَّ واقنُط!

انظر إليَّ!

الساعة السادسة وثلاث وخمسون دقيقة.

تألم «مارك» وهو مُمد على الأرض وهمس:

- أمي؟ ماما... أين أنتِ؟ رأسي يؤلمني... الظلام...

سيكون ضمن خدمي...

حاول «بِن» إخراج واحد من الأوتاد حول خصره، فسقط أرضًا. صاح مُبتئسًا في يأس. بالخارج، الشمس هجرت بلدة «أورسالم»، وانسحبت آخر أشعتها عن سقف منزل «مارستِن».

التقط الوتد، لكن أين المطرقة؟ أين المطرقة اللعينة؟!

كانت عند باب المخزن الفرعي، تركها حين كان يحاول تهشيم القفل بها.

هرع عبر القبو يلتقطها حيث سقطت. «مارك» نصف جالس، فمه دامٍ. مسحه بكُمه ونظر في تشوش إلى الدم. صرخ:

- ماما! أين أنت؟!

توازن الضوء والظلام في تمام السادسة وخمس وخمسين دقيقة.

هرع «بِن» مرة أخرى عبر القبو المُظلم، ممسكًا بالوتد في يد، والمطرقة في الأخرى.

لم يكن هناك ضحكات شريرة، فقط رأى «بارلو» جالسًا في تابوته، عيناه الحمراوان تُضيئان بالنصر. تعلقتا بعيني «بِن»، فشعر الأخير بالإرادة تُصفَّى منه.

بصرخة مجنونة، رفع الوتد فوق رأسه، وهوى به على صدر «بارلو»، فشعر به يخترق اللحم تحت قميصه.

صرخ «بارلو» صرخة غريبة مُتألمة مثل عواء الذئب، وقد تهاوى إلى تابوته إثر دفعة الوتد. ارتفعت ذراعاه، وتقلصت أصابعه إلى ما يشبه المخالب، وظل يلوح بهما في جنون.

هوى «بِن» بالمطرقة فوق الوتد، فصرخ «بارلو» مرة أخرى. قبض على يد «بِن» بيده الباردة كقبر. عبر «بِن» حاجز التابوت واعتلى «بارلو»، غارسًا رُكبتيه في رُكبتي المسخ. حدق إلى الوجه البغيض المُعذَّب. صرخ «بارلو»:

- إليكَ عني!

- أتشعر به أيها الحقير؟ أيها العَلَقة؟ هذا الوتد هو نهايتك.

طرق على الوتد مرة أخرى، فتدفقت الدماء باردة، وأعمته للحظات. راح رأس «بارلو» يدور يُمنة ويسرة على الوسادة.

- إليكَ عني! كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ...؟

طرق الوتد مرة أخرى، ثم أخرى. اندفع الدم عبر طاقتي أنف «بارلو»، وارتجف جسده كسمكة خارجة لتوها من الماء. أظفاره تنغرس في خدي «بِن» وتحفر فيهما.

- إليك عني!

طرقة أخيرة على الوتد، واندفعت الدماء السوداء من صدر «بارلو».

ثم بدأ التحلل.

في غضون ثانيتين، بدأ يتحلل. لم يستطع «بِن» أن يصدق ما حدث حين يسترجعه تحت ضوء شمس الأعوام التالية. لكن ثانيتين كانتا كافيتين لغزو كوابيسه.

اصفرَّ الجلد، وتشقق، كملاءة قديمة. خفت وهج العينين وابيضتا، وتراجع الجسد في البذلة السوداء، وتقلص. اتسع الفم وانزاحت الشفتان إلى حدود الأنف حتى زالت مع زوالها، اسودت الأظفار وتساقطت ولم يبق تحتها سوى العظام محاطة بالخواتم.

تصاعد الغبار من تحت القميص، وتحول الرأس إلى جمجمة، تهاوى السروال بعدما تحول ما تحته إلى عصَوين. للحظة شعر بالهيكل المرعب يرتجف أسفله، فاندفع «بِن» خارجًا من التابوت صارخًا في رعب مُختنق. لكن كان من المستحيل أن ينتزع عيناه عن «بارلو» وعن تحولاته الأخيرة. كأنه مُنوَّم.

ظلت الجمجمة تتحرك من جهة إلى أخرى فوق الوسادة، والفك العظمي ينفتح وينغلق في صرخة صامتة، والأصابع ترتعش وتتصادم خواتمها.

ثم زالت الرائحة، كل قسم منها مُنفرد؛ رائحة الغاز، التحلل، اللحم المُتفسخ، العفن، التراب العتيق، ثم لا شيء.

اتسع الفم والعينان وفتحتا الأنف، وتلاقت الفجوات مُختفية مع العظام المُتبقة، ثم شعر «بِن» بدفقة هواء كأن أحدهم عبر بسرعة جواره، فارتجف. في نفس اللحظة، انفجرت كل نافذة من نوافذ منزل «إيفا ميلّر».

ترددت صرخات «مارك» في أذنيه كإنذار حريق.

- «بِن» انظر! احترس!

نظر خلفه، فرآهم يخرجون من المخزن الفرعي؛ «إيفا»، و«ويزل»، و«ميب»، و«جروفر»، والآخرون... فقد جاء وقت استيقاظهم.

جذب الصبي من كتفيه وصرخ فيه:

- الماء المقدس... لا يمكنهم لمسنا.

فخفتت صرخات «مارك» إلى مجرد نهنهات. أدار الصبي ليواجهه وقال:

- تسلق اللوح... هيا.

ضرب رُدفيه ليحثه على الامتثال. حين تأكد من أنه رحل، استدار إليهم... إلى اللاموتى. كانوا يقفون على مسافة خمسة عشر قدمًا منه، ينظرون إليه بكراهية غير آدمية.

قالت «إيفا» ولم يصدق نبرة الأسى في صوتها:

- لقد قتلت السيد! كيف تجرؤ على قتل السيد؟

قال «بِن»:

- سأعود لأقتلكم.

صعد اللوح على يديه وقدميه، كاد ينكسر تحت ثقل وزنه، لكنه صمد. عند نهايته، نظر نظرة إلى الأسفل، فرآهم مُتحلِّقين حول التابوت ينظرون إليه في صمت. ذكَّروه بالمارة الذين تحلَّقوا حول جثة «ميراندا» بعد الحادث.

بحث عن «مارك»، حتى وجده مُكبًّا على وجهه جوار باب الشرفة.

***

قال «بِن» لنفسه إن الصبي فقد الوعي، لا أكثر. كان نبضه قويًّا مُنتظمًا. حمله من تحت ذراعيه ووضعه في سيارته الـ «ستروِين».

بمجرد وصوله لنهاية شارع «ريلرود»، صدمه رد فعل مُتأخر عنيف، وراح يصرخ.

كان الموتى الأحياء يجوبون الشوارع.

ملأ عقلَه صوتُ هدير مُرعب. استدار عند شارع «جونتر» وغادر بلدة «أورسالم».

ستيرنو هو ماركة من الكحول على هيئة هلام مُخصص للاحتراق داخل وعائه المعدني، بغرض التدفئة أو تسخين الطعام.

إبراهام فان جيلسينج هو شخصية خيالية ظهرت لأول مرة في رواية «دراكيولا» لبرام ستوكر. طبيب هولندي ذو اهتمام واسع بأمور ما وراء الطبيعة ومصاصي الدماء.

كالي، أو داكشينا كاليكا، هي ربة هندية، سيدة الموت والزمن والتغيير، وهي على شكل امرأة ذات أربع أذرع.

فيلم الختم السابع، إنتاج عام 1957، يدور حول فارس من العصور الوسطى، يتحدى الموت في لعبة شطرنج لينقذ نفسه وأصدقاءه.

سايكوبومبوس، هو طائر من الأساطير اليونانية، يُرشد أرواح الموتى إلى العالم الآخر.

مغنٍّ يتم إخصاؤه قبل سن البلوغ كي يُحافَظ على صوته الرفيع الصبياني.

الستروتوسكوب، أو المصطربة أو المصباح الرعاش، هو جهاز كهربي يستعمل لقياس سرعة الدوران والتردد وأيضًا الزمن الدوري الأجسام ذات الحركة الاهتزازية أو الدورانية.

مايكرافت هولمز، شخصية روائية، وهو شقيق شيرلوك هولمز المُحقق الشهير.

فرانك فرازيتًّا رسام كتب مصورة أمريكي تخصص في رسم قصص الرعب والخيال.

قايين هو قابيل، ابن النبي آدم. والآية المذكورة من سفر التكوين.

نهر ليث، واحد من الأنهار الخمسة للعالم السفلي في الأساطير اليونانية، ومن يشرب منه ينسى كل شيء.

الجرجونات، هي مخلوقات من الأساطير اليونانية قادرة على تحويل الناظر إلى أعينها إلى حجر.

الفصل الخامس عشر

«بِن» و«مارك»

كلما استيقظ «مارك» ترك صوت محرك السيارة يسحبه إلى النوم مرة أخرى، إلى عالم بلا ذكريات أو تفكير.

ثم استيقظ ونظر إلى النافذة، فقبض عليه الذعر بيديه الباردتين. الظلام بالخارج، والموجودات على جانبي الطريق ضبابية. أضواء عشوائية تشق العتمة.

صرخ، وراح يبحث حول رقبته على الصليب المُعلَّق.

- اهدأ. لقد خرجنا من البلدة. نحن على بعد عشرين ميلًا منها.

استدار الصبي سريعًا وأغلق قفل بابه، ثم مد ذراعه من أمام «بِن» وأوصد باب السائق. أخيرًا، تكوَّر في ركن كرسيه، ولم يتمنَ شيئًا إلا غفوته الخاوية. الخواء اللطيف، بلا صور مرعبة تجتاحه. أغلق عينيه، حاول الاندماج مع صوت محرك السيارة.

- «مارك»؟

من الأفضل ألا يُجيب.

- «مارك»؟ أأنت بخير؟

واستمر صوت المحرك...

- ...«مارك»...

الخواء الجميل... عاد الخواء وابتلعه العالم الرمادي.

***

نزلا في فندق صغير على خط طريق بلدة «نيو هامشاير»، وقد وقَّع استمارة المبيت باسم «بِن كودي» وابنه. سار «مارك» إلى غرفتهما ممسكًا بالصليب، عيناه تجولان في محجريهما كوحشين صغيرين حبيسين. ظل ممسكًا بالصليب حتى أغلق «بِن» الحجرة خلفهما، وعلَّق صليبه على المقبض. كان هناك تلفاز ملوَّن، شاهده «بِن» قليلًا... نشرة الأخبار تدور حول حرب بين بلدين إفريقيتين، وعن إصابة الرئيس بالبرد، لكنه برد بسيط، وعن رجل في «لوس إنجيليس» جُنَّ وأطلق النار على أربعة عشر شخصًا. أما عن الطقس، فثمة أمطار مع تساقط ثلوج محتمل على شمال ولاية «مَين».

***

أظلمت بلدة «سالم»، وجاب طرقها وشوارعها مصاصو الدماء كذكريات شرٍّ مُتبقية. بعضهم قد تحرر قليلًا من وعثاء الموت، وبدؤوا يكتسبون الخبث الكافي لجذب المزيد إلى الهاوية.

كان «لاري كروكيت» قد دعا «رويال سنو» لمشاركته لُعبة «كريباج». حين وصل «سنو» وترجل من شاحنته، تكالب عليه «لاري» وزوجته.

اتصلت «جلينز مايبري» بـ «مَيبل وُرتس»، وأخبرتها أنها مرتعبة، وطلبت منها أن تقضي الأمسية معها حتى يعود زوجها من «وُترفيل». وافقت «مَيبل»، وبمجرد أن فتحت بابها بعد عشر دقائق، وجدت «جلينز» أمامها عارية، تحمل حقيبة يدها، تبتسم ابتسامة مُرعبة خبيثة. لم يكن أمام «مَيبل» وقت إلا لصرخة واحدة فقط.

حين خرج «ديلبيرت ماركي» من خمَّارته المهجورة في الثامنة مساءً، ظهر أمامه «كارل فورمان» و«هومَر مكَّاسلن» من وسط الظلال وقالا إنهما أتيا للشُّرب.

تلقى «ميلت كروسِن» زيارة من زبائن قدامى أعزاء، ورفاق أحبَّاء بعد موعد إغلاق المتجر. زار «جورج ميدلر» عددًا من طلبة المدرسة الثانوية، الذين كانوا يشترون من متجره أغراضهم وينظرون إليه نظرة تعالٍ واستكبار، فأشبع فيهم أحلك رغباته.

ظل السائحون والمسافرون يعبرون طريق رقم 12، ولا يرون شيئًا من البلدة إلا الأشجار واللافتات، ولا يتذكرون شيئًا بعد خروجهم منها إلا أنها بلدة صغيرة ميتة.

حفَظت البلدة أسرارها، وأطل عليها منزل «مارستِن» كملكٍ مُحطَّم.

***

في اليوم التالي، قاد «بِن» عائدًا إلى البلدة، تاركًا «مارك» في الفندق. توقف عند متجر في «ويستبروك» واشترى مجرفة ومعولًا.

غفت بلدة «سالم» تحت السحب الكئيبة المُثقلة بالأمطار. سيارات أقل في الشوارع، متجر «سبنسر» مفتوح، لكن مقهى «إكسلنت» مغلق، مُسدل الستائر، وقد خلت اللوحة السوداء خارجه من أي مأكولات جديدة لليوم.

ذكَّره خواء البلدة بغلاف مجموعة أغاني لفريق «روك آند رول»، فيه وجه بزاوية تصوير جانبية على خلفية سوداء. الوجه دامٍ وتحته عبارة: الوحيد الذي يخرج ليلًا.

ذهب إلى بيت «إيفا» أولًا وصعد إلى الطابق الثاني. فتح باب حجرته، وكانت كما تركها. كانت هناك سلة مهملات فارغة تحت مكتبه، فأخرجها ووضعها في منتصف الغرفة وألقى فيها كل ما كتبه وأضرم فيه النيران. ثم ألقاها بحملها المُلتهب فوق كل المسودات. تحسستها النيران، تذوقتها فوجدتها شهية، فراحت تلتهمها. تعالى الدخان الأبيض. دون تفكير، مال على مكتبه وفتح النافذة فوقه.

أمسك ثقالة الورق الزجاجية التي رافقت سنين عمره، منذ أخذها في مغامرته الشنعاء إلى منزل «مارستِن». هزَّها، ثم راح يراقب ندف الثلج بداخلها تهبط ببطء.

عبر الندف الطافية، يمكنك أن ترى منزلًا على هيئة المنازل التي تُصنع بعجينة كعك الزنجبيل. مصاريعه مُغلقة، لكن كصبي نشط الخيال (مثل «مارك بِتري» الآن) يمكنه أن يتخيل أن واحدًا من المصاريع موارب، ومن خلفه تمتد يد بيضاء ثم وجه شاحب ينظر إليه، مُبتسمًا كاشفًا عن أنيابه البيضاء، يدعوه إلى منزله خلف العالم الخيالي المُزدان بالثلوج الزائفة.

الوجه الذي ينظر إليه الآن شاحب، جائع. وجه لن يرى ضوء الشمس أو السماوات الزرقاء مرة أخرى.

كان وجهه هو نفسه.

ألقى بالثقالة إلى ركن الغرفة، فتهشمت، ورحل قبل أن يرى ما قد يتسرب منها.

***

نزل القبو كي يُحضر جثة «جيمي» وهي أصعب خطوة في يومه. التابوت حيث تركاه أمس، خاوٍ حتى من التراب... إلا أن الوتد كان هناك وشيء آخر. شعر بغثيان شديد. كان في التابوت أسنان «بارلو». هذا كل ما تبقى منه. مدَّ «بِن» يده وأخذهم، فراحوا يتلوون في كفه كحيوانات دقيقة تحاول حشد نفسها كي تعضه.

أطلق صرخة اشمئزاز ورماهم. ظل يمسح كفه في ملابسه ويغمغم:

- إلهي... إلهي، اجعل هذه نهايتهم.

***

بشكل ما، استطاع إخراج جثة «جيمي» الملفوفة في ستائر «إيفا» من القبو، ثم وضعها في صندوق سيارة «جيمي» وقادها إلى منزل آل «بِتري».

أمضى الصباح وأغلب الظهيرة في حفر قبر واسع لـ «جيمي» والزوجين في الحديقة الخلفية. عند الثانية والنصف، بدأ يغلق قبر هؤلاء الأطهار، ويهيل التراب بسرعة والشمس تنحدر بجنون نحو المغيب.

هطل المطر ببطء كأنما ينعي الموتى، ويغسل الشوارع والمنازل ذات الواجهات المُزيفة. المتنزه حيث قابل «سوزان» أول مرة خالٍ، ومبنى البلدية بائس وحيد. لافتة (سنعود قريبًا) مُعلَّقة على باب مكتب «لاري كروكيت» كما هي منذ أيام.

الصوت الوحيد الآن هو صوت الأمطار.

سار حتى شارع «ريلرود»، وقعُ قدميه على الرصيف يتردد. حين وصل إلى بيت «إيفا» نظر حوله برهة، ونظر إلى سيارته. لكن شيئًا لم يتحرك.

كانت البلدة ميتة، وقد عرف هذا على الفور كما عرف أن «ميراندا» قد ماتت بمجرد مرأى فردة حذائها وحيدة على الطريق.

بدأ يبكي.

ظل يبكي وهو يعبر جوار اللافتة المكتوب عليها (أنت الآن تغادر «أورسالم»- بلدة صغيرة لطيفة! ننتظر عودتك).

الأشجار تحجب عنه مرأى منزل «مارستِن» إذ يقود سيارته إلى الجنوب عائدًا إلى «مارك»، وإلى حياته.

خاتمة

عبر كل تلك القرى الهالكة...

فوق تلك الأراضي التي عرَّتها رياح الجنوب...

وأثر الجبال خلفنا، تُخفيكِ...

من سيحاسبنا على قرار النسيان؟

من سيقبل قرابيننا عند نهاية الخريف؟

«جورج سيرفيس»

هي الآن عمياء...

والأفاعي التي حملتها في يوم،

التهمت يديها.

«جورج سيفريس»

من دفتر مقتطفات في حوزة «بِن ميرز»، كلها من جريدة «بورتلاند بريس».

19 نوفمبر 1975 (ص.27)

بلدة «أورسالم»...

عائلة «تشارلز ف. بريتشيت» التي اشترت مزرعة في بلدة «سالم» التابعة لمقاطعة «كمبرلاند» منذ شهر، غادرت مزرعتهم لأن الأمور بدت (غريبة) هناك في الليل.

استنادًا إلى ما قاله «تشارلز» و«آماندا بريتشيت» اللذان انتقلا إلى هناك من «بورتلاند».

المزرعة الشهيرة كانت مملوكة لـ «تشارلز جريفِن»، والذي كان والده مالكًا لشركة «صنشاين» لمنتجات الألبان، والتي دمجتها شركة «سليتفوت» بها عام 1962.

«تشارلز جريفِن» باع المزرعة من خلال وسيط في «بورتلاند» بسعر بخس، ولم نستطع الوصول إليه لسماع رأيه.

كانت «آماندا بريتشيت» قد أخبرت زوجها عن الأصوات الغريبة بعد...

4 يناير 1976 (ص.1)

بلدة «أورسالم»...

وقع حادث تصادم سيارات غريب في بلدة صغيرة جنوب «مَين» تدعى بلدة «سالم». من آثار عجلات السيارة الصغيرة على الأرض، توصلت الشرطة إلى أنها كانت تسير بسرعة فائقة على الطريق، وحادت عنه لتصطدم ببرج كهرباء. السيارة صارت حُطامًا، لكن على الرغم من الدماء على المقعد الأمامي ولوحة العدادات، السائق كان غير موجود وكذلك الرُّكاب.

قالت الشرطة إن السيارة مملوكة للسيد «جوردون فيليبس»، وبحسب الجيران، فقد خرجت العائلة لزيارة أقاربها في «يارموث». استنتجت الشرطة أن العائلة خرجت ذاهلة من السيارة بعد الحادث، ضلوا الطريق. وقد بدأت خطة البحث عن...

14 فبراير 1976 (ص.4)

«كمبرلاند»...

أُبلغت ابنة أخت السيدة «فيونا كوجنز» الأرملة التي تعيش وحدها بالقرب من طريق «سميث» في غرب «كمبرلاند»، عن غيابها هذا الصباح.

السيدة «هيرسي» أخبرت الشرطة أن خالتها كانت مريضة في ظروف حرجة. بدأ شرطيو البلدة في التقصي، لكن حتى هذه اللحظة، من المستحيل أن...

27 فبراير 1976 (ص.6)

«فالموث»...

«جون فارينجتون» مزارع مُسن من سكان «فالموث» القدامى، وجده زوج ابنته «فرانك فيكري» ميتًا في حظيرته صباح اليوم. قال السيد «فيكري» إن حماه كان مستلقيًا على وجهه جوار جزازة العشب مُمسكًا بشوكة تقليب القش في يده.

أعرب «ديفيد رايس»، طبيب المقاطعة الشرعي، أن الرجل توفي جراء نزيف شديد أو نزف داخلي...

20 مايو 1976 (ص.17)

«بورتلاند»...

أمرَ المسؤولون عن الصيد في مقاطعة «كمبرلاند» بالبحث عن قطيع كلاب مسعور يجوب مناطق: «أورسالم»- «كمبرلاند»- «فالموث».

خلال الشهر الماضي، تعرضت العديد من الخراف لهجمات مزقت أعناقهم وأخرجت أحشاءهم، وفي بعض الأحيان كانت الخراف خالية تمامًا من أحشائها.

أعرب المسؤول عن الصيد أن الوضع يتدهور في جنوب «مَين» مؤخرًا...

29 مايو 1976 (ص.1)

«أورسالم»...

ثمة شكوك تحوم وراء اختفاء عائلة «دانيال هولواي»، والذين قد انتقلوا مؤخرًا إلى منزل على طريق «تاجرت ستريم». اتصل والد «دانيال هولواي» بالشرطة بعد محاولاته العديدة للاتصال بابنه دون رد.

كانت عائلة «دانيال هولواي» قد انتقلت إلى طريق «تاجارت ستريم» في بداية شهر أبريل، وقد كانوا يشكون لأقاربهم وأصدقائهم أصواتًا غريبة في المنزل بعد الظلام.

بلدة «أورسالم» صارت مركز أحداث غريبة خلال الأشهر الماضية، والكثير من العائلات قد...

4 يونيو 1976 (ص.2)

«كمبرلاند»...

السيدة «إيلان تريمونت» -القاطنة في منزل صغير في قرية تابعة لـ «كمبرلاند»- وصلت مستشفى المُقاطعة هذا الصباح وهي تعاني أزمة قلبية. أخبرت مراسل جريدتنا أنها قد سمعت صوت خدوش على نافذة حجرة نومها في أثناء مشاهدتها التلفاز. نظرت لتجد وجهًا يطل عليها من الناحية الأخرى.

«كان يبتسم ابتسامة مريعة. هذا هو أكثر موقف مريع مر بي في حياتي. ومنذ قُتِلت تلك العائلة التي كانت تسكن على طريق «تاجرت ستريم» وأنا مرتعبة طيلة الوقت».

السيدة «تيرمونت» كانت تُشير إلى عائلة «دانيال هولواي»، الذين قد اختفوا من منزلهم في بلدة «أورسالم» في وقت ما من الأسبوع الماضي. قالت الشرطة إنهم يتحرون الصلة بين...

***

وصل الرجل الطويل والصبي «بورتلاند» في منتصف سبتمبر، وأقاما في نُزُل محلي لمدة ثلاثة أسابيع. كانا قد تعوَّدا على الحر، فبعد حرارة وجفاف «لوس ثاباتوس» وجدا أن الرطوبة هنا مُنعشة.

سبحا في حمام سباحة النُّزُل كثيرًا، وتأملا السماء كثيرًا.

واظب الرجل الطويل على شراء جريدة «بورتلاند بريس» يوميًّا، لكن هذه المرة كانت النسخ جديدة، غير مُبقعة ببول الكلاب.

كان يقرأ فيها نشرات الطقس، ويبحث عن أي أخبار تخص بلدة «أورسالم».

في اليوم التاسع من إقامتهما في «بورتلاند»، اختفى رجل في «فالموث»، وقد وجدوا كلبه ميتًا أمام منزله، وما زالت الشرطة تبحث في الحادث...

استيقظ الرجل الطويل مُبكرًا يوم السادس من أكتوبر، ووقف في ساحة النُزل. أغلب السائحين قد رحلوا الآن عائدين إلى «نيويورك» أو «نيوجيرسي» أو «فلوريدا»، أو... أو...

يترك السائحون مخلفاتهم ودولاراتهم الصيفية، ويتركون المحليين ليستمتعوا بأفضل أوقات السنة في ولايتهم.

كان هناك شيء جديد في الهواء هذا الصباح. رائحة العوادم من الطريق السريع كانت خفيفة، ولم تكن هناك غيوم عند الأفق، ولا ضباب يطفو بالقرب من سطح الأرض ويحلق فوق الحقول على الطريق. سماء الصباح صافية للغاية، والهواء منعش. لقد رحل الصيف الهندي بين عشية وضحاها.

خرج الصبي ووقف جواره، فقال الرجل:

- اليوم.

***

عند الظهيرة وصلا مدخل «أورسالم»، وتذكر «بِن» اليوم الذي جاء فيه إلى البلدة من قبل، عازمًا على مواجهة أشباح الماضي، واثقًا من نجاحه.

لكن ذاك اليوم كان أكثر دفئًا من هذا، وكان الصيف الهندي في بدايته. تذكَّر صبيَّين يحملان سنارتيهما. السماء اليوم أقسى وأكثر برودة.

في المذياع، يذكرون أن احتمالية حرائق الغابات عالية، فلم تكن هناك أمطار تُذكَر في جنوب «مِين» منذ بداية سبتمبر. حذَّروا كذلك من إلقاء أعقاب السجائر، ثم أذاعوا أغنية عن رجل سيقفز من فوق خزان المياه لأجل الحب.

قاد «بِن» سيارته عبر طريق رقم 12 قاصدًا شارع «جوينتر»، وجد إشارة الشارع الضوئية غير مُضاءة. لا داعي للتحذيرات الضوئية الآن.

حين وصلا قلب المدينة، أبطأ «بِن» السيارة، وعاد إليه شعور الرعب القديم، كمعطف وجده في العليَّة، وقد ضاق عليه، لكن ما زال يلائمه.

جلس «مارك» مُتخشبًا جواره، ممسكًا بقنينة ماء مقدس جلباها معهما من «لوس ثاباتوس». الأب «كراجون» أهداها لهما كهدية فراق.

مع الخوف، جاءت الذكريات المُحطِّمة للقلوب.

كان متجر «سبنسر» قد تحول إلى متجر «لافيرديرز»، لكن لم يكن حاله أسوأ من سابقه، وسرعان ما عُلِّق على نوافذه القذرة المُتربة لافتة (مُغلق).

لافتة أخرى مائلة على مقهى «إكسلنت» تحمل كلمة (للبيع)، وقد (خلا) المكان من كل مُعِدَّاته. عند نهاية الشارع، ما زالت لافتة متجر («بارلو» و«ستراكر» للأثاث...) لكن حروفها قد بهتت، وأُزيلت المعروضات. تساءل «بِن» إن كان «مايك ريرسون» ما يزال مُمددًا في الصندوق الخشبي بالداخل. الفكرة نفسها جففت لُعابه.

عند تقاطع الطريق، استطاع أن يرى منزل «نورتون». العشب قد نما عاليًا مُصفرًّا في ساحتيه الخلفية والأمامية وقد غطت مشواة السيد «نورتون»، بل إن بعض النوافذ كانت مكسورة.

في نهاية الطريق، أوقف السيارة جوار المُتنزه، الذي صار دغلًا، يعلو مِسبَحه طبقة من الطحالب والنباتات المائية. طلاء المقاعد الأخضر جفَّ وتقشَّر، سلاسل الأرجوحات أصابها الصدأ، وأي حركة ستجعلها تُصدر أصوات صرير تقتل أي رغبة في اعتلائها. الزلَّاقة البلاستيكية قد سقطت على جانبها، وأرجلها تشير إلى الجانب، تشبه ظبيًا ميتًا. دمية قماشية مُلقاة على الأرض، تنعكس في

عينيها المصنوعتين من الأزرار نظرة رعب سوداوية، كأنها رأت كل أسرار البلدة طيلة بقائها هنا وسط الرمال... ربما كانت هذه هي الحقيقة.

ثم نظر إلى الأعلى، نحو منزل «مارستِن». نوافذه مُوصدة، يُطل عليهم في لؤم وحقد. لا خطر منه الآن، لكن ماذا قد يحدث بعد الظلام؟

ربما ستغسل الأمطار الخبز المقدس الذي أغلقه به «كالاهان»، ومن ثَم يمكن أن يعود كما كان؛ منارة للشر تُشرف على هذه البلدة الميتة.

هل يتقابل مصاصو الدماء هناك؟ هل يجولون في طرقاته شاحبين، يُقدمون القرابين إلى الشيطان الأكبر خالق صانعهم؟

أبعد نظره عنه، شاعرًا بالبرد.

كان «مارك» ينظر إلى المنازل كذلك، أغلبها مُسدل الستائر، أما تلك ذات النوافذ المفتوحة، فقد كان منظر الحجرات الخالية المُتبدي منها أكثر قسوة وتأثيرًا على النفس.

قال «مارك» في عصبية:

- هم في المنازل. خلف الستائر، وداخل الخزانات والأقبية، وتحت ألواح الأرضيات... يختبئون.

- هوِّن عليك.

تركا البلدة خلفهما، واتجها نحو منزل «مارستِن»، الذي كان كما هو؛ نوافذه مكسورة، الحشائش تنمو حوله إلى ارتفاع الرُّكبتين.

لكنهما توقفا عند طريق الغابة، ودخلاها. قال «بِن» وهو يومئ تجاه أبراج الكهرباء:

- يقول العجائز إن ها هنا بدأ حريق عام 1951. الرياح كانت تهب من الغرب. كانوا يظنون أن أحدهم ألقى عقب سيجارة... عقب سيجارة واحد فاجتاحت النيران المكان وصولًا للمستنقعات، ولم يستطع أحد أن يوقفها.

أخرج علبة سجائر «بول مول» من جيبه، ونظر إلى الشعار عليها المكتوب باللاتينية؛ (هذه العلامة سوف تغزو العالم). مزق الغلاف الشفاف عند أعلاها ثم أخرج واحدة وأشعلها. لدهشته، كانت ممتازة، على الرغم من أنه لم يُدخن منذ شهور.

قال «بِن»:

- هم لديهم بيوتهم، لكنهم قد يفقدونها. يُقتَل منهم الكثير، أو يُدمَّرون... هذا تعبير أدق. لكن بعضهم قد ينجو. هل تفهم؟

- أجل.

- هم ليسوا أذكياء. لو أنهم فقدوا أماكن اختبائهم، لن يجدوا أماكن بنفس الجودة، وربما يغامرون بالاختباء في مواضع يسهل كشفها. ربما ينتهي الأمر بقدوم الشتاء، وربما لا... دون شيء يُخرجهم من جحورهم ويُغضبهم، لن يكون لدينا فرصة على الإطلاق.

- أفهم.

- ما سنفعله قبيح خطر.

- أعرف هذا.

- لكنهم يقولون إن النار مُطهِّرة. علينا أن نعود...

طوَّح بالسيجارة المُشتعلة نحو كومة أعشاب جافة، فتصاعد شريط أبيض من الدخان على خلفية من النباتات الخضراء. ثم راحت دائرة الاحتراق تتسع.

ظلا يرمقان الدخان، مذهولَين، مأخوذَين...

زادت كثافة الدخان، ثم اندلع من قلبه لسان نار. قال «بِن» بهدوء:

- الليلة لن يتوغلوا في القرى أو يزوروا المزارع. الليلة سيهربون، وغدًا...

- أنا وأنت...

كوَّر «مارك» قبضته، ولم يعد وجهه شاحبًا، بل أضاء بالحيوية ولمعت عيناه.

عادا إلى الطريق، وابتعدا بالسيارة. ومن خلف أبراج الكهرباء، بدأ الحريق يتوهج ويستعر، تنشره رياح الخريف التي تهب من الغرب.

أكتوبر 1972

يونيو 1975

شكر وتقدير

لا يكتب أحد رواية طويلة منفردًا، لذا أود أن أقتطع من وقتك لأشكر من ساعدني في هذه الرواية.

ج. إيفيرت ماكُوتشُن من أكاديمية هامبدِن، لأجل اقتراحاته البناءة وتشجيعه لي.

دكتور جون بيرسون، من أولد تاون، ولاية «مَين»، وهو الطبيب الشرعي لمقاطعة بينوبسكُت، وواحد من أبطال التخصص المميز للغاية؛ الممارسة العامة.

الأب رينالد هالي من الكنيسة الكاثوليكية في بانجور، بولاية «مَين». وبالطبع زوجتي ذات الحاسة النقدية القاسية الصارمة كعادتها.

على الرغم من أن المُدن المحيطة ببلدة سالم حقيقية، فبلدة سالم نفسها من وحي خيال الكاتب كُليةً، والتشابه بين ساكنيها والسُكَّان في الواقع هو محض مصادفة غير مقصودة.

ستيڤن كِينج

شُكر المترجمة

للمُترجم والرسَّام إسلام عماد، وللقط توتي.

لولاكُما ما كان لي شرف الترجمة لكاتبٍ أعدُّه الأفضل على الإطلاق.

للصديقة الرائعة، دكتور ماريًّا ألفي.

ساعدتِني كثيرًا، أكثر مما تتخيلين.

للدكتور أحمد خالد توفيق.

قدَّمت كتاباتك وترجماتك عوالم ستيڤن كِينج الغنية للقارئ العربي. فلك كل الشكر والتقدير. رحمك الله وجعل ما علمتنا إياه في ميزان حسناتك.